الحياة السياسية في العراق

في العصر العباسي الاخير

٥١٢هـ - ٦٥٦هـ

الدكتور

محمد صالح داود القزاز

مدرس التاريخ الاسلامي

كلية الآداب / جامعة بغداد

ساعدت جامعة بغداد على نشره

مطبعة القضاء - النجف - تلفون ٣٧٤٨

١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

الاهداء

أي ولدي ماجد :

لقد تركتني في حيرة من أمري ، لا أعلم ان كنت انت صاحب الفضل فيما أتقدم به للناس الآن من جهد ورأي ، أم ان والدتك أحق به .

أمك التي فجعت بفقدك فجأة وهي في غربتها وحيدة ، فتجلدت ولم تسمح للحزن أن يغلب على نفسها بل تحزمت له بحزام من الايمان والصبر ، مفضلة أن تحمل وحدها عبء فقدانك لتوفر لي شيئاً من الراحة والهدوء كي يخف عني وقع فقدك ، ولكي أتم ما تغربت لاجله .

ولقد وفقني الله ، وله المنة والفضل ، فأكملت هذا البحث ، ولكني دفعت بك ثمناً غالياً ما كنت لارضى به لو خيرت ، ولكن لا يعلم الغيب إلا الله .

لقد كانت إقامتك معنا قصيرة يا بني ، لم تجاوز الخمسة عشر شهراً إلا باسبوعين كنت خلالها نعم السلوة لنا ، وخاصة في اشهرك الاخيرة .

ولقد بقيت بعدك يا بني ليال عديدة ، وبينما أنا مستغرق وراء مكتبي في قراءة نص او مناقشة رأي ، وأنا قلق الفكر شارد الذهن لا أستطيع التركيز في البحث ، اذ يشدني الحنين اليك ، وتطيب نفسي لهذا الخيال ، فأتصور وجودك وأنا الذي واريتك بيدي في (المجاورين) من ارض الكنانة . وأتسمع الى حفيف ثيابك وانت تحبو على الارض ، وانت تتسلق على الباب ، وانت تنادي لافتح لك . ولا تستغرب يا بني ، فقد قمت مرتين او اكثر لافتح لك ، فلا اجد سوى خيالي ممتداً في باحة الدار ، وسوى اشباح تتراقص أمام عيني الذابلتين من الدموع والكرى ، ولم يكن يخلصني من واهمة وجودك سوى الاسراع الى تلاوة شيء من آيات الله . فترتاح نفسي ويطمئن قلبي .

غفر الله لك يا بني . فقد كان فقدك امتحاناً لايماننا بالله .

وجزاها الله خيراً لصبرها وإيمانها . فلك ولها أهدي هذا .

وإنا لله وإنا اليه راجعون .

أبوك

كلمة الأستاذ المشرف :

بسم الله الرحمن الرحيم

في التاريخ فترات كثيرة يلفها الظلام ويكتنفها الغموض ويشوبها الاضطراب ، فلا نسمع فيها إلا صوت الفتنة والثورة ولا تقرأ إلا اخبار الحرب والدم المراق .

والفترة الاخيرة من تاريخ العصر العباسي في العراق من هذه الفترات الحالكات في التاريخ الاسلامي ، تداعى فيها نظام الخلافة الذي بهر الناس وظهر المغول منحدرين من الشرق يحملون سيف البطش والارهاب ثم حاصروا بغداد ودخلوها وارتبط سقوط عاصمة الخلافة بقصص دام ومآس مثيرة للشجن .

كانت في الحقيقة فترة ينفر منها اغلب الباحثين لما تحتاجه كتابة تاريخها من جلد ومثابرة وتنقيب في المتون واطلاع على مصادر كثيرة بين مخطوطة ومطبوعة عربية او فارسية .

ثم جاء الزميل الدكتور محمد صالح داود القزاز ، مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب جامعة بغداد ، الى جامعة القاهرة في طلب العلم وتقدم لدرجة الماجستير في التاريخ الاسلامي من كلية الآداب جامعة القاهرة . وكان لي شرف التقاطه من بين مجموعة كبيرة من الراغبين فى الدرس . ووجدت فيه ذلك الطراز الفريد من الطلاب الذين يكتسبون ثقة الاساتذة ويسترعون انتباههم ، من رغبة جادة في العلم وعزيمة قوية تقهر الصعاب ومثابرة وقدرة على العمل . فاخترت له هذا الموضوع الشائك من

انظر ص (٤) فيما بعد ←

الفارسية التي اعتمدت عليها في بحث علاقة السلاجقة بالخلافة ، اما جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله فقد اعتمدت عليه في بحث موقف الخلافة من الغزو المغولي وخاصة الرسائل المتبادلة بينهما .

اما المراجع الافرنجية ، فقد استفدت خاصة من بارتولد في كتابه عن تركستان في الغزو المغولي . كما استفدت من مؤلف براون في تأريخه للآداب الفارسية ، هذا فضلاً عن العديد من المقالات التي حوتها دائرة المعارف الاسلامية .

ولم أغفل الاعتماد على كتب السكة لضبط بعض التواريخ او تحقيق بعض الالقاب كما استفدت ايضاً من كتاب جامع النقوش العربية في ضبط العديد من الاسماء والتواريخ.

ولم أستعن بالمراجع الحديثة عربية كانت أم افرنجية إلا عند الاستئناس بآراء اصحابها

اما ما اشتمله هذا البحث من فصول وابواب فقد أشرت في خاتمته الى انني قد قسمته الى خمسة ابواب ، عرضت لكل منها ما يقتضي عرضه .

وأخيراً ، فاذا كان لي ما اقوله ، فحسبي انني أسهمت بجهد ضئيل في دراسة هذه الفترة الغامضة من تاريخنا .

وانني لقيت خلال ذلك كل عون وتشجيع من كافة الاساتذة الذين جمعني البحث واياهم على مائدة واحدة .

وأذكر خاصة من هؤلاء اخي الكبير واستاذي الدكتور حسن احمد محمود الذي تفضل بالاشراف على اعداد هذا البحث وتحمل في سبيل ذلك الكثير من المشاق .

على انني اقول ايضاً بشيء من الاعتزاز ان هذا البحث عند تمامه لقي كل تقدير من كافة الاساتذة الذين تصدوا لمناقشته وتقييمه في جامعة القاهرة .

اما هنا في بغداد فلعل في تزكية استاذنا الدكتور جعفر خصباك لهذا البحث خير تقدير لقيمته العلمية والثقافية ، فقد جاء في تقريره عنه الذي قدمه الى لجنة تعضيد النشر

انظر ص (٦) فيما بعد .
(ا ح ز)

في جامعة بغداد قوله : « فان المؤلف نجح في إلقاء ضوء مفيد على احوال العراق في اواخر الدولة العباسية حتى يمكن اعتبار بحثه من خيرة اطروحات الماجستير من حيث الاصالة والمنهاج العلمي واسلوب العرض » .

وفي الختام فانه لا يسعني وقد قُيض لهذا البحث أن يرى النور وان تتداوله الايدي ، وان تتناوله الالسنة بالمدح او القدح . لا يسعني إلا ان اشيد بالجهود الطيبة التي بذلها كافة الاخوة الذين ساهموا بنصيب في ذلك . أخص بالذكر منهم اسرة مطبعة القضاء إدارة وعمالاً . فانني اعتبرهم اصحاب فضل في ذلك .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لخير العلم وخدمة تراثنا العربي والاسلامي وخير هذه الامة وهو ولي التوفيق .

الاربعاء ٢٢ رمضان ١٣٩١ ﻫ

١٠ / تشرين الثاني / نوفمبر - ١٩٧١

الدكتور

محمد صالح داود القزاز

الباب الاول

انتعاش الخلافة أواخر العصر السلجوقى

أولا : ـ الخلافة تناضل من أجـل البقاء ٢٣٢ هـ ـ ٥١٢

ثانياً ـ : ـ نهضة الخلافة ٥١٢ هـ ـ ٥٥٥

أولا : الخلافة تناضل من أجل البقاء
٢٣٢ - ٥١٢ هـ

تشغل احداث سنة ٥١٢ هـ وهي السنة التي تولى فيها المسترشد الخلافة مكاناً بارزاً في تاريخ الخلافة العباسية الاخير . فقد كانت حوادث هذه السنة حداً فاصلاً بين استسلام الخلافة للحكم الدخيل الذي سيطر عليها طيلة ثلاثة قرون اوتزيد ، وبين الصحوة التي انعشت الخلافة فاستردت حريتها واستعادت مكانتها القديمة . ولا يمكن أن نفهم احداث هذه السنة وما تلاها فهماً صحيحاً ، ولا يمكن ان نتبين قيمة هذا التطور الذي اصاب الخلافة إلا إذا عرضنا في ايجاز لما حدث قبلها وبينا كيف ضعفت الخلافة وسلبت سلطانها و كيف ظلت تناضل من اجل البقاء حتى توج نضالها بالنصر .

واعتقد ان الفترة التي انتهت بوفاة المعتصم (١) يمكن اعتبارها بداية لهذا الضعف لان العناصر التي استعانت بها الخلافة للسيطرة على الامور (٢) اخذت تتدخل في شئون الخلافة مستغلة ضعف المرشحين لها وانقسامهم على انفسهم واستعانة بعضهم بقواد الجيش على بعض ، فاستهانوا بالخلفاء وتجرأوا عليهم حتى غلبوا على الامور (٣) .

وقد بلغ من استبداد هؤلاء الاتراك بالخلافة ذروته في فترة التسع سنوات ٢٤٧

(١) المعتصم بالله ابو اسحاق محمد بن الرشيد تولى الخلافة في رجب ٢١٨ هـ حتى ربيع الاول ٢٢٧ هـ .

(٢) استعان المعتصم بالاتراك كعنصر جديد يضرب به العرب والفرس .

(٣) اليعقوبي - التاريخ ج ٣ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

- ٢٥٦هـ اذ لم يسلم من ايديهم واحد من خلفائها (١) .

وقد ساعدهم على ذلك جماعة من الموظفين (٢) الذين وجـــدوا في جهل هؤلاء المتحكمين وطمعهم مجالاً للكسب والاستغلال وظل الامر على ذلك حتى ظهر البويهيون وانتزعوا السلطة من الاتراك .

واذا كان بعض الخلفاء قد استطاعوا في عهد نفوذ الاتراك ان يستعيدوا حريتهم مستغلين اختلاف مصالح زعمائهم وتنوع قومياتهم وتعدد عصبياتهم (٣) فان الامر مع البويهيين كان اكثر اختلافاً .

فالبويهيون كانوا من أصل واحد ليس بينهم غريب او مغامر ، فضلاً عن أن شعوراً دينياً مذهبياً كان يجمعهم ويوحد نظرتهم الى الخلافة العباسية ولم تكن هـذه النظرة تقوم على احترام الخلافة والاعتزاز بها (٤) .

---

(١) وقد تولى فيها اربعة خلفاء هم : المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي .

(٢) اشتهر منهم بعض الاسر التي تولت الوزارة كآل الفرات وآل الجراح وغيرهم

(٣) لقد كان اغلب الامراء الذين سيطروا على الخلافة من القواد الاتراك . إلا ان انقسام هؤلاء على انفسهم وعدم وجود رابطة حقيقية تجمعهم سوى الطمع في الوصول الى السلطة ، ومقاومة الخلفاء لهم وتشجيعهم القواد الآخرين على ضرب بعضهم البعض كل ذلك فسح المجال امام المغامرين ممن يملكون القوة على الدخول في هذا الصراع طمعاً بالامارة وهكذا فتح الباب أمام بعض الامراء العرب مثل بني حمدان ، وكذلك بعض قواد الجيش من الفرس مثل توزون وكورنكين وغيرهم بالوصول الى منصب الامارة .

(٤) كان البويهيون من الشيعة الزيدية الذين يرون احقية العلويين بالخلافة من العباسيين الذين اغتصبوها وقد كان معز الدولة يخضع لهذا التوجيه المذهبي ويعمل به ولكنه شعر ان مصلحته كحاكم سوف تتهدد بخطر الزوال ، ففضل أن يكون مع خليفة لا يؤمن بشرعية خلافته فيعبث به بدلا من خليفة تفترض طاعته وأعتقد ان -

انما كانوا اكثر رغبة في الاستبداد بها واكثر استهانة من سابقيهم ، فلم يكد يمضي على دخول معز الدولة البويهي بغداد (١) واستقبال الخليفة له وخلعه عليه وتلقيبه سوى عشرة ايام حتى انقلب على الخليفة وخلعه بطريقة تدل على مدى استهتاره بالخلافة (٢) .

ولم يكن حال المطيع وهو الخليفة الذي اختاره معز الدولة بعد خلعه المستكفي بأحسن من سابقة(٣) فقد سجنه الاميرالبويهي عندما تعرضت بغداد لبعض الاضطرابات فلما زالت اطلق سراحه وأخذ عليه الايمان بالاخلاص له(٤) وحدث مثل هذا مع الطائع لله ابن المطيع . فقد طمع الامير البويهي بهاء الدولة في ماله على قلة ما يملك . وأرسل اليه يستأذنه ليجدد العهد له فدخل عليه الديالمة وهم يتظاهرون بتقبيل يده فجذبوه من مجلسه وهو يستغيث وأخذوه الى مكان خلع فيه نفسه من الخلافة بعد ان سملت عيناه وقطعت أذناه (٥) وعندما دخل السلاجقة بغداد تحسن مركز الخلافة نسبياً واستعاد

ـ البويهيين كانوا كغيرهم من المتغلبين طلاب سلطة وحكم ولم تكن تهمهم الامور الدينية إلا بقدر ما يؤدي الى تثبيت سلطانهم .

(١) مسكويه تجارب الامم ج ٦ ص٨٥ وقد دخل معزالدولة بغداد يوم السبت ١١ جمادى الآخرة ٣٣٤ هـ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٨٧ ، ابن العبري ـ مختص الدولة ص ٢٩١ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ١٠٥ - ١٠٦ ، ابن الجوزي ج ٦ ـ المنتظم ص ٣٥٠ .

(٥) ابو شجاع ـ ذيل تجارب الامم ص ٢٠١ . ابن الجوزي ج ٧ ص ١٥٦ ، ابوالفداء ـ المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ١٣٤ . ابن شاكر فوات الوفيات ج ٢ ص ٣ ابن الاثيرالحلبي عبرة اولي الابصار ـ مخطوط الورقة ٨٩ ويعلل ابن الفارقي ج ١ ص ٦٢ ـ ٦٣ سبب الخلع بأن الطائع لم يحضرلتعزية بهاء الدولة عندما توفى ولده وكان قدحضر عند الامراء الذين سبقوه فحقد عليه ومثل به بعد الخلع .

تاريخ العراق ، المظلمة من تاريخ الاسلام . وكان لي شرف الاشراف على بحثه هذا وموضوعه (الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير) .

وتفرغ للموضوع لم يترك مصدراً إلا واعتمد عليه ولا خافية إلا وتصدى لها في مثابرة وجلد فريدين .

ثم حصل على درجة الماجستير بتقدير ممتاز من كلية الآداب جامعة القاهرة في موضوعه الذي أشرت اليه .

وقد قسم البحث الى ابواب خمسة تحـــدث في الباب الاول عن انتعاش الخلافة اواخر العصر السلجوقي وفي الباب الثاني عن الخلافة ونظام الحكم وفي الباب الثالث عن الخلافة وسياستها الداخلية وفي الباب الرابع عن العلاقات الخارجية للخلافة وفي الباب الخامس عن زوال الخلافة العباسية من بغداد .

ويسرني الآن أن أقدم هـذا البحث مطبوعاً الى قراء العربية والى المشتغلين بالتاريخ الاسلامي كثمرة من ثمرات الاخلاص في العمل والفناء فيه .

وقد حاز اعجاب الممتحنين لما توافر فيه من غزارة الاطـلاع وامتلاك ناصية الاحداث وغوص وراء الحقيقة وقدرة على الاستنباط والاستكناه ومقابلة بين الآراء واسلوب تاريخي ممتاز .

وأرجو أن يحوز اعجاب القراء العابرين والمتخصصين وان يشد انتباههم كما شد انتباهنا وأن يحوز اعجابهم كما حاز اعجابنا والله ولي التوفيق .

الكويت في مايس ١٩٧١

الدكتور أحمد حسن محمود

أستاذ التاريخ الاسلامي

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

والكويت

١ نظر ص (١٤٦) فما بعد .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

(مقدمة المؤلف)

كان الغزو المغولي للعراق وسقوط بغداد في ايديهم سنة ٦٥٦ هـ حداً فاصلاً بين عهدين في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، عهد سابق يمثل خلاصة ما وصل اليه الفكر الاسلامي من رقي في مختلف نواحي الحياة العلمية والفنية والاجتماعية والاقتصادية .

وعهد لاحق شهد زوال الخلافة من بغداد وانحلال الرباط الروحي الذي جمع شمل الامة الاسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين ، وشهد نكسة هذه الحضارة .

ولم تكن احداث سنة ٦٥٦ هـ وما أعقبها مفاجئة ، انما كانت ذات جذور موغلة في اعماق الماضي . وكانت مظاهر الضعف والتفكك والانحلال تنخر في جسم الامة لتقودها الى مثل هذا المصير .

لذا كان لابد من دراسة القرن الاخير من عمر الخلافة العباسية ببغداد لتقصي مظاهر هذا الضعف وأسبابه وكيف قاد الى هذه النهاية المحتومة .

وثمة أمر آخر دفعني الى تقصي اخبار هذا القرن الاخير ، وهو غموض اخباره وندرتها وعدم وضوح صورته وضوحاً كاملاً .

فالمؤرخون يركزون على النكبة ومظاهرها وآثارها ، ويمرون بأخبار هذه الفترة مروراً سريعاً لا يشفي غلة ، فقد زال النفوذ السلجوقي من العراق وتنفست الخلافة

الصعداء وعاشت فترة يطلق عليها المؤرخون اسم (الصحوة الاخيرة) .

فمظاهر هذه الصحوة ، وأوضاع الخلافة العباسية بصفة عامة والعراق بصفة خاصة كانت تغري بالبحث والدراسة .

وكانت هذه الفترة تستهويني بصورة خاصة لانها بحاجة الى مزيد من الدراسة والتوضيح ، لذلك استقر الرأي على أن يكون موضوعي لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي هو (الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ٥١٢ هـ - ٦٥٦ هـ).

وعندما أقدمت على الدراسة لم اكن اجهل ان البحث في مثل هذا الموضوع شاق وان المراجع قد تكون قليلة ونادرة .

وعلى كل حال ، فقد اعتمدت على المراجع المعاصرة قدر الامكان فجمعت كل ما تعرض لي منها مطبوعة كانت او مخطوطة ، ثم لجأت الى المراجع الاخرى التي عاش مؤلفوها في زمن قريب من الفترة التي نعرض لها . وأخذت بالرأي المعاصر عند تحديد الوقائع التاريخية باعتباره اكثر التصاقاً بالاحداث ، كما فضلت الرأي المعاصر الذي يعيش الاحداث نفسها على الآراء المعاصرة الاخرى التي كانت بعيدة عن ميدان الحدث التاريخي ولم أستغن عن المراجع المتأخرة التي لخص مؤلفوها او نقلوا عن مراجع معاصرة .

ولعل في طليعة المصادر التي ينبغي هنا ان أذكرها بصفة خاصة كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير الذي اعتمدت عليه في اكثر من موضع من هذا البحث . وتبدو أهميته في انه عاصر اكثر من ستين سنة من احداث الفترة التي نعرض لها بالدراسة ، تنقل خلالها في مختلف ديار الاسلام وسجل بعض احداثها عن قرب ، بالاضافة الى اعتماده على الكثير من المؤلفات المفقود بعضها الآن .

وبجانب ابن الاثير ، هناك مؤلفات اخرى ليست في شموله وان كانت لا تقل عنه أهمية في توضيح كثير من الاحداث التاريخية في هذه الفترة .

ويأتي منتظم ابن الجوزي في مقدمتها اذ انه يكاد يكون سجلاً شهرياً لاحداث الخلافة في بغداد خاصة ، وأفدت منه كثيراً عند بحث صراع الخلفاء مع السلاجقة .

وتحتل مؤلفات العماد الاصبهاني مكاناً بارزاً في دراسة هذه الفترة وخاصة مؤلفه عن السلاجقة الذي اختصره البنداري ، او ما نقله عنه ابوشامة في كتابه الروضتين الذي يعتبر سجلاً مفصلاً لحكم نوري الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي .

ومما يؤسف له اننا فقدنا معظم مؤلف ابن الساعي الموسوم بالجامع المختصر ، فليس بين أيدينا منه سوى الجزء التاسع فقط ، والذي لا يقل أهمية في دراسة احوال الخلافة الادارية خاصة عن منتظم ابن الجوزي .

ويكمل ابن الفوطي في كتاب الحوادث الجامعة (المختلف في نسبته اليه) التسلسل التاريخي للأحداث الذي انقطع بوفاة ابن الاثير . اما من حيث المادة العلمية فيكاد يكون صورة توضيحية لكتاب شيخه ابن الساعي في جامعه المختصر ، اذ اقتصر ابن الفوطي على بحث الاحوال الادارية والتنظيمية للخلافة حتى سقوطها حيث يعرض بعد ذلك لاخبار الحكم الايلخاني في العراق .

واقتصر سبط ابن الجوزي في مؤلفه مرآة الزمان على التأريخ للايوبيين وكذلك فعل ابن واصل في مؤلفه مفرج الكروب في تاريخ بني ايوب .

اما النسوي شهاب الدين احمد فقد اقتصر في مؤلفه سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي على التأريخ للخوارزميين وخاصة السلطان المذكور .

ويعتبر مخطوط الذهبي (تاريخ الاسلام ومشاهير الاعلام) ومخطوط العيني (عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان) من اهم المخطوطات التي اعتمدت عليها لاعتمادهما على كثير من المؤلفات المعاصرة المفقودة .

ويكاد كتاب الراوندي (راحة الصدور وآية السرور) من أهم المؤلفات

انظر (٧) فيما يلي

الخلفاء بعض الاحترام في الظاهر ولعل نظره السلاجقة الى الخلافة وشعورهم بقدسيتها فرض عليهم التأدب في حضرة الخلفاء ولكن ذلك لم يعن ان الخلافة استعادت مكانتها اللائقة او ان الخلفاء استردوا حريتهم في العمل . فقد كان عليهم ان يكونوا مطيعين للسلاجقة سامعين لكلام سلاطينهم منفذين لاوامر وكلائهم في بغداد ما داموا قد كفوهم شر الحكم وتولوا عنهم عبء السلطان (١) .

كيف سلب هؤلاء المتغلبون الخلافة سلطانها ؟
وكيف ناضل الخلفاء من أجل البقاء ؟

ومن الوسائل التي لجأ اليها هؤلاء المتغلبون لتثبيت سلطانهم تجريد الخلفاء من كل سلطة والتحكم في الوزارة والكتابة والسيطرة على كافة دوادين الدولة .

فالخليفة الراضي وقد شعر بأنه عاجز عن تدبير امور الدولة ، لم يجد بداً من استدعاء ابن رائق امير واسط لكي يتولى تدبير امور البلاد نيابة عنه ، وبعث اليه بالخلع والهدايا فتوجه الى بغداد وتسلم الامور فيها وبث خلفاءه واعوانه لتنظيم الامور وفرض سيطرته الكاملة على وظائف الدولة (٢) حتى اصبح الوضع كما يقول ابن الاثير (٣) : « بطلت الدواوين من ذلك الوقت وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير

(١) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ لاحظ رسالة السلطان سنجر الى ابن اخيه السلطان محمود .

(٢) الصولي ـ تاريخ الراضي والمتقي ص ٨٥ و ٨٦ و ٩٠ وهو يشير الى ان ابن رائق دخل بغداد يوم السبت ٢٤ ذي الحجة ٣٢٤ هـ بعد ان ارسل أمامه صاحب الشرطة لاستلام البلد ، لاحظ ايضاً ابن الاثير ج ٦ ص ٢٥٤ ، ابن العبري ص ٢٨٣ ابن الطقطقي الفخري ص ٢٣٠ السيوطي تاريخ الخلفاء ص ١٥٧ .

(٣) ابن الاثير ج ٦ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

انظر ص (١٢) فيما مثل
→

منظر في شيء من الامور وانما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الامور جميعاً وكذلك كل من تولى إمرة الامراء من بعده » .

وقد نقل الصولي حديثاً عن الراضي بالله صور فيه وضع الخلافة في هذه الفترة ابلغ تصوير اذ قال (١) : « كأني بالناس يقولون ارضى هذا الخليفة بأن يدبر امره عبد تركي حتى يتحكم في المال وينفرد بالتدبير .. ولا يدرون ان هذا الامر أفسد قبلي وأدخلني فيه قوم بغير شهوتي .. » .

ولم يستطع الخليفة المتقي بالله الصبر على استيلاء الامراء على السلطة وحرمانه منها فعول على الهرب من العاصمة والالتجاء الى بعض امراء الاطراف . ولكن امراء بني حمدان الذين التجأ اليهم لم يستطيعوا تحقيق رغبته فاضطر الى التماس الصلح مع امير الامراء توزون الذي وافق على الصلح ثم غدر بالخليفة وقضى عليه (٢) .

وكان البويهيون اشد تجريداً للخليفة من سلطانه . فمعز الدولة لم يبق على الخليفة المستكفي الذي رحب به وخلع عليه إلا اياماً معدودات (٣) ثم نصب المطيع خليفة ليصبح العوبة في يده ، ان شاء اطلق سراحه وان شاء وكل به وجعل منه سجيناً (٤)

---

(١) الصولي ص ٤١ ويذكر ايضاً في حديثه انه قد وقع بين الساجية والحجرية الذين كانوا يضايقونه ليل نهار في طلب الامتيازات ... وانه هو نفسه لم يسلم من اعتداءاتهم فضلا عن عدم طاعتهم له ثم يختم حديثه بأنه كان من الاجود ان يكون الامر كله له . كما كان لمن مضى من قبله ولكن لم يجر القضاء بهذا .

(٢) الصولي ص ٢٦٧ - ٢٦٩ ، ٢٨٢ مسكويه ج ٦ ص ٤٩ ، ٦٨ - ٧٢ لاحظ الحاشية المنقوله عن كتاب العيون كما يرويها محمد الفرغاني نقلا عن ذكاء مولى الراضي .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٨٦ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٨٦ - ٨٧ و ١٠٥ - ١٠٦ ابن الجوزي ج ٦ ص ٣٤٢ و ٣٥٠ ابن العبري ص ٢٩١ .

ولم يكتف عضد الدولة بالسيطرة الفعلية على الخلافة انما ارغم الخليفة على تفويضه شئون الحكم على مشهد من الناس سنة ٣٦٩ هـ بقوله : « وقد رأيت ان افوض اليك ما وكل الله تعالى الي من امور الرعية في شرق الارض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي فتولى ذلك مستخيراً » (١) .

كما ان القادر عندما تولى الخلافة اقسم يمين الوفاء لبهاء الدولة وقلده حكم البلاد (٢) وقد استكثر البويهيون على الخليفة ان يكون له وزير بالرغم من ان الوزارة اصبحت صورة لا حياة فيها منذ زمن بعيد فاستأثروا بالوزير لانفسهم ومنحوه سلطات واسعة ومكنوه من قيادة الجيش بينما تركوا للخليفة كاتباً يدير شئونه الخاصة (٣) .

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٤١٧ - ٤١٨ حاشية منقولة عن كتاب تاريخ الاسلام ابن الجوزي ج ٧ ص ٩٩ - ١٠٠ ابو هلال الصابي رسوم دار الخلافة ص ٨٠ - ٨٥ وفيه تفصيل وافي لعملية التفويض .

(٢) ابن الجوزي ج ٧ ص ١٦١ .

(٣) ويظهر أن معز الدولة لم يجرأ اول الامر على سلب الخليفة حق الاستيزار كما لم يعلن عن رغبته في اتخاذ وزير له وانما جرت الامور بشكل فيه حياء مزيف واحترام ظاهري من قبل الامير البويهي ، واستخذاء فاضح من قبل الخليفة العباسي حتى تطورت الامور الى الصورة التي اصبحت عليها بعد مدة من الزمن . فالمستكفي كان له وزير قبل وصول البويهيين وان كان مجرداً من السلطة أمام تحكم كاتب أمير الامراء . وعندما تولى معز الدولة السلطة استكتب ابن شيرزاد بعد ان ألح في الاستئذان من المستكفي حتى أذن له . ولما تولى المطيع الخلافة اعتمد على ابن شيرزاد نفسه في تدبير الامور والاعمال بمقام الوزارة من غير تسمية بالوزارة ، واتخذ له كاتباً على خاص أمره ، وبهذه الطريقة اسقط الخليفة حقه في اتخاذ وزير مستقل لاموره . فلما اختفى ابن شيرزاد اتخذ معز الدولة كاتباً يقوم بأعماله في شئون الخراج وجباية الاموال وقد اصبح هذا الكاتب مرتبطاً بالامير البويهي بينما بقي الخليفة معتمداً على كاتبه الخاص ، وقد بقيت البلاد ـ

ويتبين لنا مدى استئثار البويهيين بالسلطة وتجريدهم الخليفة منها من كتاب بعث به الخليفة المطيع لبختيار الامير البويهي الذي طالبه بمال للخروج الى الغزو قال فيه (١) :

« الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا بيدي وإلي تدبير الاموال والرجال . واما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفائي وهي في ايديكم وايدي اصحاب الاطراف فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه ، وانما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم ، تسكنون به رعاياكم فان أحببتم ان اعتزل اعتزلت عن هذا المقدار ايضاً وتركتكم والامر كله » .

كما ينقل ابن شاكر (٢) صورة اخرى عن عجز الخلافة وحرمانها عندما يتحدث

ـ كذلك لفترة من الزمن يستكتب فيها الامير البويهي من يقوم بأعمال الوزارة من غير تسمية حتى سنة ٣٣٩ هـ عندما توفى ابو جعفر الصيمري كاتب معز الدولة فاستكتب بدله ابا محمد الحسن بن محمد المهلبي وخوطب بالاستاذية مثل ابي جعفر ولم يلقب بلقب الوزارة حتى سنة ٣٤٥ هـ حيث أمر معز الدولة بذلك ومن الملاحظ ان المرشح لذلك كان يخرج من مجلس الامير البويهي محملا بالخلع والهدانا فيذهب الى دار الخلافة في موكب رسمي لكي تجدد عليه الخلع لاحظ في ذلك المصادر التالية :

مسكويه ج ٦ ص ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٢ ابو هلال الصابي ـ اقسام ضائعة : ص ٣٦ ، ٣٥ رسوم دار الخلافة ص ٢٤ ياقوت معجم الادباء ج ١٢ ص ٢٩ ، في الحديث عن علي بن الحسن ج ١٤ ص ٢٥ ـ ٣٩ في الحديث عن ابي الحسن علي بن عبد العزيز .

(١) مسكويه ج ٦ ص ٣٠٧ .

(٢) ابن شاكر ـ فوات الوفيات ج ٢ ص ٣ .

عن الطائع لله (١) وخلعه وسمل عينيه ومبايعة القادر بالله (٢) .

ولم يكن السلاجقة أقل سيطرة على الخلافة من البويهيين بالرغم من اختلاف نظرتهم نحوها واحترامهم اياها ويظهر ان الخلفاء العباسيين في هذه الفترة قد تعودوا الاعتماد على الآخرين في تولي السلطة والرضى بحياة الخمول والحرمان التي تعودوها فلم يستغلوا نظرة السلاجقة الدينية اليهم فيعمدون الى تنظيم علاقة جديدة مع القادمين الجدد تعيد للخلافة نفوذها فالخليفة القائم بأمر الله (٣) لم يتردد في ان يفوض السلطة للسلطان طغرلبك في حفل خاص تولى فيه رئيس الرؤساء ترجمة كلامه الى السلطان . قال الخليفة : « قل له ان امير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس لقربك . وقد ولاك جميع ماولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك واجتهد في نشر العدل وكف الظلم واصلاح الرعية (٤) » .

وقد انفرد السلاجقة بمقتضى هذا التفويض بالحكم واتخذوا منه فيما بعد سبيلا للحد

---

(١) الطائع لله عبدالكريم المطيع بن المقتدر تولى الخلافة في ذي القعدة ٣٦٣ هـ وخلع في شعبان ٣٨١ هـ .

(٢) القادر بالله ابو العباس احمد ابن الامير اسحاق بن المقتدر تولى الخلافة في رمضان ٣٨١ هـ وتوفى في ذي الحجة ٤٢٢ هـ .

(٣) القائم بأمر الله ابو جعفر عبدالله بن القادر تولى الخلافة في ذي الحجة ٤٢٢ هـ وتوفى في شعبان ٤٦٧ هـ .

(٤) ابن الجوزي جـ ٨ ص ١٨٢ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٨٠ ، البنداري دولة آل سلجوق ص ١٣ ـ ١٤ ، ابوالمحاسن ـ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٣ .

من تطلع الخلفاء للسلطة (١) وعندما تولى المقتدي بالله الخلافة (٢) منح السلطان ملكشاه عند قدومه بغداد سنة ٤٧٩ ه (٣) تفويضاً من هذا النوع وقابل السلطان إنعام الخليفة بأن زاد في اقطاعه ومنحه مبلغاً من المال (٤) .

وجرد الخليفة العباسي نفسه بهذا التفويض من كل سلطان فأصبح لا عمل له إلا استقبال السلاطين عند قدومهم بغداد للزيارة والتبرك بالخلافة والحصول على ما يؤكد سلطانهم او إرسال الخلع والهدايا الى السلاطين الذين لم تسمح لهم اعباء السلطنة بالقدوم الى بغداد (٥) .

ويذكر لسترنج (٦) ان بغداد لم تعد في العهد السلجوقي قاعدة للحكم الاسلامي ، والسبب في ذلك ان سلاطين السلاجقة لم يتخذوا منها قاعدة لحكمهم كما فعل البويهيون انما تنقلوا بين مرو واصفهان وهمدان وتركوا لهم في بغـــداد نائباً يسمى بالشحنة (٧)

«١» لاحظ القيود التي فرضها السلاجقة على الخلفاء المسترشد والراشد والمقتفي في فترة النهضة .

«٢» المقتدي بالله عبدالله ابن الامير محمد الذخيرة بن القائم تولى الخلافة في شعبان ٤٦٧ ه وتوفى في محرم ٤٨٧ ه .

«٣» ابن الاثير ج ٨ ص ١٤٣ ، البنداري ص ٧٤ .

«٤» ابن الاثير ج ٨ ص ١٤٤ .

«٥» من هؤلاء السلاطين الذين لم يصلوا الى بغداد البارسلان بن داود ، الذي تولى السلطنة بعد وفاة عمه طغرلبك سنة ٤٥٥ .

(6) Lestrange : Baghdad Duringthe Abb. s l Caliphate. p. 323 .

«٧» ابن الجوزي ج ٩ ص ١٤٣ ، ١٧٥ ، ٢٠٦ ج ١٠ ص ٥ ، ١٢ ابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ الباهر في الدولة الاتابكية ص ١٣ و ٢٢ و ٢٧ و ٥٠ ابو شامة ج ١ الروضتين ص ٢٩ .

يشرف على تنظيم الادارة فيها وينقل رغبات السلاطين الى الخلفاء او يراقب الخليفة ويحصي عليه حركاته واتصالاته (١) .

وتصرف السلاجقة في البلاد تصرف من لا تهمه إلا مصلحته ، فسيطروا على الشئون المالية وعبثوا بما تعارف عليه الناس من نظام للضرائب ، وكانوا عندما تشتد بهم الازمات يفرضون ما شاؤا من الضرائب على الناس «٢» .

وقد تفرض في بعض الاحيان عند قدوم السلطان السلجوقي الى بغداد ثم تلغى بمجرد خروجه منها «٣» .

حتى الخليفة نفسه لم يكن يسلم من مضايقاتهم عندما تشتد بهم الازمات فكانوا يستولون على بعض موارده من الاموال مثل موارد دور الضرب والتركات الحشرية وامتدت مضايقاتهم الى الموتى فلم يكن يؤذن لهم بالخروج إلا برقعة من العميد لئلا تكون لهم تركات لم يتمكنوا من مصادرتها «٤» .

وبلغ من تسلطهم على الخلافة انهم كانوا يختارون للخليفة وزيره الذي لم يكن يملك من المنصب إلا اسمه ثم يعزلونه عندما يشاؤون فلايستطيع الخليفة الاعتراض «٥» .

وكثيراً ما كان الخليفة يعيش في حالة من الخوف بسبب تهديد بعض الخارجين من الامراء واعتدائهم على املاك السلطان فيفرضون على الخلافة والسلطنة مايشاؤون فكان

---

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٣٢٣ الباهر ص ٢٨ و ٣١ البنداري ص ١٦١ ، أبوشامة ج ١ ص ٣٠ .

«٢» ابن الاثير ج ٨ ص ٢٥١ ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٨٨ ، ج ١٠ ص ٦٧-٦٩

«٣» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٣٢ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤ ، ٦٨ ، ١١٩ .

«٥» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٣٤ و ٢٤٦ ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٦ ، ١٥٤ و ٢٥١ ابن الطقطقي ص ٣٥١ .

الخليفة يطلب من السلطان ان يقيم في بغداد لحماية البلاد «١» ، او يولي شحنة قوياً لرد عادية هؤلاء وكثيراً ما يدفع من ماله الخاص الى السلطان لكي يمتنع عن تولية امثال هؤلاء على العراق «٢» .

ومن الاساليب الاخرى التي لجأ اليها هؤلاء المتغلبون للسيطرة على الخلافة استيلائهم على موارد البلاد حتى اصبح الخليفة يعيش على مايجودون به فالخليفة الراضي «٣» ، بعد ان سلم الامور مكرهاً الى ابن رائق وصارت الاموال تحمل اليه كان يشكو الفقر ويتأسف على انه ليس له مال المكتفي وإلا لخرج بنفسه للدفاع عن المسلمين .

ويشير الصابي في حديثه عن علي بن عيسى «٤» ان مقدار ما خصص للراضي بعد الاقتصاد كان ثلاثة آلاف دينار في اليوم ، وبالرغم من ان هذا المبلغ كان أقل بكثير مما كان يحصل عليه الخلفاء السابقون «٥» ، فلم يكن يسلم من طمع الذين سمحوا به . وعندما تولى ناصر الدولة الحمداني الامارة ضيق على الخليفة المتقي بالله في نفقاته وعلى اهل

«١» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٢٢ و ٢٣١ ج ١٠ ص ٩ - ١١ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١١ ابن العديم - زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٤٣/٢٤٤

«٣» الصولي ص ٦٩ ، ابن الاثير ج ٦ ص ٢٥٥ ، ابن العبري ص ٢٨٣ ، ابن الطقطقي ص ٣٣٠ ، السيوطي ص ١٥٧ .

«٤» الصابي : رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .

«٥» كان مقدار ما خصص للراضي قريباً من مليون ومائة الف دينار في السنة واذا لاحظنا الميزانية التي عملها الوزير علي بن عيسى لنفقات المقتدر سنه ٣٠٦ هـ والمكونة من (١٣ مادة) لوجدنا ان مصاريف مادتين منها فقط وهي مطابخ الخلافة ومصاريف السيدة والامراء والحرم تزيد بمقدار كبير على ما خصص للراضي لاحظ رسوم الخلافة ص ٢١ - ٢٧ الجهشياري - الوزراء ص ٢٨١ - ٢٨٨ .

داره وانتزع ضياعه وضياع والدته وكان مع ذلك يطالب الخليفة بالمال كلما شغب عليه جنده «١» .

وعندما استولى البويهيون خصصوا للمستكفي قبل خلعه مبلغ خمسة آلاف درهم في اليوم ثم استكثروا هذا المبلغ على المطيع لله فخصصوا له مبلغ مائة دينار في اليوم «٢»

وعندما اعاد معز الدولة المطيع الى دار الخلافة سلب جزءاً من املاكه فلم يبق له غير مائتي الف دينار «٣» . ويظهر ان هذا المبلغ كان [illegible] ابيع الذي بلغ من يأسه انه اعلن استعداده للاعتزال عندما ضايقه الا[illegible] يطالبه بالمال . وبالرغم من ذلك فقد أكره الخليفة على بيع ملابسه وانقاض داره لكي يجيب طلب الامير «٤»

ومن دراسة المحاورة الطريفة بين الخليفة المخلوع الطائع لله والخليفة القادر وعجز الاخير عن شراء حاجة بسيطة لابن عمه الضرير واعترافه بهذا العجز نشعر ان القادر كان يعيش في وضع مالي لا يحسد عليه «٥» .

«١» الصولي ص ٢٣٥ ، ٢٣٩ .

«٢» مسكويه ج ٦ ص ٨٧ وهو يشير الى ان المبلغ هو الفي درهم في اليوم ، السيوطي ص ١٥٩ – ١٦٠ ويشير الصابي في حديثه عن عبد العزيز حاجب النعمان كاتب الخلافة قوله الى ان قدر ما كان يرتفع للمطيع هو ثلاثمائة الف دينار وللطائع قريب من ذلك ـ رسوم دار الخلافة .

«٣» مسكويه ج ٦ ص ١٠٦ – ١٠٧ .

«٤» مسكويه ج ٦ ص ٣٠٧ وقد مرت صورة الكتاب سابقاً مع العلم بأن وضع الدولة المالي كان جيداً ويشير الذهبي ـ العبر في خبر من غبر ج ٢ ص ٣٦٢ الى ان عضد الدولة كان قد عمل حساب ما يدخله في العام فكان مقداره (٣٢٠ مليون درهم)

«٥» ابن شاكر ج ٢ ص ٣ كما يشير الذهبي (العبر) ج ٣ ص ١٤٧ الى ان الخليفة القادر كان أفقر الخلفاء فانه لم يخلف مالاً بعد وفاته حتى تعذر عليه ابنه القائم ان يدفع رسم البيعة للجند .

وعندما تولى السلاجقة الامور تحسن وضع الخلافة من الناحية المالية بحكم علاقة الود والاحترام التي قامت بين سلاطين السلاجقة والخلفاء في الفترة الاولى على الاقل ، لذلك استعاد الخليفة حريته في التصرف في املاكه الخاصة . فالخليفة القائم اعطى ضمان املاكه من واسط الى صرصر الى ابن اسحاق ابراهيم اليهودي «١» كما ان السلاطين كانوا يهادون الخلفاء بتقديم الاموال اليهم طمعاً في التقرب اليهم او شكراً على انعامهم . فالسلطان طغرلبك حمل الى الخليفة القائم هدية كبيرة من المال والثياب «٢» ، ولعله كان يريد ان يغري الخليفة بالموافقة على تزويجه من ابنته ، اما السلطان ملكشاه فانه بعد أن فوضه المقتدي بالله حكم البلاد أمر بأن يضاف الى اقطاع الخليفة مقاطعة نهريوزي من طريق خراسان وعشرة آلاف دينار من معاملة بغداد «٣» .

وطمع المتغلبون في شارات الخلافة وألقابها فابن رائق مثلاً قرىء كتابه على المنابر قبل أن يصل بغداد وعندما وصلها بعد فترة من الزمن خطب له بعد الخليفة «٤» . ولم يكن الراضي ليرتاح لهذه المشاركة ولكنه كان مكرهاً عليها «٥» وقد جرى تلقيب

«١» ابن الجوزي جـ ٨ ص ٢٢٢ .

«٢» ابن الجوزي جـ ٨ ص ٢٢٩ .

«٣» ابن الاثير جـ ٨ ص ١٤٤ وكذلك فان السلطان سنجر أمر بزيادة اقطاع الخليفة المسترشد في اول أيام توليه بما يساوي خمسين الف دينار ، ابن الجوزي جـ ٩ ص ٢٠٦ .

«٤» الصولي ص ٨٥ ، ابن الاثير جـ ٦ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، ابن العبري ص ٢٨٣ ترجمة دائرة المعارف م ٢ مادة امارة الامراء ص ٦٤٩ .

«٥» الصولي ص ٦٣ رسوم دار الخلافة ص ١٣٣ وذلك عندما دعا الأئمة في صلاة الجمعة لابن ياقوت بعد دعائه للخليفة فبلغ ذلك الخليفة الراضي فأنكره واستبدل الأئمة بغيرهم .

هؤلاء المتغلبين بلقب أمير الأمراء سواء رضيت الخلافة أم كرهت .

وعندما تولى معز الدولة البويهي السلطة لقبه المستكفي مع اخوته وخلع عليه وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم «١» ، ولما تمكنوا من السلطان لم يكتفوا بالخطبة لهم بعد الخليفة في بغداد وغيرها من البلاد «٢» وبضرب اسمائهم على النقود بل أمروا بأن تقرع الطبول على ابوابهم في اوقات معينة اسوة بالخليفة «٣» ،

«١» مسكويه ج ٦ ص ٨٥ ، ابن الطقطقي ص ٣٣٥ العبر في خبر من غبر ج ٢ ص ٢٣٥ ترجمة دائرة المعارف م ٤ مادة بويه ص ٣٣٥ احمد ضياء تقويم المسكوكات الاسلامية ص ٢٢ ـ ٢٥ . عبدالرحمن فهمي ـ موسوعة النقود العربية وعلم النميات ج ١ فجر السكة العربية ص ٧٥٠ ـ ٧٥١ ، ٧٥٧ - ٧٥٨ لاحظ ايضاً لوحات النقود الملحقة والمستخرجة من متحف الفن الاسلامي بالقاهرة .

«٢» مسكويه ج ٦ ص ١١٥ ، ١٥٨ في الخطبة لهم في الموصل والحجاز .

«٣» لقد كان اول من حاول ذلك من البويهيين معز الدولة فلم يسمح له الخليفة بذلك إلا ان عضد الدولة اكره الخليفة الطائع على الموافقة فأمر أن تضرب لهم ثلاث مرات باليوم ، اما ابو كاليجر فقد وجدها قليلة بحقه فضربها خمس مرات ، وعندما تولى السلاجقة كانت هـذه المظاهر قد اصبحت حقاً من حقوق المتغلبين ، ولا تشير المصادر التي بين ايدينا الى اعتراض الخلفاء على ذلك ، بل وقد توسع السلاجقة في استغلالها حتى اصبحت مبتذلة فلم تعد مقصورة على السلاطين بل حتى اصبح من حق صغار الامراء التمتع بها ويشير الدكتور الباشا الى ان من المظاهر الرسمية في عصر السلاجقة الاكثار من الالقاب للسلاطين وذوي النفوذ من الوزراء ويستشهد على ذلك بكتاب من الخليفة الى السلطان مسعود ، لاحظ المراجع التالية : ابن مسكويه ج ٦ ص ٣٩٦ ، رسوم دار الخلافة ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ، ابن الجوزي ج ٧ ص ٩٢ ج ٨ ص ٣٠ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٧١ ، الباهر ص ٧١ حاشية منقولة عن العماد الكاتب ، الراوندي راحة الصدور ص ١٦٩ ، مستوفي قزويني ـ تاريخي كزيدة ص ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٩ العبر في خبر من غبر ج ٢ ص ٢٤٦ ، ج ٣ ص ١٨٥ ، حسن الباشا ـ الالقاب الاسلامية ص ٦٣

وكذلك فعل السلاجقة عندما تولوا السلطنة لان هذه الامتيازات اصبحت حقاً طبيعياً من حقوقهم لا ينازعهم الخليفة فيها «١» .

ومما يلفت النظر ايضاً في فترة الضعف هذه ذلك التطور الكبير الذي طرأ على الالقاب . فقد كان الخلفاء ايام عزهم قليلاً ما يلقبون كبار موظفي الدولة ، وكان اللقب الذي يمنحه الخليفة لهؤلاء يمثل نوعاً من الرعاية والتقدير للجهود التي بذلها الشخص الملقب في خدمة الخلافة ليس إلا ، كما كان اللقب بسيطاً في لفظه ومعناه «٢» .

وفي الفترة الاولى التي سيطر فيها الاتراك على الخلافة ، بدأ الخليفة يلقب البعض من هؤلاء لكي يضمن وقوفهم الى جانبه في صراعه مع الآخرين «٣» ، كما كان يجيب التماس بعض الناس فيمنحهم ما يختارونه من الالقاب «٤» .

وبقي اللقب بسيطاً في لفظه وان كان معناه بدأ يشير الى نوع من القوة والسلطان واستمر هذا النوع من التلقيب في الايام الاولى من سيطرة البويهيين على الخلافة «٥» ، ولكن استئثار هؤلاء بالسلطة وتنازعهم مع بعضهم عليها جعل المتغلبين منهم يفرضون لانفسهم ما يشاؤون من الالقاب التي تتناسب وعظمة سلطانهم وزيادة قوتهم وكان الخليفة يلبي هذه الرغبات فنشأت التثنية في التلقيب ، ثم ثلث اللقب بعدئذ وأضيفت

«١» الراوندي ص ١٦٩ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٧١ مستوفي قزويني ص ٤٣٧ .

«٢» مثل لقب وزير آل محمد بالنسبة لابي سلمة ، ولقب ذي الوزارتين للفضل ابن سهل .

«٣» الصولي ص ٢٢٨ بالنسبة لناصر الدولة الحمداني واخيه سيف الدولة ص ٢٤٢

«٤» ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ص ١٧٣ - ١٧٤ عندما طلب محمد بن طغج من الراضي تلقيبه بالاخشيد .

«٥» مسكويه ج ٦ ص ٥٨ في تلقيب الاخوة الثلاثة معز الدولة وركن الدولة وعماد الدولة لاحظ ايضاً ص ١٩٢ في تلقيب ابي شجاع فناخسرو بلقب عضد الدولة .

اليه بعض النعوت الأخرى «١» .

وعندما تولى السلاجقة كان من الطبيعي ان تعكس ألقابهم عظمة سلطانهم وسعة ممتلكاتهم فلقب اولهم بملك المشرق والمغرب «٢» .

وتشير بعض الكتابات الأثرية الى ان سلاطين السلاجقة لم يكتفوا بلقب ملك المشرق والمغرب ، بل أخذوا يصفون انفسهم بكل ما يخطر على بالهم من صفات القوة والسلطان والرحمة والعدل «٣» .

«١» يشير البيروني الآثار الباقية ص ١٣٢ الى ان اول من بدأ بذلك عضد الدولة فأصبح لقبه عضد الدولة وتاج الملك ثم جاء ابو نصر فيروز ابنه فثلث اللقب فأصبح بهاء الدولة وضياء الملة وغياث الامة لاحظ ايضاً

Repertoire · *Vol*. *4* P *136* . No, *1476* .

عندما كان اللقب عضد الدولة . وانظر نفس المرجع

Vol - *5* · *P*. *101* . No, 1831 · *P*. *103* · No, *1832* ·

عندما اصبح اللقب مضاعف . وكذلك انظر نفس المرجع

Vol - *6*. P . *43* - *44*. No, *2087* ·

بالنسبة لبهاء الدولة وضياء الملة وغياث الامة ، ولم يكن الخليفة يستطيع رفض منح الالقاب لان المنفذين كانوا قد استعملوا قبل ان يستأذنوا وهناك امثلة كثيرة على ذلك منها ان النقش الذي يشير الى لقب عضد الدولة فقد كان تاريخه سنة ٣٤٤ هـ بينما كان تاريخ منح الخلافة في سنة ٣٥١ هـ لاحظ ابن مسكويه جـ ٦ ص ١٩٢ .

«٢» ابن الاثير جـ ٨ ص ٨٠ .

«٣» يلاحظ في ذلك بقايا الكتابات الاثرية التي حملت القابهم والتي تشير الى تطور لقب الواحد منهم في اول ايام حكمه عنه في آخر ايامه . لاحظ في ذلك

Repertoire . *Vol* - *7* - P · *245* . No *2773* ·

بالنسبة للسلطان المعظم شاهنشاه الاعظم سلطان ارض الله مالك بلاد الله معين خليفة ـ

ومما يلاحظ ايضاً ان التمتع بالألقاب لم يكن مقصوراً على الأمراء والسلاطين بل شاركهم امراء الاطراف الذين كانوا يحققون «١» رغبتهم ببذل المال .

وبلغ من انهيار الخلافة ان فكر المتغلبون في نقل الخلافة من البيت العباسي ، حاول البويهيون ذلك مرتين ، حاول معز الدولة نقلها الى العلويين فرشح ابا الحسن محمد ابن يحيى الزيدي ولما أحس انه لن يأمن على نفسه وسلطانه «٢» في ظل النظام الجديد صرف النظر عنه ، اما عضد الدولة فسعى لتزويج ابنته من الخليفة الطائع راجياً ان يرزق ولداً فتصير الخلافة اليه فيصبح الملك والخلافة في البيت البويهي «٣» .

– الله معز الدنيا والدين جلال الدولة وجمال الملة ابو الفتح ملكشاه لاحظ ايضاً نفس المرجع

Vol . 8 P. 81 – 82 . No, 2934.

بالنسبة للسلطان محمد بن ملكشاه

Vol . 8 . P. 142 – 143 . No, 3007 .

بالنسبة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه . لاحظ ايضاً الالقاب الاسلامية ص ٦٣ بالنسبة للسلطان مسعود نقلاً عن صبح الاعشى ج ٦ ص ٣٩٧ .

«١» البيروني ص ١٣٢ الباهر ص ٥٤ بالنسبة للأتابك عماد الدين زنكي انظر ايضاً

Rerertoire . Vol - 8 - P. 80 – 81 . No, 2933 .

بالنسبة للأتابك ابو سعيد طغتكين امير دمشق .

«٢» مسكويه ج ٦ ص ٨٧ حاشية منقولة عن كتاب التكملة والعيون وفيه محاورة طريفة بين معز الدولة وبعض مستشاريه تكشف لنا عن الصراع الذي وقع فيه معز الدولة بين رغبته في تحقيق تفكيره المذهبي الذي يقوم على عدم الاعتراف بشرعية الخلافة العباسية وبين رغبته في التمتع بالسلطان الذي قد يتعارض مع طاعته للامام الجديد الذي كان ينوي استبدال الخليفة به وقد قام اخيراً بخلع المستكفي ونصب المطيع الذي اصبح العوبة في يديه .

«٣» مسكويه ج ٦ ص ٤١٤ ويحدثنا التنوخي ابوعلي بقوله : ان عضد الدولة –

كما حاول السلاجقة نقل الخلافة الى احد أبناء الخليفة من زوجته السلجوقية . يشير الراوندي «١» الى أن زوجة السلطان ملكشاه كانت تنادي ابن الخليفة المقتدي المدعو جعفر من زوجته ابنة ملكشاه بعبارة يا امير المؤمنين في حضرة ابيه . وحاولوا نقل مركز الخلافة الى اصفهان ، ولكن وفاة السلطان ملكشاه السريعة انقذت الخليفة مما دبر له «٢» .

انعكست آثار هذا الضعف الذي اصاب الخلافة على ولاة الاقاليم ، فمنهم من آمن بالوضع الجديد ولم يجد فيه مبرراً لتغيير ولائه وطاعته ومنهم من سعى لاستغلاله في تثبيت سلطانه والاستقلال باقليمه «٣» .

وكان هناك تباين في الدوافع والاساليب التي ادت الى قيام هـذه الامارات في القسم الشرقي من الخلافة عنه في القسم الغربي .

فقد كان قيام الامارات الشرقية كالطاهرية والصفارية والسامانية نتيجة لخيبة امل الفرس في الحكم العباسي ، ومحالة منهم لاعادة المجد الفارسي القديم «٤» .

- عندما سمع بأن الطائع متجاف عن ابنته ارسله في رسالة اليه على لسان والدة الصبية لكي يستزيد من اقباله عليها فحدث له حادث اعاقه عن تبليغها . ولقد كان الخليفة الطائع واعياً في الحفاظ على مستقبله كخليفة ومستقبل امرته فقطع الطريق على عضد الدولة وحرم نفسه من التمتع بزوجته بالرغم من انه كان يحبها حباً شديداً كما يقول : غرس النعمة ابوهلال لاحظ في ذلك ذيل ، مسكويه ص ٢٠ ياقوت ج ١٧ معجم الادباء ج ١٧ ص ١١٣ - ١١٤ .

«١» راحة الصدور ص ٢١٦ .

«٢» البنداري ص ٦٥ ، ابن خلكان - وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٧٥ في الحديث عن ابي الفتح ملكشاه . ابوالحسن الخزرجي - الدول المنقطعة - الورقة ١٥٤ - ١٥٥ .

«٣» السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠ .

«٤» ويرى برنارد لويس - العرب في التاريخ - ص ١٣٤. ان قيام الامارتين-

بينما كان قيام الامارات الغربية كالطولونية والاخشيدية نتيجة للفوضى الادارية التي رافقت تسلط الاتراك على الخلافة وتحكمها في ادارة ولاياتها «١» .

ويلاحظ انه بالرغم من تمتع امراء هذه الولايات بكل اسباب السلطة في ولاياتهم، إلا انهم كانوا بحاجة الى التماس رضى الخلافة عنهم لتبرير شرعية حكمهم ، وكانت الخلافة من جانبها تستغل هذه الحاجة فتعمل على اعادة هؤلاء الامراء الى طاعتها ، كما كانت تضطر الى تهديدهم واعتبارهم خارجين عليها مما قد يخلق لهم كثيراً من المشاكل في بلادهم .

وكانت الخلافة في هذه الحالة تستعين عادة بقوافل الحجاج والتجار لكي ينقلوا الى الرأي العام الاسلامي «٢» في بلادهم أوامر الخلافة ونواهيها .

وكثيراً ما تعمد عندما لا يفيد التهديد الى اصدار عهود تولية لاكثر من امير ملتمسة كما يقول الطبري «٣» إغراء الواحد بالآخر ، وكان شعار سياستها في هذه الفترة من ضرب بالسيف وهزم صاحبه فالعمل له «٤» .

* * *

ـ الظاهرية والسامانية يمثل تحقيقاً لمطامح الارستقراطية الفارسية ، بينما يرى في قيام الصفارية تعبيراً عن ثورة الشعب الفارسي . لاحظ ايضاً الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٦ .

«١» اليعقوبي ـ التاريخ ج ٣ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦ ، وهو يذكر ان اول من عقد له الواثق من قواده اشناس التركي ولاه من بابه الى آخر عمل المغرب ، بينما ولى خراسان ايتاخ التركي .

«٢» الطبري ـ تاريخ ـ ج ٨ ص ٢١ ، ٤٨ ، ١٩٣ ، ابن خلدون ـ العبر ج ٣ ص ٣٣٤ .

«٣» الطبري ج ٧ ص ٥٢٠ .

«٤» ابن سعيد ـ المغرب ص ١٧٦ .

على ان الخلافة لم تستسلم لعوامل الضعف التي اشرنا اليها راضية طائعة . انما قاومت وناضلت ودافعت عن كيانها حتى قدر لها ان تنهض من كبوتها مرة اخرى . وكان سلطانها الروحي من امضى اسلحة هذا النضال ، فقد استطاعت بفضل هذا السلطان الروحي الذي ملك على الناس تفكيرهم ان تصمد للنكبات التي ألمت بها . وكانت في كل مناسبة تؤكد انها صاحبة السلطان على الارض ، وان الحاكمين في الولايات ليسوا إلا نواباً للخليفة يحكمون باسمه وبقاؤهم مقرون بطاعته .

يشير ابن الاثير «١» عند حـديثه عن البيعة للخليفة الناصر ان الامير البهلوان صاحب همذان واصفهان امتنع عن البيعة فراجعه رسول الخلافة وأغلظ له القول وخاطب عسكره بقوله : « ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع امير المؤمنين بل يجب ان تخلعوه » .

كما يشير الراوندي الى وصول رسول الخلافة الى خوارزمشاه محمد بن تكش ومخاطبته اياه على لسان الخليفة الناصر بقوله : « إن ملك ابيك وجدك كان منحه منا ، ونحن نسلمه الآن اليك فاقنع به ، وإلا فسأكتب الى الامصار انك خارج علي » .

وكان جواب خوارزمشاه : الحكم لامير المؤمنين وما انا إلا شحنة من قبله» «٢».
ونفس هذا المعنى ورد في وصية الملك الصالح نجم الدين ايوب لنائبه اذ اوصى بأنه اذا توفى فيجب تسليم البلاد الى الخليفة المستعصم «٣» .

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٤٩ .

«٢» راحة الصدور ص ٥٣٤ .

«٣» المقريزي ـ السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٢ ، ابو المحاسن ـ النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٧ .

وكذلك لاحظ النداء الذي ارتفع في القاهرة بأن البلاد للخليفة المستعصم وان الملك المعز عز الدين ايبك نائبه فيها ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٣٦٩ .

وفي سبيل دعم هذا السلطان الروحي واستمرار رسوخه في اذهان الناس ، كان الخلفاء العباسيون يقومون بين آونة واخرى بوعظ الناس وارشادهم عن طريق التأليف الديني ونشره بين الناس للحفاظ على وحدة المسلمين الفكرية وتوجيه الناس توجيهاً دينياً معيناً يتفق ووجهة نظر الخلافة خاصة وقد كانت هناك تيارات فكرية تناوىء الخلافة وتعمل على اضعاف نفوذها «١» . فالخليفة القادر بالله صنف كتاباً في الاصول ذكر فيه فضائل الصحابة ورد فيه على اصحاب الآراء الاخرى وكان يقرأ في المساجد كل جمعة «٢» .

وعندما طغى النفوذ الفاطمي في العراق وقام بعض الامراء بالخطبة لهم «٣» أمر الخليفة القادر بوضع كتاب في انساب حكام مصر من بني عبيد واتهامهم بالزندقة والكفر «٤» . وعندما تولى القائم بأمر الله الخلافة بعد وفاة ابيه اتبع نفس سياسته في محاربة الدعايات المذهبية المعادية للخلافة ، فأظهر الاعتقاد القادري وآخذ عليه تواقيع

«١» كانت هناك بعض الدعوات في العراق بحكم انقسام اهله المذهبي ، التي تدعو باسم العلويين وتعمل على اثارة بعض الفتن الطائفية لتشويه سمعة الخلافة مستغلة بذلك سيطرة البويهيين على الحكم وسكوتهم عنها في اول الامر ثم عجزهم عن السيطرة على الاوضاع الداخلية في العراق في هذه الفترة وقد تكون هذه الاضطرابات موعز بها من قبل الفاطميين في مصر الذين كانوا يدعون انهم الممثلون الشرعيون لآل البيت ، وكان لهم اعوان في العراق .

«٢» الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٧ ـ ٣٨ في الحديث عن القادر بالله ، ابن الجوزي ج ٧ ص ٢٨٩ .

«٣» ومنهم قرواش بن المقلد صاحب الموصل الذي اقام الدعوة للحاكم بأمر الله في الموصل والكوفة والانبار وحتى المدائن ، ثم تراجع بعد ذلك واعتذر .

«٤» ابن الجوزي ج ٧ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ، الذهبي ـ العبر ج ٣ ص ٧٦ .

الفقهاء وجعل منه منهاجاً لسياسته الدينية «١» . كما اضطر ايضاً أمام ضغط الدعاية الفاطمية التي اشتدت اذ ذاك في العراق مستغلة ضعف البويهيين وانهيارهم ، الى اخراج انساب بني عبيد والقدح فيهم ثانية ونشره بين الناس «٢» .

وبعد اكثر من قرنين من هذه الفترة وجد الخليفة الناصر لدين الله نفسه مضطراً الى تأكيد زعامته الدينية على المسلمين بعد أن فشلت قواته العسكرية في نشر نفوذه على القسم الشرقي من الخلافة ، فأخرج كتابه (روح العارفين) الذي جمع فيه كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة وأجاز لشيوخ المذاهب الاسلامية بأن يتحدثوا عنه كما بعث رسلاً الى الاقطار الاسلامية يحملون الكتاب اليهم ويسمعونه للناس في المجالس الدينية «٣» .

وكان الخلفاء باعتبارهم أئمة المسلمين مسؤولين عن تأمين العدالة بين الناس تطبيقاً لأحكام الشريعة ، فكان بيدهم اختيار القضاة بمختلف درجاتهم ، وقد حاول بعض الامراء من المتغلبين سلب هذا الحق من الخليفة لما فيه من مغنم مادي «٤» . ولكن الخلفاء قاوموا هذا الاعتداء بعـــدم الاعتراف بشرعية تولية هؤلاء حتى نجحوا في الاحتفاظ بحقهم .

«١» ابن الجوزي ج ٨ ص ١٠٩ ، وكان عبارة عن كتاب كان الخليفة القادر قد جمعه سنة ٤٢٠ هـ اكد فيه على تعاليم اهل السنة والرد على من يقول بخلق القرآن ، مع ذكر فضائل الصحابة وكثير من الاحاديث النبوية .

«٢» الذهبي ـ العبر ج ٣ ص ٢٠٤ ، ابو المحاسن ج ٥ ص ٣٥ .

«٣» سبط ابن الجوزي ـ مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٤٣ ، ابو شـــامة ـ ذيل الروضتين ص ٦٩ ، ابن واصل ـ مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٢٨ .

«٤» ضمن القاضي ابوالعباس ابن ابي الشوارب لخزانة معز الدولة مبلغ مائتي الف درهم في السنة عندما ولاه القضاء .

وكان معز الدولة البويهي أول من تدخل في شؤون القضاء عندما قلد القضاء لابي العباس ابن ابي الشوارب ، فتألم الخليفة المطيع وامتنع عن الموافقة على تقلده ورفض ان يستقبله في أية مناسبة «١» ، واضطر الامير البويهي بعد سنتين من تعيينه الى الموافقة على عزله ، بينما رفض القاضي الجديد احكامه ، كما رفض ان يرتزق من عمله «٢» .

ويظهر أن عضد الدولة استغل تفويض الطائع له فأخذ يصدر أوامراً للقضاة ، ولكن ابراهيم بن هلال الصابي عندما تولى ديوان الوسائل في عهد ابنه صمصام الدولة قال بأنه لا يصح عقد القضاء وتوليته إلا من الخليفة ، ولكنه كره في نفس الوقت تغير السياسة العضدية ، فوفق بين الامرين بأن جعل اصدار التولية باسم الامير البويهي بأمر الخليفة «٣» .

وقد تمت التسوية الاخيرة في العهد البويهي سنة ٤٠٥ هـ عندما تقرر أن يقدم الوزير البويهي ثبتاً بأسماء عدد من المرشحين للقضاء ليختار الخليفة أحدهم فيوليه «٤» .

اما في فترة السيطرة السلجوقية ، فقد راعى السلاجقة حقوق الخليفة في الاشراف

«١» مسكويه جـ ٦ ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ابن الجوزي جـ ٧ ص ٢ ، الذهبي - العبر جـ ٢ ص ٢٨٤ ، السيوطي ص ١٦١ ، لاحظ ايضاً انه عندما قلد بهاء الدولة بشيراز الشريف ابا احمد الحسين قضاء القضاة والحج والمظالم ونقابة الطالبيين فامتنع القادر عن الموافقة فلم ينظر في القضاء ، ابن الجوزي جـ ٧ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

«٢» مسكويه جـ ٦ ص ١٩٦ ، الذهبي - العبر جـ ٢ ص ٢٩٤ ، لاحظ ايضاً ان الخليفة المطيع عندما قلد القضاء لابي الحسن محمد الهاشمي الذي اشترط لنفسه بعض الشروط لكي يتولاه منها ان لا يرتزق من عمله ، السيوطي ص ١٦٢ .

«٣» الصابي - رسوم دار الخلافة ص ١٢٥ .

«٤» ابن الجوزي جـ ٧ ص ٢٧٠ .

على القضاء في العراق ، بينما تولوا ارسال القضاة الى باقي الممالك بأمرهم (١) .

وقد كانت هذه القدسية سلاحاً في يد الخلفاء يستغلونه في تهديد الامراء المتغلبين عندما تتأزم الامور بينهم ، وذلك بتعطيل الاحكام الشرعية وتحميل الامراء مسؤولية ذلك مما يؤدي الى اثارة العامة على الامراء وحدوث الفوضى والاضطرابات فيتحرج موقف هؤلاء الامراء ويسرعون الى ازالة اسباب الخلاف . يشير ابن الاثير الى عجز الامير البويهي جلال الدولة عن ضبط الامور فتعرضت املاك الخليفة القائم للنهب ، فأمر الخليفة القضاة بترك القضاء والامتناع عنه ، والشهود بترك الشهادة ، والفقهاء بترك الفتوى (٢) .

ولجأ الى هـذا السلاح ايضاً الخليفة المقتفي عندما اختلف مع مسعود السلجوقي الذي اعتقل حاجبه فلم يكن من الخليفة إلا ان امر بترك الصلاة وغلق المساجد فأسرع مسعود الى اطلاقه (٣) .

وكان الخلفاء يحرصون على الاحتفاظ بتوجيه كل ما يمس الشؤون الدينية ، لذلك لم يكن يسمح لأي مدرس بالتدريس في المساجد والمدارس ما لم يكن قد حصل على أمر من الخليفة (٤) .

ومن الاسلحة التي لجأ اليها الخلفاء لايقاف الامراء المتغلبين عند حدهم ، تهديدهم بالخروج من عاصمة الخلافة وتركها . وفي هذا ما فيه من خطر على سلطة الامير المتغلب من العامة من جهة ومن امراء الاطراف من جهة اخرى ، وكثيراً ما انصاع الامراء

---

(١) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٢٣ .

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٨ .

(٣) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١١٩ ، السيوطي ص ١٧٦ .

(٤) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٩ .

أمام هـذا التهديد فعملوا على أزالة أسباب الخلاف . ويشير ابن الاثير «١» الى أن الخلاف عندما استحكم بين الخليفة القائم وجلال الدولة بسبب استيلاء الامير البويهي على اموال الجوالي التي كانت من نصيب الخلفاء سعى الخليفة اولاً الى تنبيه المتغلبين الى حقه في ذلك فأرسل قاضي القضاة الماوردي ، فلم يصغ جـــلال الدولة للنصح فجمع الخليفة الهاشميين في الدار وأرسل الى اصحاب الاطراف والقضاة وأنبأهم بما عزم عليه من مفارقة بغداد ، وكذلك هـدد الخليفة القائم بأمر الله «٢» طغرلبك السلجوقي عندما اعتقل الملك الرحيم البويهي بمفارقة بغداد ، وقد رد الخليفة المقتفي على السلطان مسعود عندما ضايقه بطلب الاموال بقوله : لقد عاهدت الله تعالى ان لا آخذ حبة من مال المسلمين ظلماً فما بقي إلا ان نخرج من الدار ونسلمها لك ، فاضطر السلطان حينئذ الى الكف عن مضايقته «٣» .

وبجانب هذا السلاح الديني الذي لجأ اليه الخلفاء لحماية كرامتهم من عبث المتغلبين سلاح آخر استعانوا به على دفع شرهم ، وهو استغلال حاجتهم الى المظاهر والتفاخر بها فكان الخلفاء على ضعفهم يساومونهم على دفع ثمن هذه المظاهر لكسب احترام الخلافة واطاعة اوامرها .

لقد كان التنافس شديداً بين الامراء ، وكل تشريف من الخليفة يعطي الامير

«١» ابن الاثير ج ٨ ص ٣٦ ، لاحظ ايضاً عندما تظاهر اهل الذمـة المتنفذين وخرجوا عن العرف المألوف عنهم وتدخل الخليفة في الامر ورفض ذلك من قبل بعض متنفذي العهد البويهي فغضب الخليفة وعزم على الخروج من بغداد ، وقد تدخلت العامة وفرضت حكم الخليفة . ابن الجوزي ج ٧ ص ٢٦٢ .

«٢» ابن الاثير ج ٨ ص ٧٢ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦٦ ، السيوطي ص ١٧٥ .

قوة بين جنده ومكانة في نظر العامة ، لذلك كان هؤلاء يتسابقون بالرغم من قوتهم للحصول على رضا الخلافة وخاصة في فترة انقساماتهم . وقد اشار الخليفة الراضي الى ذلك بقوله «١» : ويجلسون في اليوم مرات ويقصدونني ليلا ، ويريد كل واحد منهم ان اخصه دون صاحبه .

وكان البويهيون قبل قدومهم العراق قد لبسوا خلع الخلافة بمشهد من القضاة والعدول ، واستفادوا من انعام الخلافة عليهم في القضاء على البريديين اعداء الخلافة في البصرة «٢» . وعندما دخلوا بغداد خلع الخليفة على الاخوة الثلاثة ولقبهم وفوض اليهم الامور «٣» .

وقد دب الحسد والتنافس بين ابناء الاسرة البويهية بعد استقرار الامر لها في العراق ، فسعى عضد الدولة مثلا الى ان يلقب بتاج الدولة ، ولكن عمه معز الدولة منعه من ذلك «٤» ، وسعى معز الدولة بعد استقراره في بغداد وسيطرته على الخليفة الى تقديم ابنائه ، فخلع الخليفة على ابنه بختيار في سنة ٣٤٨ هـ ، ولقبه بعز الدولة ، وقلده امرة الامراء . وفي سنة ٣٥٥ هـ لقب الحبشي الابن الثاني بلقب سند الدولة «٥» .

وبعد وفاة معز الدولة وتولي ابنه عز الدولة الامر في بغداد ، دب التنافس والحسد بينه وبين ابن عمه عضد الدولة الذي كان يطمع في بغداد «٦» ، فالتجأ عز الدولة

«١» الصولي ص ٤١ .

«٢» الصولي ص ٢٣٣ ، ٢٣٦ .

«٣» مسكويه ج ٦ ص ٨٤ ـ ٨٥ ، الصابي ـ رسوم دار الخلافة ص ١٣١ .

«٤» رسوم دار الخلافة ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

«٥» مسكويه ج ٦ ص ١٥٨ ، ١٧٦ ، ٢١٦ .

«٦» كان عضد الدولة قد قدم بغداد عندما شغب الاتراك في عام ٣٦٤ هـ علي ابن ـ

الى الخليفة المطيع ليشد من ازره أمام ابن عمه فكتب الخليفة رسالة الى عضد الدولة يذكر فيها منزلة عز الدولة التي يلتزم كل قاص ودان ان يعرف له حق ما كرم به ويتزحزح له عن مقام المماثلة فيها ... «١» .

وكان تأثير هذه الرسالة شديداً على عضد الدولة حتى انه غضب على كاتب الانشاء الذي كتبها وهو ابراهيم بن هلال الصابي فحبسه فيما بعد «٢» .

وقد بقي تأثيرها في نفسه حتى زحف الى بغداد وتخلص من ابن عمه ، وتولى امرة الامراء مكانه فطالب الخليفة بالزيادة في التلقيب ، فثنى من ألقابه حتى صارت افخم وأعظم من كل ما تقدم «٣» .

ولم يكن السلاجقة اقل اهتماماً برضا الخلافة واعتزازاً بتأييدها لهم .

يشير البنداري الى ان السلاجقة عندما وصلهم كتاب الخليفة القائم ينصحهم فيها برعاية البلاد ، خلعوا على الرسول ثلاثة عشر خلعة وتباهوا برسالة الخليفة وازدادوا بها قوة ورفعة «٤» . وعندما وصل طغرلبك الى بغداد وأزاح عنها سلطان البويهيين

— عمه عز الدولة اميرالامراء فساعده في القضاء على الشغب ، وقد اعجب ببغداد ومايتمتع به امير الامراء من سلطان ومكانة ، فحاول البقاء فيها واخذ يختلق المشاكل لازاحة ابن عمه من منصبه ، ووثق صلته بالخليفة الطائع لله ، ولكن أباه ركن الدولة علم بالامر فأرسل اليه رسالة شديدة يهدده فيها فلم يستطع بعدها البقاء في بغداد ولكنه بقي متعلقاً حتى توفي ابوه فوجد المجال بذلك .

«١» ملحق رقم (١) رسالة الخليفة المطيع الى عضدالدولة منقولة عن كتاب رسوم دار الخلافة .

«٢» رسوم دار الخلافة ص ١٢١ .

«٣» نفس المرجع والصفحة .

«٤» البنداري ص ٧ — ٨ ، الراوندي ص ١٦٧ .

استقبله الخليفة في حفل عام وفوض اليه البلاد ولقبه بملك المشرق والمغرب ، فقبل يد الخليفة وفرح بخلعه وإنعامه «١» .

ولم تسنح الفرصة لألب آرسلان بالمجيء الى بغداد ، إلا انه كان حريصاً على التماس خلع الخلافة وألقابها ، فجعل من اخته زوجة الخليفة رسولاً اليه ، والتمس تسميته (بالولد المؤيد) فأجابه الخليفة الى ذلك ولقبه ضياء الدين عضد الدولة «٢» .

ويذكر الذهبي انه اول من خطب له باسم السلطان من السلاجقة «٣» . اما ملكشاه فأرسل في اول عهده رسولا الى بغداد ، فاحتفل به الخليفة وعقد له وخلع عليه «٤» ، وعند خروجه الى بغداد بعد اكثر من اربعة عشر سنة من سلطنته جلس له الخليفة جلوساً عاماً وخلع عليه وزاد في تلقيبه «٥» وأظهر السلطان ورجاله في هذا الاستقبال منتهى الخضوع والطاعة للخليفة .

وعندما ارسل يستأذن الخليفة في ترشيح ابنه ابي شجاع احمد لولاية العهد ، استجاب له ولقبه بملك الملوك عضد الدولة وتاج الملة عده اميرالمؤمنين «٦» .

واشتدت حاجة السلاجقة الى تأييد من الخلافة في فترة انقساماتهم وصراعهم على

«١» ابن الجوزي جـ ٨ ص ١٨٢ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٨٠ ، البنداري ص ١٣ ـ ١٤ ، الذهبي ـ العبر جـ ٣ ص ٢١٨ .

«٢» ابن الاثير جـ ٨ ص ٩٨ ، البنداري ص ٤٣ .

«٣» الذهبي ـ العبر جـ ٣ ص ٢٥٨ .

«٤» ابن الاثير جـ ٨ ص ١١٨ ، البنداري ص ٤٧ .

«٥» ابن الجوزي جـ ٩ ص ٣٥ ـ ٣٦ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ١٤٣ ، البنداري ص ٧٤ .

«٦» ابن الجوزي جـ ٩ ص ٣٨ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ١٤٥ .

السلطنة ، فاستقبل الخليفة بركيارق بن ملكشاه وخلع عليه ولقبه بركن الدين «١» . وعندما ضعف امره واستعلى عليه اخوه محمد ، لم يتردد الخليفة في استقباله وقطع خطبة اخيه وتلقيبه بغياث الدنيا والدين «٢» ، ويشير ابن الجوزي الى اهمية خلع الخلافة وأثرها في تقوية معنويات السلطان وتثبيت امره في قلوب رعيته فيذكر « ان العساكر مالت الى طغرل بن السلطان محمد وانحل امر اخيه مسعود بسبب استيلاء طغرل على خلع كان الخليفة قد ارسلها الى خوارزمشاه فأخذها طغرل وأظهر ان الخليفة انفذها له فلم يبق مع مسعود احد » «٣» .

وكان من السبل الاخرى التي لجأ اليها الخلفاء لكسب احترام الامراء المتغلبين والتأثير عليهم وردهم الى طاعة الخلافة ، مصاهرتهم والتزوج من بناتهم اوأخواتهم لكي تكون هذه المصاهرة رباطاً مادياً يجمع بين الامير والخليفة ، وزواج الخليفة من بنات الامير تشريف له ، لانه سيصل نسبه بنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ينشأ عن ذلك من معنى سياسي واجتماعي «٤» .

وقد كان الخليفة الطائع اول من صاهر من الخلفاء عندما تزوج ابنة عز الدولة بختيار امير الامراء بعد توليه الخلافة مباشرة «٥» . وعندما تغيرت الامور بالنسبة لعز الدولة ، وتولى ابن عمه عضد الدولة امارة الامراء وافق الطائع على التزوج من ابنته

«١» ابن الاثير ج ٨ ص ١٧٠ ، العبر في خبر من غبر ج ٣ ص ٣١٤ .

«٢» ابن الاثير ج ٨ ص ١٩١ ، العبر في خبر من غبر ج ٣ ص ٣٣٢ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٥ - ٣٦ .

«٤» لاحظ وصف أهمية النسب في رسوم دار الخلافة ص ١١٩ ، ١٣٨ .

«٥» رسوم دار الخلافة ص ١١٩ ، ١٣٨ ، ابن الجوزي ج ٧ ص ٧٦ ، العبر في خبر من غبر ج ٢ ص ٣٣٢ .

ايضاً ، وهكذا جمع بين الابنتين «١» .

وقد حذا القادر بالله حذو سلفه فتزوج من ابنة بهاء الدولة امير الأمراء «٢» ،

وعندما حل السلاجقة محل البويهيين في السلطنة ، كان اول عمل قام به الخليفة القائم بأمر الله أن تزوج من ابنة اخي السلطان طغرلبك صاحب الامر في بغداد «٣» .

وكذلك فعل حفيده المقتدي الذي تزوج من ابنة السلطان ملكشاه «٤» .

وكذلك فعل المستظهر بالله عندما تزوج من اخت زوجة ابيه بنت ملكشاه «٥» .

وينفرد ابن كثير بالاشارة الى زواج المسترشد من ابنة السلطان سنجر بن ملكشاه «٦» ، وكان الخليفة المقتفي آخر من تزوج هذا الزواج السيامي حيث عقد

«١» مسكويه ج ٦ ص ٤١٤ ، ابن الجوزي ج ٧ ص ١٠٥ ، الاربلي - خلاصة الذهب المسبوك ص ١٩١ .

«٢» ابن الجوزي ج ٧ ص ١٧٢ ، العبر في خبر من غبر ج ٣ ص ٢٢ .

«٣» ابن الاثير ج ٨ ص ٧٤ ، العبر في خبر من غبر ج ٣ ص ٢١٥ .

«٤» ابن الاثير ج ٨ ص ١٤٥ ، ابن الجوزي ج ٩ ص ٣٦ .

مادة المقتدي . *Ency. of Islam. P. 718*

هذا مع العلم بأن المقتدي كان قد ارسل سنة ٤٦٤ هـ يخطب ابنة البارسلان عندما كان على قيد الحياة ، ولكن وفاة الاب وتولي الابن ملكشاه جعل المقتدي يصرف النظر عن ذلك ويتجه الى الزواج من ابنة السلطان القائم . لاحظ ابن الاثير ج ٨ ص ١١١ .

«٥» ابن الجوزي ج ٩ ص ١٥٩ ، ١٦٥ - ١٦٦ .

«٦» ابن كثير - البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٩٥ ، وقد اشار ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٠ الى هذا الزواج ولكن اشارته جاءت غامضة واعتقد ان الزواج لم يتم خاصة وان الخبر عنه جاء قبيل الصراع الذي وقع بين الخليفة وسنجر .

على اخت السلطان مسعود صاحب الامر في بغداد اذ ذاك «١» ، ولم يعد الخلفاء بعدة في حاجة الى مثل هذا الزواج فقد اشتد ساعد الخلافة وانهار امر المتغلبين .

وصفوة القول ان هذه الاساليب التي اتبعها الخلفاء لحماية انفسهم جعلت للخلافة مكانة طيبة في نفوس الامراء ، واخذت هذه المكانة تزداد وضوحاً وقوة بمرور الايام حتى اصبحت ملجأ يرتجى عندما تشتد الامور بالمتصارعين على السلطة فيصبح قول الخليفة القول الفصل الذي يرجح كفة امير على آخر .

***

ثانياً : نهضة الخلافة ٥١٢ ـ ٥٥٥ هـ :

ظلت الخلافة بين هـــذه الجهود لاضعافها وسلب سلطانها وبين مقاومتها لهذه السيطرة الظاهرة حيناً والمستترة احياناً حتى لاحت نذر التطور والخلاص في عام ٥١٢ هـ عندما تولى الخلافة ابو الفضل المسترشد بالله بن المستظهر .

وقد ظلت الخلافة في الفترة الممتدة حتى عام ٥٥٥ هـ تخوض معارك عنيفة احياء لسلطانها ومحافظة على مكاسبها وتوكيداً لمكانتها في النفوس ، واستخدمت اسـاليب متعددة في تحقيق هذه الاهداف ، فقد استغلت ضعف السلاجقة وانقسامهم على انفسهم كما انشأ الخلفاء القوات المسلحـــة التي تخضع لهم وتأتمر بأمرهم ، وعملوا على اصلاح الاوضاع الاقتصادية وكسب الرأي العام في بغـداد وخارجها ، كما استعانوا ببعض امراء الاطراف في دفاعهم عن حقوقهم والوقوف في وجه سلاطين السلاجقة ، وسنتحدث فيما يلي عن هذه الوسائل بالتفصيل .

استغلال ضعف السلاجقة وانقسامهم : ـ تعتبر وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ

«١» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٨٥ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٥٦ .

نهاية لسلطان السلاجقة الحقيقي وبداية لتفكك دولتهم وانقسام زعمائهم فقد نشب النزاع بين خلفائه على السلطنة «١» ، حتى استقر الحكم لابنه محمد بعد اثنتي عشرة سنة.

وتجدد الصراع ثانية بعد وفاة السلطان محمد سنة ٥١٢ هـ «٢» بين ورثته حيث كانت الخلافة قد عهدت بالسلطنة لابنه محمود ، إلا ان عمه سنجر رفض الخضوع لكبر سنه وتعاظم قوته فنازعه السلطنة وغلبه عليها ، ثم عفا عنه وأبقاه ولياً للعهد .

«١» فقدتنازع العرش ابناؤه محمود وبر كيارق . ثم شاركهم فيه اخوه تاج الدين تنش الذي كان يتولى امور الشام ، كما دفع الطمع والاغراء اسماعيل ياقوتي خال بركيارق الى المساهمة فيه مدفوعاً بتحريض ووعد بالزواج من زوجة ملكشاه وام ولده محمود .

ولم يستقر بر كيارق الذي خرج من هذا الصراع منتصراً ، إلا فترة قصيرة حتى قام عليه ثانية اخواه محمد وسنجر ونازعاه العرش وتبادلا معه النصر والهزيمة اكثر من خمس سنوات ، حتى استقر الصلح بينهم سنة ٤٩٧ هـ ، وكانت البلاد قد تجزأت الى امارات عديدة منفصلة عن بعضها ، وانتهت تلك الوحدة السياسية القوية التي كانت تشد اطراف البلاد الى بعضها والتي جعلت منها القوة السياسية الوحيدة في العالم الاسلامي ، ولم يستطع السلطان محمد الذي انفرد بالسلطنة بعد وفاة اخيه بر كيارق ان يعيد شيئاً من الحياة والتماسك الى السلاجقة بسبب انشغاله بمقاومة خطر الاسماعيلية الذي كان قد استفحل في فترة الانقسام السلجوقي ، لاحظ تفاصيل هذا الصراع في مؤلفات ابن الجوزي وابن الاثير في احداث السنين التي اعقبت وفاة ملكشاه ، وكذلك في دولة آل سلجوق للبنداري الذي اختصره عن العماد الاصبهاني ، وفي راحة الصدور للراوندي كما ان استاذنا الدكتور عبد النعيم حسنين نظم حوادث هذا الصراع بشكل واضح في مؤلفه سلاجقة ايران والعراق ص ٨٤ - ١٠٢ .

«٢» انفرد السلطان محمد بن ملكشاه بالحكم بعد وفاة اخيه بر كيارق سنة ٤٩٨ هـ حتى توفي سنة ٥١١ هـ .

ولم يتردد الخليفة المسترشد في توثيق صلته بسنجر فهاداه وتقبل منه الهدايا ثم خطب له بالسلطنة مع ابن اخيه ، فأصبحت الخلافة تخطب لسلطانين في وقت واحد «١».

ولكن الصراع ظل خفياً بين السلطانين اذ لم يرض محمود ان يشارك في سلطانه ، كما ان سنجر كان مضطراً لمراقبة ابن اخيه لئلا تحدثه نفسه بالخروج عليه ، فلم يعد اليه جميع البلاد التي اخذها منه بل احتفظ بجزء منها لتكون قاعدة له «٢» .

وكان اخوة السلطان محمود الثلاثة يعملون بتوجيه من اتابكتهم فيخالفون رغبات السلطان ويخلقون له المشاكل ويثيرون عليه امراء الاطراف فكان يتنقل دائماً بين ديار هؤلاء الاخوة ليقضي على فتنهم ويعاقب اتابكتهم ، الامر الذي كان يرهقه كثيراً ويحول بينه وبين الاستقرار .

ولم يكن الخليفة المسترشد يجهل هذه الاوضاع التي تحيط بالسلطنة وتضعف من شأنها ، فعمد الى استغلال هذه الظروف وشرع يتدخل في شؤون السلطنة متظاهراً بالدفاع عنها عاملاً على اصلاح شأنها .

فكتب الى مسعود عند خروجه على اخيه السلطان مستنكراً افعاله ناصحاً اياه بحقن الدماء وطلب الصلح «٣» . بل كتب الى دبيس بن صدقة المزيدي صاحب الحلة

«١» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٠٥-٢٠٦ ، ٢١٦ . ابن الاثير ج ٨ ص ٢٨٧-٢٨٨ ، البنداري ص ١١٥ - ١١٧ .

«٢» ابن الاثير ج ٨ ص ٢٨٨ ، وقد احتفظ السلطان سنجر بمدينة الري فقط لتكون قاعدة له .

«٣» ابن الاثير ج ٨ ص ٢٨٣ .

ينصحه بالمودة الى طاعة السلطان (١) . ثم لم يجد بدا من أن يتصدى له بنفسه (٢) وكان عليه أن يقاتله بجنود غيره إذ لم يكن للخلافة جيش قائم خاص بها ، فاستدعى الشحنة الذي كان يتولى قيادة جيش السلطنة لكي يستعد للخروج معه ، وكتب الى بعض امراء الاطراف يستدعيهم للخروج ، فلبى نداءه منهم أمراء بني عقيل وقدموا لمساعدته (٣) .

كما دعا الناس جميعاً للخروج معه وطاف رسله يدعونهم للجهاد ، وكان يعلم أن سكان بغداد واطرافها يعيشون في فزع وخوف من اعتداءات دبيس وانهم سيلبون نداءه (٤) . وكان لانتصاره في المعركة التي خاضها بنفسه تأثير كبير ليس على الخلافة فحسب بل على السلاجقة والرأي العام .

فقد اعطاه انتصاره قوة معنوية كبيرة جعلته يباشر سلطاته الدنيوية بنفسه فضلًا عن الروحية ، فشرع في بناء سور بغداد (٥) . ثم استغنى عن الوزير احمد بن نظام الملك الذي كان السلاجقة قد فرضوه عليه من قبل ، واستدعى وزيره عميد الدولة ابن

---

(١) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢١٨ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٩٢ . وكان دبيس نفسه مشكلة من مشاكل السلطنة بما يثيره من الاضطرابات وتشجيعه لاخوة السلطان بالثورة عليه ، وقد كان دوره في هذه المشاكل لا يقل عن دور أبيه في استمرار النزاع بين السلطانين بركيارق ومحمد فيما مضى .

(٢) كان الخليفة قد ارسل خادمه عفيف لينصح دبيس بالكف عن الفساد فلم يصغ له ، بل وجه انذاراً للخليفة بتنفيذ مطاليب معينة وجعل المدة خمسة ايام وإلا قدم بغداد محارباً ، ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٣٥ .

(٣) ابن الاثير ج ٨ ص ٣١٠ .

(٤) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٣٥ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣١٠ .

(٥) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٣ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣١٤ .

صدقة الذي كان منفياً بالحديثة «١» .

وتجرأ الخليفة على استقدام الشحنة السلجوقي وعاتبه على اهماله ثم طلب نقله من بغداد «٢» ، ولم تكن السلطنة قد تخلصت من التفكك والانقسام ، ولم يزل السلطان محمود غارقاً في مشاكله مع اخوته ، وكان الخليفة يشعر بأن السلطان محمود الذي يتولى الحكم في العراق بقسميه العربي والفارسي «٣» لايمثل القوة الحقيقية للسلاجقة ، انما يمثلها عمه السلطان سنجر الذي يتولى امرخراسان والذي يعترف له الجميع بالزعامة والسلطنة. لذلك عمل على تقوية صلته به عن طريق مصاهرته و كسب مودته «٤» .

وعندما حاول طغرل بتحريض من دبيس ان يقصد بغداد وينتزع السلطنة من اخيه محمود «٥» ، وقف الخليفة المسترشد في وجهه واستعد للقائه «٦» .

ويبدو أن الخليفة كان من القوة بحيث ان طغرل ودبيس تجنبا لقاءه بعد أن علما بخروجه من بغداد ، ولم يستطيعا دخول المدينة في غيابه بعد ذلك ، وخرج الخليفة من

«١» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٦ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣١٣ .

«٢» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٩ ، ٢٥٣ . ابن الاثير ج ٨ ص ٣١١ .

«٣» يقصد بالعراق الفارسي مناطق همدان واصفهان والري واذربيجان ومنطقة الجبال وكانت حاضرته مدينة همدان على الاغلب .

«٤» عندما ارسل القاضي الهروي لخطبة ابنته و كتابة عقدها ، ثم ارسل بعدئذ خادمه نظر ، وابن الانباري لاستحضارها ، واعتقد ان الزواج لم يتم فيما بعد بسبب تطور العلاقات بين الخلافة والسلطنة ، بينما نقل ابن كثير الخبر معتبراً ان الزواج قد حصل . لاحظ في ذلك ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٠ ، ابن كثير ج ١٢ ص ١٩٥ .

«٥» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٩ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣١٧ . وكان دبيس قد فر هارباً من وجه الخليفة ثم التجأ الى طغرل بعد ذلك .

«٦» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٩ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣١٧ .

هذه المعركة منتصراً «١» .

وكانت لهذا النصر آثاره البعيدة ، فالسلطان محمود ظن ان الخليفة قد انتصر له . فكتب اليه يشكره قائلاً : « قد علمت ما فعلت لأجلي وانا خادمك وصائر اليك » ثم كشف للخليفة عن كرهه لمشاركة عمه سنجر الحكم ، ودعاه للتعاون معه على عمه لكي يخلص اليه الامر ، ولم يكن احب الى الخليفة من ذلك «٢» .

أما السلطان سنجر فقد احس بأن قوة الخليفة على هذا النحو خطر يهدد السلاجقة ونفوذهم في العراق ، فكتب لابن اخيه بعد ان علم باتفاقه مع الخليفة يحذره من هذا التعاون ويقول له : ان الخليفة قد عزم على ان يمكر بي وبك ، فاذا اتفقتما علي فرغ مني وعاد اليك فلا تلتفت اليه ... ثم يقول : فالله الله ان تعول على ما قال لك ، ويجب بعد هذا ان تمضي الى بغداد ومعك العساكر فتقبض على وزير الخلافة ابن صدقة وتقتل الاكراد الذين قد دونهم وتأخذ النزل الذي قد عمله وجميع آله السفر وتقول للخليفة : أنا سيفك وخادمك وانت تعود الى دارك على ما جرت به عادة آبائك وانا لا احوجك الى تعسف فان فعل وإلا اخذته بالشدة ، وإلا لم يبق لك ولا لي معه حكم «٣» .

وقد أثارت هذه الرسالة شكوك السلطان محمود في نوايا الخليفة ، وقوى من هذه الشكوك ما ظهر من فرار يرنقش الزكوي شحنة بغداد والتحاقه بالسلطان واطلعه على استعدادات الخليفة وعزمه على الانفراد بالحكم بعد ان تشجع بانتصاراته السابقة ،

«١» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٣ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣١٨ . وقد ارسل الخليفة وزيره ابن صدقة لمطاردة طغرل ودبيس بعد هروبهما .

«٢» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٤ .

«٣» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ لاحظ تفصيل الرسالة .

ونصحه بأن يتدبر الامر قبل ان تنجح مشروعات الخليفة ووزيره ابن صدقة«١» .

وكان للخليفة اعوان في بلاط السلاطين يكتبون له اخبارهم ليكون على بينة من امرهم ، وقد احاطوه علماً بما طرأ على الامور من تغير وما عزم عليه السلطان محمود من السير الى بغداد «٢» . وحاول رسل الخليفة الذين ارسلهم ان يثنوا السلطان عن عزمه فلم يفلحوا حتى انهم عرضوا عليه مالاً «٣» .

ويبدو ان موقف الخليفة اصبح حرجاً بعد إصرار السلطان على الخروج الى بغداد ، فقد كان يرغب في تجنب الاشتباك مع السلاجقة لانه لم يكن قد اخذ للأمر عدته ، يستشف ذلك من موقفه بعد ان علم بخروج السلطان ، فقد أمر الناس بالعبور الى الجانب الغربي ، واخرج سرادقه الى ظاهر باب الحلبة استعداداً لمواجهة السلطان ، ثم عدل عن ذلك واعلن انه سيترك المدينة للسلطان حقناً لدماء المسلمين ، فنقل سرادقه الى الجانب الغربي وأمر الناس بالعودة الى الجانب الشرقي .

وعندما اقترب السلطان من بغداد كان الخليفة قد استقر رأيه على اتباع سياسة المقاومة السلبية والبقاء في بغداد ، فأمر بجمع السفن وعبر بها الى الجانب الغربي فانقطع عبور الناس بين الضفتين « كما أمر بسد ابواب داره جميعاً سوى باب النوبي ورسم لحاجب الباب القعود عليه لحفظ الدار ، ولم يبق من اصحاب الخليفة وحواشيه في الجانب الشرقي سواه » «٤» .

«١» نفس المصدر ص ٢٥٣ - ٢٥٥ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٢١ ، الباهر ص ٢٨ - ٢٩ .

«٢» نفس المصدر ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

«٣» ابن الجوزي جـ ٩ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٢١ .

«٤» ابن الجوزي جـ ٩ ص ٢٥٩ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٢١ .

وعندما ادرك السلطان بغداد لم يجد احداً من جنود الخليفة في الجانب الشرقي منها ، فسعى للاتصال بالخليفة واقناعه بالرجوع الى داره فلم يفلح ، ثم اضطر الخليفة الى التخلي عن سلبيته عندما تعرض جنود السلطان لدار الخلافة فكسروا بعض ابوابها وتعرضوا لمن كان فيها من الجواري ، فعبر الخليفة الى الجانب الشرقي بجيشه دفعة واحدة وهاجم جيوش السلطان حتى هربوا خارج بغداد ثم عزم بعد ذلك على القتال دفاعاً عن المدينة ، فأمر بحفر الخنادق أمام الدروب والمسالك ، وكان من المحتمل أن يكسب الخليفة المعركة لولا ان بعض اصحابه من الامراء غدروا به «١» وانضموا الى السلطان ، كما قدم زنكي بجيش من البصرة وواسط نجدة للسلطان ، فرأى الخليفة ان يستجيب لدعوة الصلح واضطر الى قبول الشروط التي فرضت عليه والتي تقضي بتخليه عن كل ما حصل عليه من قوة ومنعة حفظاً لبقية من الهيبة والكرامة .

وقد عاد الخليفة الى التسليم المطلق للسلاجقة بعد قبوله هذه الشروط ففوض اليهم امور البلاد والعباد .

ولم يشر المؤرخون «٢» الى طبيعة هذه الشروط وتفصيلاتها ، ولكن يبدو ان السلاجقة فعلوا بالخليفة ماجاء في رسالة السلطان سنجر من تقييد حريته وتجريده من جنده .

«١» يشير ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣ ، الى ان الذي غدر بالخليفة هو ابو الفتح ابن ورام في جماعة من اصحابه بينما يشير ابن الاثير ج ٨ ص ٣٢٢ الى غدر ابي الهيجاء الكردي صاحب اربل . واعتقد ان ما اورده ابن الجوزي هو الصحيح لانه كان يعاصر الحدث ، فضلاً عن ان ابا الهيجاء قد التحق بالخليفة فيما بعد عند حصار الموصل .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣ – ٤ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٢٢ ، ويُظهر ابن الجوزي كأن الخليفة هو الذي انتصر بينما تفصيله للأحداث يكشف عكس ذلك . اما ابن الاثير فقد اكتفى بالقول ان الخليفة حمل الى السلطان كل ما استقرت عليه القاعدة وأهدى له سلاحاً وخيلاً وغير ذلك .

ومع ذلك لم تخلص السلطنة من المشاكل بانتصارها على الخلافة ، فقد كانت مشاكلها من السلاجقة انفسهم الذين كان الحسد والشك يملأ نفوسهم ويفسد ما بينهم ، وكان الوضع الجديد للسلطنة يفرض على السلطان البقاء في بغداد اكثر ايام السنة مما يؤدي الى ترك خصومه يتعرضون له ويغرون اخوته عليه . وقد اضطر الى ترك بغداد عندما علم بانفصال اخيه مسعود عن ديوان عمه سنجر والتفاف عدد من الامراء حوله ومطالبته بحقه في السلطنة ، لكي يواجه هذه المؤامرة التي دبرت له «١» .

وكان الخليفة يترقب مثل هذه الفرص ، فعندما استأذنه السلطان للخروج قال له : انك تعلم ما بيني وبينك من العهود ، وانني لا اخرج ولا ادون عسكراً ، واذا خرجت عاد العدو وملك الحلة وربما تجدد منه ما تعلم ، وكان رد السلطان « انني اذا رحلت عن العراق وخفت على نفسك والمسلمين وعجزت عن المجيء ، فقد نزلت عن اليمين التي بيننا فمهما رأيت من المصلحة فافعله » «٢» .

وهكذا تخلص الخليفة من بعض القيود التي فرضت عليه ، ثم كانت وفاة السلطان بعد خروجه بأشهر قليلة «٣» نهاية لكل ما فرض عليه من التزامات ، فاستعاد حريته من جديد ، ولكنه كان في غاية الحرص فأعد العدة للافادة من الفراغ الذي حدث

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٠ . اما ابن الاثير ج ٨ ص ٣٣٢ فيشير بوضوح الى ان سنجر هو الذي أمر مسعود بالخروج على اخيه السلطان ، ولعله كان يخاف تعاونه مع الخليفة ضده .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٠ . لاحظ الاشارة الى الشروط التي فرضت على الخليفة في الصلح .

«٣» خرج السلطان محمود من بغداد في ربيع الاول سنة ٥٢٥ هـ وتوفي في منتصف شوال ٥٢٥ هـ .

بوفاة السلطان محمود واستغل ما كان مين تهافت اخوته وبنيه لاحتلال مكانه (١) .

ورغم ان كلمته كانت القول الفصل في تفضيل بعضهم على بعض إلا انه اعلن ان الأمر موكول الى السلطان سنجر الذي كتب اليه « بأن لا يأذن لاحد منهم بالخطبة التي ينبغي ان تكون له وحده » (٢) .

وقد رأى بعض الامراء الطامعين في السلطنة انه من الافضل أن ينحازوا الى الخليفة ويستعينوا به لتحقيق رغبتهم ، فعرض كل من مسعود واخيه سلجوقشاه على الخليفة ان يحالفهم على عمهم وتعهدا بطاعته وتنفيذ أوامره ، فاشترط الخليفة عليهما الاستقلال بالعراق وان تكون السلطنة لمسعود وولاية العهد لاخيه سلجوقشاه » (٣) ولتفقوا على ان يخرج معهم بجيشه لقتال السلطان سنجر الذي كان قد زحف نحو العراق لتأديب بني اخيه ونقل السلطنة الى طغريل ، وكان سنجر قد اوعز الى كل من دبيس وزنكي بمهاجمة دار الخلافة .

وقد أحس الخليفة عند وصوله خانقين بالخطر الذي يهدد حاضرة ملكه فعاد مسرعاً للدفاع عنها ، والتقى بحلفاء سنجر وانتصر عليهم (٤) ، ثم زحف الى الموصل

---

(١) وهم اخوة السلطان الثلاثة مسعود وسلجوقشاه وطغرل ، وابنه داود ، ويشير ابن واصل – مفرج الكروب ج ١ ص ٤٦ الى ان زنكي اوصل يساوم الخليفة على الخطبة لابن محمود الآخر الذي يتولى تربيته ، لاحظ ايضاً حاشية الباهر ص ٤٣ .

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٣٣٥ ، والخبر اكثر وضوحاً عند ابن واصل ج ١ ص ٤٧ .

(٣) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٥ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٣٥ – ٣٣٦ ، الباهر ص ٤٣ – ٤٥ ، ابن واصل ج ١ ص ٤٩ ، ابن خلدون – العبر ج ٣ ص ٥٠٦ .

(٤) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٦ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٣٧ ، الباهر ص ٤٥ – ٤٦ ابن واصل ج ١ ص ٥٠ .

وحاصرها نحواً من ثلاثة اشهر ثم اخضع تكريت لسلطان الخلافة «١» .

وفي الحق كانت حملة الموصل هذه مناورة سياسية اكثر منها عسكرية ، وكانت ضرورية لاستكمال هيبة الخلافة في العراق وإظهار قوتها حتى يظهر السلاجقة بأن العراق قد خرج عن سلطانهم .

وقد ترك هذا النصر أثراً بالغاً على الخلافة وامراء الاطراف والسلاجقة ، فاذا نظرنا الى الطريقة التي ولى بها الخليفة كلا من مسعود وابن اخيه داود السلطنة «٢» لتبينا مدى الفرق الكبير بين قوة الخليفة وثقته بنفسه وضعف السلاطين واستخذائهم فقد روي انه خاطبهم بقوله : « تلق هذه النعمة بشكرك واتق الله في سرك وجهرك » ثم سلم اليه ابن اخيه داود قائلا له انهض وخذ ما آتيتك به وكن من الشاكرين» «٣» .

ولم يقف الخليفة عند هذا الحد ، فلما هزم مسعود أمام اخيه طغرل استدعاه الخليفة ليرفع من شأنه وامده بالاموال والتحف ، فلما احتمى به بعض الامراء هربا من الخليفة وامتنع عن تسليمهم كتب اليه يقول : « انما افعل ذلك من اجلك وانصبك نوبة بعد اخرى » «٤» .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٠ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٠ ، الباهر ص ٤٧ ، ابن واصل ج ١ ص ٥٢ ، ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٠ ، وكان الخليفة بعد رجوعه من المعركة قد أمد مقطع الحلة خادمه اقبال المسترشدي بجيش عقب به دبيس حتى اضطره الى الاحتماء بالمستنقعات .

«٢» كان مسعود قد هرب من المعركة أمام عمه سنجر بينما كان داود قد هرب أمام عمه طغرل .

«٣» ابن القلانسي - ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٨ ، البنداري ص ١٥٩ - ١٦٠ وكان ذلك في محرم ٥٢٧ هـ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٥ - ٣٦ ، وكان ذلك في ذي الحجة ٥٢٨ هـ .

ولما تخاذل مسعود عن الخروج لقتال اخيه طغرل ثانية أمر الخليفة الشحنة الذي اصبح يتلقى الامر منه « بأن يذهب الى مسعود ويأمره بالخروج وإلا ان يحط خيامه » «١».

كما اضطر سنجر أن يعيد صلته بالخليفة المظفر ، فعندما وصله رسول الخليفة بالخلع احتفل به احتفالاً كبيراً حتى لقد قبل حافر الفرس الذي ارسله الخليفة له واعلن طاعته وعبوديته «٢» ، وترك كثيرون من الامراء خدمة السلاطين والتحقوا بالعمل في ديوان الخليفة «٣» .

ولكن يخيل الينا أن ما وصلت اليه الخلافة من منعه ، واستمرار تفكك السلاجقة وضعفهم قد جعل الخليفة اكثر اندفاعاً وأقل حذراً في استعجال نهاية السلاجقة ، فأدى ذلك الى تورطه في اخطاء كثيرة عجلت بنهايته ، وقد اشار ابن منقذ الى ذلك بقوله : « وذلك الاقدام العظيم كان سبب تلفه » «٤» ، ومن هذه الاخطاء التي وقع فيها وثوقه بالامراء الاتراك الذين انحازوا اليه هرباً من مسعود والذين كانوا يشجعونه على الخروج من بغداد لقتاله ، خاصه مع انه كان معروفاً ان امثال هؤلاء لا يستقرون على ولاء لاحد وانهم كثيراً ما انتقلوا من خدمة سلطان لآخر «٥» ، فضلاً عن انه لم تكن هناك حاجة ماسة لخروجه من بغداد .

كما انه لم يستمع الى نصيحة مستشاريه الذين كانوا اكثر دراية وفهما لطبيعة

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤١ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٥ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٥ ، ٤٢ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٥ ، ٤١ . ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٥ ، البندار: ص ١٦١ ، الحسيني - اخبار الدولة السلجوقية - ص ١٠٧ ، سبط ابن الجوز: مرآة الزمان ج ٨ ص ١٤٧ .

«٤» ابن واصل ج ١ ص ٥٠ - ٥١ .

«٥» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤٣ - ٤٤ ، تاريخي كزيدة ص ٣٦٢ .

الاوضاع السياسية القائمة اذ ذاك ومعرفة بأخلاق هؤلاء الامراء . قال ابن الانباري سديد الدولة يخاطب الخليفة «١» : « الى اين نمضي ? وبمن نعتضد ? والى من نلتجىء ? ومقامنا هنا ببغداد امكن لنا ولا يقصدنا احد ، والعراق ففيه الكفاية » .

ولكن الخليفة لم يستمع لهذا النصح ، وأبطأ الخليفة في سيره عند خروجه لقتال مسعود حتى أفسح المجال له ليستصلح الامراء المنشقين عليه ، ولم تصله النجدات التي وعده بها بعض امراء الاطراف ، فضلاً عن تسلل قسم من جيشه وانضمامه للعدو «٢» وعندما التقى الجمعان في منطقة داي مرج ملل الجنس الى الجنس كما قال الاصبهاني «٣» وانضم الاتراك الى السلطان ، ولم يبق مع الخليفة إلا من تبعه من أهل بغداد الذين لم يصمدوا في القتال ، وقد أسر الخليفة ثم قتل بعد ذلك في ذي القعدة «٤» ٥٢٩ هـ

«١» ملحق رقم (٢) حديث ابن الفارقي وكان جواب الخليفة بيتاً من الشعر يكشف عن تصميم الخليفة وهو :

إذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤٥ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٨ .

«٣» البنداري ص ١٦٢ ، وكان الخليفة قد اعتمد في هذه الفترة على الاتراك في تكوين جيشه بالاضافة الى المتطوعة العرب من اهل بغداد ، بينما كان قد اعتمد على الاكراد قبل ذلك .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤٥ ، ٤٩ . ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٨ ، ويتحمل السلطان سنجر وابن اخيه مسعود مسؤولية تدبير جريمة مقتله بالرغم من محاولتهم اتهام الباطنية بذلك ، ولا يستبعد أن يكون الباطنية هم الذين قاموا بالقتل او بعض الجند السلجوقي الذين تزيوا بزي الباطنية ولكن ذلك تم بمعرفة السلاجقة انفسهم الذين كثيراً ما استعانوا بخناجر الباطنية للتخلص من خصومهم . ومما يلاحظ ان المؤرخين الذين ارخوا لهذه الحادثة انقسموا الى قسمين ، فالاول منهم وخاصة اولئك الذين كانوا يعيشون في دائرة الخلافة وعلى قريب من الاحداث اشاروا اشارات خفيفة الى الحادث ـ

بعد أن دوخ الخلافة السابقة وأضعف من شأنهم، وجعل من حياته سبيلاً حمى به كرامة الخلافة ورسم بدمه طريقاً للخلفاء من بعده .

ولم يكن الراشد أبو جعفر المنصور ولي العهد الشرعي بمستوى الاحداث عندما تولى الخلافة بعد ابيه «١» فقد استولى السلاجقة على بغداد وصادروا ما فيها من اموال، حتى ان املاكه لم تخلص من أيديهم ، وكان من رأيهم أن لا يتولى « الخلافة رجل لا ينصرف الا الى امور الدين » «٢» فلم يرتاحوا لخلافة الراشد ، واعتقدوا انه سيسلك سبيل ابيه «٣»، فشرعوا يضايقونه قبل أن يستقر وأرسلوا يرنقش الزكوي يطالبه بمبلغ كبير من المال كان الخليفة المسترشد قد تعهد به ، مع علمهم بخلو ذات يده من المال بعد ان صادروا املاكه «٤» .

ـ او اهملوا التعليق عليه مثل ابن الجوزي في منتظمه الذي يعتبر المصدر الوحيد الذي كان ينشر تفصيلات احداث الخلافة الشهرية ، فان اشارته كانت غامضة . اما ابن الاثير فانه لم يشر مطلقاً الى شيء من جريمة الاغتيال ، وقد يكون سبب ذلك انهم كانوا يعيشون في العراق وان نشر ذلك يؤذي مشاعر الحاكمين .

اما القسم الثاني وهم الذين يعيشون خارج دائرة الخلافة فقد وجهوا الاتهام بصراحة الى السلاجقة ومن هؤلاء المعاصرين ابن القلانسي ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ، والعماد الاصبهاني في كتابه ـ دولة آل سلجوق ـ الذي اختصره البنداري ص ١٦١ ـ ٢٦٢ . بالاضافة الى تأكيد ابن دحية في النبراس ص ١٥١ ، وابن الطقطقي ص ٣٥٠ ، وابن العبري ص ٣٥٥ ، وابن واصل ج ١ ص ٦١ ـ ٦٢ وغيرهم .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٠ ، العماد الاصبهاني ـ جريدة العصر ص ٣٢ ، ابن دحية ص ١٥١ ، ابن الدبيثي ذيل على ذيل ـ الورقة ٩ .

«٢» ملحق رقم (٢) حديث ابن الفارقي .

«٣» نفس المصدر السابق .

«٤» كان مقدار المبلغ الذي طالب به يرنقش مليون ونصف من الدنانير موزع ـ

وقد أحس الخليفة بما يبيتون فكتب الى يرنقش قائلاً : « قد علمنا في اي أمر جئت ، وقد كنا تركنا البلد مع الشحنة والعميد ولم نعارضهما فلما جئت انت بهذه الامور الصعبة فما بيننا وبينك إلا المهانعة» «١» وكان هذا الجواب ايذاناً بالعداء السافر بينه وبينهم .

ولم يكن الراشد قادراً على التصدي لهم ، فقد ظهر ضعفه وثبت عجزه عندما اجتمع حوله كل من جهر بالعداء للسلطان مسعود ورغب في الحصول على مغنم جديد مثل الاتابك زنكي وداود ابن السلطان محمود وغيرهم «٢» فلم يستطع أن يوفق بين رغباتهم ومصلحة الخلافة ، فضلاً عن انقسام حاشيته على نفسها وهروب وزيره ابن صدقة خوفاً على نفسه واحتمائه بزنكي «٣» .

كما ظهر ضعف الخليفة وعجزه عن وضع خطة سياسية وعسكرية يستهدي بها اصحابه في قتال مسعود ، بدلا من التردد بين الخروج لقتاله اوالبقاء والدفاع عن المدينة حتى استقر رأيهم اخيراً على البقاء في بغداد والدفاع عنها ، فسدوا بعض ابواب السور لئلا يهرب الجيش وينضم الى مسعود «٤» .

ولكن هذا السجن الاختياري الذي وضع الخليفة نفسه واصحابه فيه اضعف من عزيمة الامراء وأثار الشك بينهم ، كما عملت رسائل مسعود على تفرقة كلمتهم فانسحب

— على ثلاثة مصادر فصلها ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٤ ، اما ابن الاثير ج ٨ ص٣٥٢ فانه يذكر ان المبلغ كان اربعمائة الف دينار .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٤ ـ ٥٥ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٥٢ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٥ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٥٢ ، ابن واصل ج ١ ص ٥٨ ، ٦٣ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٥ ـ ٥٦ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٥٢ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٨ .

معظمهم الى بلاده «١» ، وأنف الخليفة من مصالحة السلطان مسعود وأدى به الأمر الى الاحتماء بزنكي والرحيل معه الى الموصل التي لم يستقر فيها كثيراً لانحراف زنكي عنه بتأثير من مسعود ، فخرج هائماً على وجهه في قلة من اصحابه حتى استقر في اصبهان حيث لقي حتفه على يد جماعة من الباطنية «٢» .

وكان السلاجقة قد ولوا بعد خروجه من بغداد عمه ابا عبدالله محمد بن المستظهر الذي تلقب بالمقتفي لامر الله ، وحرصوا على تجريده من اي نوع من السلطان حتى لا يعيد معهم قصة المسترشد وابنه ، حدثنا ابن الانباري وهو أحد الثلاثة الذين قاموا بالسفارة بين السلطان والخليفة قال «٣» : « وأصبحنا يوم الاثنين فحضرنا عند الامير ابي عبدالله محمد بن المستظهر ، وتحدث معه الوزير ، وتحدثنا معه وشرطنا عليه القيام بأمر الخلافة وطاعة السلطان وأعلمناه اننا قد ضمنا للسلطان جميع ما اقترحه علينا فرضي بذلك وانفصلنا عنه » .

واشار ابن الجوزي «٤» « الى ان مسعود كان قد استولى على جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغال وأثاث وذهب وفضة .... ولم يترك في الاصطبل الخاص

«١» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٥٨ - ٥٩ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٥٤ .

«٢» خرج الخليفة من بغداد في منتصف ذي القعدة ٥٣٠ هـ . وكان مقتله في اصبهان في آخر رمضان ٥٣٢ هـ . ومن المحتمل ان يكون القتلة من اعوان مسعود او بتحريض منه لما في وجود الراشد في هذه المنطقة واتصاله بداود من خطر على سلطانه ، ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٥٩ ، ٧٢ ، ٧٦ . العماد الاصبهاني - ص ٣٢ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٥٤ ، ابن دحية ص ١٥٢ ، ابن واصل جـ ١ ص ٦٦ .

«٣» ملحق رقم (٢) حديث ابن الفارقي .

«٤» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٦١ .

سوى اربعة ارؤس من الخيل وثلاثة من البغال برسم الماء ، كما ذكر البنداري «١» « ان الامام المقتفي لما استخلف استحلف على ان لا يشتري مملوكاً تركياً » ..

ولم يكتف السلاجقة بتجريد الخليفة من امواله بل فرضوا عليه وعلى الناس مبالغ كبيرة اشبه بما نسميه الآن « بتعويضات الحرب » وقبضوا على خازن بيت ماله لانه لم يوفهم بقية الديون ، كما استولوا على التركات الحشرية التي تؤول اليه حتى لم يبق له الا العقار الخاص «٢» . روى ابن الاثير ان السلطان لما سأل الخليفة عن حاجته لكي يقررها له إجابه بقوله «٣» : « ما ادرى قدر ما نحتاج اليه ، ولكن لنا غلمان بغلا تنقل الماء من دجلة مع قربه من بكرة الى آخر النهار للشرب لا يستعمل منه في غيره شيء فانظروا حينئذ ما وراء هذا وقوموا لنا به » .

ولكن الخليفة المطيع الضعيف بدأ يختار الظروف المناسبة التي يسترجع فيها شيئاً من سلطانه المسلوب ، فقد توسل بسلطانه الروحي ليحد من تعسف السلاجقة في فرض الضرائب والغرامات على الخلافة والناس ، فكتب الى السلطان قائلا «٤» : « ما رأينا اعجب من أمرك ، انت تعلم ان المسترشد سار اليك بأمواله فجرى ما جرى وعاد اصحابه عراة . وولي الراشد ففعل ما فعل ثم رحل واخذ ما بقي من الاموال ، ولم يبق في الدار سوى الاثاث فأخذته جميعاً وتصرفت دار الضرب ودار الذهب واخذت التركات والجوالي . فمن أي وجه نقيم لك هذا المال ؟ . وما بقي إلا ان نخرج من الدار ونسلمها لك فانني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلماً » .

«١» البنداري ص ٣١٥ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦٣ ، ٦٨ .

«٣» ابن الاثير ج ٨ ص ٣٥٥ ، الباهر ص ٤٤ ، ابن الطقطقي ص ٢٥٧ وهو يذكر انهم قرروا له ما كان للمستظهر .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦٦ ، السيوطي ص ١٧٥ .

ولما دخل مسعود بغداد عام ٥٤١ هـ وأنشأ فيها داراً للضرب « قبض الخليفة على من كان السبب في ذلك فنفى الشحنة السلجوقي وقبض على حاجب الباب واربعة من خواص الخليفة ورفض أن يسلمهم حتى يطلقوا الضراب ، فأمر الخليفة بغلق المساجد ثلاثة أيام ، فأطلق الشحنة الحاجب » (١) .

وكان الخليفة في سياسته يتجنب الاصطدام المباشر بالسلطان لئلا يضطر الى اتخاذ موقف ليس في صالحه ، فمثلا استغل المصاهرة بينه وبين مسعود فأرسل عمالاً على بعض البلاد دون مشاورة وزيره ابن طراد الذي كان قد تمكن من الدولتين ، فغضب الوزير وأخذ يثقل على الخليفة ويمنع عنه اصحابه ، فقبض الخليفة على حاجب الوزير الذي خاف على نفسه وطلب الحماية من السلطان ، ولم يرد السلطان أن يغضب الخليفة صهره فتخلى عن الوزير وتخلص الخليفة بذلك من عين من عيون السلطان عليه (٢) .

كما استغل تسوية النزاع وإقرار الصلح بين السلطان وزنكي فأرسل رسولا الى الموصل لاقرار زنكي على ولايته واستثنى من اقطاعه منطقة صريفين (٣) .

وعندما عاد السلاجقة الى انقساماتهم التقليدية وطمعهم في السلطنة سعى الخليفة لاستغلال ذلك لمصلحة الخلافة ولاسترجاع شيء من حقوقها المغتصبة ، فقد ثار الاتابكة والامراء على السلطان متخذين من ابناء محمود ستاراً يحتمون به ، ويشير ابن الجوزي الى جماعة من هؤلاء دخلوا بغداد في ربيع ٥٤٣ هـ بحجة تأييد محمد شاه ، واعتدوا على

---

(١) ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١١٩ .

(٢) ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٨٥ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٦٨ . وكان الخليفة قد تزوج من اخت السلطان بينما زوج السلطان من ابنته ، فأصبح الخليفة صهراً وعماً للسلطان في وقت واحد .

(٣) ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٠٨ ، كان لزنكي اقطاع خاص به في بغداد يشمل منطقة صريفين ودرب هارون .

الناس ، فكتب الخليفة الى مسعود قائلًا : « اما الشحنة الذي من قبلك فقد هرب هو وامير الحاج الى تكريت وقد احاط العسكر بالبلد وما يمكنني ان آخذ عسكراً لأجل العهد الذي بيننا ، فدبر الآن » . فكتب السلطان « قد برئت ذمة امير المؤمنين من العهد الذي بيننا وقد أذنت لك ان تجند عسكراً وتحتاط لنفسك وللمسلمين » «١» . فكان هذا الاذن نذيراً بانطلاق الخلافة في طريقها الصحيح «٢» ، فقد جند الخليفة الجند وحفر الخنادق وحصن الابواب ودعا الناس الى الجهاد للدفاع عن اموالهم وانفسهم واستعد للمقاومة في الوقت الذي كان فيه رسله قد بعثوا الى الخارجين يقبحون اعمالهم وينصحونهم بالكف عن العدوان ، وقد استجاب الكثيرون منهم لنداء الخليفة وتفرقوا في البلاد «٣» .

إذن أصبح للخليفة جيش منتظم يخضع له ، ووزير حازم يدبر شؤون الخلافة ويرعى مصالحها «٤» .

لكنه بالرغم من ذلك لم يحاول أن يستغل قوته في ضرب السلاجقة وقطع صلته بالسلطان مسعود رغم ضعفه وثورة الامراء عليه «٥» ، فقد كان من رأيه أن قوته مقصورة على بغداد .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٣١ - ١٣٢ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٢١ - ٢٢ ، البنداري ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

«٢» كان هذا الموقف شبيهاً بموقف المسترشد بعد أن عجز السلطان محمود عن الوصول الى بغداد .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٣٣ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٢٩ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٣٧ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٢٦ ، ابن الطقطقي ص ٣٦٠ . استوزر الخليفة بعد هذه الاحداث ابو المظفر يحيى بن هبيرة الذي اصبح نعم المساعد له .

«٥» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٣٨ . لاحظ رسالة سنجر الى مسعود .

وان الامراء الذين يجاهرون مسعوداً بالعداوة لا يمكن الاطمئنان اليهم ، فقد سبق لهم أن والوا اخاه المسترشد وابنه ، ثم انفضوا عنهم ، وكان يدرك ايضاً أن مسعود لا يمثل القوة الحقيقية للسلاجقة وعمه سنجر على قيد الحياة لذلك استمر محتفظاً بصداقة مسعود متخذاً إياه درعاً للخلافة في وجه السلاجقة الطامعين .

ثم كانت وفاة السلطان مسعود في رجب ٥٤٧ هـ نهاية للسلاجقة في العراق فقد « ماتت معه سعادة البيت السلجوقي ولم تقم لهم بعده راية يعتد بها ولا يلتفت اليها »(١) وتحرر الخليفة من العهود التي كان قد ارتبط بها ، ونشط لاستكمال سيادته ، فاستولى على مخلفات الشحنة الذي كان قد هرب الى تكريت ، وأمر بجمع الجيوش وخرج على رأسها ومعه وزيره ابن هبيرة ، فنشر سلطانه على الحلة والكوفة وواسط (٢) وكانت الانباء التي وصلت عن هزيمة السلطان سنجر أمام الغزو (٣) مشجعة له على الاستمرار في ملاحقة بقايا السلاجقة وطردهم من العراق ، فأرسل جيشاً الى تكريت ثم زحف بنفسه اليها وحاصرها ، كما انحدر نحو واسط وبسط سلطانه على البصرة (٤) ، وكان الخليفة يرقب تجمعات السلاجقة وحركاتهم فيستعد لها لئلا يؤخذ على غرة ، كما كان يهاجم قلاعهم بالعراق ليستولي عليها او يضعف من مقاومتها مثل تكريت ودقوقا (٥) ، وقد التقى ببعض جموعهم التي زحفت تريد فرض محمد شاه على الخلافة فقضى عليهم عند

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٣١ .
(٢) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٤٧ - ١٤٨ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٣٢ .
(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٧ - ٣٨ ، البنداري ص ٢٥٩ .
(٤) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٤٣ .
(٥) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٥٦ - ١٦١ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٤٤ ، ٤٧ .

نهر بكمزا قرب بعقوبة «١» ، ثم اخـــذ يستعد لمواجهة محمد شاه الذي كان يطالب بالسلطنة والذي اجتمع حوله معظم امراء السلاجقة ، وكان في نفس الوقت حريصاً على ان يبث الانقسام بينهم لكي يضعف من شأنهم فأجار سليمانشاه بن السلطان محمد الذي التجأ اليه بعد أن أذلته الحياة ولفظته البلاد منذ أسر عمه سنجر «٢» ، وحاول ان يجعل منه قوة يضرب بها محمد شاه ، ثم شعر بأن سليمانشاه اضعف من ان يستطيع ذلك فشد ازره بابن اخيه ملكشاه شقيق محمدشاه الذي استدعاه لهذا الامر ، واشترط عليهما عدم التطلع الى العراق وان لهما ما يفتحانه من بلاد خراسان ، ثم خلع على سليمانشاه لقب السلطنة وخطب له بعـد عمه سنجر «٣» ، وجعل ملكشاه ولي عهده ، واختار لهم وزيراً وجهز لهم جيشاً ثم قذف بهم في وجه محمد شـــاه ليضرب بعضهم بعضاً ويجعل بأسهم بينهم «٤» .

ولكن هذا الحلف الذي أراد الخليفة ان يحتمي به ويشغل السلاجقة انهار بسرعة وبات عليه ان يواجـه السلاجقة ويخوض معهم المعركة الفاصلة التي شرع يستعد لها سياسياً وعسكرياً .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٥٦ ، ١٥٧ . ابن الاثير ج ٩ ص ٤٤ - ٤٥ ، البنداري ص ٢١٥ - ٢١٦ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٦١ ، البنداري ص ٢٢٠ .

«٣» كان معروفاً ان الخلافة لا زالت تخطب للسلطان سنجر ، ولذلك فلم يكن مما يغض من مركز الخليفة ان يخطب لسليمانشاه بعد عمه ما دام يحقق بذلك غرضاً سياسياً يخدم الخلافة .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٦٤ - ١٦٥ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٤٨ - ٤٩ ، البنداري ص ٢٢١-٢٢٢ . وهو يشير الى انهم لم ينعتوه إلا بالمعظم ولم يسموه بالسلطنة، الراوندي ص ٣٨٢ ويلقبه بالسلطان المستجير لاحظ ان الخليفة هو الذي اختار له الوزير شرف الدين الخراساني .

ففي الميدان السياسي ، استمر على اتصال بالامراء المناوئين لمحمد شاه ، خاصة اخيه ملكشاه الذي اصبح يحلم بالسلطنة بعـــد أسر عمه سليمانشاه «١» ، كما اتصل بالامراء الآخرين وأغراهم بالوعود«٢» ، فقاموا بمهاجمة همدان قاعدة محمدشاه ، فاضطر أصحاب محمد شاه عندما وصلتهم الاخبار الى الانسحاب من المعركة «٣» وتركه وحده في الميدان يحاصر بغداد ، فلم يقو على البقاء خاصة بعد ان غدر به قائد جيش الموصل «٤» فرحل عن بغداد بعد أن دام حصاره لها اكثر من ثلاثة اشهر «٥» ، وكان انسحابه نهاية لحكم السلاجقة في العراق ، فلم تنجح كل المحاولات التي قاموا بها بعد ذلك لدخول بغداد ، ولم يقم الخليفة بتعقب محمد شاه او مهاجمة مؤخرته حذراً من مكائده ، ثم جمع الامراء الذين يخشاهم فخلع عليهم واعطاهم الاموال وارسلهم الى همدان ليكونوا مع ملكشاه «٦» .

وقد توفي السلطان سنجر بعد شهر من هذا النصر الكبير فتحرر الخليفة بوفاته من كل سلطان دخيل «٧» .

«١» كان سليمانشاه بعد فشله في الحرب مع ابن اخيه محمدشاه قد عزم على الرجوع الى بغداد فاعتقل في طريقه وسجن في احدى قلاع الموصل .

«٢» منهم الاتابك الدكز الذي كان يتقرب الى الخـــلافة ليضمن لابن زوجته ارسلانشاه الخطبة .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٧٤-١٧٥ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٥١ . ومن المحتمل ان الخلافة راسلت نور الدين الذي ارسل بدوره الى علي كوجك يأمره بالانسحاب .

«٥» دام حصار محمدشاه لبغداد من منتصف محرم حتى آخر ربيع الآخر ٥٥٢ هـ .

«٦» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٧٥ .

«٧» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٧٦ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٥٥ ، البنداري –

انشاء القوات المسلحة

على ان الخلافة وهي تصارع السلاجقة لاسترداد سلطانهم منهم ، لم تغفل عن انشاء الجيش لتدعيم سلطانها ، وقد لاحظنا ان المتغلبين جردوا الخلافة من جيشها وفرضوا طاعتهم على الناس ، وان المسترشد عندما نهض لاسترداد سلطانه كان مضطراً اول الامر الى الاعتماد على جيوش غيره «١» ، فلما احس بخطرها عليه اعلن النفير بين الناس ودعاهم الى التجنيد العام واستطاع بفضل الحماس الديني الذي أثاره دعاته تجنيد عدد كبير من اهل بغداد والسواد ، فكانت هذه اول محاولة من الخلافة لبناء جيشها ، كما كانت اول مرة يتصل فيها الخليفة بالشعب ويدعوه للدفاع عن نفسه بعد ان ظل يعتمد على غيره طيلة ثلاثة قرون او تزيد «٢» .

وقد تشجع الخليفة بعد انتصاره على اعادة النظر في انشاء الجيش وتوسيع قاعدته فعدل عن التطوع الموسمي واتجه الى استخدام الاكراد وجعل منهم جنداً نظاميين وخصص لهم ارزاقاً كافية ، كما احتفظ بمن بقي من اهل بغداد والسواد على الولاء له .

وقد نمت هذه القوات بسرعة بفضل اهتمام الخليفة المتزايد الذي كان يعلق عليها

— ص ٢٦٠ . وقد توفي سنجر في آخر ربيع الاول ٥٥٢ هـ وكان قد هرب من الاسر قبل ذلك بقليل . ووصل خبر وفاته الى بغداد في آخر جمادى الآخرة أي بعد ثلاثة اشهر ، فقطعت خطبته ولم يجلس له الديوان للعزاء .

«١» لاحظنا انه اعتمد على الجيش السلجوقي وعلى جيوش بعض امراء الاطراف .

«٢» يمكن القول ان الخلافة اعتمدت على غيرها بالدفاع منذ أن استخدمت الاتراك الذين استولوا على الامور فيها وتصرفوا بالبلاد .

اكبر الآمال «١» ، حتى لقد بلغ مقدارها بعد سنة من انشائها اثني عشر الفاً «٢» سوى الرجالة واهل بغداد .

وقد أحس السلطان سنجر بخطر هذه القوة التي تأتمر بأمر الخليفة فأمر ابن اخيه محمود « بأن تمضي الى بغداد وتقتل الاكراد الذين قد دونهم وتأخذ النزل الذي قد عمله وجميع آلة السفر وتقول للخليفة : أنا سيفك وخادمك » «٣» .

وقد كان الخليفة قادراً على منع السلطان محمود من تنفيذ أمر عمه لولا وقوع بعض الاحداث التي غيرت ميزان القوى بين الطرفين «٤» وارغمت الخليفة على قبول الصلح وتسريح القوات ، وان كان قد ظل يترقب الفرصة ليعيدها من جديد ، وما لبث ان استغل ضعف السلطان وخروج اخوته عليه وطمعهم في ملكه ، وخروجه من بغداد لتأديبهم فذكره بخطر تركه بغداد مع قرب العدو منها وعدم استطاعته الدفاع فاضطر السلطان ان يحله من المواثيق وسمح له بتدوين الجند والدفاع عن المسلمين وعن

«١» تشير مخلفات الخليفة الفكرية من نثر وشعر الى حقيقة هذه الآمال ، ولعل بعض ابياته من الشعر تكشف لنا عن طموحه وتعلقه بالمستقبل عندما يقول :

أنا الاشقر الموعود بي في الملاحم ومن يملك الدنيـا بغير مزاحم
ستبلغ ارض الروم خيلي وتنتضي بأقصى بلاد الصين بيض صوارمي

لاحظ في ذلك العماد الاصبهاني ص ٣٠ - ٣١ ، ابن شاكر ج ٢ ص ١٢٥ .

«٢» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٢ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣١٨ مع ملاحظة ان هذا العدد يمثل جيش الخلافة والشحنة .

«٣» لاحظ تفصيل الرسالة في ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

«٤» منها خيانة بعض قواد الخليفة والتحاقهم بالعدو ، ومنها وصول نجدة قوية للسلطان يقودها زنكي .

نفسه اذا تعذر على السلطان أن يعود «١» ، ثم توفي السلطان بعد خروجه من بغداد بأشهر قليلة فتحرر الخليفة من كل القيود التي فرضت عليه ونشط ثانية لاعادة بناء الجيش مستغلاً انقسام السلاجقة وتنازعهم على السلطنة ، كما تحالف مع اثنين من اخوة السلطان وخرج بهم لقتال عمهم السلطان سنجر ، وتمكن الخليفة بجيشه الجديد الذي اعتمد في تكوينه «٢» على الاتراك من دحر زنكي ودبيس ودفعهما عن بغداد ووصل هذا الجيش الذروة عند زحفه الى الموصل وحصاره إياها نحواً من ثلاثة اشهر ، فقد بلغت عـدته ثلاثين الف مقاتل «٣» .

وقد تمكن الخليفة من فرض سلطانه على امراء الاطراف الذين كانوا يدينون بالطاعة للسلطنة «٤» ، ولم يجد سنجر مفراً من أن يراسل الخليفة ويهاديه ويستعيد الصلات المنقطعة ، وكان الخليفة امعاناً في إظهار قوته يأمر باجراء العرض العسكري

«١» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٠ ، لاحظ اشارة الخليفة الى شروط الصلح التي فرضت عليه .

«٢» نعلم هذا من ملاحظة المعركة الاخيرة بينه وبين مسعود حيث يشير الى ان جيش الخلافة كان مكوناً من الاتراك والعرب من سكان بغداد والسواد . اما الاكراد فيظهر ان الخليفة لم يحاول ان يثير السلاجقة باستخدامهم او انه استخدمهم ولكن بأعداد قليلة .

«٣» وأرى ان هـذا العدد يمثل الجيش النظامي والمتطوعة الذين خرجوا مع الخليفة فضلاً عن الامراء الذين التحقوا بالخليفة عند الحصار ومنهم ابو الهيجاء الكردي وغيره . اما تعداد جيش الخلافة فكان اثني عشر الفاً كما يقول ابن الجوزي الذي عاصر هذه الاحداث جـ ١٠ ص ٣٠ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٤٠ .

«٤» من هؤلاء زنكي الذي راسل الخليفة بالطاعـة والهدايا ثم ارسل ابنه يحمل مفتاح المدينة ، وكذلك بهروز صاحب تكريت الذي عصى على الخلافة ثم اعلن طاعته.

في المناسبات والاعياد فيمنع الناس من الركوب ويخلع على الامراء ويخرج الجيش في زي مهيب «١» ، وقد أدت هذه القوة الكبيرة الى إغراء كثير من الامراء الاتراك بالالتحاق بخدمته ، كما دفعته الى التهور في معاملة السلاجقة الامر الذي أدى الى هزيمته النكراء التي أشرنا اليها ، حيث غدر به الاتراك وخانوه ولم يصمد معه إلا اهل بغداد .

ولم يستطع الراشد وهو في زحمة الاحداث بناء جيش جديد للخلافة «٢» ، فقد ضايقه السلاجقة وجروه الى المعركة قبل ان يستعد لها فاضطر الى الاعتماد على جيوش الامراء الذين وقفوا الى جانبه في المعركة «٣» ، فلما تخلوا عنه اضطر الى ترك بغداد لاجئاً الى الموصل .

لذلك حرص السلاجقة على حرمان الخليفة الجديد المقتفي لامر الله من كل اسباب القوة . يقول ابن الجوزي «٤» : « ان مسعود بعث فأخذ جميع ما كان في دار الخلافة من خيل وبغل وأثاث ... ولم يترك في الاصطبل الخاص سوى اربعة اروس من الخيل وثلاثة من البغال برسم الماء ، فقيل : انهم اخذوا ذلك ليحسبوا مما تقرر على الخليفة ، وقيل : بل بايعوا على ان لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر » .

كما يذكر البنداري ايضاً ان السلاجقة عندما استخلفوه « استحلفوه على ان لا

«١» من هذه الاحتفالات ما أمر بها الخليفة في عيد الفطر سنة ٥٢٨ هـ حيث كان تعداد جيش الخلافة خمسة عشر الف فارس سوى من كان غائباً عن البلد ، ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٥ .

«٢» يشير ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٤ ، الى انه استدعى الشحنة وخلع عليه واعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال : دون بهذا عسكراً .

«٣» من هؤلاء داود ابن السلطان محمود وزنكي ويرنقش البازدار والبقش الكبير وصدقة بن دبيس .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦١ .

يشتري مملوكاً تركياً » (١) .

وبقي الخليفة مجرداً من كل وسائل القوة موضوعاً تحت رقابتهم ورقابة أعوانهم حتى سنة ٥٤٣ هـ حين خرج كثير من الامراء عن طاعة مسعود وزحفوا الى بغداد فلم يستطع الخليفة منعهم من الاعتداء على الناس ، فكتب الى مسعود يستدعيه لدفعهم ويخبره بهروب شحنته الى تكريت وانه لا يستطيع تدوين الجند بسبب العهد الذي التزم به ، فاضطر السلطان حينذاك الى تبرئة ذمته والاذن له بتجنيد الجند والدفاع عن المسلمين (٢) .

وقد شرع الخليفة في تجنيد الجند وحفر الخنادق وأرسل رسله الى الامراء المتمردين ينصحهم بالكف عن أذية الناس ونهبهم ، فاستجاب له بعضهم (٣) واستمر آخرون في غيهم . ثم استعرض الخليفة جنوده في ميدان الحلبة (٤) وعبأ العامة وأثار فيهم الحمية الدينية ودعاهم لحمل السلاح والدفاع عن انفسهم واموالهم ، وتصدى للمعتدين فأغلق بعض ابواب السور واشتبك جنوده مع هؤلاء المتمردين حتى قهرهم .

ولما تعرضت بغداد لهجوم امراء السلاجقة المتمردين على مسعود في رجب ٥٤٤ هـ لم يحاول الخليفة ان يعرض قواته الفتية للامتحان ، وانما اكتفى بمراسلة الخارجين

---

(١) البنداري ص ٢١٥ .

(٢) ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٣١ - ١٣٢ . ابن الاثير جـ ٩ ص ٢١ - ٢٢ ، البنداري ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) من هؤلاء الذين استجابوا للخليفة البقش الذي رحل الى خارج البلد تطيباً لقلب الخليفة ، ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٣٣ .

(٤) أمام باب الحلبة احد ابواب بغداد الواقع في الجهة الجنوبية الشرقية منها وقد عرف بعدئذ بباب الطلسم .

واستدعاء مسعود لصدهم «١» . ثم احس بعد وفاة مسعود ان الوقت قد حان ليضع هذه القوات في المكان الذي اراده لها ، « فنادى انه من تخلف من الجند ولم يحضر الديوان ليدون ويجري على عادته في اقطاعه ابيح دمه وماله » «٢» ، واستولى على مخلفات الشحنة الذي هرب خوفاً منه ثم قام بتطهير بغداد من اعوان السلاجقة ومن ينتمي اليهم من الاعاجم ، وتفرغ بعد ذلك لفرض سلطانه على اقسام العراق المختلفة التي كان يتولى امرها السلاجقة او نوابهم ، وأرسل وزيره ابن هبيرة فاستولى على الحلة «٣» .

وخرج الخليفة بنفسه نحو واسط وطرد منها بعض امراء السلاجقة ثم عاد عن طريق الكوفة والحلة «٤» .

وفي مستهل سنة ٥٤٨ هـ ارسل جيشاً لاستعادة تكريت ، كما خرج بنفسه لدفع بعض السلاجقة عن طريق خراسان ، ثم انحدر الى واسط مرة اخرى ، ومع نهاية تلك السنة استطاع الخليفة ان يستولي على البصرة «٥» وكانت سنة ٥٤٩ هـ حافلة بالاعمال العسكرية ، فقد كان الخليفة يرى في بقاء تكريت خارجة عن طاعته خطر عليه لذلك قاد الجيش بنفسه وحاصرها «٦» .

ثم وقف في وجه السلاجقة الذين زحفوا الى بغداد ليفرضوا نفوذ محمد شاه ابن السلطان محمود وتصدى لهم عند نهربكمزا وانتصر عليهم بعد حرب دامت ثمانية

«١» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٣٨ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٥ .

«٢» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٤٧ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٢ .

«٣» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٤٨ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٢ .

«٤» نفس المراجع والصفحات .

«٥» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٥٣ .

«٦» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٥٦ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٤٤ .

عشر يوماً «١» .

وكان يعرف ان السلاجقة يتجمعون حول محمد شاه فعمد الى اغراء السلاجقة بعضهم ببعض ليمنع اجتماع كلمتهم ، وكان في نفس الوقت يواصل استعداداته العسكرية فيقيم الاستعراضات العسكرية في المناسبات والاعياد ويضاعف من تدوين الجند ويستعين بأصحاب الاخبار لمعرفة حركات السلاجقة ، كما كان يواصل الخروج الى البلاد المختلفة لغرض هيبة الخلافة واظهار قوتها «٢» ، وعندما فشلت جهوده في اتخاذ سليمانشاه وابن اخيه ملكشاه وسيلة لضرب محمد شاه وتمزيق صفوف السلاجقة ، استعد لمواجهة محمد شاه ودفعه عن بغـداد ، وكانت خطته تقوم على التحصن في الجانب الشرقي من بغداد ، لذلك أمر باستدعاء الامراء الذين ولاهم على اطراف العراق بقواتهم «٣» .

كما عمل على الاستفادة من كل قادر على حمل السلاح من سكان بغداد ، فهب العوام والتجار والرؤساء وحتى العيارين للدفاع عنها ، ووفر الخليفة السلاح بمختلف انواعـه للمدافعين «٤» ، فكان المحتسب يتنقل كل يوم والسلاح بين يديه ، وكان الحراس ينادون

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٥٦ - ١٥٧ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٤٤ ، ٤٥ . البنداري ص ٢١٥ - ٢١٩ .

«٢» قام الخليفة عند خروج الحاج بزيارة الكوفة والنجف وتفقد اسواقها ، ثم قاد حملة عسكرية حاصر بها دقوقا لاحظ ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٥٨ ، ١٦١ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٤٧ .

«٣» استجاب لنداء الخليفة خطلوبرس صاحب واسط بينما غـدر ارغش صاحب البصرة والتحق بالعدو .

«٤» يذكر ابن الجوزي عن استعدادات الخليفة لتوفير السلاح انه فرق سبعة آلاف جوشن ، وأقام اربعين شقاقاً للخشب لعمل التراس والمجانيق والعرادات ، فعملوا مائتين وسبعين عرادة ومنجنيق ، وقد وزع في بعض الايام اكثر من خمسة وعشرين الف نشابة ، كما صنع زجاج دار الخلافة ثمانية عشر الف قارورة للنفط غير ما كان لديه من نوبة تكريت ج ١٠ ص ١٦٩ - ١٧١ .

في الدروب والاسواق من أراد الجهاد فليلبس السلاح ويقصد السور ، وهكذا عبأت الخلافة الرأي العام وجندته للدخول في المعركة حتى اذا وصل محمدشاه بغداد في منتصف محرم سنة ٥٥٢ هـ كان الجميع على استعداد لمواجهته .

وعندما عسكر محمد شاه في الجانب الغربي لم يجد أمامه السفن التي كانت الخلافة قد سحبتها بعد ان عبر سكان الجانب الغربي (١) ، وجرت بعض الاشتباكات بين الطرفين ، وعبر محمد شاه الى الجانب الشرقي ليطبق على بغداد من البر (٢) ، وكان الخليفة يبذل الاموال والاقوات بسخاء (٣) ، ويحفظ الامن فارتفعت معنويات المحاصرين واشتدت مقاومتهم ، واضطر محمد شاه بعد ان انقسم عليه اعوانه وحلفاؤه الى رفع الحصار عن بغداد بعد ان دام اكثر من ثلاثة اشهر ، وكان انسحابه نهاية له وللسلاجقة من بعده .

***

اصلاح الاوضاع الاقتصادية

وبالرغم من ان الخلفاء كانوا في هذه الفترة في حالة صراع دائم مع السلاجقة خفي حيناً وظاهر أحياناً لاسترداد حقوقهم المسلوبة ، إلا انهم لم يغفلوا عن الامور الاقتصادية وخاصة في الفترات القصيرة التي اتيحت لهم فيها فرصة الاضطلاع بقدر من المسؤولية ، فالخليفة المسترشد لم يدخر وسعاً في تخفيف ما يعانيه الناس من ضائقات اقتصادية ، من

(١) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٧٠ - ١٧١ وهو يذكر ان جميع هذه النفقات كانت من خزانة الخليفة ولم يكلف احداً شيئاً ولا استقرض من ذوي المال .

ذلك انه بدأ باصلاح امور اقطاعه الخاص به (١) ، فرد الكثير من الحقوق التي كانت تؤخـذ من الفلاحين الذين يعملون في ارض الخليفة وخفف عن الفلاحين ورفع من مستواهم المادي ، كما لاحظ اختـــلال الامن وانتشار العيارين الذين قطعوا طرق المواصلات البرية والنهرية واستولوا على السفن القادمة التي تحمل الطعام والتجارة ، فأمر باخراج الاتراك لقتالهم والتخلص منهم (٢) . فقد كان يعتقد أن الرخاء الاقتصادي لا يتحقق إلا في ظل الاستقرار والطمأنينة ، فطلب من السلطان أن يبقى في بغداد على ان يتكفل بنفقات إقامته (٣) ، ثم لم يفرضها على الناس انما استقرضها من ذوي الثراء (٤) ، ولكي يحد من ارتفاع الاسعار تدخل في تحديد قيمة النقد الصحيح ، كما حدد العلامة بين الدرهم والدينار لكي يتعامل الناس على أساسها (٥) .

ومن مظاهر اهتمامه بتخفيف الضائقة الاقتصادية عن الناس انه أمر برد ما جمع من الاموال التي خصصت لبناء سور بغـــداد الى اصحابها ، ولجأ الى الاقتراض من القادرين للانفاق على السور بعد ان تعهدت الخزانة بسداد قيمة الدين (٦) .

---

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٨٥ .

(٢) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢١٦ .

(٣) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٢٢ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٧ . ومن الاسباب الاخرى لذلك خوفه من هجمات دبيس على اطراف بغداد وتهديده بالهجوم عليها .

(٤) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٣٥ .

(٦) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٣ - ٢٤٥ . وقد استجاب الخليفة بعمله هـذا لنصيحة القاضي ابو العباس بن الرطبي الذي كتب يشرح له ما يقاسيه الناس من الضيق قائلا : « ان اولى الاوقات باستمالة القلوب واذاعة الصدقات واعمال الصالحات هـذا الوقت » لاحظ تفصيل الرسالة .

ورغم أن انتصارات الخليفة في الميدانين السياسي والعسكري شجعته على أن يلتحم مع السلاجقة مما ادى الى تجريده من سلطانه ، غير أنه لم ييأس او يستسلم ، فسعى الى منع السلاجقة من استغلال دار الضرب التي أمر السلطان بانشائها في بغداد ، وأرسل وزيره ليساومه على إزالتها لقاء مبلغ معين من المال يدفعه كل شهر (١) ، وكان يمنع موظفيه من استغلال دار الضرب ايضاً ويحاسبهم كلما سمع شكوى في حقهم ويعاقب المسيء » (٢) .

اما المقتفي ، فقد تولى الخلافة في ظروف خاصة وافق في البداية على ان يكون مجرد رمز ليس له من الحكم شيء ، فضلاً عن خضوعه لرقابة السلاجقة ، فلم يستطع ان يمارس شيئاً من السلطان طيلة السنوات العشرة الاولى من حكمه (٣) .

ولعل اول محاولة له في هذا الصدد ، مقاومته رغبة السلطان في اقامة دار ضرب ببغداد ثم أمره باغلاق المساجد حتى يطلق سراح اصحابه الذين اعتقلهم شحنة بغداد (٤) بسبب ذلك لانه كان يريد أن يحمي اهل بغداد من تلاعب السلاجقة بأوزان النقد .

وما كاد يباشر الامور بنفسه ويتخلص من رقابه السلاجقة حتى اهتم بتنظيم مشاريع الري والعناية بها فأمر عامل الخراج ابن جعفر بحفر مشروع الدجيل ، و كان

---

(١) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤ وكان مقدار المبلغ الف دينار .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٣) من المحتمل ان الخليفة قام ببعض النشاط الاقتصادي لم يشر اليها المؤرخون خاصة وانه كان حريصاً على التقرب للناس و كسب مودتهم ، ويمكن اتخاذ قيامه بدفع الاموال للسلاجقة لرفع المصادرة عنهم دليلاً على رغبته في التخفيف عنهم ومساعدتهم على مواجهة الحياة .

(٤) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١١٩ .

يخرج لمباشرة العمل به كلما سنحت له الظروف «١» .

ولم يغفل عن التجول في البلاد لمراقبة الولاة وملاحقة العصاة وقطاع الطرق ونشر الامن . وكان يتفقد اسواق المدن التي يزورها وحالة العمران فيها «٢» ، وكان نجاحه في مقاومة الحصار السلجوقي لبغداد عام ٥٥٢ ﻫ واطمئنانه الى عدم حدوث المجاعة فيها يرجع الفضل فيه الى اهتمامه بالشؤون الاقتصادية ورعايته لها «٣» .

***

كسب الرأى العام

ومن الامور التي ساعدت الخلفاء في هذه الفترة على النجاح في صراعهم مع السلاجقة لجوئهم الى الشعب وحملهم على كسب ثقته واهتمامهم بمشاكله ، فبادلهم الشعب الود وساندهم كثيراً ، ففضلاً عن ان الخليفة المسترشد كان يؤدي واجبه عندما اصلح امور اقطاعه وخفف عن الفلاحين وأعاد اليهم حقوقهم ، فقد أدى عمله هذا الى كسب ودهم وإيجاد صلة قوية بين الخلافة والشعب ظهر أثرها في استجابتهم لنداء الخليفة عندما استدعاهم للتجنيد والخروج لقتال عدوهم ، وكما ظهر في احتفائهم به عند رجوعه منتصراً

«١» وقد سنحت له الفرصة فخرج لمشاهدته في رجب من عامي ٥٥١ ، ٥٥٢ ﻫ وفي ربيع الآخر من عام ٥٥٣ ﻫ ، لاحظ ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٨١ .

«٢» وقد زار الانبار وهيت والكوفة والبطائح وواسط والغراف عدة مرات لاحظ ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٩ . البنداري ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

«٣» كانت التنظيمات التي قامت بها الخلافة للسيطرة على الاسعار وتوفير المواد المعاشية انها خزنت الغلات بكميات كبيرة ، وكان الوزير يفرقها على الجند عوضاً عن الدنانير فيبيعها هؤلاء للشعب وبذلك بقيت الاسعار اعتيادية .

ومطاردتهم لأعوان دبيس «١» . ولم يكن الخليفة يترك مناسبة لا ينتهزها للتقرب الى الناس ، فقد شجعه الانتصار الذي حصل عليه في قتاله مع دبيس على إنشاء الجيش وبناء سور بغداد ، وأمر ان تجمع التكاليف من الناس ، ولكن عندما عرض عليه القاضي ابو العباس بن الرطبي حالة الناس وما يقاسونه من ضائقة اقتصادية أمر بأن تدفع الاموال من خزانة الخلافة «٢» .

ونجح المسترشد في كسب ثقة الناس واستمالتهم الى جانبه ، فالتفوا حوله وآزروه في معركته مع السلاجقة ، وكان المتطوعون من اهل بغداد والسواد يهبون لمرافقته كلما خرج لصد هجوم او تأديب متمرد ، وقد اكسبه هذا التأييد قوة سياسية كبيرة جعلت البعض «٣» من السلاجقة يتحالفون معه ضد بني جنسهم ، كما دفعت بعض سكان المدن الى الاحتماء به وطلب تدخله لرفع الحصار عنهم «٤» ، ولعل خير تعبير على تعلق الناس بالخليفة ما رواه ابن الاثير من اختلاف المسترشد مع السلطان محمود الذي عزم على الوصول الى بغداد رغماً عنه وما اظهره الخليفة من الرغبة في الخروج « فلما خرج من داره بكى الناس جميعاً بكاءً عظيما لم يشاهد مثله » «٥» .

وقد بلغ هذا التعلق ذروته عندما وصل خبر وقوعه اسيراً في قبضة السلاجقة

«١» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٣ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣١١ .

«٢» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٣-٢٤٥ ، لاحظ مفصل الرسالة التي قدمها القاضي.

«٣» كان السلطان محمود اول من سعى للتحالف مع الخليفة ضد عمه سنجر . وكذلك فعل مسعود واخيه سلجوقشاه عندما تحالفا معه وخرجا لقتال عمهم سنجر .

«٤» عندما استجار اهل دمشق بالخليفة ورجوه دفع زنكي عنهم . لاحظ ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤٣ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٦ .

«٥» ابن الاثير ج ٨ ص ٣٢١ .

فثار أهل بغداد ومنعوا الخطبة وكسروا المنبر والشباك وخرجوا الى الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصرخون ، وخرجت النساء حاسرات يندبن في الاسواق «١»، وقدتكررت هذه المظاهر بصورة اعنف عندما وصل نبأ مصرعه «٢».

ولم يستطع الراشد استغلال هذا التأييد الشعبي للخلافة فينظمه ويجعل منه قوة يستخدمها في مواجهة السلاجقة بسبب اضطراب الاوضاع وانقسام انصاره فضلاً عن عجزه عن السيطرة على الحكم .

وسار الخليفة المقتفي على سياسة اخيه في كسب الناس والتقرب اليهم بالرغم من تقييد السلاجقة لسلطانه ، فقد وقف في وجه مصادرة السلاجقة لأموال الناس ، فأمر ببيع عقاره وسداد الاموال المطلوبة ورفع المصادرة عن الناس «٣» .

وعندما رأى إلحاحهم في المصادرة وفرض الغرامات على الناس وخروجهم بذلك عن حد المعقول كتب الى السلطان يهدده بالخروج عن بغداد وتسليم دار الخلافة قائلاً « فانني عاهدت الله تعالى ان لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلماً » «٤» .

ولاشك ان مثل هذه المواقف من الخليفة كانت تلقى التأييد والتقدير من الشعب له ، وعلى الرغم من ان علاقة الخليفة بالسلاجقة ظلت هادئة من بعد هذا مدة طويلة ، إلا ان تقدير الناس لم يفتر ، واستجابوا لندائه عندما تعرضت بغداد لاعتداءات بعض امراء السلاجقة ، فقد دعا الناس الى الدفاع عن انفسهم واموالهم ، فاستجابوا و كونوا

«١» نفس المصدر ص ٣٤٨ ، ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤٦ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤٩ ، لاحظ قصائد الشعرالشعبي الذي كان ينشد في مواكب العزاء .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦٢ .

«٤» نفس المصدر ص ٦٦ ، السيوطي ١٧٥ .

قوة ارهبت المعتدين وجعلتهم يخشون بأس الخلافة فتراجعوا وتفرق شملهم «١» .

ثم توثقت هذه الصلات اكثر من ذي قبل بينهم خصوصاً بعد وفاة مسعود وانهيار سلطان السلاجقة ، وقد تضاعف اهتمام الخليفة بأمور الناس فأكثر من حفر القنوات «٢» وتفقد حالة البلاد ونشر الامن ، وتجلت روعة هذه الصلات عندما عمد محمد شاه الى حصار بغداد فهب التجار والرؤساء والعوام للدفاع عن الخلافة وأبلوا في ذلك بلاءً حسناً .

***

الاستعانة بأمراء الاطراف

ومن الوسائل الاخرى التي استعان بها الخلفاء لتمكين سلطانهم واضعاف المتغلبين انهم لجأوا الى الاستعانة بأمراء الاطراف للوقوف بجانبهم في هذا الصراع ، ولم يكن ذلك ممكناً في اول الامر لضعف سلطان الخلافة وخضوع امراء الاطراف المباشر للسلاطين ، ولكن المسترشد استطاع استخدام امراء بني عقيل في حربه مع دبيس بن صدقة المزيدي مستغلاً الصراع التقليدي بين الامارتين العربيتين في العراق «٣» .

وقد أشرنا الى ان الخليفة تشجع بهذا الانتصار وسعى الى الانفراد بالحكم ، فاستعان على السلاجقة بأمراء العرب والاكراد الذين كاتبهم ودعاهم الى الوقوف بجانبه «٤» .

«١» كما حصل عندما وصلت في رجب ٥٤٣ هـ جموع السلاجقة وعجز السلطان عن المجيء الى بغداد .

«٢» مثل مشروع الدجيل .

«٣» وقد قدم اليه من هؤلاء الامراء سليمان بن مهارش وقراوش بن مسلم ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣١٠ .

«٤» كان من جملة ما وشى به يرنقش الزكوي شحنة بغداد على الخليفة المسترشد —

ويظهر ان امراء الاطراف كانوا يستوحون مصالحهم عندما يستجيبون لنداء الخليفة او السلطان وخاصة في الفترات التي يختل فيها ميزان القوى بين الخلافة والسلطنة ولذلك نجد بعضهم يسرع لنجدة الخلافة عندما استرجعت قوتها بعد ذلك ، فقد انضم للخليفة عندما زحف لحصار الموصل بعض امراء الاطراف من الاكراد منهم ابو الهيجاء الكردي وعيسى الحميدي وغيرهم «١» .

وعندما خرج الخليفة لقتال مسعود استعان بزنكي الذي كان يحاصر دمشق وأمره برفع الحصار عنها والاسراع لنجدته ، كما ان كثيرين من امراء الاطراف كاتبوا الخليفة ووعدوه بالنصر على السلطان عندما خرج لقتاله ، ولكنهم تخلوا عن وعدهم ، فلم ينضموا اليه عندما أحسوا بقوة السلطان التي استردها «٢» .

وقد اعتمد الراشد في حربه مع السلطان على امراء الاطراف الذين دفعتهم اسباب مختلفة للوقوف بجانبه ، ولكن اختلاف كلمتهم وتفرق مصالحهم ادى الى انفضاضهم من حوله ورجوعهم الى بلادهم فباءت خطته بالفشل .

اما الخليفة المقتفي فلم يمارس السلطة الفعلية قبل مضي فترة طويلة على تولية الخلافة وقد لاحظنا ان سياسته كانت تقوم على مهادنة السلطان مسعود ، فلم يقم بعمل يغضبه ، ولكنه انطلق بعد وفاته فطرد أعوانه ونوابه من العراق واسترد معظم اقاليمه وولى عليها اصحابه ولجأ المقتفي الى الامراء عندما زحف محمد شاه لحصار بغداد فاستدعاهم

— انه قد كاتب امراء العرب والاكراد للوقوف بجانبه ومنع السلاجقة من الوصول الى بغداد ويظهر أن هؤلاء الامراء لم يستجيبوا لندائه ، لاننا لم نجد لهم اثراً في معارك الخليفة مع طهزل او محمود .

«١» وقد يكون التحاق هؤلاء بالخليفة عند حصاره الموصل رغبتهم التخلص من مضايقات زنكي صاحبها الذي عاقبهم فيما بعد واستولى على بلادهم .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص٤٣ ، ٤٥ . منهم داود بن محمود ، وبكبة وغيرهم .

لنجدته ، فأقبل خطلوبرس من واسط ، وعصى ارغش بالبصرة «١» ، ولم يعد الخليفة في حاجة اليهم بعد ذلك فقد استقرت البلاد وضعف شأن السلاجقة .

لقد أثرت هـذه الجهود التي بذلها كل من المسترشد والمقتفي والتي فصلنا شرحها آنفاً في استعادة حقوق الخلافة التي اضاعتها في فترة ضعفها ، حيث قضيا على تحكم المتغلبين وأزالا نفوذهم من العراق ، وهيئا لمن أتى في اعقابهم حرية العمل وتوجيه زمام الخلافة واذا كانت الايام لم تطل بالمقتفي ليتم الرسالة التي بدأها اخوه المسترشد فيعيد سلطان الخلافة على البلاد المجاورة التي كانت تأتمر بأمرها فيما مضى ، فقد كان منتظراً ان يحتذي خلفاؤه حذوه فيزيدوا في قوة الخلافة ورفعة شأنها ويسلكوا في الداخل سياسة تقوم على جمع شمل الشعب بطوائفه العديدة والتفافها حول الخلافة وإزالة عوامل الكره والنفرة التي تجمعت خلال حكم المتغلبين وفساد سياستهم ، كما يسلكون في الخارج سياسة تقوم على اشعار الامراء بقوة الخلافة وهيبتها ومسؤوليتها عن رعاية شؤون المسلمين جميعاً في شتى ديار الاسلام .

وسوف نرى في الابواب القادمة تفصيل سياسة هؤلاء الخلفاء ومدى ما حققوه من بلوغ هذه الاهداف .

«١» وأرى ان هؤلاء لا يمكن اعتبارهم امراء اطراف بل كانوا ولاة تابعين للخليفة الذي عينهم عندما استقل بالبلاد ، وكانت طينة الغدر مجبولة بدم كثير منهم ، وكان الخليفة قد اتصل بملكشاه وبعض الاتابكة مثل الدكز صاحب اذربيجان ومن المحتمل جداً انه اتصل بنور الدين زنكي الذي لم يستطع ان يترك جبهة الصليبيين فأوعز الى اخيه مودود صاحب الموصل او كتب الى علي كوجك قائد الجيش بلزوم الانسحاب عن بغداد .

الباب الثاني

الخلافة ونظام الحكم

أولا - النظام السياسي :

١ - الخلافة

٢ - الوزارة

٣ - أعوان الوزارة - الكتابة - الحجابة

ثانياً - النظام الاداري :

١ - التقسيمات الادارية

٢ - الولاية على البلدان ، الحكومة المحلية ، حكومة بغداد

٣ - البريد

٤ - الشرطة

ثالثاً - النظام المالي :

١ - واردات الدولة : الخراج ، الجزية ، الزكاة ، ضرائب اخرى

٢ - نفقات الدولة

٣ - تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية

٤ - ديوان الخراج

رابعاً - النظام الحربي :

الباب الثاني

الخلافة ونظام الحكم

أولا : النظام السياسي

١ - **الخلافة** : على الرغم من أن الخلافة استعادت حريتها وتخلصت من سيطرة الدخلاء ، إلا انها لم تستطع ان تستعيد مجدها القديم وسلطانها الغابر .

واذا استثنينا من خلفاء هذه الفترة المسترشد وأخيه المقتفي ٥١٢ - ٥٥٥ هـ الذين عملا على الوصول بالخلافة الى مكانتها الاولى ، فقادا الجيوش وخاضا غمار المعارك ، فاننا لا نجد من خلفائهم من حذا حذوهم واقتفى آثارهم .

فقد عرف هؤلاء الخلفاء بالانعزال عن الشعب ، وقضى معظمهم وقته في اعمال لا تمت الى مسؤولية الحكم في شيء ، الامر الذي دفع الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي زار بغداد (حول سنة ٥٦٠ هـ - ١١٦٥ م) الى القول بأن الخليفة لا يغادر قصره إلا مرة واحدة في السنة ، في الاحتفال الكبير في نهاية رمضان حيث يخرج لزيارة المسجد القريب من باب البصرة (١) .

فالمستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) مثلا اذا كان قد بدأ عهده بتفقد احوال البلاد ومراقبة اعمالها (٢)، لكنه سرعان ما آوى الى العزلة حتى عن افراد أسرته ، فلم يستطع

---

(1) *Le Strange : Baghdad During The Abbasid Caliphate. P.332.*

(٢) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٩٨ - ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ .

أحد أن يدفع عنه القدر الذي ترّبص به «١» .

اما المستضيء بالله ٥٦٦ - ٥٧٥ هـ ، فقد احتجب عن اكثر الناس ولم يركب إلا مع الخدم ولم يدخل عليه غير قايماز . وبلغ من اعتزاله أن دار الخلافة حوصرت ذات مرة وأغلقت أبوابها وهو لا يعرف عن ذلك شيئاً «٢» .

والخليفة الناصر لدين الله ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ غلب عليه في اول ايامه استاذ داره ابن الصاحب مجد الدين ابو الفضل حتى اصبح يدعى له إثر الدعاء للخليفة «٣» ، ولم يمارس شيئاً من السلطان حتى تخلص منه سنة ٥٨٣ هـ فتفرغ بعدها لمباشرة الحكم ، واستكثر من الوزراء اونوابهم «٤» ، ثم اختفى عن الناس فكان لايظهر لهم إلا نادراً بينما كان يراقب امور الرعية عن طريق اصحاب الاخبار الكثيرين الذين انتشروا في كل مكان حتى في مجالس وزرائه ، مما جعل البعض يعتقد ان له كشفاً واطلاعاً على الغيب ونسجوا حول ذلك الكثير من الاساطير والخرافات «٥» .

وبلغ من عزلته عن الناس في سنوات حكمه الاخيرة ان وزيره لم يكن قادراً على الاجتماع به ، او معرفة احواله حتى اخبره طبيب الخليفة الخاص ان الخليفة فقد بصره وان الخدم يوقعون الاعمال باسمه «٦» .

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٨ ، ابن ابي اصيبعة - عيون الانباء ج١ ص ٢٥٨ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٣٤، ٢٥٠-٢٥١ . ابن شاكر ج ١ ص ١٢٧-١٣٨

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ١٤٨ - ١٨٩ ، ابن جبير - رحلة - ص ١٨١ .

«٤» . استوزر الخليفة الناصر ثلاثة عشر رجلا ، كملت الوزارة لاربعة منهم فقط لاحظ حاشية الجامع المختصر لابن الساعي ج ٩ ص ٦٠ .

«٥» السبط ج ٨ ص ٥٣٦ ، ابن الطقطقي ص ٣٧٠ ، الذهبي - دول الاسلام ج ٢ ص ٩٥ ، انسان العيون في مشاهير القرون - مجهول المؤلف الورقة ٢٣٧ .

«٦» ابن القفطي - اخبار الحكماء ص ٢١٢ - ٢١٣ ، السبط ج ٨ ص ٦٣٥ ، ذيل الروضتين ص ١٤٥ ، ابن العبري ص ٤٢١ .

اما الخليفة الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣ هـ) فقد تولى الخلافة وعمره اثنتان وخمسون سنة . وباشر الامور بنفسه وظهر للناس وقام بأعمال جليلة ، لكن عمره لم يطل في الخلافة اكثر من تسعة اشهر «١» .

وتولى بعده ابنه المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) فتشبه بوالده حيناً «٢» ثم اعتزل بعد ذلك فلم يعد يظهر للناس ، وغلب عليه كبار مماليكه ، وبلغ من عزلته انه لما جاءه الموت لم يشعر بوفاته إلا بعض الخدم وشرف الدين اقبال الشرابي قائد الجيش مما دفع البعض الى الاعتقاد بأن وفاته ليست طبيعية وانه فصد بمبضع مسموم «٣» .

ولم يباشر المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) من امور الخلافة شيئاً معتمداً على الحاشية ، وقضى معظم اوقاته في اللهو ومعاشرة النساء «٤» . وعرف بشغفه بالصيد وولعه بمجالس الغناء ، فلم يكد يسمع بمغنية إلا وأرسل في طلبها ، ولم يفق من ملذاته حتى حاصره المغول «٥» .

اما وضع الخلافة المالي فقد تحسن كثيراً عما كان عليه في فترة الضعف ، وأصبح

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦٨ ، السبط ج ٨ ص ٦٤٣ ، ذيل الروضتين ص ١٤٩ ، ابن العبري ص ٤٢٣ ، ابن كثير ج ١٣ ص ١٠٧ - ١٠٨ ، انسان العيون الورقة ٢٣٦ - ٢٣٨ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦٩ ، ابن العبري ص ٤٢٥ ، ابن كثير ج ١٣ ص ١١٤ .

«٣» ابن الفوطي ص ١٥٨ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٣١١ - ٣١٢ ، الاربلي - خلاصة الذهب المسبوك ص ٢١٤ ، المقري الفيومي - نثر الجمان - الورقة ١٣١ ، العيني مجلد احداث سنة ٦٣٥ - ٦٥٦ ، الورقة ٢٥٠ - ٢٥١ .

«٤» بلغ عدد جواري الخليفة وأولاده سبعمائة امرأة .

«٥» اليونيني ص ٢٥٥ ، ابن العبري ص ٤٤٥ ، ابن الطقطقي ص٥٦ ، ابن شاكر ج ١ ص ٢٣٧ ، الاربلي ص ٢١٥ ، رشيد الدين - جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٧٣ .

بمقدور الخلفاء التصرف في اموال كثيرة بعد أن كانوا يعجزون عن شراء الحاجة البسيطة.

وقد أشرنا الى ان المتغلبين كانوا قد سيطروا على موارد الدولة ، ولم تسلم من اطماعهم حتى موارد الخليفة الخاصة ، وهي موارد لم تكن تفي بحاجاته في كثير من الاحيان (١) .

ويمكننا القول أن مصادر ثروة الخلفاء في هذه الفترة كانت تعتمد على أملاك الخليفة الخاصة المنتشرة في مختلف انحاء العراق ، وعلى مايحصل عليه من التركات الحشرية وموارد الجوالي ، ونصيبه من دار الضرب ودار الذهب .

وثمة مصادر اخرى غير دائمة او منتظمة مثل الهدايا التي كان السلاطين والامراء وكبار موظفي الخلافة يقدمونها للخليفة في المناسبات ، فالمسترشد بالله تلقى عند توليه من سنجر اقطاعاً بخمسين الف دينار فضلاً عن هدايا وثياب وخيول حملها رسوله القاضي المروي الذي وصل بغداد في شوال ٥١٣ هـ ، ليحمل الخليفة على الخطبة له مع ابن اخيه السلطان محمود (٢) .

وأرسل سنجر هدية اخرى سنة ٥١٦ هـ عندما اشار على الخليفة بأن يستوزر أبا نصر احمد بن نظام الملك شقيق وزيره ، ويبعد وزيره السابق أبا علي بن صدقة عن بغداد (٣) .

اما السلطان محمود فقد أرسل هدية للمسترشد عشية حلف يمين الطاعة ، فاستدعى للمثول أمام الخليفة وفوض اليه السلطان في شعبان ٥١٥ هـ (٤) .

---

(١) الصابي ـ رسوم دار الخلافة ص ٣٠ ، الدياربكري ـ الخميس ج ٢ ص ٣٩٣، ابن شاكر ج ٢ ص ٣ .

(٢) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٠٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٣٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٢٥ .



ومن هذه المصادر غير الدائمة الاموال المصادرة التي يحصل عليها الخليفة من العمال والموظفين الذين يستغلون طبيعة الاوضاع السياسية فيحتجزون كثيراً من الاموال لانفسهم ، وكانت هذه الموارد تدر دخلاً لا بأس به في بعض الاحيان .

فالمسترشد جداً بصاحب مخزن والده المدعو ابي طاهر الحرزي فأمر بالقبض عليه وصادر ما يزيد على المائة الف دينار من المال والاواني والذهب والفضة ، ثم اكتشفت دفائنه فكانت اربعمائة الف دينار «١» .

ولم يكن الوزراء وكبار موظفي الدولة يسلمون من العقاب والمصادرة عندما يسيئون التصرف . ففي شوال ٥١٨ هـ قبض المسترشد على ناصح الدولة ابي عبدالله ابن جهير استاذ الدار وصادر ماله ، ثم فرض عليه اربعين الف دينار «٢» ، كما قبض في شعبان ٥٢٦ هـ على الوزير شرف الدين ومعه الحسين بن محمد كاتب الزمام ، وظل ينقل من دار الوزير أموالاً وأثاثاً مدة ثلاثة ايام ، ثم اطلق سراحه بعد عدة اشهر واخذ منه خطة بثلاثين الف دينار «٣» .

اما الخليفة الراشد فقد ناله من اموال ابن الهاروني بعد صلبه مائتي الف دينار ، بالاضافة الى اخذه اموال اقبال المسترشدي بعد القبض عليه «٤» ، وهناك اموال اخرى ثانوية كانت تزيد من دخل الخلافة في بعض السنين «٥» .

«١» نفس المصدر ص ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٢٨٢ .

«٢» ابن الجوزي جـ ٩ ص ٢٥٠ .

«٣» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٧ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٣٨ .

«٤» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٥٥ ، ٥٦ .

«٥» مثال ذلك أنه عندما طولب اهل الذمة بلبس الغيار ساوموا المسؤولين على اعفائهم ودفعوا للخليفة مبلغ اربعة آلاف دينار بينما تسلم السلطان عشرين الف ، وعندما اراد الخليفة سنة ٥٢٢ هـ ارسال نقيب النقباء الى سنجر في مهمة رفع الى الخزانة

وكانت هذه الموارد بدورها معرضة لعدوان السلاجقة ، فكان السلطان يطمع في املاك الخليفة فيصادرها كلها او بعضها ، ولما أعتقل الخليفة المسترشد انفذ السلطان مسعود الشحنة والعميد فعطلا دارالضرب وأنشأا دار ضرب اخرى بسوق العميد ودار الشحنة ، وقبضوا على ابن طوق عامل الجوالي ، وأمروا ابن الحاجب ضامن العقار بأن يجبي العقار ويسلمه لهم ، وقبضوا على ابن الصائغ متولي التركات الحشرية « وقالوا : نريد ما حصل عندك من التركات » «١» .

واضطر الخليفة المقتفي عندتوليه الخلافة الى دفع مبلغ عشرة آلاف دينار للسلطان مسعود لكي يستعيد التصرف في املاكه وما يؤول اليه من تركات «٢» .

وكانت هـــذه الموارد تتعرض للانتقاص ايضاً عندما تضعف السلطنة عن حماية الناس ، فيطمع الامراء والمتمردون في نهب القرى وسلب الاموال لايفرقون في ذلك بين اموال الخلافة والسلطنة كما فعل دبيس «٣» .

وبالرغم من هذه الظروف فان الخليفة المسترشد استطاع بهذه الموارد القلقة أن يصارع السلاجقة ويضع الاساس لنهضة الخلافة التي اكمل بنيانها المقتفي اخوه «٤» .

ـ ثلاثين الفاً ليعفى . وكذلك فعل شيخ الشيوخ الذي رفع خمسة وعشرين الفاً ، ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٢٨ ، ج ١٠ ص ٩ . ابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٥ .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤ ، ٤٧ . ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٨ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦٨ ، ١١٩ .

«٣» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ج ١٠ ص ١٣ . ابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٨ ، ٣٢٨ .

«٤» لقد مر علينا تفصيل جهاد المسترشد الذي استطاع ان يدفع من هذه الاموال نفقة اقامة السلطان في بغداد مدة اربعة اشهر ، ودفع له مائة الف دينار لكي لا يولي دبيس شحنكية بغداد ، وتكفلت خزائنه ببناء السور ، فضلا عن انه كان قد اعاد النظر في جباية عقاره فأسقط منه كل جور .

وفي سنة ٥٢٧ ﻫ تسلمت الخلافة موارد البلاد للمرة الاولى بعد ان كانت تذهب للسلاجقة ، ذلك ان الخليفة المسترشد استغل انشقاق السلاجقة ثانية فتحالف مع مسعود واخيه سلجوقشاه سنة ٥٢٦ ﻫ على الاستقلال بالعراق والتعاون معهما على عمهما سنجر ، فلما خرج سنة ٥٢٧ ﻫ الى الموصل ارسل الى بهروز متولي تكريت قائلًا : « تنزل عن القلعة وتسلمها وتسلم الاموال وتدخـــل تحت الطاعة حتى نسلم اليك البلاد ، فأجاب بالطاعة » «١» ، وفي سنة ٥٢٨ ﻫ تم الاتفاق مع زنكي ووصل رسله يحملون المال والهدايا » «٢» .

وبلغت ثروة الخلافة من النقد فقط اربعة ملايين دينار حملها الخليفة معه على سبعين بغلا عندما خرج لقتال مسعود سنة ٥٢٩ ﻫ سوى الاثاث الذي كان محمولا على خمسة آلاف جمل واربعمائة بغل «٣» .

وقد تنبه السلاجقة الى اثر الاموال في تطلع الخلفاء الى الاستقلال فعزموا على افقارهم وحرمانهم منها ، فأرسل مسعود شحنته الى بغداد بعد أن امسك بالمسترشد وأمره بالاستيلاء على دور الضرب وموارد الجوالي والتركات وغلات العقار«٤»، وظهر تأثير هذا السلب على الخليفة الراشد الذي كتب الى السلاجقة يقول : « اما مال البيعة فلعمري إلا انه ينبغي ان تعاد الى املاكي واقطاعي حتى يتصور ذلك » ، وكان لا يملك غير ثلاثة آلاف دينار اعطاها للشحنة ليدون بها عسكراً عندما قرر اعلان الحرب على السلاجقة «٥» .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٠ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٤٤ .

«٢» نفس المراجع ج ١٠ ص ٣٤ ، ج ٨ ص ٣٤٤ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤٥ .

«٤» نفس المرجع ص ٤٧ .

«٥» نفس المرجع ص ٥٤ ـ ٥٥ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٥٢ .

وفعل السلاجقة مثل هذا مع الخليفة المقتفي لامر الله عندما ولوه الخلافة ، فقد اخذوا جميع ما كان في دار الخلافة من مال وأثاث وخيل وبغال ، ولم يتركوا في الاصطبل الخاص غير اربعة من الخيل وثلاثة من البغال برسم الماء ، وزادوا في مضايقته بعد ذلك ومطالبته بالاموال واعتقال اصحابه وموظفيه وصادروا اموال الناس حدة مرات حتى ضجوا بالشكوى ، وضاق الخليفة ذرعاً بمطالبهم فأعلن استعداده للتنازل عن الخلافة وكتب الى السلطان يقول له (١) : « ما رأينا اعجب منك ، انت تعلم ان الخليفة المسترشد سار اليك بأمواله فجرى ما جرى وعاد اصحابه عراة ، وولي الراشد ففعل ما فعل ثم رحل وأخذ مابقي من الاموال ولم يبق في الدار سوى الاثاث فأخذته جميعه وتصرفت في دار الضرب ودار الذهب وأخذت التركات والجوالي ، فمن اي وجه تقيم لك هذا المال ؟ وما بقي إلا ان نخرج من الدار ونسلمها لك فانني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلماً » .

ويشير ابن الاثير بعد ذلك الى ان السلاجقة قرروا للخليفة المقتفي من الاقطاع مثلما كان لابيه (٢) المستظهر وهو نفس ما حصل عليه المسترشد عند توليه الخلافة .

وكان السلاجقة قد عزموا على مضايقة المقتفي وعدم اعطائه الفرصة لاستغلال ثروته ، فأكثروا من الجبايات والمصادرات حتى « ان ابا الكرم الوالي استقال وتاب الى الله وحلق شعره ولبس خرقة التصوف » (٣) ، وجعلوا من الوزير ابن طراد الزينبي عيناً لهم على الخليفة يحصي حركاته ، فعندما استغل الخليفة مصاهرته للسلطان ارسل عمالا على البلاد من غير مشاورة للوزير ، غضب وانقطع عن الخدمة وأخذ يثقل على الخليفة

---

(١) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦١ – ٦٢ ، ٦٦ . ابن الطقطقي ص ٣٥٧ .

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص ٣٥٥ .

(٣) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦٧ ، ٦٨ .

ويمنع عنه اصحابه «١» .

وقد سبق ان ذكرنا ان سياسة المقتفي كانت تقوم على مهادنة السلطان وعدم الاصطدام به مع استغلال الفرص المناسبة لاسترجاع شيء من سلطانه ، وظل على هذا الحال حتى سنة ٥٤٣ ﻫ عندما اضطر مسعود الى السماح للخليفة بتجنيد الجند لدفع اعداء السلطان عن بغداد ، فشمر الخليفة عن ساعد الجد واعتمد على ثروته الخاصة في تكوين الجيش واستعادة هيبة الخلافة ، فتم له ما اراد سنة ٥٤٧ ﻫ حيث استولى على اموال السلطنة وأخذ يستورد سلطانه على اطراف العراق «٢» ، وكانت قوته العسكرية تزداد عدداً وعدة كلما ازدادت امكانياته المالية .

وكانت ثروة الخلافة وغناها من العوامل الرئيسية التي ساعدت الخليفة على مقاومة الحصار السلجوقي لبغداد سنة ٥٥٢ ﻫ كما أدت الى التفاف الناس حول الخلافة ، ذلك ان الخلافة تحملت نفقات الحرب ووفرت المواد الغـــذائية للشعب الذي لم يحس بالضائقة الاقتصادية خلال الحصار .

ويشير ابن الجوزي الى ذلك بقوله : « وكان جميع ذلك من خزانة الخليفة ولم يكلف احد شيئاً ولا استقرض من ذوي الاموال » «٣» ، كما يشير ابن الاثير الى جانب آخر من نفقات الخليفة في هذا الحصار مما يدل على ثرائه بقوله : « وأمر الخليفة فنودي كل من جرح فله خمسة دنانير ، فكان كلما جرح انسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير » «٤» .

«١» نفس المرجع ص ٨٥ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٦٨ .

«٢» نفس المراجع ص ١٤٧ ، ج ٩ ص ٣٢ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٧٠ – ١٧١ .

«٤» ابن الاثير ج ٩ ص ٥١ .

وعند وفاة الخليفة المقتفي سنة ٥٥٥ هـ كانت احوال الخلافة المالية قد استقرت وبقيت كذلك حتى زوالها .

اما مراسيم بيعة الخلفاء فانها لم تتغير عما كانت عليه قبلا ، فقد بقيت البيعة الخاصة والبيعة العامة ، وكان الوزراء عادة او نوابهم يقومون بأخذ البيعة من الناس «١» .

وكانت البيعة الخاصة تتم عادة في يوم وفاة الخليفة ، فتؤخذ البيعة لولي عهده او ابنه الاكبر من اخوته وعمومته والفقهاء والقضاة وارباب الدولة واعيان الناس «٢» .

وينقل ابن الجوزي صورة البيعة الخاصة للمسترشد عن لسان ابي الوفاء بن عقيل قائلا : « قال لي قاضي القضاة وهو قائم بين يديه : مولانا اميرالمؤمنين ثلاث مرات فقلت ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ثم مددت يدي فبسط لي يده الشريفة فصافحت بعد السلام وبايعت ، فقلت : ابايع سيدنا ومولانا اميرالمؤمنين المسترشد بالله على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشـــدين ما اطاق واستطاع وعلى الطاعة مني » «٣» .

اما البيعة العامة فتتم عادة في اليوم الثاني او الثالث لوفاة الخليفة حيث يبايـع فيها المتخلفون من الامراء والوافدون وضروب الناس من التجار وغيرهم ، حيث يقفون صفوفاً أمام شباك دار الخلافة ويكون الخليفة جالساً وراء ستارته ، بينما يقف الوزير

«١» إلا في الحالات التي يضعف فيها شأن الوزير حينئذ يقوم المتنفذون بأخـذ البيعة كما حصل في بيعة المستضيء .

«٢» ابن الجوزي جـ ٩ ص١٩٧ ، جـ ١٠ ص ٤٩ – ٥٠، ٦١ ، ١٩٢ ، ابن الاثير جـ ٨ ص٢٨١ ، ٣٤٨ – ٣٤٩ ، ٣٥٥ ، جـ ٩ ص ٦٨-٦٩ ، ١٤٨-١٤٩ ، ٣٦١، ٣٦٩. ابن القلانسي ص ٢٠٠ ، ابن الفوطي ص ١٥٨ – ١٦٠ ، ابن كثير جـ ١٣ ص ١٦٠ .

«٣» ابن الجوزي جـ ٩ ص ١٩٧ . وكان قاضي القضاة يتولى منصب الوزارة بالنيابة .

وكبار الموظفين أمامهم بجوار المنبر ، وعندما ترفع الستارة يقبل الجميع الارض ، ثم يتلو الوزير بأعلا صوته قوله تعالى : – « ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » «١» .

وقد أورد المقري الفيومي نص البيعة التي أخذت على الناس للخليفة المستعصم . وهذا نصها : « ابايع سيدنا ومولانا اميرالمؤمنين على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد رأيه الشريف وان لا خليفة للمسلمين سواه » «٢» .

وكانت العادة بعد انتهاء مراسيم البيعة أن يجلس الوزير للعزاء مدة ثلاثة ايام . وفي اليوم الثالث يخرج اليه كتاب الخليفة الجديد ليكف عن العزاء ويقوم بمباشرة العمل ورعاية شؤون الناس ، ويؤكد على إقامة العدالة وإزالة ما احـــدثه عمال السوء من الظلم «٣» .

وفي الجمعة الاولى بعد البيعة يخطب للخليفة في الجوامع ويتوجه الوزير وأرباب الدولة الى جامع القصر بينما ينتشر الحجاب في المساجد الجامعة الاخرى ويدعى للخليفة في خطبة الجمعة وتنثر الدنانير والدراهم عند ذكر اسمه «٤» .

وبعد انتهاء فترة العزاء ومدتها شهر تقريباً يخلع الخليفة على كبار الموظفين كالوزير وأمراء الجيش بينمايتولى الوزير نيابة عن الخليفة الخلع على باقي الموظفين مثل استاذ الدار والنقباء والقضاة وغيرهم ، ثم ترسل الخلع بعد ذلك الى امراء الاطراف «٥» .

«١» (القرآن) سورة الفتح (٤٨) آية ١٠ . انظر ايضاً ابن الفوطي ص ١٦١.

«٢» المقري الفيومي نثر الجمان – الورقة ١٣٢ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٩٣ – ١٩٤ ، ابن الفوطي ص ١٦١ – ١٦٢ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٠ – ٥١ ، ٦١ ، ٢٢٣ . ابن الفوطي ص ١٦٤.

«٥» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٩٤ ، ٢٢٣ . ابن الفوطي ص ١٦٦ – ١٦٨ .

وعند انتهاء مراسيم البيعة في بغداد ترسل الرسل الى امراء المسلمين ليبايعوا الخليفة ويخطبوا له على منابر بلادهم . ويشير ابن الاثير الى ذلك بقوله « وسيرت الرسل الى الآفاق لأخذ البيعة ، فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همذان واصفهان والري . وأرسل رضي الدين القزويني مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة . فبايع صاحبها وخطب للخليفة » «١» .

واذا تصادف وجود رسل هؤلاء الامراء في بغداد فانهم يحضرون البيعة نيابة عن امرائهم فيبايعون ؛ وقد حضر ضياء الدين الشهروزي رسول صلاح الدين الايوبي اخذ البيعة للخليفة الناصر «٢» .

وكان من التقاليد المرعية أن يرسل هؤلاء الامراء رسلاً عنهم الى دار الخلافة ليقدموا العزاء في الخليفة الراحل والتهنئة للخليفة الجديد «٣» .

وكان الخليفة يختار له لقباً يتسمى به ويبايع عليه ، وكان الكتاب يقدمون له قائمة بألقاب عدة ، يختار منها ما يرتاح اليه «٤» ، وقد لقب ابو منصور الفضل بلقب المسترشد بالله عند البيعة «٥» ، كما لقب ابنه ابو جعفر المنصور بالراشد لدين الله «٦» .

«١» ابن الجوزي ج ٩ ص ١٩٨ ، ج ١٠ ص ٦٧ . ابن الاثير ج ٩ ص ١٤٩ .

«٢» ابو شامة - الروضتين ج ٢ ص ١٥ .

«٣» رسائل ابن الاثير - ضياء الدين ص ١٨٦ ، ابن الفوطي ص ١٦٥ .

«٤» الصولي ص ١ - ٢ ؛ ١٨٧ . ابن الفوطي ص ١٥٩ . المقري الفيومي الورقة ١٣١ .

«٥» النقشبندي - الدينار الاتابكي - لوح رقم (١) قطعة رقم ٤٢٨٨ ص ٢٣٢ من مجلة المجمع العلمي العراقي م ٤ ج ١ سنة ١٩٥٦ .

«٦» لم اجد في كتب السكة نقوداً تحمل لقب الراشد بالله . كما لم اجد مثل ذلك في محفوظات المتحف الاسلامي بالقاهرة مما يدل على عدم عثور المنقبين على نقود له .

اما ابو عبدالله محمد اخوه ، فقد تلقب بالمقتفي لامر الله «١» ، وقد تلقب ابو المظفر يوسف بن المقتفي بلقب المستنجد بالله «٢» .

وتلقب ابنه ابو محمد الحسن بلقب المستضيء بأمر الله «٣» ، بينما تلقب ابو العباس احمد بن المستضيء بلقب الناصر لدين الله «٤» ، واختار ابنه ابو نصر محمد لقب الظاهر بأمر الله كناية عن ان أباه وجميع اصحابه ارادوا صرف هذا الامر عنه فظهر وولي الخلافة بأمر الله لا بسعي من احد «٥» .

وتلقب ابنه ابو جعفر المنصور بلقب المستنصر بالله «٦» ، بينما اختار ابو احمد عبدالله بن المستنصر لقب المستعصم بالله «٧» .

أما ولاية العهد في هذه الفترة فقد فقدت قيمتها بعد أن سيطر الدخلاء على الخلافة وأخذوا يتصرفون بمقدرات الخلفاء ، ويظهر أن أحداً من خلفاء هذه الفترة لم يعهد لاكثر من واحد من ابنائه ، بل إن بعضهم لم يعهد لاحد من بعده معتمداً على القاعدة التي سارت عليها الخلافة في تولية الابن الاكبر بعد ابيه .

ويشير ابن الدبيثي الى المرة الوحيدة لازدواج ولاية العهد في هذه الفترة فيذكر

«١» النقشبندي ـ لوحة رقم (١) قطعة رقم ٧٦٩٢ . ص ٢٣٣ من مجلة المجمع العلمي العراقي م ٤ ج ١ سنة ١٩٥٦ .

(2) *Lavoix . Cata - P . 322 - 323 .* No , *1270* , *1271* .
(3) *Lavoix . Cata -* P . *323 .* No , *1272* .
Lane - Poole . *The* . *Coins ..* P . *162* . No , *479* .
(4) *Lavoix . Cata . P . 327 .* No *1283 . Lane Poole .*
The Coins .. P . 163 No , *480* .
(5) *Lavoix . Cata . P . 331 . No . 1304* .
(6) *Lavoix . Cata . P . 333 .* No , *1310 . Lane - Poole .*
The Coins .. P . *167* . No , *496* .
(7) *Lane* - Poole . *The Coins .. P . 170 . no , 503* .

أن المستظهر عهد بولاية العهد لابنه المسترشد ومن بعده لابنه ابي الحسن عبدالله «١» .

ومن الاسباب التي قد تدفع الخليفة لاتخاذ ولي العهد رغبته في قصر الخلافة على احد ابنائه بالذات ، وقد لايكون الاكبرمنهم ، ثم خوفه على أبنائه من منافسة اخوته.

فالخليفة المسترشد عهد لابنه الراشد بولاية العهد وخطب له بعد أن هرب اخوه ابو الحسن الى الحلة ثم واسط ودعا لنفسه بالخلافة «٢» . اما الخليفة المقتفي فلم تكن علاقته مع اخوته حسنة مما اضطره الى الاحتراس منهم والتضييق عليهم«٣» ، فضلا عن رغبته في تولية ابنه الصغير ابي المظفر يوسف متخطياً بذلك ابنه الكبير جعفر .

ويشير ابن الجوزي الى ذلك عند حديثه عن البيعة للمستنجد بقوله «٤» : « فبايعه اهله وأقاربه وأولهم عمه ابو طالب ثم جعفر بن المقتفي وكان اكبر من المستنجد .

اما الخليفة الناصر فقد ولى عهده ابنه الظاهر بأمر الله ابا نصر محمد سنة ٥٨٥ هـ ، وخطب له في جوامع مدينة السلام ، ونثرت عند ذكر اسمه دنانير عليها اسمه كولي للعهد.

«١» ابن الدبيثي – ذيل على ذيل : الورقة ٢٧٨ .

«٢» ابن الجوزي جـ ٩ ص ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧ . ابن الاثير جـ ٨ ص ٢٨٢.

«٣» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١١٦ ، ١٢٦ .

«٤» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٩٢ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٦٩ ، العيني جـ ٢١ ق٢ الورقة ٣٢١ ، هذا ولم تشر المصادر المعاصرة الى حادث البيعة له بولاية العهد . وأرى انها كانت سنة ٥٤٢ هـ عندما هرب اسماعيل بن المستظهر الى خارج بغـداد ، فخاف المقتفي ان يدعو لنفسه فبايع لابنه المستنجد ، وهو ما حصل بالنسبة للمسترشد ايضاً . وقد أشار مقال دائرة المعارف الاسلامية الى نفس هذا التاريخ ايضاً .

اما المصادر المعاصرة فانها كانت تتحدث عنه بعد هذا التاريخ فتسميه بولي العهد. ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٤٨ ، البنداري ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

Ency . of . Islam . P . 767 - 768 .

وكان الخطباء والدعاة كما ينقل ابن الدبيثي يقولون بعد استيفاء الدعاء للخدمة الشريفة «١» : « اللهم وبلغه سؤله ومناه وافض أمله ومنتهاه في سلالته الطاهرة وعترته الزاهرة عدة الدنيا والدين عمدة الاسلام والمسلمين المخصوص بولاية العهد في العالمين ابني نصر محمد بن امير المؤمنين ، اللهم اشدد به عضده وكثر به عده برحمتك يا ارحم الراحمين »

ولكن الناصر عـــدل في سنة ٦٠١ هـ عن العهد لابي نصر مفضلا ابنه الاصغر ابي الحسن علي «٢» ، فخلع ابا نصر من ولاية العهد وأخذ يسيء معاملته « وحبسه في دار مبيضة الارجاء ليس فيها لون غير الابيض كما يقول الصفدي حتى ان حراسه كانوا يفتشون اللحم خوفاً ان يكون فيه شيء اخضر ينعش به نور بصره الذي ضعف حتى كاد يعمى لولا ان تداركه ابن الناقد بحيلة » «٣» . وبالرغم من وفاة ولي العهد الثاني سنة ٦١٢ هـ فان الخليفة لم يعهد لاحد حتى سنة ٦١٨ «٤» هـ .

اما بقية الخلفاء فلا يوجد ما يشير الى انهم عهدوا في حياتهم لواحد من ابنائهم ، على ان ابن دحية ينفرد بالقول بأن المستضيء كان قد عهد لابنه ابي العباس احمد قبل اسبوع واحد من وفاته «٥» ، علماً بأن ابن الجوزي وهو من أقرب المقربين الى الخليفة

«١» ابن الدبيثي ـ الورقة ٢٦ .

«٢» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ١٤٤ .

«٣» الصفدي ـ الوافي بالوفيات جـ ٢ ص ٩٥ ـ ٩٧ .

«٤» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٠٤ ، ٢٦٩ ، ٣٦١ . السبط جـ ٨ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣ . الذيل ص ٥٠ ، ابن واصل جـ ٣ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

Ency . of . Islam . Al - Zvhir . P. 1190 .

«٥» ابن دحية ص ١٦٥ ، الذهبي ـ المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

يشير الى ان العلاقة بين الخليفة وابنه لم تكن طيبة «١» وانه في صفر ٥٧١ هـ قبض على استاذ الدار صندل وخادمين وحبسوا بتهمة تأييدهم للأمير ابي العباس .

ولم تخل هذه الفترة من تدخل رجال الحاشية والمماليك في اختيار الخلفاء باستثناء موضوع خلع الراشد وتنصيب المقتفي ، واعتقد ان سوء العلاقات بين ابناء الاسرة العباسية وضعف الشعور برابطة القرابة بينهم وسياسة العزلة التي اتبعها الخلفاء عن اهلهم وعن الناس ، واعتمادهم على الخدم من المماليك ، كل ذلك افسح المجال لهذه الحاشية أن تستغل الحكم لصالحها فلا تتردد في التدخل لاختيار الضعيف من الخلفاء او التحالف مع من يضمن لها النفوذ والسلطان .

وقد أشرنا الى نزاع المسترشد مع اخيه ابي الحسن عبدالله الذي هرب ودعا لنفسه الامر الذي اضطر الخليفة الى حبسه والتضييق عليه حتى توفي «٢» .

اما الراشد فقد دفعه خوفه من اهله واقاربه وخشيته ان يتعاونوا مع السلاجقة عليه الى اعتقالهم جميعاً وكاد يأمر بقتلهم قبيل هروبه الى الموصل «٣» .

وأشرنا كذلك الى مشاكل المقتفي مع اخويه ابي طالب واسماعيل مما اضطره الى الاحتراس منهم والتضييق عليهم «٤» .

اما الخليفة المستنجد فقد تعرض لمحاولتين للقضاء عليه ، فشلت الاولى ونجحت الثانية ، فقد طمعت احدى محظيات المقتفي وهي أم ولده ابي علي في ان تستغل مرض الخليفة الاخير لتنصيب ولدها خليفة بدلاً من ولي العهد فاتصلت بجماعة من الامراء

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٥٦ .

«٢» ابن الجوزي ج ٩ ص ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧ . ابن الاثير ج ٨ ص ٢٨٢.

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤٩ . لاحظ ملحق حديث ابن الفارقي .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١١٦ ، ١٢٦ .

وبذلت لهم الاقطاعات فوافقوها على غرضها ، ثم اختارت احـد ارباب الدولة وهو ابن الكيا الهراسي الذي اشترط تولي الوزارة كثمن للتعاون فوافقته على ذلك ، ورتبت بعض الجواري لقتل المستنجد عند دخوله على ابيه المريض ، لولا ان انكشف الامر ونجا المستنجد من القتل «١» .

ثم كانت المحاولة الثانية التي قضت عليه عندما تعاون قائد الجيش قايماز مع استاذ الدار ابن رئيس الرؤساء واستعانا بالطبيب ابن صفية الخاص بالخليفة . وكان المستضيء على علم بالمؤامرة على حياة والده ان لم يكن قد شارك فيها «٢» .

اما الخليفة الناصر فقد أشرنا الى محاولته للحلول محل والده في الخلافة ، فلما آلت اليه اخذ الحذر من اهله واقاربه ووجـــد أن اسلم طريقه للخلاص منهم هي اعتقالهم ومنعهم من الاتصال بأحد من الناس . ويشير ابن جبير الى ذلك عند زيارته بغداد في صفر ٥٨٠ هـ بقوله «٣» : « اما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفلها بذلك شرفاً واحتفالا ، ودور الخلافة معها آخرها وهي تقع منها في نحو الربع او ازيد لان جميع العباسيين في تلك الديار معتقلين اعتقالا جميلا لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم » . وأشرنا الى انه لم يتردد في اعتقال ابنه الكبير بعد عزله من ولاية العهد ومعاملته معاملة سيئة .

«١» ابن الاثير جـ ٩ ص ٦٨ – ٦٩ ، ابن العبري ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .

Ency . of . Islam . Al - Mustanbjib . P . 767 - 768 .

«٢» ويعطي ابن الفرات سبباً غريباً لمشاركة المستضيء في هذه المؤامرة بأن والده كان قد أمر بقتله لانه كان قد قام بعمل معين لا يشرف . تاريخ الدول والملوك م ٧ الورقة ٦٠ – ٦١ .

«٣» ابن جبير ص ١٨٠ .

ولعل ابشع تدخل قامت به الحاشية كان اختيارها آخر الخلفاء ، فمن الواضح ان المستنصر بالله لم يعهد بولاية العهد لاحد في حياته ، ولعله كان يمهد الامر من بعده لاخيه الخفاجي الذي كان يمتاز بالشجاعة ، وكان دائماً يردد القول : « إن ملكني الله الامر لاعبرن بالجيوش نهر جيحون وأنتزع البلاد من التتار » «١» ولكنه توفي قبل ان يستطيع تحقيق امنية اخيه ، مما دفع البعض الى القول بأن وفاته ليست طبيعية وانه فصد بمبضع مسموم » «٢» وذلك لقطع الطريق على الخفاجي حتى لا يصل الى الخلافة . ويشير اليونيني الى ذلك بقوله : « فلما توفي المستنصر لم ير الدويدار والشرابي وكان غالبين على الامور ولا بقية ارباب الدولة تقليده الخلافة لما يعلمون من استقلاله واستبداده بالتدبير دونهم وآثروا ان يليها المستعصم بالله لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الامر اليهم فتقلدها واستبدوا بالتدبير » «٣» .

وكانت تولية المستعصم موضع استغراب واستنكار من أبناء الاسرة العباسية التي كانت تتوقع أن يفوز بالخلافة غيره ، لذلك امتنعوا عن مبايعته جميعاً حتى اكرهوا على ذلك . يشير الاربلي الى الحيلة التي اتبعت لاخذ البيعة للمستعصم فيقول : « واستدعى احد اعمامه وهو ابو الفتوح حبيب ، وأوهم ان جماعة اخوته حضروا وبايعوا ، فلما حضر لم يرهم فبايع وعاد الى داره بالفردوس ثم طلب الباقون للمبايعة فامتنعوا ... » ويقول ايضاً : « واما اعمامه وكذا عم ابيه الممتنعون من الحضور والمبايعة فأشير باستدامة غلق باب الفردوس الذي يحتوي دورهم بحيث لا يدخل عليهم طعام ولا غيره

«١» السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

«٢» المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣١١ ـ ٣١٢ ، العيني مجلد أحداث ٦٣٥ ـ ٦٥٦ هـ الورقة ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

«٣» اليونيني ـ ذيل مرآة الزمان ص ٢٥٥ .

فبقوا على ذلك ثلاثة ايام فسألوا المبايعة وأحضروا وبايعوا »«١» .

ولم يسلم المستعصم بالله من تدخل الحاشية ، فقد نسب الى الدويدار الصغير أنه كان يعمل على خلع الخليفة والمبايعة لولده الاكبر ، فأدى ذلك الى انقسام رجال الحاشية على انفسهم في الوقت الذي كان فيه خطر المغول يطرق ابواب العراق «٢» .

ويمكننا أن نقول اننا لا نكاد نجد بين الخلفاء اللاحقين على المقتفي من له دور فعال في النشاط السياسي اوتأثير في شؤون الحكم وادارة البلاد ، قد غلبت على معظمهم العزلة عن الناس واتخذوا من الوزير واجهة لأوامرهم ونواهيهم ، وقصروا الاتصال به دون الناس ، ولم يحاول احدهم الخروج من بغداد وتفقد احوال البلاد او الاتصال بالشعب ومعرفة حاجاته .

ولم يحاول احدهم قيادة الجيش والخروج به لوقف الاخطار التي كانت تتهدد البلاد من الشرق والغرب ، بل لا نجد بينهم من جلس يوماً لاستعراض الجيش في المناسبات او العناية به .

قال ابن الطقطقي يصف الخلافة في هذه الفترة «٣» : « بأنها دولة ذات خداع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها اوفر من قسم القوة والشدة ، خصوصاً في اواخرها ، فان المتأخرين منهم بطلوا قوة الشدة والنجدة وركنوا الى الحيل والخداع » . فالخليفة المستنجد بالله قضى الفترة الاولى من خلافته تحت وصاية الوزير ، وفي الوقت الذي كان الخليفة مشغولاً بالخروج الى الصيد مع خواصه وغلمانه «٤»

«١» خلاصة الذهب المسبوك ص ٢١٤ - ٢١٥ .

«٢» ابن الفوطي ص ٢٩٤ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

«٣» ابن الطقطقي ص ١٧٦ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٩٨ - ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ .

استطاع هذا الوزير أن يوسع املاك الخلافة بشراء قلعة الماهكي سنة ٥٥٧ هـ «١» ، وانتقم من بني أسـد في الحلة لوقوفهم بجانب السلاجقة عند حصار بغداد فأجلاهم عن منازلهم سنة ٥٥٨ هـ بعد أن حاصرتهم جيوش الخلافة وجيوش الامراء المجاورين وقتلوا منهم كثيرين «٢» وأعاد النظر في تنظيم جباية الخراج فألغى المقاطعات وردها الى الخراج «٣» .

وعندما توفي ابن هبيرة سنة ٥٦٠ هـ فتر نشاط الخلافة حتى عجزت جيوشها عن صد هجمات ابن شملة صاحب خوزستان الذي وصلت غاراته حتى واسط ، واضطرت الخلافة الى لعنه على المنابر واعتباره خارجاً عن طاعتها «٤» ، واستوزر المستنجد سنة ٥٦٣ هـ ابا جعفر البلدي وبسط يده في جميع اهل الدولة من الامراء والحجاب واستاذ الدار ، فاستصفى منهم اموالاً كثيرة للخليفة ، واعتقل بعضهم وطالبهم بحسابات قديمة «٥» « حتى كرهته الانفس » كما يقول ابن الفرات «٦» ، كما كرهت المستنجد لانه اطلق يده .

وقد اشترط على المستضيء عندما ولي الخلافة أن يستوزر عضد الدين ابا الفرج ابن رئيس الرؤساء وان يطلق يد قايماز في الجيش فلم يستطع ان يفعل غير ذلك فأصبح

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٧٩ .

«٢» نفس المرجع ص ٨٣ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٠٠ ، ابن الطقطقي ص ٣٦٣ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٢٠ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٩٤ ، ٩٦ .

«٥» ابن الاثير ج ٩ ص ٩٨ ، ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٢٧ ، ابن الفرات م ٧ الورقة ٣٩ ، ٥٧ .

«٦» ابن الفرات م ٧ الورقة ٦٠ - ٦١ وهو ينقل الخبر عن نظم السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك ، ابن الجوزي ج ١٠ ص٢٢٢ حاشية رقم (١) منقولة عن مرآة الزمان.

محجوراً عليه ، لا يدخل عليه غير قايماز «١» ، وعندما تنازع قتلة المستنجد كان على الخليفة ان يطيع اوفرهم قوة ، فوافق على عزل وزيره ، وعجز عن اعادته بعد ذلك ، وحوصر قصره عندما التجأ اليه بعض خاصته هرباً من ملاحقة قايماز ، وكاد يحل بالخليفة ما حل بأبيه لولا أن استجار بالعامة واباح لهم اموال قايماز ودمه «٢» .

وبلغت الخلافة من الضعف انها لم تستطع ارسال جيش لمطاردته والقبض عليه عندما استقر بالحلة وحيداً فاستعانت بشيخ الشيوخ الذي خرج اليه وأقنعه بوجوب الابتعاد عن عاصمة الخلافة «٣» .

ويستحق الخليفة الناصر منا وقفة قصيرة ، فقد حكم اطول فترة حكمها خليفة عباسي وباشر السلطة بنفسه وجرب في ذلك اساليب مختلفة ، ووقعت في عهده احداث جسام تراكمت نتائجها السيئة بمرور الزمن ، وكان عجزه عن معالجتها في حينها من اسباب انهيار الخلافة وكانت طوائف الموظفين الذين استخدمهم في حياته الطويلة من الوزراء وغيرهم يشعرون بالصغار والخوف أمام الهيبة ومظاهر العظمة التي احاط بها شخصه باحتجابه عنهم حتى نسبت اليه المبالغات ، وكان وزيره يخشى المثول بين يديه ، وقد حاول استخدام القوة العسكرية لفرض سلطان الخلافة على البلاد المجاورة في الوقت الذي كان فيه عاجزاً عن استرجاع سلطانه على بلد مثل تكريت «٤» .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٣٤ ، ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٩ ، ابن شاكر ج ١ ص ١٣٧ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ ، ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ابن الاثير ج ٩ ص ١١٤ ، ١٢٨ ، ١٣٤ - ١٣٥ .

Ency . of . Islam . Al - Mustabi . P . 759 .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ١٣٥ .

«٤» استرجعت الخلافة سلطانها على تكريت في شوال ٥٨٥ هـ بعد ان كانت قد طلبت من صلاح الدين ارسال بعض قواده للقيام بذلك .

ولم يتخذ لهذه الحملات الاستعدادات الكفيلة بنجاحها اذ اختار لقيادتها وزراء لا خبرة لهم بفنون الحرب«١» ، وكان فشل هذه الحملات في تحقيق اهدافها سبباً لعزوفه عن استخدام الجيش ، ولجوئه الى سياسة الاغراء والخديعة والاستعانة بالامراء بعضهم على بعض «٢» ، حتى تعقدت مشاكل الخلافة وساءت مع الامراء الداخلين في طاعتها ، وفكر بعضهم في غزو بغداد وسعى لتنفيذ ذلك «٣» .

وكان موقفه من الحروب الصليبية يدعو للرثاء ، فبالرغم من عدم مساهمة الخلافة فيها إلا بحملي بعير من النفط والسلاح فانه لم يقدر خطورة الصليبيين على البلاد ، ولم يعمل على توحيد كلمة المسلمين في المنطقة ليسند القوة الايوبية التي كانت تتصدى لهم «٤» .

وسعى لتأكيد زعامته الدينية بالتأليف فأصدر كتاب (روح العارفين) الذي

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٩٧ ، ٢٣٠-٢٣٢. الراوندي ص ٥٢٨ ، ٥٣٠-٢٣٢. السبط ج ٨ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ ، الذيل ص ٨ . لاحظ حملة الوزراء ابن يونس وابن القصاب ورأي صلاح الدين في قياداتها .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ . الراوندي ص ٤٨٠ - ٤٨١ ، ٤٩٣ ، ٥٠١ ، ٥٥٠ . السبط ج ٨ ص ٤٥٢ . ابن كثير ج ١٣ ص ١٦ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ٣١٢ - ٣١٣ ، النسوي ص ٤٩ ، ٥٢ ، ٦٤ .

«٤» وينقل لنا ابوشامة عن سبط ابن الجوزي حقيقة موقف الخلافة من الحروب الصليبية في المحاورة التي دارت بين محي الدين يوسف بن الجوزي والمعظم عيسى بن العادل الايوبي « قال ابو المظفر (سبط بن الجوزي) وحكى لي المعظم قال : قال لي خالك : المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي الى اخوتك ونصلح بينك وبين اخوتك . قال : فقلت لخالك : اذا رجعت عن الخوارزمي وقصدني اخوتي تنجدونني ؟ قال : نعم . قلت : ما لكم عادة تنجدون احداً . هذه كتب الخليفة الناصر عندنا ونحن على دمياط ، ونحن نكتب ونستصرخ به ونقول انجدنا ، فيجيء الجواب بأنا قد كتبنا الى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا » . الذيل ص ١٤٧ ، ابو المحاسن ج ٦ ص ٢٦٤ .

اشتمل على مجموعة من الاحاديث النبوية ، ووزع نسخاً منه على البلاد لكي تروى عنه بالسند «١» .

وفي المجال الداخلي استوزر ثلاثة عشر رجلاً حمل منهم لقب الوزير اربعة «٢» بينما حمل الباقون لقب نائب الوزير .

واعتمد في تثبيت سلطانه على جيش كبير من اصحاب الاخبار الذين انتشروا بين الناس في الدروب والاسواق والمدارس ودواوين امراء الاطراف وحتى مجالس وزرائه لم تكن تخلو منهم «٣» ، وكثيراً ما كان يخرج متخفياً ليتعرف احوال الناس فيتجول في الدروب يتسقط أخبارهم «٤» .

ودفعته رغبته في كسب تأييد الشيعة الى العمل على ارضائهم فجعل مشهد الامام موسى الكاظم حرماً آمناً حتى اتهمه بعض المؤرخين بأنه يرى رأي الامامية «٥» .

ولقى الناس في عهده الامرين من زيادة الضرائب والمبالغة في جبايتها . يذكر ابن الاثير ان قرية بعقوبة كان خراجها عشرة آلاف دينار فارتفع في عهده الى ثمانين الف دينار ، ولم يكن الخليفة يهمه طريقة جباية هذه الضرائب بقدر ما يهمه أن تمتليء خزائنه بالاموال «٦» .

«١» السبط ج ٨ ص ٥٤٣ ، الذيل ص ٦٩ ، ابن واصل ج ٣ ص ٢٢٨ ، ٢٣٢.

«٢» وهم عبيدالله بن يونس في وزارته الاولى ، وسعيد بن حديدة ، مؤيدالدين ابن القصاب ، وناصر بن مهدي العلوي .

«٣» السبط ج ٨ ص ٥٣٦ ، دول الاسلام ج ٢ ص ٩٥ .

«٤» ابن جبير ص ١٨١ - ١٨٢ ، ابن كثير ج ١٢ ص ٣٢٨ .

«٥» ابن الساعي - مختصر اخبار الخلفاء ص ١١١ ، السيوطي ص ١٨١ .

«٦» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ، السبط ج ٨ ص ٦٣٦ ، عمدة الطالب ص ١٤٥ - ١٤٧ .

واتسعت املاك الخلافة في عهده بفضل سياسـة انتهاز الفرص التي اتبعها . ففي سنة ٥٧٩ هـ استغل الخلاف الذي نشب بين أتابك الموصل عزالدين مسعود وقائد جيشه مجاهد الدين قايماز ، فأرسل جيشاً احتل داقوقاً ، كما استرد سنة ٥٨٥ هـ سلطان الخلافة على تكريت بعد أن توفي عنها صاحبها وانقسم ورثته على انفسهم فأرضاهم بالمال واشترى منهم البلد «١» .

وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد استرد خوزستان ووصل نفوذ الخلافة حتى اصفهان وهمدان في بعض الاحيان .

ولم يقم الخليفة الظاهر بدور سياسي واضح سوى محاولته تسوية الخـــلاف مع الخوارزميين واعادتهم الى طاعة الخلافة «٢» ، على حين انه حاول في المجال الداخلي اعادة الاموال المغتصبة الى اصحابها وأمر بالغاء كثير من الضرائب والمكوس ، واعادة تطبيق الخراج على النظام القديم ومراعاة العدالة والمساواة في المعاملة بين الرعايا ومنع الظلم في الجباية فارتفع عن الناس ما كانوا الفوه من الخوف في زمن والده «٣» .

واذا كان قد أبقى وزير ابيه ابن القمي ، إلا أنه باشر الامور بنفسه ، ولعل الكتاب الذي اخرجه بخطه الى الوزير يكشف لنا عن مدى شعوره بالمسؤولية وعزمه على إزالة المظالم . جاء في هذا الكتاب قوله : « ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم ، او نفذ مثال ثم لا يبين له أثر ، بل انتم الى إمام فعال احوج منكم الى إمام قوال ... ثم يعلن لهم عفوه عما سلف من اخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة وإظهار

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٣ - ٢٠٥ ، ٢٢٩ .

«٢» النسوي ص ٢٨٠ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ، ابن العبري ص ٤٢٣ ، انسان العيون الورقة ٢٣٦ - ٢٣٨ .

Ency . of . Islam . Al - Zahir . P . 1190 .

الباطل بصورة الحق ، ويأمرهم أن يبدأوا صفحة جديدة من العمل تقوم على العدل والطاعة وإلا هلكتم والسلام » (١) .

اما الخليفة المستنصر بالله فقد استطاع أن يعيد العلاقات مع الخوارزميين ، لكنه لم يستطع التوفيق بينهم وبين الايوبيين ويجعل منهم قوة متعاونة لوقف خطر المغول (٢).

لكن الخليفة عمل بدوره على ايقاف خطرهم فاستكثر من الجند واستنجد بأمراء المسلمين وأرسل الاموال الى الكامل الايوبي ليجند جيشاً لحساب الخلافة ، واشتبكت جيوشه في عدة معارك مع المغول (٣) ، ولكنه لم تكن للخلافة سياسة واضحة بعيدة المدى في دفعهم والقضاء عليهم ، لذلك بقيت هجماتهم تهدد أمن الخلافة واستقرارها .

وعندما تولى المستعصم فقدت الخلافة بقية ما كان لها من نشاط عسكري ، فقد حسنت الحاشية للخليفة امكانية مسالمة التتر بحمل بعض المال اليهم بدلاً من صرفه على الجند (٤) ، وكان يعتقد أن بغـــداد تكفيه اذا اقتضى الامر وتنازل لهم عن باقي البلاد (٥)، وكان مسلوب الرأي أمام حاشيته ضعيف الارادة ، وكانت حاشيته منقسمة على نفسها ، وكانت الفتن المذهبية وقوداً لها ، وحاول عندما اطبق الخطر عليه أن

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) النسوي ص ٣٠٤ - ٣١٠ ، ابن الفوطي ص ٤ ، ١٤ .

(٣) اليونيني ص ٨٦ - ٨٧ ، ابن العبري ص ٤٣٨ ، ابن الفوطي ص ٨٤ ، ٩٨، ١١١ - ١١٣ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، السيوطي ص ١٨٥ ، المقري الفيومي - الورقة ٨٥ .

(٤) اليونيني ص ٨٧ ، انسان العيون الورقة ٢٢٤ ، العيني - مجلد احـداث سنة ٦٣٥ - ٦٥٦ الورقة ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٥) ابن العبري ص ٤٤٥ .

يستنجد بأمراء المسلمين المتنازعين فكتب اليهم ليصطلحوا ويسرعوا الى نجدته (١)
ولكن الفرصة كانت قد ولت فاستسلم لمصيره وساق معه جميع افراد الاسرة العباسية
الذين كان قد احتجزهم في قصري الشجرة والصخر الى حيث لاقوا ربهم .

***

٢ ـ الوزارة

٢ - **الوزارة** : - استعادت الوزارة مكانتها مع تحرر الخلافة ، ولكن الوزارة شأنها شأن الخلافة لم تصل الى المستوى الذي كانت عليه في الصدر الاول من الخلافة العباسية ، وذلك لطبيعة الاوضاع السياسية التي تحكمت فى الخلافة في هذه الفترة .

وظل خلفاء هذه الفترة يتوخون في وزرائهم صفات معينة حددها الفقهاء على هذا النحو « كالصدق والامانة وغزارة العلم والفضل والرأي السديد والكفاية في تصريف الاعمال والاموال وحسن التصرف في مخاطبة الاعداء والاصدقاء » (٢) ، وجرت عادة الخليفة أن يختار وزراءه من الموظفين الذين تمرسوا في اعمال الدواوين ، ولكن الخليفة المسترشد استوزر احد ابناء الاسرة العباسية وهو نقيب النقباء علي بن طراد الزينبي وقال له بعد أن تولى منصبه (٣) : « كل من ردت اليه الوزارة شرف بها إلا انت فان

---

(١) اليونيني ص ١٢ ، ١٧٣ ، ابو الفداء ج ٣ ص ١٩٥ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ ، ابو المحاسن ج ٧ ص ٢٥ ، ابن العماد الحنبلي ـ شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٦٤ .

(٢) الماوردي ص ٣١ ، الحسن بن عبدالله ، آثار الاول ص٧٣ ، ابن الطقطقي ص ١٧٩ - ١٨٠ ، خريدة القصر ص ٩٤ ـ ٩٥ ، ٩٧ ، السبط ج ٨ ص ٥٣١ ، ابن خلكان ج ٥ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٣٤ ، ابن الطقطقي ص ٣٥٣ .

الوزارة شرفت بك ، محلك يانقيب النقباء من شريف الآباء وموضعك الحالي بالاختصاص والاختيار ما يقتضيه اخلاصك المحمود اختياره ، الزاكية آثاره توجب التعويل عليك في تنفيذ المهام والرجوع الى استصوابك في النيابة التي يحسن بها القيام ، وجماعة الاولياء والاتباع مأمورون بمتابعتك وامتثال ما تصرفهم عليه من الخدم في ابدائك واعادتك، فاحفظ نظام الدين ، وتقدم الى من جرت عادته بملازمة الخدمة وسائر الاعوان ، وتوفر على مراعاة الاحوال بانشراح صدر وفراغ بال ، فان الانعام لك شامل ، ونيل آمالك كافل ان شاء الله » .

ثم استوزره الخليفة المقتفي بعد ذلك ، وجرت العادة أن يبعث الخليفة بعض كبار الموظفين او الحجاب الى من يختاره للوزارة ، فيستدعي الى دار الخلافة ثم يبلغ قرار الاختيار ، ويخلع عليه خلع الوزارة أمام حجرة الخليفة وبحضر من ارباب المناصب ، وكانت الخلعة تتألف من القميص الاطلس والدراعة والعمامة ، ويقلد بسيف محلي ، ثم يقدم له عندما يخرج من الدار فرس من خيل الخليفة ليمتطيه ويتوجه به الى الديوان العزيز ، والعهد منشور بين يديه وجميع ارباب الدولة مشاة بين يديه ، فيجلس في دست الوزارة بالديوان ويقرأ عهده على الحاضرين «١» .

وكانت العادة ان يكتب الوزير بعد جلوسه في دست الوزارة إنهاء يرفعه الى الخليفة يشكره فيه على تشريفه واختصاصه .

ينقل ابن الفوطي ما كتبه الوزير ابن العلقمي عند توليه الوزارة الى الخليفة المستعصم بقوله : « وقد بدأه بالآية الكريمة : رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من

«١» ابن الجوزي جـ١٠ ص ٢٦ ، ابن الدبيثي الورقة ١٨٢-١٨٣ ، ٢٤٤،٢٤٥.
السبط جـ٨ ص ٥٢٥،٥٦٧ - ٥٦٨ . الذيل ص ٥٢ . ابن خلكان جـ٥ ص ٢٧٥-٢٧٦.
المختصر المحتاج اليه ص ٩٦ ، ١٣٤ .

تاويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة ، ثم يستمر في الدعاء للخليفة والعهد على الاخلاص والتماس طاعة الخلافة فيما يفعل ، «١» .

وكان الخليفة يجيب على نفس الكتاب الذي يرفعه الوزير بخطه دليلاً على اطلاعه عليه وتأييده له ، وكان جواب المستعصم الذي قرىء على الحاضرين « وُقف على خدمتك المشتملة على دعاء تواليه وانهاء تعيد الاخـــلاص فيه وتبديه ، وعلم ما ذكرته وعرف ما أردته رزقك الله تعالى توفيقاً بالتمسك بحبله وهداية الى طريق الارشاد وسبله بكرمه وفضله ، «٢» وقد سعى الخليفة المسترشد لتعزيز مكانة الوزارة حتى تعلو على المناصب الاخرى لشعوره بأن وهنها وهن للخلافة «٣» ، خاصة وان المتغلبين درجوا على الحط من مكانتها ، والتقليل من اهميتها .

فبعد أن خلع على وزيره ابن صدقة ابي علي الحسن بن علي ، أمر أرباب الدولة بالسعي بين يديه الى الديوان ، فكان ابن صدقة اول وزير مشى ارباب الدولة بين يديه «٤». وكذلك فعل المقتفي عندما أمر بأن لايخاطب أحد بمولانا سوى الوزير«٥» وكان من متممات تكريم الخليفة للوزير وتعزيز مكانته ورفع قدره في أعين الناس تلقيبه بعد الخلع عليه والاطلاع على الانهاء الذي يرفعه له ، فيبرز الالقاب التي ينبغي أن يخاطب بها الوزير .

«١» ابن الفوطي ص ٢٨٠ .

«٢» نفس المرجع ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، المقري الفيومي الورقة ٣٥ - ٣٦ ، حيث ينقل فيها صورة الانهاء الذي رفعه ابو الازهر بن الناقد عنـد توليه الوزارة وجواب المستنصر عليه .

«٣» الصولي ص ١٣٤ - ١٣٥ . لاحظ حديث الخليفة الراضي عن اهمية الوزارة.

«٤» ابن الطقطقي ص ٣٥١ .

«٥» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٠٣ .

وقد لقب المسترشد وزيره ابن صدقة « بجلال الدين سيد الوزراء صدر الشرق والغرب ظهير اميرالمؤمنين » «١» .

وأمر المقتفي بمخاطبة وزيره ابن هبيرة « بالوزير العالم العادل عون الدين جلال الاسلام صفي الامام شرف الانام معز الدولة مجير الملة عماد الامة مصطفى الخلافة تاج الملوك والسلاطين صدر الشرق والغرب سيد الوزراء » «٢» .

ولقب المستنجد وزيره ابن البلدي « بشرف الدين جلال الاسلام معز الدولة سيد الوزراء صدر الشرق والغرب » «٣» .

وينقل ابن الفوطي أن المستنصر بالله أمر بأن يخاطب وزيره ابن الناقد بألقاب الوزير ابي الحسن ناصر بن مهدي العلوي وزير جـده الناصر ، فخوطب ابن الناقد « بالمولى الوزير الاعظم الصاحب الكبير المعظم ، العالم العادل المؤيد المظفر المجاهد نصير الدين صدر الاسلام غرس الامام شرف الانام ، عضد الدولة جلال الملة مغيث الامة عماد الملك اختيار الخلافة المعظمة مجتبى الامامة المكرمة تاج الملوك سيد صدور العارفين ملك وزراء الشرق والغرب ، غياث الورى ابو الازهر احمد بن محمد بن الناقد ظهير اميرالمؤمنين ووليه المخلص في طاعته الموثوق به في صحة عقيدته » «٤» .

وكانت اختصاصات الوزير واسعة جـداً لا تقل عما كان عليه الوزراء في صدر الخلافة خاصة عندما يكون الوزير متمتعاً بثقة الخليفة وتأييده ، ولعل التفويض الذي

«١» ابن الطقطقي ص ٣٥١ .

«٢» ابن العماد الحنبلي جـ ٤ ص ١٩٢ .

«٣» ابن كثير جـ ١٢ ص ٢٥٤ .

«٤» ابن الفوطي ص ٣٤ ـ ٣٥ ، المقري الفيومي الورقة ٣٦ ، ومما يلاحظ في هذه الالقاب انها جمعت جميع القاب البويهيين والسلاجقة كأنما يريد الخلفاء التأكيد من وراء ذلك علي ان وزراءهم بمستوى سلاطين السلاجقة وأمراء البويهيين .

كتبه الخليفة الناصر بخطه لوزيره ابن القمي يكشف لنا عن هذه السلطات ، اشار ابن الطقطقي الى ذلك بقوله : « فبرز من حضرة الخليفة مكتوب لطيف بخط يد الناصر فقرىء على الجميع فكان فيه بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد بن برز القمي نايبنا في البلاد والعباد، فمن اطاعه فقد اطاعنا،ومن اطاعنا فقد اطاع الله ومن اطاع الله ادخله الجنة، ومن عصاه فقد عصانا ، ومن عصانا فقد عصى الله ومن عصى الله ادخله النار » «١» .

فقد كان من صلاحيات الوزير النظر في الدواوين كلها ، وكان ارباب الاعمال يراجعونه في سائر الامور ، وهو الذي يولي ويعزل صدور (رؤساء) هذه الدواوين والمشرفين عليها ، وهو الذي يقوم بتبليغ القضاة قرار الخليفة بتوليهم ويخلع عليهم في دار الوزارة ، ثم يراقب اعمالهم ويتولى عزلهم عند الضرورة «٢» .

وكذلك يقوم بمخاطبة نقباء العلويين والعباسيين ويخلع عليهم ويقرأ عهدهم في دار الوزارة «٣» ، وجرت العادة ان يتولى الوزير اخذ البيعة للخليفة عند توليه ، ثم يجلس نيابة عنه في مجلس العزاء ، ويتولى توزيع الخلع على كبار الموظفين عند تغير ثياب العزاء «٤» . وقد يعهد اليه الخليفة باعتقال ومحاسبة الوزراء السابقين ، والموظفين الآخرين الذين يشتبه في اعمالهم «٥» ، كما ينوب عن الخليفة في استعراض الجيوش في المناسبات ، اوقيادتها لقمع حركات الممردين على الخلافة «٦» وكان يشرف على استقبال

«١» ابن الطقطقي ص ١٨٠ .

«٢» ابن الجوزي ج ٩ ص ٨٣ ، ابن الفوطي ص ٢٢ ، ٢٢٢ . الجامع المختصر ج ٩ ص ٩ - ١٠ ، ١١٥ ، ٢٠١ - ٢٠٢ .

«٣» الجامع المختصر ج ٩ ص ١٩٣ ، ابن الفوطي ص ٣٨ .

«٤» ابن الفوطي ص ٣٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ .

«٥» ابن الاثير ج ٩ ص ٩٨ . السبط ج ٨ ص ٤٥١ ، ٥٢٦ . الذيل ص ٥٣ .

«٦» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٠٣ . السبط ج ٨ ص ٥٤٤ ، ٥٥٥ . ابن الجوزي -

امراء البلاد المجاورة او رسـلهم ، وينظم وصولهم الى حضرة الخليفة ، وضيافتهم وتوديعهم عند الرحيل «١» ، وكان المفروض ان يطلع الوزير الخليفة على كل عمل يقوم به ويأخذ موافقته ، فكان من واجباته ان يقدم تقريراً بأعماله كل صباح الى الخليفة ، وكان الوزير يكتب هذا التقرير في السحر عادة «٢» .

وكما كان وزراء الصدر الاول يستخدمون ابناء اسرتهم في مناصب الدولة الكبيرة استعان معظم وزراء هذه الفترة بافراد اسرتهم للاشراف على الكثير من الاعمال التي يتولونها . فابن هبيرة استعان بولديه وولاهما الاعمال وقيادة الجيش ، وكان احدهما ينوب عنه في الوزارة «٣» .

اما مؤيد الدين بن القصاب فقد استناب ولده شمس الدين ابا الفضائل احمد في الوزارة عندما خرج في الجيش الى خوزستان وهمدان «٤» ، وولى نصير الدين بن مهدي العلوي ابنه اباعبدالله محمد صدرية المخزن واستنابه في الوزارة ايضاً «٥» واستعان

– ج ٩ ص ٢٥٢ . ج ١٠ ص ١٤٨ ، ١٥٨ ، البنداري ص ٢١٥ . الجامع المختصر ج ٩ ص ٤٧ ، ابن الفوطي ص ٢٤ .

«١» الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٦٠ ، ٢٦٢ – ٢٦٣ . ابن الفوطي ص ١٩–٢٢. المقري الفيومي الورقة ٦٠ .

«٢» عمدة الطالب ص ١٤٧ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٥٢ ، ابن الدبيثي الورقة ٢٩٠ ، ابن خلكان ج ٥ ص ٢٨٤ .

«٤» السبط ج ٨ ص ٤٥٠ ، ابن الدبيثي الورقة ١٨٢ – ١٨٣ . المختصر المحتاج اليه ص ٩٦ .

«٥» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٩٧ . ابن الدبيثي الورقة ٢٧٤ . الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٢٠ .

ابن القمي بولده واخيه ، بينما استخدم ابو الازهر بن الناقد اخاه وولاه وكالة الخليفة لكي يتفرغ هو الى اعمال الوزارة (١) .

وكانت نهاية هؤلاء مرتبطة بنهاية الوزير من حيث العزل والاعتقال وقليلاً مانجا احدهم من مصير الوزير ، على ان هذه السلطات الواسعة كما قلنا لم تكن تمنح للوزير إلا عند ما يكون موضع ثقة الخليفة . اذ كثيراً ما شارك بعض كبار الموظفين المقربين للخليفة الوزير في سلطاته .

وقد ذكرنا ان الخليفة المستضيء اكره على اعفاء وزيره عضد الدين ومنع من اعادته ثانية بتأثير امير الجيش قايماز الذي كان يتحكم فى الخلافة ، وعندما اعيد للوزارة بعد هرب قايماز لم يستطع ممارسة شيء من المسؤولية بسبب تحكم ابن العطار صاحب المخزن الذي كان قريباً من قلب الخليفة « حتى صرفت اكثر اشغال الديوان اليه وانقطع الوزير عن الركوب » (٢) .

واغلب الذين تولوا نيابة الوزارة في عهد الناصر لم يمكنوا من السلطان . اذ ان الخليفة كان يسمح لبعض المقربين اليه من الموظفين بالاتصال به مباشرة كجمال الدين علي بن البوري مثلاً الذي « كان يتولى دجيل ونهر عيسى ونهر الملك والانبار وهيت» وكما كان يصرح للبعض من المقربين اليه بتعيين الولاة ومنح الخلع (٣) ؛ وهذا ابن العلقمي آخر الوزراء لم يتمكن من السلطة بسبب تغلب امراء الجيش وسيطرتهم على الخليفة .

---

(١) ابن الفوطي ص ٣٣ - ٣٤ ، ٣٧ ، ٨٢ .

(٢) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٣٧ ، ٢٦٩ . ابن الاثير ج ٩ ص ١١٤ ، ١٢٨ .

(٣) الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٦٤ . ابن الفوطي ص ١٤٥ . ابن خلدون ج ٣ ص ٥٣٢ . كما كان يفعل عز الدين نجاح الشرابي مثلاً .

ويشير ابو هلال الصابي الى ان من رسوم الوزارة ان تكون للوزير دار مفردة في دار الخلافة يجلس فيها وينظر في الاعمال «١» . وقد تغلبت الاحوال بهذه الدار ؛ فزالت مع زوال الوزارة في فترة تغلب البويهيين .

ولما استعادت الوزارة مكانتها ، جلس الوزراء في هذه الدار مرة اخرى ، فكان ابن هبيرة يجلس في الدار التي بباب العامة ، وجلس فيها ابن البلدي ايضاً عند توليه الوزارة «٢» ، ويظهر ان الوزراء اتخذوا لهم داراً اخرى مقابل الباب النوبي في عهد الخليفة الناصر ، وظلوا يجلسون فيها حتى زوال الخلافة «٣» .

وقد ظهر تقليد جديد في هـذه الفترة ، فقد اكثر الخلفاء من استخدام نواب الوزراء ؛ فمن صلح حاله منهم رقي الى منصب الوزارة ، ومن عجز نحي عنها «٤» ، وأصبحت لنائب الوزارة حجرة خاصة يجلس فيها بعد عودته من دار الخلافة ليكتب الانهاء الى الخليفة .

يشير ابن الساعي الى ذلك في حديثه عن تولية ابي البدر بن امسينا اذ يقول : « ثم ركب الى دار الوزير وجلس بالحجرة التي يجلس فيها نواب الوزارة فنفذ المراسيم وعاد الى داره بعد المغرب ، ثم نقل الى دار الوزارة ظاهر باب النوبي الشريف» «٥».

ويشير ابن الفوطي الى مثل ذلك في حـــديثه عن تولية ابي الازهر بن الناقد وخروجه من دار الخلافة بقوله : « وقد تقدم الى الديوان جميع ارباب الدولة فدخل

«١» الوزراء ص ٢٦٨ .

«٢» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٢٢ .

«٣» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٠٢ . السبط جـ ٨ ص ٤٥٠ . ابن الدبيثي الورقة ٣٥ ـ ٣٦ . الصفدي جـ ٢ ص ١٠٩ .

«٤» استكثر الخليفة الناصر خاصة من نواب الوزراء ، حيث استخدم منهم تسعة.

«٥» الجامع المختصر جـ ٩ ص ٢٢١ .

اليه وجلس في الموضع الذي جرت عادة نواب الوزارة الجلوس فيه وكتب الأنهاء وبرز الجواب » «١» .

وكان من تقاليد الوزارة ايضاً ان يضرب لهم البوق عندما يركبون للخروج الى اعمالهم «٢» ، ولم يكن متاحاً للوزير في هذه الفترة أن يقابل الخليفة في كل وقت بل اصبح حضوره الى باب الحجرة مقصوراً على المواسم والمناسبات .

يشير ابن الفوطي الى أن أبا الازهر بن الناقد «كان يركب في ايام الجمع ويحضر عندالخليفة ويفاوضه في الامور » «٣» وفيما عدا ذلك كان اتصال الخليفة به يتم بواسطة فراش خاص من فراشي الخلافة يسمى (بالمطالعاتي) لانه كان يحمل المطالعات من الخليفة الى الوزير .

اما مطالعات الوزير الى الخليفة فكانت « توضع في كيس ابريسم اسود مختوم يحملها مملوك الوزير الى باب الحرم » «٤» .

وقدتولى الوزراء في هذه الفترة رعاية النشاط الادبي بعد أن اعتزل الخلفاء الناس وحجبوا أنفسهم عنهم .وكانت مجالس الوزراء تعقد عادة في رمضان حيث يعـد طعام الافطار ، ثم تعقد الندوات بعد ذلك ، وتطرح الاسئلة المختلفة ويتبارى الحاضرون في الكلام ؛ وكانت مناسبات بناء المدارس وافتتاحها من المناسبات التي تناقش فيها مختلف المسائل الفقهية والادبية ؛ وكانت الاحتفالات الدينية تعقد اسبوعياً مرة أو مرتين ؛ وكان الوزراء عادة يرعون هذه الاحتفالات التي قد يحضرها الخليفة من وراء

«١» ابن الفوطي ص ٣٤ .

«٢» السبط جـ ٨ ص ٣٤٧ .

«٣» ابن الفوطي ص ٢٩٢ .

«٤» الجامع المختصر جـ ٩ ص ٢٥٠-٢٥١ . ابن الفوطي ص ٢٨٠-٢٨١، ٣٠٠.

مثار ، وقد اشتهر ابن هبيرة بكثرة مجالسته للعلماء وتشجيعه لهذه الندوات التي كانت تعقد في داره والتي كانت تكلفه اموالاً كثيرة (١) .

ولم تكن موارد الوزارة ثابتة او محددة ، انما كانت تتأثر بالوضع المالي للخلافة وبمقدار السلطة التي يتمتع بها الوزير .

وقد ذكر ابو هلال الصابي « ان الخليفة المقتدر استرد الضياع العباسية التي كانت قد جعلت للوزراء ، واجرى لعلي بن عيسى خمسة آلاف دينار في كل شهر ثم زيدت بعد ذلك الى سبعة آلاف » (٢) على حين كان البويهيون قد اغدقوا على وزرائهم من الاقطاع ما يدر عليهم خمسين الف دينار (٣) . اما السلاجقة فجعلوا لوزرائهم عشر غلات البلاد (٤) .

ولما اصبح للخلفاء حق اتخاذ الوزير بعد زوال السيطرة البويهية ، منح بعضهم اقطاعاً ببضعة عشر الف دينار (٥) .

وعندما تمكن المقتفي لامر الله من الخلافة واستعاد حرية التصرف في أموالها ، لم يبخل على وزيره ابن هبيرة « فكانت مشاهرته في كل سنة مائة الف دينار » (٦) . ويظهر أن الوزراء الذين تمتعوا بثقة الخليفة وتفويضه هم وحدهم الذين تصرفوا في اموال لا حصر لها سواء كان ذلك بعلم الخليفة او بدونه ، ومن هؤلاء الوزير ناصر بن مهدي

---

(١) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٥ ، ٢٣٤ ، ٢٥٧–٢٥٨ ، ٢٦٠ . ابن جبير ص ١٧٤ – ١٧٩ . ابن الفوطي ص ١٤٨ .

(٢) الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٢٤١ .

(٤) ابن خلكان ج ٤ ص ٢٢٩ .

(٥) ابن الجوزي ج ٩ ص ١٠ .

(٦) ابن الطقطقي ص ٣٥٩ – ٣٦٠ .

العلوي الذي اطلق الخليفة يده في السلطة وحكمه في الأموال ، فكان كما يقول سبط ابن الجوزي : « قد اتفق مع ابن ساوى النصراني الذي أقطعه الدجيل ودقوقا ، فكان يحمل مغل البلاد الى ابن مهدي فيأخذ منها ما يريد ويعطي الخليفة ما يريد ، حتى قيل في اسباب عزله انه كان ينفذ الاموال الى العجم وانه كان قد طمع بالخلافة لانه علوي » (١) .

أما عامة الوزراء فلم يكونوا بمثل هذا السلطان وهذه الجرأة ولم تزد مواردهم في الشهر عن الف دينار كما يذكر النسوي (٢) .

وقد لعب بعض وزراء هذه الفترة دوراً مهما في خدمة الخلافة وتثبيت سلطانها ، خاصة في فترة صراعها مع المتغلبين ، وتحملوا في ذلك مسؤولية كبيرة عرضتهم لغضب المتغلبين ونقمتهم . ومن هؤلاء الوزير ابو علي الحسن بن علي بن صدقة الذي كان من افاضل وزراء المسترشد وكان ساعده الايمن في قيادة الجيوش ومقارعة السلاجقة حتى وشى به الشحنة السلجوقي عند السلطان سنجر واتهمه بأنه يشجع الخليفة ، فكانت وصيته لابن اخيه السلطان محمود « بأن تذهب الى بغداد وتقبض على وزير الخليفة ابن صدقة » (٣) .

ولعب الوزير ابن هبيرة دوراً كبيراً في مساندة الخلافة وتأييدها ، حتى قال فيه المقتفي بأنه ما وزر مثله لبني العباس ، ونظم المستنجد في مدحه والاشادة به بعض ابيات من الشعر .

---

(١) السبط جـ ٨ ص ٢٣٤ - ٥٣٥ ، الذيل ص ٦٠-٦١ ، عمدة الطالب ص ٥٥.

(٢) النسوي ص ٣٦٤ ، وقد كان هذا المبلغ هو ما يتقاضاه الوزير ايضاً في زمن الخليفة المعتضد كما نقل ذلك فيليب حتى في تاريخ العرب جـ ٢ ص ٣٩٥ .

(٣) ابن الجوزي جـ ٩ ص ٢٤٦ ، ٢٥٥ . ابن الطقطقي ص ٣٥١ .

وقد تولى ابن هبيرة قيادة الجيوش ومطاردة السلاجقة في كل مكان بعد وفاة السلطان مسعود ، « وكانت له في قمع دولتهم والقضاء على نفوذهم يد قوية وحيل مرضية » (١) .

ويعتبر الوزير مؤيد الدين بن القصاب من هذا الطراز من الوزراء ، فقد قاد الجيوش ونشر سلطان الخلافة على خوزستان ووصلت حملاته اصفهان وهمدان » (٢).

***

٣ — أعوان الوزارة

٣ - أعوان الوزراء : — أشرنا الى ان الوزير اصبح يقوم بدور كبير في مؤازرة الخلافة وتأييدها وان مكانته كانت مرتبطة بمكانة الخليفة نفسه من حيث القوة او الضعف .

وبالرغم من أن الوزير كان يعتمد على كثير من أبناء اسرته فيوليهم الاعمال ، إلا أن هناك بعض المناصب ، كان يجب أن يتولاها مسؤولون لهم كفاية خاصة قد لا تتوفر في اهله ، ومن هذه المناصب : —

أ — الكتابة : — وأهمية الكتابة للدولة لا تقل عن أهمية الوزارة . فالكاتب لسان الخلافة المعبر عن رغباتها ، يتوقف على حسن تعبيره وجودة اسلوبه حل الكثير من مشاكلها .

وقد اتفق مؤرخو النظم الاسلامية على صفات معينة يجب أن يتصف بها من يتصدر لهذا المنصب فاشترطوا فيه « الاسلام والحرية وفهم كتاب الله ولغته ، وماخلفه

---

(١) ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢١٤ . ابن الطقطقي ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٢) ابو المحاسن جـ ٦ ص ١٣٩ .

العرب من آثار مع حلم وقوة عزيمة وعفة وسرعة خاطر » «١» .

واشترطوا أن يكون له اسلوب في المعاملة يعامل به الناس ويتصرف به في حضرة الخليفة ، كما حددوا ما يجب أن يراعيه في الكتابة الى مختلف المسؤولين «٢» .

وأدى تطور الحياة العامة للدولة الى جعل الكاتب يتولى بعض الاعمال الاخرى تخفيفاً عن الوزير كأن يقوم بملاحظة البريد ومتعلقاته وأبراج الحمام والعيون والجواسيس «٣» .

وكانت موارد الكاتب تتوقف على نشاطه في مهنته وحسن تصرفه في المهام التي توكل اليه ، وكان رضى الخليفة كفيل بأن يدر عليه الاموال الطائلة .

ويشير الجهشياري الى أن ارزاق الكتاب والعمال في زمان ابي جعفر « كانت للرؤساء ثلاثمائة درهم للرجل ونحو ذلك ، وكذلك كانت في ايام بني أمية وعلى ذلك جرت العادة الى ايام المأمون فان الفضل بن سهل وسع الجاري ، بينما كانت أرزاق صغارهم لا تتجاوز العشرة في الشهر » «٤» .

«١» الجهشياري ـ تاريخ الوزراء ص ٧٤ ـ ٧٩ ، رسالة عبدالحميد الكاتب الى الكتاب ، ابن مماتي ـ قوانين الدواوين ص ٦٦ ، ابو شامة ج ١ ص ١٩٢ ، آثار الاول ص ٨٧ ـ ٧٩ ، ابو سالم الوزير ـ العقد الفريد ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ، القلقشندي صبح الاعشى ج ١ ص ٤٣ ـ ٤٤ ، ٦١ ـ ٦٦ .

«٢» رسوم دار الخلافة ص ١٠٤ ـ ١٠٧ ، ابن مماتي ص٦٧ ـ ٦٨ ، القلقشندي ج ١ ص ٩١ .

«٣» القلقشندي ج ١ ص ١١٠ ـ ١٢٨ ، ياقوت ـ معجم الادباء ج ٢٠ ص ١٧ ، ابن خلكان ج ٥ ص ٢٢٨ في حديثهما عن كاتب الانشاء ابي طالب بن زيادة الذي تولى ديوان المقاطعات بالاضافة الى الانشاء .

«٤» الجهشياري ص ١٢٦ ، ١٣١ ـ ١٣٢ .

ويذكر البغدادي الخطيب ، أن موارد الكتاب في مصر كانت كبيرة ، وأن بعض شيوخ الكتاب كان يتقاضى مائة دينار في الشهر » (١) .

وأشار ياقوت الى ان راتب بعض الكتاب بلغ الفسه دينار في الشهر (٢) .

اما كتاب هذه الفترة التي نعرض لها بالدراسة فلم تكن مواردهم قليلة ، واشتهر منهم سديد الدولة ابو عبدالله محمد بن الانباري الذي كتب لخمسة خلفاء وتولى نيابة الوزارة ، ولما توفي سنة ٥٥٨هـ أقام الخليفة المستنجد ولده محمد في كتابه الانشاء مكانه تقديراً له » (٣) .

وكذلك مؤيد الدين بن القصاب الذي تولى الكتابة فبرع فيها ثم تولى نيابة الوزارة فالوزارة (٤) .

وقد جمع مؤيد الدين محمد بن برز القمي بين الكتابة والوزارة اكثر من خمسة وعشرين سنة ، وكان عندما تولى الكتابة « يركب بالشربوش والجاروكة على قاعدة كتاب العجم وحول بغلته المماليك الترك » (٥) .

ب ــ **الحجابة** : ــ من الوظائف المهمة في الدولة ، يقوم صاحبها على باب الخلافة ويحجب الناس عن الخليفة لكي يتفرغ لشؤونه ، ويكون واسطة بين الخلافة والوزارة

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٣ ص ٨٠ ــ ٨١ .

(٢) معجم الادباء جـ ٦ ص ٨٥ .

(٣) خريدة القصر ص ١٤٠ ــ ١٤١ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ١٤٩ ، الصفدي جـ ٣ ص ٢٧٩ .

(٤) ابن الدبيثي الورقة ١٨٢ ــ ١٨٣ . المختصر المحتاج اليه ص ٩٦ .

(٥) ابن الدبيثي الورقة ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ، المختصر المحتاج اليه ص ١٣٤ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ٢٢٦ ، ابن الفوطي ص ١٥٧ ، الصفدي جـ١ ص١٤٧ ، ابن الطقطقي ص ٣٧٨ .

ومن دونهم «١» ، لذلك يجب أن يكون « عارفاً بأخلاق السلطان وطباعه فلا يدخل عليه أحد في اوقات غير مناسبة ويكون حسن الاعتذار والتلطف في مقابلة الناس وصرفهم فلا يوحش أحداً في معاملته مع بشاشة ولطف لانه في شخصه يعكس صورة سيده » «٢» .

وقد تطور منصب الحاجب فلم يعد عمله مقصوراً على حجابة الخليفة انما تولى اعمالاً أخرى ، وكان الحجاب درجات ، فهناك حاجب الحجاب الذي اصبح يتقدم الحجاب جميعاً وينظم الدخول على الخليفة وخاصة في المناسبات .

قال الصابي : « واذا اتفق يوم الموكب حضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه ... وقدامه الحجاب وخلفاؤهم وجلس في الدهليز من وراء الستر ، فاذا كمل المركب راسل الخليفة بذلك » «٣» .

كما اصبح حاجب الحجاب يوفد الى ملوك وأمراء الاطراف ، فقد ارسل الخليفة الناصر حاجب حجابه علي بن المبارك بن محمد ابا الحسن البغدادي الى صاحب سنجار «٤» ومن واجبات حاجب الحجاب ايضاً الخروج على رأس الموكب لاستقبال رسل امراء الاطراف عند ورودهم بغداد .

«١» ويشرح ابن خلدون عمل الحاجب بأن يصرف عن الحاكم الزوار الذين يضايقونه حتى يوفر له الهدوء فينصرف الى اعماله الهامة ، ترجمة دائرة المعارف م ٧ مادة الحاجب ص ٢٣١ .

كما يشير الكازروني الى عمله ايضاً بقوله : « فمن ورد من الصدور وذوي المراتب جلس الى ان يأذن له الحاجب .

«٢» آثار الاول ص ١٠٥ - ١٠٧ .

«٣» رسوم دار الخلافة ص ٧٨ .

«٤» انسان العيون الورقة ١٧٥ .

تحدث ابن الساعي عن وصول نجم الدين خليل رسول الملك العادل « فتلقاه موكب الديوان وفي صدره حاجب الحجاب عمر التبريزي » (١) .

وكان يساعد حاجب الحجاب ويأتمر بأمره عدد من الحجاب ويتولى كل منهم عملا معيناً يكلف به ، كحاجب الديوان العزيز ، وحاجب باب المراتب ، وحاجب السور (٢).

ويشير ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٣٥ هـ الى ان المجلس جعل له حاجبان (٣).

ولعل حاجب الباب النوبي هو أهم هؤلاء الحجاب جميعاً لما له من علاقة بالعامة ، وما خول له من سلطات « فهو صاحب سيف الامام المتفرد بالسياسة في العوام بالعدل في الاحكام » كما يقول الكازروني (٤) .

وكان حاجب الباب النوبي يتولى اعمالاً اخرى . قال ابن الفوطي : « رد النظر في نهري الملك وعيسى الى حاجب باب النوبي تاج الدين علي بن الدوامي اضافة الى ما يتولاه من أمر الشرطة والعمارة المستجدة المجاورة لقبر معروف ، وأمر الباعة وعمارة البلد ، هذا فضلا عن خروجه في ايام الفيضان لاحكام « السكر » حتى لا تتعرض

---

(١) الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ٢٨٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٢ ، ١٦٧ ، ٢٠٧ ، والمقصود بالديوان العزيز ، مجلس الوزير وكان يتولى الخدمة فيه عدد من الحجاب ، ويظهر ان الذي يتولى الرئاسة بينهم يسمى بحاجب المجلس كما هو واضح من ترجمة ابي الهيجاء الملقب بالاثير .

اما حاجب باب المراتب فأعتقد أن باب المراتب هو أحد ابواب دار الخلافة ، مثله في ذلك مثل الباب النوبي ، او باب الحرم ، او باب الاتراك . كما ان المقصود بحاجب السور ، الحجاب المنتشرين على ابواب بغداد كباب السلطان ، او باب الحلبة ، وغيره .

(٣) ابن الفوطي ص ١٠٣ .

(٤) الكازروني - مقامة في قواعد بغداد ص ٢٣ .

بغداد الى الغرق » «١» .

ومن الحجاب من اطلق عليه اسم الوظائفي لانه كان يتولى خدمة الرسل الواردين الى الديوان فيؤمن إقامتهم ويقضي حاجتهم «٢» .

وكان للحجاب لباس خاص يتميزون به عن سائر الموظفين . يشير ابو المحاسن في حديثه عن تولية ابي عبد الله الدامغاني قائلا : « فرمى الطيلسان وتزيا بزي الحجبة فشق ذلك على أخيه قاضي القضاة » «٣» . كما يشير الصابي الى هذا بقوله : « واذا اتفق يوم الموكب حضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه من القباء الاسود المولد والعمامة السوداء والسيف والمنطقة » «٤» .

ويظن أن منصب الحجابة كان يدر على صاحبه مورداً كبيراً ، فقد بذل ابن الصيقل الذي كان حاجب الباب مبلغ أربعة آلاف دينار ليولى نقابة العباسيين ، وعندما قبض عليه وصودرت أمواله وبيع ما كان يملكه بنحو اثني عشر الف دينار «٥» .

ولم يكن منصب الحجابة يقل عن رؤساء الدواوين في الاهمية ، فقد كان ابو طالب يحيي بن زيادة الكاتب صاحب ديوان الانشاء حاجباً «٦» .

وتولى ابن الصاحب حاجب الباب منصب استاذ الدار للمستضيء عندما قبض على استاذ داره ابن صندل «٧» .

«١» ابن الفوطي ص ١٤٧ ، والمقصود بالسكر ، سور المدينة من جهة النهر .

«٢» ابن الدبيثي الورقة ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ابن الفوطي ص ٣٥ .

«٣» ابو المحاسن ج ٥ ص ١٩٣ .

«٤» رسوم دار الخلافة ص ٧٨ .

«٥» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٩٥ .

«٦» معجم الادباء ج ٢٠ ص ١٧ ، ابن خلكان ج ٥ ص ٢٨٨ .

«٧» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٥٦ .

وتولى شرف الدين بن الناقد حاجب الباب صدرية (رئاسة) المخزن ثم نيابة الوزارة بعد ذلك «١» .

***

ثانياً : النظام الاداري

١ – **التقسيمات الادارية** : – لم يعد خلفاء هذه الفترة يملكون البلاد الواسعة التي كانت لاسلافهم من قبل ، فقد كان من نتائج الضعف الذي أصاب الخلافة أن اخذت تفقد سلطانها على البلاد البعيدة عنها تدريجياً ، كما استغل الولاة ضعفها فاحتجزوا اكثر الاموال وتصرفوا بالبلاد تصرف المالك المستقل واعترفوا للخلافة بطاعة اسمية ، حتى اصبحت بلاد الخلافة في اوائل القرن الرابع الهجري كما يقول الصابي ، لا تزيد عن عدة ولايات هي : مصر ، الشام ، البصرة ، الاهواز ، الري ، فارس ، اصبهان والثغور «٢» .

ثم انتزع الفاطميون مصر وزحفوا على الشام فيما بعد ، وبقيت البلاد الاخرى في حالة مضطربة بين التمرد والطاعة في الوقت الذي فقد فيه الخلفاء كل نفوذهم ، ثم نهض الخلفاء في اوائل القرن السادس الهجري لاستعادة سلطانهم المفقود .

وقد أشرنا الى ان الخليفة المسترشد استطاع الاستقلال ببغداد سنة ٥٢٦ هـ ثم نجح في نشر نفوذه على تكريت والموصل .

وعندما تولى المقتفي لامر الله الخلافة كان عليه أن يبدأ من جديد بعد أن استرد السلاجقة ما فقدوه من سلطان ايام المسترشد ، وقد نجح في دفعهم وإزالة سلطانهم حتى

«١» السبط ج ٨ ص ٥٣٦ ، الذيل ص٦٢ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ١٢٧،٨٠.

«٢» الوزراء ص ١٥٦ .

امتد نفوذ الخلافة في اواخر ايامه من أقصى الكوفة الى حلوان ومن تكريت الى عبادان «١» .

وفي عهد الناصر لدين الله اضافت الخلافة دقوقا وتكريت وخوزستان .

وفي عهد المستنصر اضيفت مدينة اربل وعانة .

وعند دراسة التقسيم الاداري يجب ان نميز بين البلاد التي للخلفاء عليها سلطان اسمي ، وتلك التي لهم فيها نفوذ حقيقي ، ومملكة الخلافة الحقيقية التي يتولى أمرها عمال يعينهم الخليفة ، لم تكن حدودها تتجاوز حدود ما نسميه بالعراق ، وكانت اقسامه الادارية على النحو التالي : اربل ، دقوقا ، تكريت ، طريق خراسان ، الانبار ، هيت ، عانة ، الحلة ، الكوفة ، واسط ، البصرة ، خوزستان ، قلعة الماهكي (بلد اللحف) «٢» .

٢ - **الولاية على البلدان** : - وكانت الخلافة ترسل ولاة من قبلها لحكم البلاد التي تدين لها بالنفوذ الفعلي ، وكان منصب الوالي من المناصب الرفيعة في الدولة ، ولذلك كانت الخلافة تهتم كثيراً باختيار الولاة ، فكانت تختار من « يتصف بالحزم والشجاعة والعلم والجود والعدل » «٣» وكان الخليفة الناصر يتبع اسلوباً معيناً في اختيار الولاة اذ كان يشيع بين الناس عن رغبته في اختيار شخص معين لاحدى الولايات فيتناقل الناس حسناته وسيئاته ، وكان اصحاب اخباره ينقلون اليه ما يقوله الناس فيولي من يمدحونه ويقصي من يذمونه «٤» .

«١» البنداري ص ٢١٥ .

«٢» البنداري ص ٢٦٧ ، ابن الفوطي ص ١٦٨ ، ابو الفداء ج ٣ ص ١٧٦ .

«٣» ابن الاثير ج ٥ ص ٣٤٢ ، في الحديث عن المعتز .

«٤» ابن الطقطقي ص ٤٧ .

وقد درجت الخلافة في هذه الفترة على ان تجمع بيد ولاتها الذين كان اكثرهم من مماليك الخليفة سلطة الحرب والخراج ، فكان الامير شمس الدين باتكين امير البصرة ثم اربل ، والامير طاشتكين زعيم خوزستان وخليفته قطب الدين سنجر الناصري يجمعون بين الحرب والخراج «١» ، وكانت الخلافة في بعض الاحيان تختار للحرب اميراً من مماليكها ، وتعين لشؤون المال بعض كبار الموظفين الذين تولوا رئاسة (أوصدرية) ديوان الزمام . وكان هؤلاء الولاة يخضعون لرقابة الخليفة ويحاسبون على اعمالهم .

اشار ابن الفوطي مثلاً الى ما كان من « عزل الامير مظفر الدين بهنام الرومي والي تستتر ، وولى عوضه الامير علاء الدكز الناصري شحنة بغداد ، وولى ظهير الدين الحسن بن عبدالله ناظراً في اعمال خوزستان ومتولياً لديوانها » «٢» .

ومتولي الديوان (او صدره) قد لا يذهب الى مقر عمله بل يقيم في بغداد ويعطى داراً داخل الباب النوبي ويرسل من قبله ناظراً ومشرفاً يتوليان عمله في الولاية المفوضة اليه .

اشار ابن الساعي الى هذا عند تولية « جلال الدين ابي الحسن محمد بن البابابي البصري صدرية ديوان الزمام المعمور وخلع عليه في دار الوزارة وفوضت اليه اعمال البصرة وأسكن الدار المنسوبة الى قطب الدين قايماز داخل الباب النوبي الشريف » . ثم قال : « وفي غرة شهر ربيع الآخر رد النظر في اعمال البصرة الى مشرف الديوان

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٨٢ . الجامع المختصر ج ٩ ص ١٨٦ ، ٢٠٦ . ابن الفوطي ص ٤٨ ، ١٨٠ - ١٨٢ .

«٢» ابن الفوطي ص ٦٠ ، ١٤١ - ١٤٢ ، ٢٤٤ . ويشير الدكتور مصطفى جواد في مقدمة تحقيقه لكتاب الجامع المختصر الى ان لكل بلد مهم ديوان يعين له صدر ورتبته تسمى الصدرية وعليه مشرف .

العزيز الصفي يونس بن الارموي بعد عزل ابي الحسن بن الباباي عن صدرية ديوان الزمام المعمور ، ورتب في البصرة ناظراً ومشرفاً من جانبه وتوجها اليها » «١» .

وكانت الخـــلافة تطلق لقب الزعيم عادة على الولاة الذين يجمعون بين الحرب والخراج ، ولم يحدث ان حاول احد هؤلاء استغلال سلطته للتمرد على الخلافة او الانفصال عنها .

وقد يكون السبب في ذلك أن المسافة ليست بعيدة بين مركز الخلافة وأبعـد هذه الولايات ، كما ان صغر الولاية وقلة مواردها لا تساعد الامير على انشاء قوة عسكرية كبيرة يستطيع بها مواجهة الخلافة . فعندما ساءت العلاقة بين الخلافة وزعيم خوزستان ، أرسل الخليفة الوزير القمي على رأس الجيش لتأديبه ، فهرب قطب الدين سنجر من الولاية والتجأ الى شيراز «٢» .

ويبدو أن الخلافة فضلت الاخذ بنظام المركزية في ادارة معظم ولاياتها ، فقد كان عدد الولاة الذين جمعوا في يدهم الحرب والخراج قليلاً جداً . ففي سنة ٦٤٠ ﻫ عند وفاة المستنصر بالله لم يكن بين ولاة الخلافة غير ثلاثة زعماء فقط هم زعيم خوزستان بدر الدين سنقرجا ، وزعيم تكريت نور الدين الدكز ، وزعيم دقوقا قطب الدين سنجر السنقري «٣» .

وقد اتخذت الخلافة اسلوباً آخر في إدارة ولاياتها هو الاقطاع ، فكانت تقطع بلاداً معينة لبعض مماليكها على ان يحمل اليها مبلغ معين من المال سنوياً .

ويظهر أن نظام الاقطاع لم يكن موحد الصورة ، فقد يكون الاقطاع إدارياً

«١» الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٣٠ ، ٢٨٥ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٠٣ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٦٥ .

«٣» ابن الفوطي ص ١٦٨ .

أعني أن المقطع يتولى شؤون الادارة فقط ، وممن تولى هذا الاقطاع الاداري خطلوبرس في واسط وامير الحج ارغش في الكوفة ، وجمال الدين قشتمر في رامهرمز «١» .

وقد يكون الاقطاع مالياً فقط اعني ان المقطع يقوم بتحصيل الاموال ولا علاقة له بالادارة وهو في هذه الحالة اشبه بالضامن ، لذلك نجد ان بعض المقطعين كانوا يتولون اقطاع اكثر من ولاية واحدة ، فقد كان فلك الدين سنقر الطويل الناصري يتولى اقطاع دقوقا وتكريت وبين النهرين ، وسيف الدين طغرل الناصري اقطع البندنيجين واللحف والبلاد الجبلية «٢». ولوحظ ان محمد بن سنقر الطويل تسلم اقطاع أبيه عند وفاته مما يدل على إمكانية توريث الاقطاع ما دام ذلك لا يؤثر على دخل الدولة «٣» .

وكانت الخلافة تستعين لادارة المدن الصغيرة او القرى بالشحنة الذي كان يتولى شؤون الادارة وحفظ الامن «٤» ، بينما كانت تستعين بالحماة لحفظ الامن والسيطرة على المناطق العشائرية في السواد والبلاد الفراتية ، وكانت تختار هؤلاء الحماة من بعض رؤساء القبائل العربية القوية ، كما هو الحال بالنسبة لزياد بن عبيد أمير خفاجة ورؤساء

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٧٦ ، ٩٤ ، ٢١٩ . الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٠٦ . ابن الفوطي ص ١٩٣ ، العيني ج ٢١ الورقة ٣٤٠ . وكان هؤلاء الولاة يتولون امر الحرب عندما توعز لهم الخلافة بذلك فيجمعون حينذاك بين سلطة الحرب والخراج ولكن لفترة موقتة .

«٢» الجامع المختصر ج ٩ ص ٤٧ - ٤٨ ، ٢٩٣ .

«٣» ابن الفوطي ص ٢١٥ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٧٢ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٧٦ ، ابن الطقطقي ص ٣٦٠ .

بني حزن و كعب من خفاجة » «١» .

وكانت واجبات الوالي كثيرة ، فهو مسؤول عن الامن الداخلي وذلك بالاهتمام بحراسة الطرق والدروب ، كما هو مسؤول عن الدفاع عن الولاية بتقوية اسوارها وتعميق خنادقها ، فضلاً عن مسؤولية إعمارها وتنظيم اسواقها وتعيين مراكز الصناعة فيها «٢» ، وكان الولاة عادة يستعينون بعدد من الموظفين يعينهم الخليفة ، وكان الوالي وأعوانه اشبه بحكومـة محلية مصغرة ، وقد اعطانا ابن الفوطي صورة لهذه الحكومة في مدينة اربل فذكر ان الخلافة «٣» « استدعت الامير شمس الدين باتكين اميرالبصرة وشافهه نائب الوزارة بولايتها ، فتوجه اليها ، ثم دخل الجامع بموكب كبير من الامراء والاجناد بعد أن خلع عليه شرف الدين اقبال الشرابي وقلده سيفاً وأمطاه فرساً وأعطاه كوسات وأعلام ، فقرىء عهده بمحضر من اهل البلد وغيرهم ثم ركب الى القلعة ونزل في دار الامارة .

ثم خلع الشرابي على ظهير الدين الحسن بن عبدالله وعينه وزيراً ، وخلع على الحسن بن المصطنع وجعله مشرفاً عليه ، ورتب معهما كاتباً الاجل بن عبدان النصراني ثم رتب جمال الدين بن عسكر الانباري عارضاً للجيش هناك ، وجعل عليه مشرفاً عز الدين محمد بن صدقة » .

وكانت الخلافة ترسل القضاة الى الولايات بعد ان يختارهم قاضي القضاة «٤» ، كما كانت ترسل عمال البريد لمراقبة اعمال الولاة وموافاتها بالاخبار «٥» .

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٢١ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٤٣ .

«٢» آثار الاول ص ١٨٧ - ١٩٠ ، ابن الفوطي ص ١٨٠-١٨٢ .

«٣» ابن الفوطي ص ٤٨ - ٤٩ .

«٤» ابن الفوطي ص ٣٢ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٧٢ ، ٢٨٠ ، ٢٥١ .

«٥» ابن سعيد ص ٧٧ - ٧٩ .

اما في بغداد فقد كان الخليفة من الناحية الرسمية يتولى شؤون الحكم ، ولكنه يمارس هذه السلطات في اكثر الاحيان بواسطة الوزير الذي يتولى النظر في شؤون الدواوين كلها وهي دواوين الزمام ، والخراج الذي اصبح يسمى آنذاك بالمخزن ، والانشاء والقضاء وعرض الجيش والتركات والجوالي والابنية والمقاطعات وكان يسمى سابقاً ديوان الضياع والنفقات وديوان البريد «١» .

ويعطينا ابن الفوطي صورة لحكومة بغداد وأهم موظفيها عند وفاة الخليفة المستنصر فيذكر « ان نائب الوزارة ابا الازهر بن الناقد ، واقضى القضاة كمال الدين ابي الفضل عبد الرحمن اللمغاني ، وصدر ديوان الزمام فخر الدين ابي سعيد المبارك بن يحيى بن المخرمي ، وصدر المخزن (الخراج) فخر الدين محمد ابن ابي عيسى الشهرباني ، وكان الامر في عساكره واجناده وقواده الى شرف الدين اقبال الشرابي ، وكان يتولى ديوان عرض الجيش العاوضان تاج الدين الحسن بن المختار ، وفخر الدين احمد بن الدامغاني ، وديوان الانشاء كان الوزير يتولاه بنفسه بعد ان رتب بين يديه كاتباً هو العدل ابو المعالي القاسم ابن ابي الحديد المدائني » «٢» . اما شؤون الامن الداخلي فكان يتولاه عادة صاحب الشرطة وقد يساعده حاجب الباب النوبي وشحنة بغداد .

٣ - **البريد** : - كان صاحب البريد من أهم الموظفين في حكومة بغداد .

ولم يكن واجبه نقل الرسائل والاوامر التي تصدر عن دار الخلافة واليها ، انما اصبح من واجبه ان يراقب جميع الاعمال ويطلع الخلافة عليها .

«١» الجامع المختصر ج ٩ ص ١٨٤ ، ٢٩٥ . لاحظ المقدمة التي كتبها محقق الكتاب الدكتور مصطفى جواد في صفحات ظ ، ض ، غ . ابن الفوطي ص ١١١ ، ١٠٣ ، ١٧٨ ، ٢٢٩ .

«٢» ابن الفوطي ص ١٥٥ - ١٥٨ .

وقد وصفه بعض الكتاب بأنه عين الخليفة وأذنه «١» ، جاء في عهد لولاية بريد ما يلي « على صاحب البريد ان يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجري عليه امرهم ويتبع ذلك تتبعاً شافياً ... وينهيه على حقه وصدقه .. وان يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجري في امور الرعية ، فيما يعاملون به من الانصاف والجور والرفق والعف فيكتب به مشروحاً ... وان يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم ... وان يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق ، وما يلزمه الموردون من الكلف والمؤن ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه ... وان يوكل بمجلس عرض الاولياء واعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجري فيه ، ويكتب بما تقف عليه الحال من وقته ... وان يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله ويكتب بعدد اسمائهم ومبالغ ارزاقهم وعدد السكك ... وان يفرد لكل مايكتب فيه من اصناف الاخبار كتباً بأعيانها ، فيفرد لاخبار القضاة وعمال المعادن والاحداث ... والخراج والضياع وارزاق الاولياء ونحو ذلك كتباً ليجري كل كتاب في موضعه» «٢» ، لذلك كان لابد لصاحب البريد ان يتصف بالامانة والاستقامة ، لان ما ينقله قد يكون اساساً لسياسة الدولة «٣» .

وكان صاحب البريد يستعين بعدد من الرجال والنساء في مختلف المناطق والمدن ينقلون اليه ما يشاهدونه من الاعمال ويسمعونه من الاخبار ويطلق عليهم اصحاب الاخبار ؛ وكان هؤلاء ينتشرون في الاسواق والمجالس والدروب ؛ حتى مجالس

«١» الحسن بن عبدالله ـ آثار الاول ص ٩٧ ـ ٩٨ .

«٢» متز ـ الحضارة الاسلامية ـ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ؛ نقلا عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ـ مخطوطة باريس ـ ويرجع تاريخ هذا العهد الى سنة ٣١٥ هـ .

«٣» آثار الاول ص ٩٧ ـ ٩٨ .

الوزراء والولاة لم تكن تخلو منهم «١» .

ولكي يطلع الخليفة على هذه الاخبار في وقتها وكان من الواجب ان يكون اتصال صاحب البريد واصحابه بالخليفة مباشرة ، كما يجب على الخليفة أن يغدق على صاحب البريد والخبر « ويؤمن حاجاته من المال والعدد لكي يكون قادراً على شراء الناس وايصال الاخبار » «٢» .

ولم تكن واجبات البريد مقصورة على نقل الاخبار ، إنما اصبح يراقب الولاة ويتعرف على مدى اخلاصهم كما يراقب الجماعات والفرق الدينية ومدى تغلغل نفوذها، حتى الاوضاع الاقتصادية كانت تخضع لرقابته ، فكان يبلغ عن ارتفاع الاسعار وأسبابه لكي تستطيع الدولة ان تتدخل .

كما كان مسؤولاً عن تأمين طرق المواصلات ورسم خرائطها وتقسيم منازلها «٣» وكانت الخلافة تستعين بالبريد لارشاد الجيوش والعمال واستدعاء من ترى استدعاءه من الموظفين «٤» .

وكان عمال البريد من النجابين يبيتون بالمناوبة في دار الخلافة تلبية لكل طارىء

«١» الوزراء ص ٣٥٦ ، ابن سعيد ص ٩٣ ، السبط جـ ٨ ص ٢٣٤ ، ٥٣٦ ، آثار الاول ص ٩٩ ، ١٠٤ .

«٢» آثار الاول ص ٧٧ ، ١٠٣ ، معجم الادباء جـ ٢٠ ص ٨ في الحديث عن يحيي البرمكي .

«٣» الطبري جـ ٨ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، الجهشياري ص ٢٨٩ ، ابن الجوزي جـ ٦ ص ٢ ، آثار الاول ص ١٠٠ ، ابن سعيد ص ٧٩ ، القلقشندي جـ ٨ ص ٣٥٠ ، وكان صاحب البريد يكتب ايضاً عن الظواهر الطبيعية في بلده من امطار وثلوج وعواصف .

«٤» ابن العبري ص ٢٢٦ ، ابن الطقطقي ص ٧٤ ، ترجمة دائرة المعارف م ٣ ص ٦١٠ مادة بريد .

وكانت طرق البريد مقسمة الى مراحل ، تتوفر في كل مرحلة منها وسائل السكن ، ويستقر فيها عدد من النجابين مع لوازمهم وشاراتهم .

وكان اصحاب البريد يستخدمون الخيل والنجب بل يستخدمون السعاة من الرجال الخفاف «١» ، بالاضافة الى استخدامهم الحمام لنقل الاخبار السريعة . وقد اهتمت الخلافة بتربيته وتدريبه ، وشجعت الناس على ذلك ، واستطاعت بفضله أن تعرف مايجري في الاقاليم البعيدة وخاصة في زمن الحرب ، فتستعد لمواجهة العدو «٢» .

٤ – **الشرطة** : – كان صاحب الشرطة يشرف على الامن الداخلي في بغداد ويكافح الجريمة ، ويستعين بعدد من الاعوان الذين ينتشرون في الاسواق والدروب لمراقبة الناس وملاحقة اللصوص «٣» .

وتضاعفت مسؤولية صاحب الشرطة في هذه الفترة نظراً للأحوال المضطربة في بغداد ، وكان اصحاب الشرطة يعجزون في بعض الاحيان عن حفظ الامن ، وكثيراً ما كانوا يضطرون الى الانسحاب من مناطق الحراسة لغلبة اللصوص .

قال ابن الجوزي «٤» : « وفي هذه السنة كانت الشرطة قد تركت الجانب

«١» ابن الطقطقي ص ٧٤ ، آثار الاول ص ١٠٣ ، القلقشندي جـ١ ص ١١٤ ، جـ١٤ ص ٣٧١ – ٣٧٢ .

«٢» وينسب الى نور الدين زنكي فضل الاهتمام بتربية الحمام الهوادي والمناسيب والاستفادة منها كثيراً في مواجهة العدو الصليبي ، ويظهر ان استعمالها قبل هذا الوقت كان معروفاً وان كان قليلاً ، ابن القلانسي ص ٣٤٠-٣٤١ ، ابن الاثير جـ٩ ص ١١٤ ، ابن شداد – المحاسن اليوسفية ص ١٢٨ ، ابو شامة جـ١ ص ١١٢ ، ٢٠٤ ، ابن واصل جـ٣ ص ١٥٥ ، ابن الطقطقي ص ٣١٧ ، ابن الفوطي ص ١١٣ ، ١٢٨ ، ٢٢٨ .

«٣» ابن الجوزي جـ١٠ ص ١٩٥ ، ابن الاثير جـ٩ ص ٢٦٥ ، ابن الساعي مختصر أخبار الخلفاء ص ١٢٢ ، ابن الفوطي ص ٢٧٨ .

«٤» ابن الجوزي جـ٩ ص ١٣٧ .

الغوبي لاستيلاء العيارين عليه». وكان هناك تعاون وثيق بين صاحب الشرطة وحاجب الباب النوبي والشحنة لمكافحة الفوضى، فكان حاجب الباب يستعين بنائب الشرطة معه لاقامة الحدود ، كما كان يتولى بنفسه أمر الشرطة في بعض الاحيان «١» ، وليست هناك فروق واضحة بين عمل الشحنة وصاحب الشرطة وان كان الغالب ان عمل الشحنة كان مقصوراً على مكافحة الفوضى والتصدي للفتن التي كانت كثيرة الحدوث في بغداد ، ومع ذلك فاننا نجده في بعض الاحيان يقوم بعمل الشرطة في حوادث الاجرام الفردية.

وكان الشحنة يستعين بالعساكر للقيام بواجباته بينما يعتمد صاحب الشرطة على افراد من عامة الناس «٢» .

وكثيراً ما استعانت الخلافة بنقباء العباسيين والعلويين عندما تعجز الشحن والشرطة عن القضاء على الفوضى والاضطرابات «٣» .

وكان صاحب الشرطة وهو ينظم الامن الداخلي يختار حراساً لكل محلة من محلات بغداد ، وكان الحراس يوزعون على الدروب في الليل يراقبون الناس ويتسمعون اخبارهم ، ثم يقدمون تقريراً صباح كل يوم الى دار الخلافة «٤» ، وعندما يكثر فساد

«١» الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٠، ٤٠، ١١٦، ١٣٢ ، ابن الفوطي ص ٩٠، ١٤٧.

«٢» معجم الادباء ج ١٧ ص ١١ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ١٤٣، ١٥٠، ٢٠١، ٢٢٧، ابن الفوطي ص ١٧٥ ، ٢٢٢ ، ٢٥٤ . وقد أفرد الدكتور مصطفى جواد في مقدمة تحقيقه لكتاب الجامع المختصر بحثاً صغيراً قارن فيه بين عمل الشحنة وصاحب الشرطة ، وقد شبه فيه الشحنة بمدير الشرطة الخاص ، وان عمله يعتمد على السيف والتحقيق ، بينما يعتمد صاحب الشرطة في عمله على التحقيق والتفتيش والتجسس .

«٣» ابن الجوزي ج ٩ ص ١٣٧ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٩٥ ، ٢٦٥ . ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦٢ . وكان من اساليب الشرطة ايضاً ان يعين لكل محلة حامي يراقب المحلة ويتعرف على الجرائم —

العيارين وتنتشر الفوضى كان يرتب لكل محـلة شحنة يعيش وأعوانه على نفقة سكان المحلة «١» .

وكان للشرطة لباس خاص يتميزون به عن الآخرين ، يشمل القباء والكلوتة .
أشار ابو شامة «٢» « ان الملك المعظم ألبس قاضي القضاة القباء والكلوتة وقال له : إنك تفعل فعل الشرطة فالبس لبس من يفعل ذلك » .

***

ثالثاً — النظام المالى

١ – موارد الدولة : – من الصعب ان تعطى دراسة مفصلة او واضحة لموارد الدولة في هذه الفترة لندرة الوثائق وقلة المادة التاريخية .

ويستبين من الشذرات القليلة التي بين ايدينا ان موارد الدولة كانت هي نفس الموارد التقليدية التي عرفتها الخلافة العباسية من قبل ، وتأتي اغلب هذه الموارد من ضرائب شرعية حددها الفقهاء على هذا النحو :

ضريبة الخراج : – او ضريبة الارض وتؤخذ عادة من الارض الزراعية او الصالحة للزراعة كايجار عن استغلالها لانها ملك الدولة .

وقد حدد الفقهاء قيمة هذه الضريبة وفقاً لجودة الارض «٣» ، وتعرضت هذه الضريبة في فترة ضعف الخـــلافة وتغلب العناصر الدخيلة لمزيد من العبث فتضاعف

– ومرتكبيها ، ويكون مسؤولاً عن ذلك أمام الشحنة ، ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٢٣ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٤٦ .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٨ .

«٢» الذيل ص ١١٧ – ١١٨ .

«٣» ابو يوسف ـ الخراج ص ٢٠ – ٢٢ .

مقدارها واستخدمت القسوة في جبايتها ، ولم تقم الخلافة في هذه الفترة بأية محاولة جادة للنظر في مخلفات العهد السابق اولتضع حداً لماشاع من استخدام العنف في جبايتها «١» وذلك باستثناء الخليفة الظاهر بأمر الله الذي أمر بالغاء ما طرأ على هـــذه الضريبة من الزيادة .

ولكن اصلاحاته ضاعت بموته «٢» ، وظل اسلوب الجباية هو لم يتغير إذ بقي معتمداً على الاقطاع والضمان «٣» .

ويشير ابن الجوزي الى ما لقيه الناس وخاصة العلويين في المشاهد من شدة عندما قامت الخلافة سنة ٥٥٦ هـ بحل المقاطعات وإعادتها الى الخراج «٤» .

الجزية :ـ او ضريبة الرأس وكانت واجبة على « اهل الذمة الاحرار البالغين دون النساء والاطفال والرهبان والعبيد والمجانين » «٥» .

ويؤخذ مما ورد من ابن الفوطي ان الخلافة في هـذه الفترة كانت تجبي الجزية بالدينار وليس بالدرهم ، وان فئاتها كانت ديناراً على الفقير ودينارين على المتوسط

«١» الجامع المختصر جـ ٩ ص ١٦ ـ ١٧ ، عمدة الطالب ص ١٤٦ ـ ١٤٧

«٢» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ ، ابن الساعي ص ١٢٢ . ومما يدل على اهمية هذا الاصلاح ان مقدار الخراج الذي كانت تدفعه قرية بعقوبة في عهد الناصر ثمانين الف دينار بينما كان خراجها القديم الذي أخذ منها بعد الاصلاح عشرة آلاف دينار .

«٣» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٤٨ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ٤٦ ـ ٤٧ ، ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

«٤» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٠٠ ، ابن الطقطقي ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ . واعتقد ان هذه المقاطعات كانت من اراضي العشر .

«٥» ابو يوسف ص ٦٩ ـ ٧٠ ، ابن مماتي ص ٣١٧ .

وأربعة على الموسر ، اضافة الى درهمين وربع عن « رسم المشد والمستخدمين » (١) ، ولعل تغير قيمة الدرهم وانخفاضه بالنسبة للدينار هي التي دفعت الخلافة الى ذلك .

الزكاة : — ويبدو ان الزكاة وهي الضريبة التي يدفعها المسلم من خالص ماله بعد ان يحول عليه الحول ، لم تعد عنصر رئيسياً من موارد الدولة ، إذ ان الناس انفسهم كانوا يقومون باخراجها والتصدق بها في اوجهها الشرعية (٢) ، وكانت واجبة على الاموال والماشية والنبات .

وهناك موارد اخرى منها ضرائب العشور التي تفرض على التجارة وكان المسلم يدفع ربع العشر والذمي نصفه . اما الاجانب من التجار الذين يمرون بالبلاد الاسلامية فيدفعون عشر اموالهم (٣) ، وضريبة التركات التي تحصل عليها الدولة من اموال الاشخاص الذين لا وارث لهم (٤) ، وضرائب اخرى كخمس الغنائم وقت الحرب ، والفيء الذي يؤخذ من العدو بغير قتال وما يستخرج من باطن الارض وما يرمي به البحر .

ولم تكن هذه الموارد كافية فاضطرت الخلافة الى فرض ضرائب اخرى مثل ضرائب البيع التي كانت تحصل من الباعة في سوق الغنم والخيل والجمال والسمك والمدبغة ومن التجار المتنقلين في شارع ميسان ، وضرائب المرور او الطرق التي كانت تفرض

---

(١) ابن مماتي ص ٣١٧ — ٣١٨ ، ابن الفوطي ص ٨ . والمشد : اسم لوظيفة يعتبر صاحبها من كبار الموظفين وهناك اكثر من عمل ترمز اليه هذه الوظيفة ، وقد ترمز هنا الى عمل يتعلق بالشؤون المالية .

(٢) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٢٥ ، السبط ج ٨ ص ٢٣١ .

(٣) ابو يوسف ص ٧٦ ، ابو سالم الوزير ص ١٥٩ .

(٤) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٤٦ ، السبط ج ٨ ص ٥٣٦ — ٥٣٧ ، الذيل ص ٦٢ ، ابن الفوطي ص ٢٦٩ ، ٣٠٥ — ٣٠٦ .

على القوافل والبضاعة وكانت مقادير هذه الضرائب مختلفة :

يشير ابن الساعي الى ان مقدار الضريبة التي فرضها الخليفة الناصر على المبيعات سنة ٦٠٤ هـ كانت مائتي الف دينار «١» .

وثمة موارد اخرى مثل ما يؤمل للخلافة من مصادرة اموال من تغضب عليهم من رجال الدولة «٢» .

٢ – **نفقات الدولة** : – كانت الدولة مسؤولة عن الانفاق على الجيش ، فتوفر له حاجاته من الارزاق والسلاح «٣» ، وتدفع اجور الموظفين والعمال إما نقداً وإما عيناً «٤» ، كما انها تنفق على شؤون الحج وتنظيم إدارته وتأمين طرقه « وكسوة الكعبة الشريفة وعمارة المساجد وإصلاح ما تهدم منها » «٥» .

وتنفق الدولة ايضاً على تحصين المدن وبناء اسوارها وحفر خنادقها ، كما تقوم بتنظيم طرق المواصلات وبناء القناطر والجسور والاهتمام بمشاريع الري و كري الانهر ومقاومة اخطار الفيضان « » .

«١» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٧٨، ١٩٤ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٦٨، ٢٥١، ٢٨٥ ، جـ ٩ ص ٢٩٨ ، ابن دحية ص ١٥٨ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص٢٢٧ ، ابن الفرات م ٧ تاريخ الدول والملوك الورقة ٧٠ .

«٢» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٥١ ، ٥٦ . ابن الفرات م ٧ الورقة ٣٩ .

«٣» ويرى الماوردي ان الانفاق على الجيش من الحقوق الواجبة مع الوجود والعدم ص ٣٦٨ .

«٤» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٥٢ .

«٥» ابن الجوزي جـ ٨ ص ٢٤٢ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٣١٤ ، الذيل ص ١٤٥، ابن الفوطي ص ٦ ، ٣٣ ، ١٥٢ ، ١٧٣ ، ٣١٦ ، المقري الفيومي الورقة ٣٦ .

«٦» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٧٨ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ١٦٥ ، ١٧٦ . ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٠٥ . آثار الاول ص ١٨٧ – ١٩٠ . ابن الفوطي ص ١١٠ – ١١١ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ، ٣١٧ .

وكذلك الانفاق على بعض المشاريع الخيرية كبناء المستشفيات وتوزيع الادوية على الفقراء وبناء دور الضيافة في رمضان ، واستقبال الحاج والانفاق على الضعفاء منهم وتجهيزهم عند سفرهم بالاضافة الى ما تنفقه على الفقهاء والصوفية في المساجد والزوايا والمدارس «١» .

وكان من عادتها في كل رجب أن تفرق الرسوم من البر على اربابه ، وتقوم بالافراج عن المسجونين واسترضاء خصومهم بالمال «٢» .

وفي موسم الشتاء كانت الخلافة تأمر بتنظيف الطرق من المستنقعات والوحل ، وبناء الدور للضعفاء ، هذا بالاضافة الى الخلع التي توزعها على الناس في المناسبات «٣»

وكانت الدولة تتدخل في الاوضاع الاقتصادية وخاصة في فترة الازمات حيث يرتفع السعر وتقل المواد ويستغل الباعة ذلك فيتحكمون في الاسعار .

وكانت الازمات كثيرة الحدوث في هذه الفترة لان المغول كانوا يطرقون ابواب الدولة ، فيقع الفزع ويثور القلق وتنتشر الاشاعات بين الناس .

وكانت الخلافة تسعى للسيطرة على الاحوال الاقتصادية وتأمين مستوى للمعيشة يتناسب وامكانيات الناس ، فكانت تشرف على دار الضرب والعيار للمحافظة على نسبة معينة من الذهب والفضة في السكة المتداولة ، وكانت تقوم بضرب النقود للناس

«١» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٧ - ٢٨ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ابن الفوطي ص ٤٤ .

«٢» ابن الفوطي ص ٢ ، ١٤ - ١٥ ، ١٧٧ ، ١٩٤ .

«٣» ابن الجوزي ج ٩ ص ٣٠ ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٢ ، الكازروني ص ٢٠ - ٢١ . المقري الفيومي الورقة ١١٠ .

مقابل أجر معين «١» . وتوقف التعامل بالنقود المستهلكة التي غلبت عليها المعادن الرخيصة او تحدد لها سعراً معيناً بالنسبة للعملة الجديدة «٢» .

هذا بالنسبة للنقود ، اما بالنسبة لمواد المعيشة الاخرى فقد كانت البلاد تتعرض لنقص الانتاج الزراعي بصورة مستمرة مما ادى الى حـــدوث المجاعات في كثير من الاحيان ، فكانت الخلافة تخزن كثيراً من الغلال وتتصرف فيها خلال هذه الازمات، فتتحكم في الاسعار وتمنع ارتفاعها ، كما كانت تقوم بنقل الحبوب من مدينة لاخرى لمكافحة ارتفاع السعر فيها ، وكثيراً ما قامت بتحديد الاسعار والزام الباعة بالعمل بها ومعاقبتهم عند قيامهم باستغلال الظروف المضطربة لخزن المواد واحتكارها «٣» .

وكانت الخلافة تراقب السوق بواسطة المحتسب الذي كان يراقب البيع والشراء والموازين ، وطرق الغش التي يلجأ اليها الباعة ، وكان من حقه انزال العقاب بالمتلاعبين وكثيراً ما ساعده في عمله هذا حاجب الباب النوبي «٤» .

وبالرغم من ذلك فلم يستطع هذا الجهاز المالي تأمين الرخاء للناس ، فكانت حياتهم معرضة للأزمات الاقتصادية التي كانت كثيرة الحدوث بسبب قلة الامطار او سقوطها في غير مواعيدها ونقص مشاريع الري وطغيان مياه الفيضان ، والآفات الزراعية ،

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٤ ، ١١٩ ، ابن ممـــاتي ص ٣٣٠ - ٣٣٣ ، معجم الادباء ج ١٤ ص ١١٠ - ١٢٤ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦٢ .

«٢» ابن الاثير ج ٨ ص ١٠٧ ، ابن الفوطي ص ٧٠ - ٧١ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ ، السيوطي ١٨٥ ، اليافعي ج ٤ ص ٧٥ .

«٣» الصولي ص ٧١ ، ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٢٥ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ابن الفوطي ص ١٤٣ ، المقري الفيومي الورقة ٥٠ .

«٤» ابن الجوزي ج ٨ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ ، ج ١٠ ص ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٢٣ . ابن الفوطي ص ١٠٠ ، ١٤٧ ، القلقشندي ج ١١ ص ٩٦ .

فضلاً عن تأثير الفوضى السياسية وانقطاع الحركة التجارية ، وجاءت هجمات المغول المتوالية لتزيد من القلق وهجزة الفلاحين ولتؤدي الى الانهيار الاقتصادي . ويكفي للدلالة على ذلك ان اسعار الحنطة مثلا كانت ترتفع وقت الازمات الى تسعين ديناراً « للكر الواحد » (١) على حين كانت عشرين ديناراً وقت الاستقرار ، وسنرى كيف أن هذه الضائقات الاقتصادية ستمكن للمغول من بغداد .

٣ - **ديوان الخراج** : — لقد بقي ديوان الخراج من أهم دواوين الخلافة ، كما ظلت لصاحبه مكانة كبيرة بين موظفيها ، وقد اصبح الديوان في هذه الفترة يحمل اسم المخزن كما ان صاحبه اصبح يحمل اسم صاحب المخزن او صدره (٢) ، ولعل هذا التغيير في الاسم حدث في الفترة التي جرد فيها الخليفة من السلطان واقتصر في نفقاته على موارد قليلة ، فكان يشرف على نفقات دار الخلافة موظف خاص سمي بصاحب مخزن الخليفة.

يشير ابن الجوزي الى ذلك في حديثه عن ابي طاهر الحرزي صاحب مخزن المستظهر « الذي كان لايوفي المسترشد حقه من التعظيم وهو ولي عهد فكان يقصر في حقه ويواقفه في حاجاته » (٣) .

وعندما تخلصت الخلافة من السيطرة ، وتولى الخلفاء زمام السلطة ، اصبح من واجب صاحب المخزن الاشراف على موارد الدولة من الخراج وغيره من الضرائب

---

(١) الكر : أداة كيل تستخدم في البيع والشراء .

(٢) الجامع المختصر ج ٩ . مقدمة محقق الكتاب الدكتور مصطفى جواد حيث يذكر في ص ض من المقدمة قوله : « اما ديوان الخراج فصار يسمى المخزن » وصدر المخزن كوزير المالية اليوم .

(٣) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٠٣ ، لاحظ الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ وقيام صاحب المخزن بالانفاق على دور الضيافة .

الاخرى التي كانت تحمل من قبل الى خزانة السلطان المتغلب «١» . ونظراً لاهمية الدور الذي اضطلع به المخزن فقد كان رجاله يختارون من كبار موظفي الخلافة خاصة ممن اشتهروا بالخبرة في الشؤون المالية .

وأشهر موظفيه الرئيس او الصدر وهو الذي يتولى مسؤولية تنظيم ايرادات الدولة ونفقاتها ، ثم المشرف الذي يراقب اعمال الصدر ويشرف عليها .

قال ابن الفوطي « وفي ربيع الآخر ٦٢٣ هـ نقل القاضي فخر الدين ابو سعيد المبارك بن المخرمي من وكالة باب طراد ونظره بدار التشريفات الى صدرية المخزن وخلع عليه وأعطى مركوباً بعـدة كاملة وأنعم عليه بألف دينار وأسكن في الدار المنسوبة الى الوزير عبيدالله بن يونس المجاورة للديوان ، ورتب علي بن غزالة المدائني مشرفاً عليه ، ورتب هبة الله بن خليد كاتباً معه وخلع عليهما » «٢» .

وقد كانت العادة ان صدر المخزن بعد أن يخلع عليه في دار الوزير يركب الى المخزن ليكتب انهاءً بذلك ، وقد كتب عماد الدين يحيي بن المرتضى عند توليه (صدرية) المخزن الانهاء وصدره بقوله تعالى : « هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم اكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه » «٣» .

«١» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٦٢ ، ابن الفوطي ص ٢٢٨ .

«٢» ابن الفوطي ص ٨٢ ، وليست لدينا معلومات تحدد بوضوح مدى العلاقة بين الصدر والمشرف ، او تفسر لنا عمل المشرف ، والظاهر ان مكانته كانت دون مكانة الصدر ، ويشير ابن الفوطي الى احد اعمال المشرف وهو محاسبة واعتقال الصدر عندما تغضب عليه الخلافة كما حدث عند قيام مشرف المخزن عميدالدين بن عباس باعتقال فخر الدين ابي سعد المبارك بن المخرمي صاحب الديوان وأخيه جمال الدين علي وولده كمال الدين محمد وحبسهم في حجرة قريبة من داره ثم محاسبتهم على اموالهم ص ١٩٦-١٩٧ .

«٣» ابن الفوطي ص ٢٠٣ .

وكان من واجبات صاحب المخزن أن يخرج الى الاطراف لكي يحصل من دواوينها بقايا الاموال ، كما فعل عضد الدين ابو الفتوح الذي تولى صدوية المخزن في عهدالخليفة الناصر وخرج الى ديوان بعقوبة(١) ، على ان الخروج الى دواوين الاطراف لم يكن مقصوراً على صدر المخزن فقط بل شاركه في ذلك صدر ديوان الزمام (٢) ،

وقد تسند صدرية المخزن الى صدر ديوان الزمام بالاضافة الى عمله كما حدث سنة ٦٥١ هـ .

قال ابن الفوطي : « وفيها اضيفت صدرية المخزن الى صاحب الديوان فخر الدين الدامغاني فبقي قليلا ثم رتب بالمخزن ابو الفضل محمد ابن الوزير العلقمي » (٣) .

وقد يتعاون الاثنان في القيام بأعمال اخرى يكلفهم الخليفة بها كعمارة سور بغداد مثلا كما حدث سنة ٦٣٥ هـ عندما قسم الخليفة العمل في سور بغداد بين صاحب المخزن وصاحب ديوان الزمام (٤) .

وقليلا ما وصل صدر المخزن الى منصب الوزارة في هذه الفترة . وتشير الاخبار الى اثنين فقط منهم توليا منصب الوزارة ، وهما ابو بكر ابن العطار وزير المستضيء ، وابو القاسم بن نصر بن الناقد الذي وزر للخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٩٤ هـ (٥) .

٤ – **النظام الحربي** : – اعتمدت الخلافة العباسية عند قيامها على جيش منظم اصبح مضرب المثل في القوة ووفرة العدة وسرعة الحركة ، وكان هذا الجيش مقسما الى

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٧ – ٢٢٨ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٥٤ .

(٢) ابن الفوطي ص ٨٢ ، ١٥١ – ١٥٢ ، ١٧٨ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٦٧ .

(٤) نفس المرجع ص ١١١ .

(٥) ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٧٥ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

ثلاثة اقسام رئيسية هي الحرس الخاص للخليفة وهم نواة الجيش القوية بأسلحتهم ولباسهم وحسن تدريبهم ، ثم المرتزقة والمتطوعة الذين يلتحقون بالجيش عند اعلان الجهاد استجابة لشعورهم الديني .

وقد ضم هذا الجيش فرقاً متعددة من الخراسانيين والعرب والديالمة والاتراك ، وكان ينقسم الى فرق من المشاة اوالحربية ، والرماة والفرسان ، ويلحق بهم جماعة من النفاطين الذين يرمون المواد المحرقة ، وفرق المهندسين الذين يقومون بتسهيل حركة الجيش وتعبيد الطرق أمام زحفه .

ولما خضعت الخلافة للوصاية فقدت هذه القوة وحلت جيوش المتغلبين محل جيش الخلافة الذي تمزق وتفرق شمله ، فلم تعد الخلافة تملك جيشاً قائماً ، لذلك كانت خلال فترة انقسام المتغلبين على انفسهم وتفرق كلمتهم تتعرض للاهانة ولا تستطيع الدفاع حتى عن بغداد العاصمة .

وقد اضطر الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٢ هـ الى الاستعانة بسيف الدولة صدقة ابن مزيد لانفاذ جيش لانهاء الفتن الطائفية في بغداد بعد أن عجز الشحنة السلجوقي عن وضع حد لها (١) .

وعندما سعى الخلفاء لاستعادة سلطانهم في هذه الفترة كان عليهم أن يعيدوا تكوين الجيش من جديد .

وقد نجح المسترشد في تحقيق ذلك خلال صراعه مع السلاجقة الذين احسوا بخطر هذه القوة على وجودهم فعزموا على القضاء عليها .

وكتب السلطان سنجر الى ابن اخيه محمود يأمره « بالتوجه الى بغداد والقضاء

---

(١) ابن الجوزي ج ٩ ص ٤٧ – ٤٨ .

على الا كراد الذين جندهم الخليفة ومصادرة النزل الذي قد عمله وجميع آلة السفر » (١)

ولكن حرمان الخلافة من حق تجييش الجيوش لم يطل ، إذ سرعان ما تنازل السلاطين عن القيود التي فرضوها على الخلفاء وسمحوا لهم بتكوين الجيش مدفوعين بحاجتهم الى مساعدة الخليفة لهم في صراعهم مع منافسيهم على السلطنة من اخوتهم (٢) .

وكان ذلك بداية لاستعادة الخلافة حريتها واستعانتها بهذا الجيش لضرب قلاع السلاجقة ومراكز تجمعهم في العراق وتحرير الخلافة من نفوذهم ، وكانت الفترات التي تمتع فيها المسترشد والمقتفي بحريتهم في الخلافة فترات قوة وازدهار لجيش الخلافة الجديد (٣) .

ولو حاولنا ان نرسم صورة مقارنة لهذا الجيش الجديد لوجدنا انه يختلف كثيراً عما كان عليه في أيام عزالخلافة ومجدها ، فبينما كان جيش صدر الخلافة يتألف من العرب والخراسانيين ثم المغاربة والاتراك والفراغنة ، على حين نجده في هذه الفترة يتألف من بقايا الاتراك والديلم مع قلة قليلة من الاكراد (٤) وكان أغلبه من مماليك الخلافة

(١) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٥ ، لاحظ رسالة السلطان سنجر الى ابن اخيه محمود .

(٢) تنازل السلطان محمود عن الشروط التي قيد بها الخليفة المسترشد سنة ٥٢٢ هـ عندما تعرض لخطر اخيه مسعود ، وتنازل السلطان مسعود عن الشروط التي قيد بها المقتفي سنة ٥٤٣ هـ عندما تعرض لخروج الامراء عليه مستغلين ابناء اخيه محمود ، ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٠ ، ١٣٢ .

(٣) وذلك للارتباط الشديد بين الخليفة وجيشه ، حيث كان يقوده بنفسه ويتفقد نواقصه فكان يزداد عدداً وعدة كل يوم .

(٤) ابن جبير ص ١٨١ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ١٤٧ - ١٤٨ ، ابن الفوطي ص ٥٠ ، ١٦٨ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٨٢ في الحديث عن الامير ابي الحسن ، -

الذين اشتروهم بالمال ثم ربتهم وذربتهم حتى اصبحوا ينسبون الى الخليفة الذي تربوا في حجره فيتخذون لقب المسترشدي والمقتفوي والمستنجدي .

يشير ابن الفوطي الى ذلك في حديثه عن هروب قطب الدين سنجر المستنصري الذي اعيد الى الشرابي مقبوضاً عليه فخاطبه بقوله : « ولمن خطر ببالك ان تخدم بعد الخليفة وقد رباك وأحسن اليك وأدناك » «١» ، وكان الولاء في هذا الجيش للخليفة اسماً وفي الواقع لامرائه الذين كانوا يدينون بالولاء للقائد العام للجيش وهو اكبر مماليك الخليفة «٢» ، وأثار هـــذا الوضع الكثير من المشاكل أمام الخلافة وأدى الى عجزها عن مواجهة الخطر المغولي . وكان سبباً من اسباب ضعفها وسقوطها ، اذ كثيراً ما استغل قائد الجيش سلطانه في الضغط او الحجر على الخليفة والتأثير على الموظفين واخضاعهم لرغباتهم ، فأدى ذلك الى كثير من الفوضى والارتباك .

وقد روي ان قايماز المستنجدي تسبب في قتـــل الخليفة المستنجد والحجر على المستضيء ومطاردة الوزير وصاحب المخزن «٣» .

كما ان الدويدار الصغير تصدى للوزير ابن العلقمي وعجز الخليفة عن التدخل

– ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٥٥ ، مع العلم بأن الاكراد لم يكونوا من المماليك ، وانما كان الخليفة المسترشد قد استخدمهم عندنهضته ليضرب بهم الاتراك السلاجقة ، ولكنه عندما فشل سنة ٥٢١ هـ فرق السلاجقة الاكراد ، فلم يستخدموا بعد ذلك إلا بأعداد قليلة مما لم يساعدهم على تكوين قوة كبيرة في الجيش بعد ذلك .

«١» ابن الفوطي ص ١٢٨ ، لاحظ كذلك نفس المعنى في جواب الشرابي للجنود الذين شاغبوا يطلبون زيادة معايشهم وقوله : ان المحبوسين ما نخرجهم وهم مماليكنا نعمل بهم ما نريد ص ١٦٩ .

«٢» ابن جبير ص ١٨١ ، الكازروني ص ٢٠-٢١ ، ابن الفوطي ص ١٥٧، ١٦٧ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٣٢ ، ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٢٥٥ - ٢٥٦ .

لانهاء النزاع بينهما «١» . وكان الجيش الجديد بمثابة حرس للخليفة وجيش نظامي في وقت واحد ، ولم يكن عدده كبيراً لان الخلافة أعطت الولاة وهم من مماليكها الحق في تكوين جيش محلي خاص ، فكانت عند حدوث بعض الاضطرابات الداخلية او عند اعتداءات بعض العشائر تعهد الى هؤلاء الامراء بالقضاء عليها وتأديب تلك العشائر الثائرة ، كما فعلت مع بني معروف حيث امرت « متولي بلاد واسط ان يسير الى قتالهم فجمع الجيش من تكريت وهيت والحديثة والانبار والكوفة وواسط والبصرة » «٢» .

واذا تعرضت لخطر خارجي فانها تفتح باب التطوع للمجاهدين وتستدعي امراء البلاد المجاورة لنجدتها كما حدث عند تعرضها لهجمات المغول فانها استدعت الامراء الايوبيين «٣» ، وكانت قد استنجدت قبل ذلك بالاتابكة والايوبيين عندما تعرضت لاعتداءات جلال الدين الخوارزمي سنة ٦٢٢ هـ «٤» .

لهذا كله بقي جيش الخلافة قليل العدد لم يستطع أن يقوم بدور حاسم في الاحداث السياسية التي وقعت في البلاد ، مثل ذلك عجزها عن انجاد مظفر الدين كوكبري صاحب اربل عندما استنجد بها لرد عادية المغول سنة ٦١٨ هـ فقد أرسلت اليه اكبر مماليكها

«١» ابن الفوطي ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٦٢ - ٢٦٤ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٢٨ ، لاحظ ايضاً ص ١٤١ عند خروج الوزير عضد الدين لقتال ابن ملكشاه في خوزستان فانه جمع الجيش من واسط والحلة .

«٣» ابن الفوطي ص ٢٧ ، ٨٥ ، ١١١ - ١١٢ . المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، لاحظ كذلك ابن الاثير ج ٩ ص ٣٠٩ ، عندما استعان الخليفة بجيوش اربل والموصل وحلب والجزيرة والاسماعيلية للقضاء على منكلي سنة ٦١٢ هـ .

«٤» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٥٥ ، رسائل ابن الاثير - ضياء الدين - ص ١٧ .

قشتمر وغيره من الامراء في ثمانمائة فارس «١» .

كما أصبحت عاجزة بعد ذلك عن القيام بأي عمل عسكري لوقف زحف المغول، وقد ذكر ابن الطقطقي الى ان جيش الخلافة الذي خرج مجاهد الدين الدويدار لدفع المغول عن بغداد « كان في غاية القلة » «٢» وكان للجيش ديوان يتولى الاشراف على تسجيل اسماء الجند وتوزيع ارزاقهم وتدريبهم .

ويبدو أن هـذا التدريب كان يتضمن استعمال مختلف انواع الاسلحة الخفيفة وركوب الخيل والرمي بالنشاب . ولعل الصورة التي قدمها ابو هلال الصابي عن طريقة اختيار الجندي في زمن المعتضد « تدريبهم على البرجاس وملاحظة تمكنهم من الرمي وثباتهم على السرج » «٣» لا تختلف كثيراً عما كانت عليه تدريبات الجيش في الفترة التي نحن بصددها .

ولما زاد عدد الجيش في زمن المستنصر خاصة اصبح هذا الديوان يتولاه رجلان (عارضان) أحدهما يتولى شؤون الغرباء من الجند والمتطوعة ، والثاني كان مسؤولاً عن شؤون الجند البغدادي «٤» .

وظل هذا الجيش مقسما الى مشاة ورماة وفرسان ، وكانت هناك ايضاً فرق من النفاطين والمهندسين ومن هؤلاء المهندسين الذين اشتهروا في زمن الخليفة الناصر ، ابن صابر المنجنيقي الذي خلف لنا بعض المؤلفات عن فن الحرب .

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٢٧ .

«٢» ابن الطقطقي ص ٤٥٣ .

«٣» الوزراء ص ١٧ طبعة ١٩٥٨ .

«٤» ابن الفوطي ص ١٠٣ ، ٣٢٠ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٢١٤ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ ، الكازروني ص ٢٣ ، ابو سالم الوزير ص ١٥٦ .

وأشار ابن الفوطي الى وفاته سنة ٦٢٦ هـ بقوله (١) « وهو يعقوب بن صابر الحراني الاصل البغدادي المولد المنجنيقي ، كان شيخاً فاضلا مقدماً على اهل صناعته وعنده أدب وشعر » . ويظهر ان ابنه ورث فنه وشعره حيث اشار ابن الفوطي في وفيات سنة ٦٤٤ هـ الى « يوسف بن يعقوب بن صابر متقدم المنجنيقية ببغداد وكان اديباً حاذقاً في صناعته يقول الشعر » (٢) .

وغلب الفرسان على هذا الجيش حتى لا نكاد نجد ذكراً للمشاة إلا عند الاشارة الى المتطوعة (٣) من اهل بغداد والسواد ، ولعل السبب يرجع الى قلة عدد الجند من ناحية ومحاولة الخلافة رفع مستواهم الفني والتدريبي من ناحية اخرى .

وكان الجيش العباسي يقسم عادة الى وحـدات إدارية صغيرة ، لكل منها رتبة قيادية خاصة بها ، كالعريف والنقيب والخليفة والقائد والأمير ، وقد بقي هذا التقسيم الاداري معمولاً به في هذه الفترة ايضاً إلا ان عدد افراد هذه الوحدات لا نستطيع تحديده تحديداً دقيقاً . ومن المحتمل ان اصغر وحـدة من جيش الخلافة كانت تضم خمسين فارساً او مائة فارس .

يشير ابن الفوطي الى ذلك في حديثه عن تكريم الخلافة للأمير جمال الدين قشتمر الناصري عند وفاة ابنه شرف الدين علي بقوله « فقد استدعي الى دار الوزارة ومعه ولده مظفر الدين محمد وولد ولده شرف الدين المدعو فخر الدين مغذي ، فخلع على مظفر الدين وجعل أميراً على مائة فارس وكان عمره ١٣ سنة ، وخلع على فخر الدين

---

(١) ابن الفوطي ص ٨ - ٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٦ .

(٣) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٥، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣١٨ ، ٣٤٧-٣٤٨ ج ٩ ص ٧٦ ، السبط ج ٨ ص ١٤٧ ، ابن الفوطي ص ٩٨

مغذي وجعل اميراً على عدة خمسين فارساً وعمره يومئذ خمس سنوات » «١» .

وكان كل امير مسؤولا عن الجماعة التي يقودها . ففي استعراض الجيش الذي أقامه الخليفة المسترشد في عيد الفطر :

أشار ابن الجوزي « الى ان كل اميركان يقبل في اصحابه وعليه خلعة الخليفة»«٢»

اما اسلحة الجيش فقد كانت كثيرة ومتنوعة ولعل الحريق الذي وقع في خزانة سلاح الخليفة يكشف عن بعض انواعها .

يشير السبط الى « احتراق جميع ما كان في الخزائن من السلاح والامتعة والقسي والنشاب والرماح والدروع والسيوف والجواشن والزرديات وقدور النفط » «٣» .

وكان سلاح المشاة عادة السيوف والرماح والتروس . اما الفرسان فكانت اسلحتهم الفؤوس والحراب والسيوف ، وكان الرماة يرشقون السهام والنبال من القسي .

وكان اغلب الجند وخاصة الفرسان يلبسون الخوذ على رؤوسهم والزرديات او الدروع على اجسادهم . اما الاسلحة الثقيلة فكانت تتمثل في المناجيق (والعرادات والدبابات والجرخ » «٤» .

«١» ابن الفوطي ص ١٠٥ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٥ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٦٩ ، السبط ج ٨ ص ٥٢٣ ، الذيل ص ٥١ .

«٤» العرادة : وهي من آلات الحرب اصغر من المنجنيق ترمي بالحجارة المرمى البعيد ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٦٢ .

الدبابة : وهي عبارة عن شبه برج متحرك له احيانا اربعة ادوار ، اولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد ورابعها من النحاس الاصفر ، ويتحرك هذا البرج الهائل على عجلات ، وتصعد الى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الاسوار

- *Dozy . Supp . Dict . Arab . Tome . Une . P . 421 ,*

بالاضافة الى المواد الحارقة كالنفط وتستخدم عادة في حالات الحصار .

ويشير ابن الجوزي في حديثه عن حصار بغداد سنة ٥٥٢ هـ «١» الى ان الخلافة كانت تصنع هذه الاسلحة فضلا في استيرادها من البلاد الاسلامية الاخرى .

اما ارزاق الجيش فكانت تختلف باختلاف الوحدات التي خدموا فيها . ويبدو أن الجند كانوا يتقاضون ارزاقهم اقطاعاً ونقداً «٢» ، وان الخلافة كانت تزيد في معاشهم كلما أحسنوا الخدمة ، وأخلصوا الطاعة .

يشير ابن الفوطي الى الشغب الذي قام به جماعة من المماليك الظاهرية والمستنصرية « وطلبهم الزيادة في معايشهم وجواب شرف الدين اقبال الشرابي على ذلك بقوله : ما نزيدكم بمجرد قولكم بل نزيد منكم من نزيد اذا أظهر خدمة يستحق بها » «٣» .

وقد وزعت الخلافة على الجيش عند عودته من فتح اربل سنة ٦٣٠ هـ مكافآت على النحو التالي « خلع الوزير على امراء الجيش وأعطى كل واحد منهم فرساً بمركب ذهب وخمسة آلاف دينار ، وأنعم على من دونهم على قدر مرتبته من الالفين الى الخمسمائة ، ثم خلع على المماليك الناصرية والظاهرية والمستنصرية وأعطى كل واحد منهم خمسين ديناراً ، ثم انعم على جميع الجند ومماليك الامراء والعرب من ثلاثين الى خمسة عشر » «٤» .

– الجرخ : وهي آلة حربية تستعمل لرمي السهام والنفوط والحجارة .

Dozy . Supp . P . 182 .

«١» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٦٩ ، ١٧٠ - ١٧١ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٦٩ .

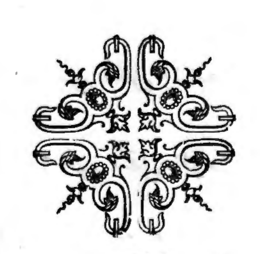
«٢» ابو سالم الوزير ص ١٥٦ .

«٣» ابن الفوطي ص ١٦٨ .

«٤» نفس المرجع ص ٥٠ .

ويظهر أن الخلافة قصرت في الانفاق على الجيش في أيامها الاخيرة خاصة في عهد المستعصم ، ولذلك فقد أصبحت مطالبة الجند برواتبهم المتأخرة من أهم مشاكل الخلافة فتمردوا عليها خاصة في اعقاب تولي المستعصم الخلافة «١» ، مما أدى الى اسقاط كثير منهم من ديوان الجيش واضطرار اكثرهم الى الخروج الى الشام او الالتحاق بالمغول بسبب الحاجة والفقر «٢» .

هذا عن جانب هام من الدراسة السياسية وسنعمد في الباب التالي الى دراسة جانب فيها لا يقل اهمية عن الجانب السابق وأعني به السياسة الداخلية للخلافة .



«١» ابن الفوطي ص ١٦٨ - ١٦٩ .

«٢» نفس المرجع ص ٢٦١ ، ٣٢٠ . رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨٣ .

الباب الثالث

الخلافة والسياسة الداخلية

أولا — موقف الخلافة من أهل السنة

ثانياً — موقف الخلافة من أهل الشيعة

ثالثاً — موقف الخلافة من أهل الذمة

رابعاً — موقف الخلافة من القبائل العربية

خامساً — موقف الخلافة من الاكراد

الباب الثالث

الخلافة والسياسة الداخلية

المقصود بالسياسة الداخلية للخلافة أن ندرس علاقاتها بطوائف الشعب في العراق وكيف تصدت لكل طائفة على حدة ؟ هل قربتها أم أبعدتها ! وهل حرصت على رخاء كل طائفة من طوائف الشعب ؟ وهل تصدت للفتن والثورات التي وقعت في هذه الفترة ؟ وهل تحقق للبلاد في ظل الخلافة الامن والطمأنينة ؟ .

وفي تقسيم الشعب العراقي في هذه الفترة الى طوائف مختلفة ، ستختلف مقاييسنا، فلا نستطيع أن نلتزم بمقياس واحد ، أعني اننا لا نستطيع أن نعتمد على الاساس الديني او المذهبي وحده ولا نستطيع أن نعتمد على الاساس العنصري او البشري وحده ، انما ينبغي ان نعتمد على الاساسين معاً ، وعلى هذا فان باستطاعتنا أن نقسم اهل العراق الى الطوائف الآتية . اهل السنة ، اهل الشيعة ، اهل الذمة ، القبائل العربية ، العناصر الكردية .

وسنعرض لكل طائفة من هذه الطوائف ونبين موقف الخلافة منها .

أولا — موقف الخلافة من أهل السنة

كان أهل السنة يمثلون اكثرية سكان العراق في هذه الفترة كما أنهم كانوا في بغداد يمثلون الاكثرية من سكانها اذا استثنينا بعض المناطق التي تجمع فيها الشيعة كمشهد الامام

موسى الكاظم والكرخ والمختارة وبعض الاماكن الأخرى «١» .

وكانت الظروف السياسية التي تعرضت لها البلاد حتى منتصف القرن السادس الهجري قد فرضت على سكان بغداد التجمع في السكن على أساس مذهبي ، فاشتهر حي الكرخ مثلاً بأنه مسكن الشيعة كما اشتهرت أحياء كباب الازج وسوق السلطان ومشهد أبي حنيفة في الجانب الشرقي ، وأحياء قطفتا وباب البصرة والحربية في الجانب الغربي بأنها مسكن اهل السنة «٢» .

ولم يمتهن اهل السنة حرفة بعينها ، فقد اشتغلوا بالتجارة والصناعة ، كما احترفوا الزراعة في الريف والسواد ، واحتلوا من وظائف الدولة نصيباً كبيراً . هذا بالاضافة الى طلب العلم وتعليم الناس في المدارس والمساجد .

وكان اهل السنة مادة الخلافة ومصدر قوتها الروحية والعملية ، فقـد كانوا يعتقدون أن طاعتها جزء من إيمانهم .

وكان الخليفة في نظر اهل السنة الامام وظل الله في الارض ، ويتساوى في هذه النظرة عامتهم وفقهاؤهم ، ففي المشادة التي وقعت بين الطوسي وبين نقيب النقباء ، قال الطوسي : « أنا نائب النقابة ، وأنا نائب الله في أرضه ، فاستخف به النقيب وقال انما نائب الله في ارضه الامام صلوات الله عليه » «٣» .

«١» السبط جـ ٨ ص ٣٥٩ ، بالاضافة الى محلات القرية والخضيرين وبعض المأمونية .

«٢» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٤٥ ، ٢٤٩ . ابن الاثير جـ ٩ ص ١٧٢ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ١٤٦ - ١٤٩ ، ابن الفوطي ص ٣١ ، ٢٩٨ - ٢٩٩ ، ٣١٤ ، وقد بقي هذا التوزيع المذهبي للسكان سائداً حتى أخذت به الحكومات الحديثة التي قامت في العراق وخاصة في قوانينها الانتخابية التي الغتها ثورة ١٤ تموز / ١٩٥٨ .

«٣» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٤٣ .

وليست هذه النظرة من أهل السنة نحو الخلافة حديثة العهد ، انما نشأت مع نشوء الخلافة وتطورها .

روى الصابي حـــديث ابي علي الخاقاني الوزير الى الخليفة المقتدر عندما أحس بانصراف النية عنه واحتمال عزله فكان من جملة ما قال له (١) : « ولكنني مأمون على ايامك ومعتقد لامامتك » ومثل هذا ايضاً ورد على لسان ابي زكريا السوسي رسول الخليفة المتقي الى اميرالامراء توزون عندما ارسله اليه ليعيد الصلة التي انقطعت بخروج الخليفة من بغداد الى الموصل ثم نصيبين ، فانه بعـد ان امسك به الاتراك في الموصل وارتاب فيه توزون كان من جملة ما قال له : « أنا رجل سني وأرى طاعة الخليفة ، وخرجت معه احتساباً لا لاطلب الدنيا وقد انفذني رسولا » (٢) .

وقد عمل الخلفاء بدورهم على تقوية هذه النظرة وتاكيدها بأعمالهم وأقوالهم ، فتصدوا للتأليف الديني لتثبيت مبادىء اهل السنة وتوضيح اصولها ، فصنف الخليفة القادر بالله كتاباً في الاصول ذكر فيه فضل الصحابة على ترتب مذهب اصحاب الحديث وكان يقرأ كل جمعة في حلقة اصحاب الحديث بجامع المهدي ويحضر الناس سماعه (٣).

وقد سار الخليفة القائم بأمر الله على سياسة ابيه القادر في رعاية اهل السنة عندما أمر باخراج الاعتقاد القادري الذي وضعه أبوه واعاد قراءته في المساجد في ايام الجمع على الطلبة والناس (٤) .

كما قام الخليفة الناصر لدين الله بوضع كتاب سماه (روح العارفين) جمع فيه كثيراً

---

(١) ابو هلال الصابي الوزراء ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ، طبعة ١٩٥٨ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٩ - ٥٠ حاشية رقم (١) منقولة عن التكملة .

(٣) الخطيب البغدادي ج ٢ ص ٣٧ - ٣٨ ، ابن الجوزي ج ٧ ص ٢٨٩ .

(٤) ابن الجوزي ج ٨ ص ١٠٩ .

من الاحاديث وأجاز للناس أن يرووها عنه ، وأرسل نسخاً منه الى أمراء الاطراف لقراءته وروايته «١» .

كما ارسلوا رسلهم الى امراء المسلمين يحثونهم على نشر السنة وتقوية دعائمها «٢» .

وكان بناء المدارس وتخصيصها لدراسة مذاهب اهل السنة كلها او بعضها وتعيين المدرسين والمعيدين لها وإجراء الجرايات وحبس الاوقاف للانفاق عليها دليلا على اهتمام الخلافة بمساندة اهل السنة وتقوية نشاطهم .

ومن هذه المدارس المستنصرية التي افتتحها المستنصر بالله سنة ٦٣١ هـ والمدرسة البشيرية التي افتتحها الخليفة المستعصم بالله نيابة عن أم ولده ابي نصر التي حملت اسمها«٣» هذا فضلاً عن مدارس اخرى قام ببنائها بعض كبار موظفي الدولة وأمرائها .

ولم يتردد بعض الخلفاء في مساندة اهل السنة باستخدام القوة اذا تعرضوا لعدوان خصوم الخلافة .

ويشير الذهبي الى بعض الفتن الطائفية التي « استقوى فيها الرافضة بالسلطان البويهي المتغلب فنادوا بشعار الفاطمية فغضب الخليفة القادر وأرسل خيلا لمعاونة اهل السنة » «٤» .

والخليفة المستعصم ؟ عندما شكا له بعض الخدم من اعتداءات اهل الكرخ وفسادهم ، وحملوا اليه بعض القتلى من اهل حي قطفتا ، أمر الجند بتأديبهم ، ولحقهم

«١» السبط جـ ٨ ص ٥٤٣ ، الذيل ص ٦٩ ، ابن واصل جـ ٣ ص ٢٢٨ ، المختصر المحتاج اليه ص ١٧٩ .

«٢» الذهبي - العبر جـ ٣ ص ٩٨ ، ابن واصل جـ ٣ ص ٢٣٢ .

«٣» ابن الفوطي ص ٥٣ - ٥٩ ، ٣٠٧ ، ٢٤ - ٢٥ . ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٠٣ ، ٢٧٢ .

«٤» الذهبي - العبر جـ ٣ ص ٦٥ - ٦٦ .

العامة فنهبوا وقتلوا الرجال وسبوا النساء (١) .

ولم يكن بعض وزراء الخلافة أقل حماساً من الخلفاء في تأييدهم للسنة ، فقد عرف عن ابن صدقة وزير المسترشد أنه كان يميل لاهل السنة وينصرهم ، كما كان ابن هبيرة وزير المقتفي لامر الله « متشدداً في اتباع السنة وسير السلف » (٢) .

وكان التعاون وثيقاً بين الخلافة واهل السنة ، فقد كان اغلب موظفي الخلافة منهم ، كما سيطروا على الجيش فلم يكن بين امرائه من مماليك الخليفة غير ثلاثة عرفوا بالتشيع هم يزدن التركي الذي كان من كبار الامراء ، وكان له نشاط في التشيع « حتى إن الرفض انتشر بسببه وتأذى اهل السنة » .

ويروي ابن الجوزي أنه قصر في قيادة الحملة التي ارسلها الخليفة لتأديب بني أسد في الحلة بسبب مذهبه الديني (٣) .

وكان أخوه علاء الدين تنامش لا يقل عنه نشاطاً في تشيعه ، فقد استغل تكليف الخليفة له بانهاء الفتنة التي قامت سنة ٥٦٩ هـ بين اهل الكرخ وباب البصرة ، فهاجم بجنده اهل باب البصرة (٤) .

وعرف عن الامير طاشتكين زعيم خوزستان وأمير الحج في زمن الخليفة الناصر

---

(١) ابن الساعي ص ١٢٦ ، ابن الفوطي ص ٣١٤ - ٣١٥ ، ابن خلدون ج ٣ ص ٥٢٧ .

(٢) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦ ، ٢١٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٠٤ ، ٢٤٢ . ابن الاثير ج ٩ ص ٨٣ ، ١٢١ . وينقل الصفدي ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥ انه سعى لاغراء المستنجد قبل توليه الخلافة باعتناق مذهب الشيعة لو لم يحس به المقتفي .

(٤) ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٩ .

انه كان متشيعاً «١» ، وكان اغلب وزراء الخلافة في هذه الفترة من السنة ايضاً سوى خمسة وزراء تولى اربعـة منهم في زمن الخليفة الناصر وخامسهم في زمن الخليفة المستعصم بالله «٢» .

وكانت الخلافة تستعين بعلماء أهل السنة لردع البدع ومقاومة انتشار التشيع .

ويشير ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٧١ ﻫ الى ما كتبه صاحب المخزن ابن العطار الى الخليفة عندما كثر سب الصحابة وانتشار الرفض بقوله: «إن لم تقو يدي ابن الجوزي لم تطق على دفع البدع . فكتب اميرالمؤمنين بتقوية يدي فأخبرت الناس بذلك على المنبر وقلت : ان اميرالمؤمنين قد بلغه كثرة الرفض ، وقد خرج توقيعه بتقوية يدي في إزالة البدع ، فمن سمعتموه من العوام يتنقص بالصحابة فأخبروني حتى انقض داره واخلده الحبس وإن كان من الوعاظ حدرته المشان » «٣» .

وكانت مجالس العلماء تعقد في قصور الخلفاء كل اسبوع مرة او مرتين ، وكان يحضرها الآلاف من الناس كما يحضرها الخلفاء وافراد اسرهم من وراء ستار ، وكان العلماء يفتتحون وعظهم بالاشادة بالخليفة وتذكير الناس بوجوب طاعته والتغني بثواب محبته والاخلاص له «٤» .

وكان لهذه المجالس التي كان يعقدها هؤلاء العلماء سواء في قصور الخلفاء او في مدارسهم او في الاحياء ، وما يدور فيها من مناقشات ومسائل اكبر الاثر في تقويم

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٨٣ ، السبط ج ٨ ص ٥٢٧ ، الذيل ص ٥٣ ؛ الجامع المختصر ج ٩ ص ١٨٦ .

«٢» سوف يرد ذكرهم عند بحث علاقة الشيعة بالخلافة .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٥٩ .

«٤» نفس المرجع ص ١٩٤ ، ٢٥٦ - ٢٥٨ ، ٢٦٢ - ٢٦٥ ، ٢٨٤ - ٢٨٥ .

اخلاق الناس وتهذيب طباعهم وتوجيههم نحو طاعة الخلافة وتأييدها فضلا عن نشرها الوعي الديني والثقافي بين الناس ، وشهد ابن جبير عند زيارته بغداد بعض هذه المجالس وخاصة مجالس ابن الجوزي وتحدث عنها في اعجاب شديد «١» .

وكان من الممكن ان يكون تأثير اهل السنة في مساندة الخلافة اشد فعالية لو لم يكونوا منقسمين على انفسهم الى مذاهب مختلفة اعترفت بها الخلافة «٢» ، وأخذت بتعاليمها في الاحكام والمعاملات واعطتها مكانتها في ديوان الخلافة ، واجازت لكل منها مدارسه الخاصة به «٣» ، ولكنها كانت تنكر عليهم جميعاً الغلو والتعصب المذهبي الذي نشأت عنه الفتن والاضطرابات التي كانت تتحول في بعض الاحيان الى معارك دامية بين انصار هذه المذاهب «٤» .

«١» ابن جبير ص ١٧٤ - ١٧٩ . وقد حدثنا ابن الجوزي كثيراً عن دوره في هذه المجالس والندوات ، وعن الآلاف من الناس الذين يحضرونها سواء في مجالسه بباب بدر او جامع المنصور او محلة الحربية . وقد احصى عدد التائبين على يديه حتى سنة ٥٧٤ هـ فكانوا اكثر من مائة الف تائب . وذكر ايضاً ان عدد الذين يحضرون مجلسه في جامع المنصور كانوا يقدرون بمائة الف مستمع ، بينما قدر عدد الذين يحضرون مجلسه بالحربية بثلاثمائة الف مستمع .

«٢» السبط جـ ٨ ص ٥٤٣ . عندما اعطى الخليفة الناصر اجازة الرواية عنه لرؤسائها . الذيل ص ٦٩ . وهي اربعة مذاهب حملت اسماء المجتهدين الذين نسبت اليهم وهم الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت سنة ٨٠ - ١٥٠ هـ . والامام مالك بن انس ابن مالك ابن ابي عامر سنة ٩٣ - ١٧٩ هـ . والامام ابو عبدالله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع سنة ١٥٠ - ٢٠٤ هـ . والامام ابوعبدالله احمد بن محمد بن حنبل سنة ١٦٤ - ٢٤١ هـ .

«٣» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٣٤ ، ٢٣٨ . ابن الفوطي ص ٤٢ - ٤٣ .

«٤» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ١٤٥ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٩٢ ، ١٧٤ ، ٢٥٠ وقاد -

فكانت الخلافة تمنع بعض الفقهاء من عقد المجالس عندما تحس بغلوهم في الوعظ، او تكثر شكوى الناس من تحرشهم بالمذاهب الاخرى .

فقد منعت ابا الفتوح وابن شقران من الوعظ ، ونفت ابن وضاح والقحيطي من بغداد «١» ، على ان الخلافة بالرغم من اعترافها بهذه المذاهب الاربعة وافساح المجال لفقهائها ، كانت تفضل بعضها على بعض في بعض الوظائف خصوصاً المالية منها ، فكانت تفضل مثلا ان يلي التركات شافعي لانه لا يورث ذوي الارحام .

فعندما تولى عبدالواحد بن شنيف التركات وكان حنبلياً ورث الزوجة والارحام فكتب الى المسترشد بذلك فقال : « نعم ما فعل اذ عمل بمذهبه ، وانما الذنب لمن استعمل حنبلياً وقد علم مذهبه » «٢» .

كما كانت الخلافة تفضل أن يتولى ديوان الجوالي شافعي لان من احكامه ألا يأخذ من اهل الذمة اقل من دينار اذا كان فقيراً «٣» .

وكانت تشترط على من يتولى القضاء ان يحكم بمذهب الشافعي ايضاً «٤» .

اما منصب قاضي القضاة فقد كان حكراً على الشافعية والحنفية ، والمرة الوحيدة

- هذا التعصب والغلو البعض منهم الى التفكير في شرعية وضع الجزية على اتباع المذاهب الاخرى ، كما دفعت البعض الى اتباع مختلف الوسائل لاغتيال خصومهم من فقهاء المذاهب الاخرى . لاحظ في ذلك ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٣٩ حاشية منقولة عن مرآة الزمان في الحديث عن محمد البغوي الاشعري . لاحظ ايضاً ابن الاثير ج ٩ ص ١١٤ .

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٦ ، ٢١٩ . ابن الفوطي ص ٢٤٣ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٩ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦٢ .

«٣» ابن الفوطي ص ٧ - ٨ ، ٦٤ .

«٤» نفس المرجع ص ٢٠٣ .

التي تولاه فيها حنبلي كانت في زمن الخليفة الظاهر بأمر الله عندما اختار ابا صالح نصر ابن ابي بكر بن عبدالرزاق بن عبد القادر الجيلي «١» .

***

ثانياً — موقف الخلافة من الشيعة

يختلف الشيعة عن اهل السنة في موقفهم من الخلافة العباسية ونظرتهم اليها .

فقد كان قيام الخلافة العباسية إيذاناً بانتهاء وحدة آل البيت السياسية ، حيث استأثر آل العباس بالخلافة . بينما وقف العلويون موقف المعارضة منها ، ودعوا الناس سراً الى البيعة لهم ، وقادوا كثيراً من الثورات العسكرية لاسترجاع حقهم المغتصب في المدينة والبصرة والكوفة وطبرستان «٢» ، وأصبحت الدعوة للعلويين شعاراً لكثير من الحركات السياسية التي قامت في وجه الخلافة العباسية ، كثورة الزنج او حركة الاسماعيلية والقرامطة .

وكانت الخلافة تضطر دفاعاً عن وجودها الى استخدام الشدة لقمع هذه الفتن والثورات وكانت كلما اشتدت في مطاردة العلويين كلما ازداد التفاف الناس حولهم وحول

«١» ابن الفوطي ص ٨٧ .

«٢» ثار محمد ذو النفس الزكية واخيه ابراهيم على المنصور سنة ١٤٥ هـ ، كما ثار الحسين بن علي بن الحسن على الخليفة الهادي سنة ١٦٩ هـ - واقعة فخ - وحاول يحيى بن عبدالله بن الحسن الثورة على الرشيد سنة ١٧٦ هـ في بلاد الديلم ، وقام ابو السرايا باستغلال الفوضى بعد مقتل الامين فثار على المأمون باسم العلويين واحتل الكوفة وواسط والبصرة والحجاز واليمن سنة ١٩٩ هـ ، وكان ابرز العلويين في هذه الثورة ابراهيم بن موسى بن جعفر الذي تغلب على الحجاز والذي اعلن طاعته للمأمون عندما بايع لعلي الرضا ، وكانت آخر هذه الثورات سنة ٢٥٠ هـ التي قادها الحسن بن زيد في طبرستان .

الدعاة بأسمهم ، حتى أصبح لهم في بغداد قوة كبيرة يحسب لها كل حساب «١» .

وكان ضعف الخلافة العباسية ووقوعها في قبضة المتغلبين فرصة اتاحت للشيعة في بغداد خاصة والعراق عامة ان يقوموا بنشاط سافر ، فعندما سيطر البويهيون على الخلافة وفروا للشيعة الكثير من اسباب الحماية والقوة .

وكان من الاسباب التي دفعت معزالدولة البويهي الى خلع المستكفي انه كان قد قبض على بعض رؤساء الشيعة «٢» .

ويشير الذهبي « الى ان المهلبي وزير معز الدولة كان قد اطلع على جماعة من التناسخية فيهم رجل يزعم ان روح علي انتقلت اليه ، وامرأة تقول : ان روح فاطمة حلت فيها ، فضربهم فتعزوا لآل البيت وانتموا اليه ، وكان ابن بويه شيعياً فأمر باطلاقهم » «٣» .

وقامت اول فتنة بين السنة والشيعة سنة ٣٤٩ هـ «٤» ، وكان اول احتفال بيوم عاشوراء سنة ٣٥٢ هـ عندما « ألزم معز الدولة اهل بغداد بالنوح والمأتم على الحسين وامر بغلق الاسواق وعلقت عليها المسوح وخرجت نساء الرافضة منشرات الشعر يلطمن . وهذا اول ما نيح عليه » «٥» .

وقد اصبحت هذه الفتن المذهبية وما يرافقها من سب الصحابة ولعنهم عادة عند

«١» واوشك الخليفة المعتضد ان يجاريهم ويأخذ بقولهم في لعن معاوية على المنابر سنة ٢٨٤ هـ لولا ان اشعره الوزير بخطر هذا التأييد على الخلافة نفسها . متز ص ١١١ نقلا عن المنتظم .

«٢» مسكويه ج ٦ ص ١٢٣ .

«٣» العبر في خبر من غبر ج ٢ ص ٢٥٦ .

«٤» نفس المرجع ص ٢٨٠ .

«٥» نفس المرجع ص ٢٩٤ .

الشيعة بحيث لا تكاد تمر سنة إلا وتقوم فيها عـــدة فتن في المناسبات التي اختيرت للاحتفالات الدينية ، ولم يقف اهل السنة مكتوفي اليد أمام هذا التحدي السافر .

يشير الذهبي الى رد الفعل عند اهل السنة عند احتفال الشيعة بيوم الغدير بقوله :

« فعمدت جاهلية السنة وأحدثوا في مقابله يوم الغار » (١) .

وينقل لنا متز نموذجاً آخر من رد الفعل وهو قيام السنة باختيار يوم يحتفلون به مقابل يوم عاشوراء « فجعلوا ذلك بعده بثمانية ايام ونسبوه الى مقتل مصعب بن الزبير وزاروا قبره في مسكن كما يزار قبر الحسين بكربلاء » (٢) .

ولم يدم اطلاق البويهيين العنان للشيعة طويلاً ، فقد عمدوا الى الحد من هـذه الاحتفالات ومنعها كما فعل عميد الجيوش سنة ٣٩٣ ﻫ (٣) .

ثم خفت صوت الشيعة عن ذي قبل في ظل نفوذ السلاجقة ، وظلوا كذلك حتى تحررت الخلافة على النحو الذي رأيناه (٤) .

ومما يلاحظ أن الفتن الطائفية في الفترة التي نؤرخ لها ضعفت كثيراً عن ذي قبل ،

---

(١) العبر في خبر من غبر ج ٣ ص ٤٢ . ويقصد به اليوم الذي دخل الرسول (ص) وابو بكر الغار ، وكان بعد يوم الغدير بثمانية ايام ، وكان اول احتفال لاهل السنة يوم الجمعة ٢٦/ ذي الحجة ٣٨٩ ﻫ .

(٢) متز ص ١١٥ نقلا عن المنتظم وكتاب الوزراء ص ٣٧١ .

(٣) ابن الجوزي ج ٧ ص ٢٢٢ .

(٤) ويرى الدكتور سرور ان نهوض هؤلاء الخلفاء لاستعادة سلطانهم القديم وسعيهم لاحياء مجد الخلافة ونجاحهم في تحقيق هذه الامنية ، ساعد الى حد كبير على تقوية الشعور الاسلامي ضد الطوائف الشيعية انظر في ذلك ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ١٣٤ - ١٣٥ .

وإن كانت آثارها قد بقيت مترسبة في المجتمع البغدادي الذي كان قد انقسم على نفسه انقساماً عميقاً .

وقد تجمع الشيعة في محلات خاصة بهم في بغداد ، وكانت محلة الكرخ اكبر هذه المحلات وأهمها . اما خارج بغداد فقد كانت الكوفة أقدم المراكز الشيعية وبجوارها مشهد الامام علي (رض) ، وكانت حلة بني مزيد من اهم مراكز الشيعة على حين كانت واسط تجمع بين الشيعة والسنة « وكانت الفتن فيها قائمة بينهم على جاري العادة »(١) كما يقول ابن الاثير .

ومن المحتمل ان الشيعة انتشروا في البصرة ايضاً في هذه الفترة خاصة « وان فيها كثيراً من الآثار التي تنسب الى الامام علي والتي كانت موضع اهتمامهم وتقديسهم»(٢).

ولا شك ان الشيعة كانوا منتشرين في مناطق اخرى من العراق ، إلا ان قلة عددهم فيها وتوتر العلاقات بينهم وبين اهل السنة كانت تفرض عليهم اتقاء خصومهم .

ولم يكن الشيعة بدورهم يحترفون مهنة خاصة ، إنما زاولوا اكثر الاعمال كالتجارة والصناعة والزراعة ، وحتى وظائف الدولة كان لهم فيها نصيب ، ولم يتغير موقفهم من الخلافة ونظرتهم اليها ، وظل يصدق فيهم قول الوزير الخاقاني للمقتدر : « بأن هؤلاء الرافضة كلهم اعداؤك ، ورأيهم مع الطالبيين لا معك ولا مع آبائك »(٣) .

ولكن تغير الظروف السياسية كانت تفرض عليهم الاخذ بمبدأ التقية والتظاهر بخلاف ما يعتقدون انتظاراً للفرصة الملائمة .

فالامير دبيس بن مزيد كان عوناً للسلاجقة على المسترشد ، وكثيراً ما استغل

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٥٥ .

(٢) ناصري خسرو ، سفرنامه ص ٨٧ .

(٣) الوزراء ص ٢٩٢ - ٢٩٣ طبعة ١٩٠٨ .

مشاكل الخلافة فقام بالثورة عليها « وينفصل عن طاعتها ويمنع اقامة الخطبة لها كما يمنع الناس من صلاة الجمعة ويكسر المنابر الموجودة في مشهد الامام علي وابنه الحسين» (١).

وكان بعض رجال الدين من غير العرب الذين يميلون الى التشيع يستغلون صلاتهم بالسلطان السلجوقي فلايوفون الخلافة حقها من الاحترام ، وكان بعضهم يدرس بالنظامية من غير إذن الخليفة كأبي النجيب ، وكان الغزنوي ابو الحسن يعرض بالخليفة المقتفي في خطبه عند حضور السلطان مسعود (٢) .

ويروي ابن الساعي « ان ابا السعادات الجبيلي التاجر كان غاليا في التشيع وكان يقف كل جمعة في داره خلف بابه وقد لبس زردية وخوذة وبيده سيف مشهور والناس في الجامع تنتظر خروج صاحب الزمان محمد بن الحسن ليخاصم معه » (٣) .

وكثيراً ما كانت سقطات اللسان وزلاته تكشف عن حقيقة موقف الشيعة من الخلافة . يروي ابن الفوطي ان النقيب قطب الدين ابا عبدالله الحسين المعروف بابن الاقساسي العلوي « بدرت منه كلمة على وجه التصحيف في ايام الخليفة الناصر وهي اردنا خليفة جديد ، فأمر الناصر بحبسه في الكوفة » (٤) .

اما العامة فكانت عندما تحس من الخلافة ضعفاً او تهاوناً تقوم بالدعوة لآرائها وفرض وجودها .

ويشير ابن الجوزي الى ذلك في حوادث سنة ٥٥٦ هـ اي بعد وفاة الخليفة المقتفي فيقول : « انتشر ذكر التسنن والترفض حتى خشيت الفتنة » (٥) .

---

(١) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٤٧ - ١٤٨ ، ١٦٦ - ١٦٧ .

(٣) الجامع المختصر ج ٩ ص ١٦٢ .

(٤) ابن الفوطي ص ٢٢٠ .

(٥) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٩٨ .

وفي سنة ٥٦١ هـ اي بعد وفاة الوزير ابن هبيرة « ظهر من الروافض امر عظيم من ذكر الصحابة وسبهم ، وكانوا في الكرخ اذا رأوا مكحول العين ضربوه » (١) .
كما انتشر الرفض سنة ٥٧١ هـ بعد ان تخلصت الخلافة من فتنة قايماز المستنجدي الامر الذي اضطر صاحب المخزن الى ان يطلب الى الخليفة حماية رجال الدين ليتصدوا للبدع ويقضوا عليها (٢) .

ولم يقاطع الشيعة وظائف الدولة بالرغم من رأيهم في الخلافة فتولوا الكثير من اعمالها ، فكان منهم الوزراء مثل ابن القصاب وابن مهدي وابن امسينا وابن القمي ، وكان ابن العلقمي آخر وزراء الخلافة من الشيعة ، وكان منهم استاذ الدار هبة الدين ابن الصاحب ، وبعض الولاة مثل زعيم خوزستان الامير طاشتكين الذي ولي امرة الحج ، والشريف معد الذي كان يتولى واسط ، وتاج الدين بن الصلايا الذي كان يتولى اربل عند سقوط الخلافة (٣) .

بالاضافة الى توليهم وظائف كبيرة اخرى مثل رئاسة الدواوين كالزمام والمخزن والانشاء والجيش وغير ذلك .

وينقل لنا ابن الاثير قصة صاحب المخزن الشيعي الذي خرج الى بعقوبة فاستبد بأهلها « ثم نقل اليه عن انسان انه كان يسبه فأحضره وسأله عن سبب ذلك فقال له : انتم تسبون ابا بكر وعمر لاجل أخذهما فدك وهي عشر نخلات لفاطمة (رض) ، وانتم تأخذون مني الف نخلة ولا أتكلم ؟ فعفا عنه » (٤) .

---

(١) نفس المرجع ص ٢١٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٩ .

(٣) ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٨٣ ، ٣٢٨ . ابن العبري ص ٤٣٥ . ابن خلدون جـ ٣ ص ٥٣٧ .

(٤) ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٥٤ .

أما الجيش فلم يكن نفوذهم به كبيراً بحكم طبيعة تكوينه واقتصاره على مماليك الخليفة في الاغلب وقد اشتهر من امرائه بالتشيع يزدن وأخيه تنامش والاميرطاشتكين.

وفضلاً عن توليهم وظائف الخلافة فقد تولوا ضمان البلاد واشتدوا على الناس في الجباية

يروي ابن عتبة العلوي عن النقيب جـــلال الدين ابي القاسم بن النقيب زكي الدين «١» « الذي تولى ضمان قوسان من الوزير ابن مهدي وكيف صادر أهلها وعسفهم » .

وكان هؤلاء الموظفين الشيعة كثيراً ما يستغلون مناصبهم ودالتهم على الخليفة في بعض الاحيان فيعملون على حماية الشيعة وتشجيعهم على اهل السنة ، وقد يصل الامر بهم الى التآمر على الخلافة نفسها ، مثال ذلك ما كان من تقاعس الامير يزدن التركي المتشيع عندما ارسله المستنجد لاجلاء بني اسد من الحلة ، فلما احس به الخليفة ارسل يعتب عليه تشيعه ويتهمه بالتواطؤ فجد في القتال «٢» .

وأشرنا الى تنامش واستغلاله قيادة الجيش الذي ارسله المستضيء لفض النزاع بين اهل الكرخ وباب البصرة ، ومهاجمته اهل باب البصرة فكاد يحرق منازلهم لولم يتدارك الخليفة امره ويمنعه «٣» .

ومن هؤلاء الموظفين ايضاً مجد الدين ابو الفضل بن الصاحب استاذ الدار الذي قال عنه ابن الاثير : « انه كان متحكماً في الدولة ليس للخليفة الناصر معه حكم ، وكان رافضياً سباباً احيا شعار الامامية وبسط الخليفة يده وقربه تقريباً زائداً فراج الرفض

«١» عمدة الطالب ص ١٤٥ - ١٤٧ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٨٣ .

«٣» نفس المرجع ص ١٢٩ .

في زمانه وشمخت المبتدعة وسفك الدماء وسب الصحابة وبطر بطراً شديداً» (١) ويتهمه السبط بأنه كان السبب في اعادة الاحتفالات بذكرى عاشوراء بصفة رسمية حتى اقيمت أمام دار الخلافة .

ويذكر محمد بن القادسي صاحب ذيل المنتظم « وفي عاشوراء ٥٨٢ هـ فرش الرماد في الاسواق وعلقت المسوح وناح اهل الكرخ والمختارة وبغداد وخرج النساء حاسرات يلطمن وينحن من باب البدرية الى حجرة الخليفة ، والخلع تفاض عليهن وعلى المنشدين من الرجال وتعدى الامر الى سب الصحابة ، وكان اهل الكرخ يصيحون مابقي كتمان وأقاموا امرأة يقال لها ابنة قرابة على دكة تحت منظره الخليفة في الرياحين وحولها الوف من الرجال والنساء وهي تنشد اشعار العومي وغيره وتسب عائشة (رض) وتذكر حديث الافك قال : وكل هذا منسوب الى استاذ الدار ابن الصاحب » (٢) .

ويظهر أن تسلط ابن الصاحب على الخلافة اشعر اهل السنة بالخطر فتعاونوا على التخلص منه « فأشاعوا بأنه قد عزم على تغيير الدولة واكثروا السعاية فيه الى الخليفة وعظموا عليه أمره وأشاروا بقتله وإلا صعب امره حتى أمر الخليفة بذلك » (٣) .

وقد لعب الوزير ابن القصاب دوراً في هذا المجال ايضاً إذ بعد عودته من ايران سنة ٥٩٠ هـ قبض على استاذ الدار عبيدالله بن يونس وقتله ثم قبض على جماعة من اصحابه منهم الفقيه ابي الفرج ابن الجوزي .

يقول السبط : « ان الوزير استطاع ان يلبس امره – اي امر ابن الجوزي –

---

(١) نفس المرجع ص ١٨٩ ، اليافعي جـ ٣ مرآة الجنان ص ٤٢٦ ، انسان العيون الورقة ٨٠ – ٨١ .

(٢) السبط جـ ٨ ص ٣٨٦ .

(٣) ابن الاثير جـ ٩ ص ١٨٩ ، انسان العيون – الورقة ٨٠ – ٨١ .

على الخليفة وساعده في ذلك جماعة من اهل مذهبه ، فأمر بتسليمه الى الركن عبدالسلام ابن عبدالوهاب ابن الشيخ عبدالقادر الجيلي الذي كان يعادي ابن الجوزي والذي سعى لرميه في مطمورة واسط لو لم يمنعه من ذلك ناظرها العميد ابن امسينا بالرغم من تشيعه وكانت تهمة ابن الجوزي عند الوزير انه ناصبي من اولاد ابي بكر » «١» .

واذا كانت الخلافة قد سكتت على ولاء الشيعة المشكوك فيه ، إلا انها كانت تحذرهم وتراقب اعمالهم ، ولم تكن لخلفاء هذه الفترة سياسة موحدة مرسومة ازاء الشيعة ومشاكلهم ، انما كانت تترك امرهم للوزراء يكيفون سياستهم وفقاً لعواطفهم المذهبية.

فالوزير ابن هبيرة مثلا كان متشدداً في اتباع السنة وسير السلف ، وعندما تولى ظهير الدين ابو بكر ابن العطار مخزن الخليفة وصارت اليه امور الحكم كان كما يقول السبط «٢» : « مسيئاً الى الخلق الخاص والعام والعسكر والرعية وخصوصاً الى الشيعة اهل المختارة والكرخ ومشهد موسى بن جعفر وقطع ارزاقهم وبدد شملهم » .

وبعد هذه المحنة التي عاناها الشيعة تبدلت احوالهم مباشرة عندما تولى الناصر الخلافة وتحكم استاذ داره ابن الصاحب في سياسة الدولة فقد اطلق العنان لهم واعاد احتفالاتهم الدينية حتى اصبحت تقام أمام حجرة الخليفة مباشرة .

وكان هذا التناقض في السياسة مدعاة لثورة السنة والشيعة على الخلافة في وقت واحد وتفاقم الخلافات بينهم . وقد حاول الخليفة الناصر أن يتقرب من الشيعة وان

«١» السبط جـ ٨ ص ٤٣٨ – ٤٣٩ . ومن المحتمل ان الوزير بعمله هذا كان يرمي الى الثأر لمجد الدين ابن الصاحب الذي كان عبيدالله بن يونس احد الساعين عليه عند الخليفة ، كما انه باعتقاله ابن الجوزي يكون قد تخلص من اقوى المدافعين عن اهل السنة .

«٢» السبط جـ ٨ ص ٣٥٩ .

يعمل على كسب تأييدهم حتى اتهم بأنه إمامي الرأي «١» ، فقد جعل من مشهد موسى ابن جعفر مقاماً آمناً ، وسمى الطيور سنة ٥٩٠ هـ بأسماء الائمة الاثني عشر «٢» .

واستوزر من الشيعة اربعة وزراء «٣» وأفسح المجال لهم فأعادوا احتفالاتهم الدينية ، ولكن هؤلاء الموظفين لم يقدروا هذا التسامح فاغتنموا الفرصة للبطش والانتقام من اهل السنة وسفك الدماء مما فوت على الخليفة أهدافه .

وكانت الخلافة تميز في نظرتها ومعاملتها بين الامامية والاسماعيلية ، فكانت تعامل الامامية معاملة قوامها الاحترام والتقدير ، وكانت تمنع التحدث عن العلويين بما لا يليق .

وقد نقل الخطيب البغدادي موقف «٤» « الخليفة الطائع من محمد بن سمعون عندما علم بأنه ينتقص من الامام علي في أحاديثه وكيف استدعاه ليعاقبه لو لم يتدارك ابن سمعون الامر ويتلافاه » .

اما الخليفة المستضيء فانه عندما علم بأن محمد الطوسي تحدث في جامع المنصور مشيداً بابن ملجم من قتله علياً «٥» « أمر بأن لا يجلس ثانية ولا يخرج من رباطه » .

«١» ابن الطقطقي ص ٣٧٠ ، ابو الفداء ج٣ ص ١٤٢ ، انسان العيون الورقة ٢ ـ ٤ .

«٢» ابن الساعي ص ١١١ ، السيوطي ص ١٨١ ، السبط ج ٨ ص ٤٣٧ ، العيني مجلد احداث سنة ٥٧٨ ـ ٥٩٢ هـ الورقة ١٩٤ .

«٣» حكموا معظم فترة خلافته وهم مؤيد الدين ابن القصاب الذي تولى النيابة والوزارة اكثر من ثلاث سنوات ثم ناصر بن مهدي وقد تولاها مدة اثنتي عشرة سنة ، ثم فخر الدين بن امسينا مدة سنتين ، وآخرهم مؤيد الدين بن القمي الذي تولى الوزارة من سنة ٦٠٦ هـ حتى وفاة الخليفة سنة ٦٢٢ هـ .

«٤» تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

«٥» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٤٢ .

وكانت الخلافة لا تسمح بالاساءة اليهم او الاعتداء على مشاهد الائمة . ففي سنة ٥١٧ هـ بعد عودة الخليفة المسترشد من قتال دبيس ومطاردته ثارت العامة ببغداد « تأييداً للخليفة وهاجموا مشهد موسى بن جعفر في مقابر قريش ونهبوا ما فيه وقلعوا شبابيكه وأبوابه ، فشكا العلويون ذلك الى الخليفة فأنكره وأرسل نظر الخادم الى المشهد للقبض على الجناة وتأديبهم وإعادة ما اخذ منه » (١) .

وقد أمر الخليفة المستنصر بالله بعمارة ضريحي الامامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء بعد أن اصابها الحريق سنة ٦٤٠ هـ ، كما امر الخليفة المستعصم بعمارة سور مشهد الامام موسى بن جعفر سنة ٦٤٧ هـ (٢) .

وكان الخلفاء يزورون هذه المشاهد في المناسبات وينعمون على المجاورين فيها بالاموال . فالخليفة المقتفي قام بزيارة قبر الحسين سنة ٥٥٣ هـ بعد ان تخلص من خطر السلاجقة ، كما زار قبر الامام علي (٣) .

وكان المستنصر يكثر من زيارة مشهد علي والحسين ويحسن الى العلويين (٤) . أما الخليفة المستعصم فانه بعد ان تولى الخلافة مباشرة قام بزيارة مشهد موسى بن جعفر ثم خرج بعد ذلك في موكب الحاج فزار مسجد الكوفة وقصد مشهد الامام علي (٥).

وكانت رعاية الخلافة للعلويين لا تقف عند هذا الحد ، فقد أقامت لهم كما اقامت لابناء الاسرة العباسية نقيباً منهم يختاره الخليفة من بين العلويين ويقلده الوزير نقابة

---

(١) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٣ ، الباهر ص ٢٧ .

(٢) ابن الفوطي ص ١٥٢ ، ٢٤٤ .

(٣) ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٨١ ، ابن واصل ج ١ ص ١٣٣ .

(٤) السبط ج ٨ ص ٧٣٩ .

(٥) ابن الفوطي ص ١٨٥ ، ١٨٨ .

الطالبيين في حفل رسمي ، ويكتب له عهداً يبين حقوقه وواجباته .

نقل ابن الساعي عهد تقليد فخر الدين ابي الحسن محمد بن المختار الكوفي نقابة الطالبيين ببغداد في ربيع الاول سنة ٦٠٣ هـ ، وردت فيه الصفات التي تتوفر في النقيب وهي (١) « التمسك بالدين والورع وحسن الطريقة والعلاقة مع الناس ، وكانت صلاحياته عامة على الاسرة العلوية بمدينة السلام وسائر بلاد الاسلام شرقاً وغرباً ، وواجباته النظر في احوال العلويين وشؤونهم ومنازلهم ، واخلاقهم فيقيل عثراتهم ويقوم معوجهم ، وملاحظة شؤون اليتامى والايامى وصونهم من الحاجة والذل وتنمية اموالهم ووقوفهم وتنظيم عقود الزواج بينهم بما يصون نسبهم من الدنس » . وكان الاماميون بمنأى عما يدعو اليه الغلاة من الشيعة .

قال ابن الجوزي « بأن نقيب العلويين احمد بن علي الحسيني كان يتبرأ من الرافضة » (٢) .

وكانت الخلافة تعاقب افراد الشيعة عندما تحس ان لهم نشاطاً معادياً ، او اذا تصدوا للناس بأقوال تثير الشك في اسلامهم .

ذكر ابن الجوزي ان الخليفة المقتفي قام بعد وفاة السلطان مسعود « بمعاقبة اعوان الاعاجم من رجال الدين الذين كانوا يتمسخرون بالخلافة ، فقبض على البديع الواعظ صاحب ابن النجيب وحمل الى الديوان واخذ من عنده الواح من طين فيها قبل وعليها مكتوب اسماء الأئمة الاثنا عشر فاتهموه بالرفض وشهر بباب النوبي وكشف رأسه وأدب وألزم بيته » (٣) .

---

(١) الجامع المختصر ج ٩ ص ١٩٣ - ١٩٩ ، ٢٨٥ .

(٢) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٤٧ .

(٣) نفس المرجع ص ١٤٧ - ١٤٨ ، كما انها في صفر سنة ٥٥٩ هـ شهرت جماعة-

وكانت الفتن المذهبية أهم ما يشغل بال الخـــلافة ويقلق راحتها لما يصحبها من اضطرابات وفوضى تعم ارجاء بغداد ، فيتساقط الضحايا وتتخلف آثار تزيد من عمق الهوة بين الشيعة والسنة . وكانت الخلافة تلجأ الى مختلف السبل للقضاء على تيار الفتنة فتستعين مثلاً بنقباء العلويين والعباسيين لفض المنازعات ، لما لهم من تأثير على اتباعهم .

ففي سنة ٤٩٧ ﻫ « استعانت بالنقيبين ابي القاسم الذي تولى أمر باب البصرة وجميع محال اهل السنة ، والرضا الذي تولى الكرخ ورواضعه فانكف الشر » (١) . وفي سنة ٥٨١ ﻫ « استعانت بالنقيب الظاهر الذي اصلح بين اهل الكرخ واهل باب البصرة »(٢).

وكانت الخلافة ترسل في بعض الاحيان بعض كبار موظفيها لاصلاح ذات البين بين المتنازعين ، كما قد تضطر الى تولية بعض الاشخاص الذين عرفوا بالشدة امر الاحياء المتنازعة لكي يرهبوا السكان ، وكان سليمان شاويش من هؤلاء الذين فوضت اليهم الخلافة انهاء النزاع الذي قام بين محلتي الكرخ وباب البصرة سنة ٥٧٠ ﻫ (٣) .

على ان الخلافة كانت تضطر عندما لا تجدي الطرق السلمية في فض المنازعات الى

— من الحصريين كتبوا اسماء الائمة على الحصر . وفي رمضان سنة ٥٧٤ ﻫ قبض على ابن قرابا الذي كان ينشد على الدكاكين ، وكبس داره فوجد فيه كتب فيها سب الصحابة فأخذ وقطع لسانه وقبض على طحان من اهل الكرخ امتنع عن بيع الدقيق لاحـد الاشخاص فلما تلاججا بالقول ، قال الطحان : وحق علي الذي هو خير من الله ما اعطيك فشهد عليه جماعة فحبس وضرب مائة سوط وسود وجهه وشهر في الغد .

لاحظ في ذلك ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٠٨ ، ٢٨٥ – ٢٨٦ ، ٢٦٧ ، اليافعي جـ ٣ ص ٣٩٨ – ٣٩٩ .

(١) ابن الجوزي جـ ٩ ص ١٣٧ .

(٢) ابن الاثير جـ ٩ ص ١٧٢ .

(٣) ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٤٩ .

استخدام القوة العسكرية للفصل بين المتنازعين ، وقد تعسكر هذه القوة اياما عديدة في مناطق الفتنة لارهاب الناس حتى يسكنوا الى الهدوء (١) .

ومن الوسائل التي لجأت اليها الخلافة في أواخر ايامها لمنع وقوع امثال هذه الفتن انها حددت اماكن الاحتفالات الدينية وحصرتها فقط في مشهد الامام موسى بن جعفر حتى تقلل من فرص الاحتكاك بين الناس .

قال ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٤١ هـ (٢) : « وفيها تقـــدم الخليفة الى جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزي المحتسب بمنع الناس من قراءة المقتل في يوم عاشوراء والانشاء في سائر المحال بجانبي بغداد سوى مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام » .

ومن الغريب اننا لا نكاد نجد اخباراً تشير الى اتصال الشيعة باخوانهم في البلاد الاخرى ، كما حدث في فتنة ابي الحارث البساسيري (٣) ، فقد زالت الدولة الفاطمية،

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٦٨ ، ٣١٨ - ٣١٩ ، ابن الفوطي ص ٣١ ، ٢٧٦ .

(٢) ابن الفوطي ص ١٨٣ . وقد كررت الخلافة هذا المنع سنة ٦٤٨ هـ بعد أن تقاعس اهل الكرخ والمختارة عن تنفيذه ص ٢٤٨ .

(٣) ابو الحارث البساسيري كبير امراء الاتراك ، استفحل امره في اواخر ايام الملك الرحيم البويهي ، واستغل انشقاق السلاجقة على بعضهم وملاحقة السلطان طغرل لاخيه ابراهيم ينال ، فزحف لاحتلال بغداد سنة ٤٥٠ هـ وخطب للمستنصر الفاطمي .

وأعتقد ان حركته سياسية اكثر ما هي مذهبية ، إذ ان حاجته الى قوة سياسية تسانده في خصومته مع وزير الخليفة رئيس الرؤساء الذي « افسد العلاقة بينه وبين الخليفة الى حد لا يرجى صلاحه عندما نسبه الى مكاتبة المستنصر العلوي » فضلا عن حاجته الى هذه القوة في صراعه مع السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة . كل ذلك جعله يتعاون مع رسل الفاطميين الذين أمدوه بالاموال والاسلحة التي احتل بها بغداد في ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ وكان التأييد الذي لقيه في بغداد من السنة والشيعة في وقت واحد ، « فالشيعة آزروه للمذهب الذي بينهم . اما السنة فقد أيدوه نكاية لما فعل -

ولم تكن الاسماعيلية النزارية في ألموت قادرة على القيام بنشاط فعال في هـذا الصدد خاصة بعـد وفاة الحسن بن الصباح عام ٥١٨ هـ كما ان آراءها لم تكن موضع تأييد الشيعة عامة بدليل ان الحركة الوحيدة التي كشفت عن وجود الاسماعيلية النزارية في العراق ظهرت في واسط سنة ٦٠٠ هـ عندما انكشف أمر اجتماع للباطنية في دار ابن عصية ، فهوجمت الدار وقتل من فيه جميعاً ، وليس هناك ما يشير الى تأييد الشيعة في واسط لهؤلاء ، بل لعلهم ساهموا مع العامة في القضاء عليهم «١» .

اما عن علاقة الشيعة بالمغول في الايام الاخيرة من الخلافة فأعتقد انه يجب أن نأخذ بحذر شديد تلك الاخبار التي اشارت الى مثل هذا الاتصال واتهمت به الوزير ابن العلقمي خاصة .

فاليونيني وابن الساعي يشيران الى ان ابن العلقمي «٢» « كاتب التتار وأطمعهم في البلاد فيقال ان هولاكو لما وصلت اليه مكاتبة الوزير تنكر ودخل بغداد في زي تاجر واجتمع بالوزير وأكابر الدولة وقرر القواعد معهم ورجع الى بلاده » ويؤكد ابن خلدون هذا القول عندما يشير الى وصول كتاب ابن الصلايا صاحب إربل الى هولاكو وهو يحاصر قلعة ألموت «٣» « وفيه وصية من ابن العلقمي الوزير اليه يستحثه لقصد بغداد ويهون عليه أمرها ، فرجع عن بلاد الاسماعيلية وسار الى بغداد » ويبرر هؤلاء خيانة الوزير بأنه كان رافضياً اراد أن يشفي غليله من اهل السنة ، وانه عمل

ـ الاتراك بهم » ابن الاثير جـ ٨ ص ٧٠ ، ٨٣ ، سرور ـ النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ص ٩٨ ـ ٩٩ ، ١١٦ ـ ١١٧ .

«١» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٦٦ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ١١٨ ـ ١١٩ .

«٢» مختصر اخبار الخلفاء ص ١٢٦ ، اليونيني ص ٨٧ ، العيني مجلد احداث سنة ٦٣٥ ـ ٦٥٦ ، الورقة ٣٦٦ .

«٣» ابن خلدون جـ ٣ ص ٥٣٧ .

على احياء الخلافة العلوية ، وألح على هولاكو أن يقتل الخليفة «١» .

وأعتقد أن الغلو في الصراع المذهبي والشخصي بين المسؤولين عن امور الدولة في هذه الفترة ادى الى كيل هذه الاتهامات ، ودفع كل حزب الى تشويه سمعة خصمه واتهامه بمختلف التهم .

ودفع سقوط الخلافة وما اصاب المسلمين من فظائع على يد المغول ، الناجين من المجزرة الهاربين الى البلاد الاخرى الى ان يحملوا العلقمي الذي بقي على قيد الحياة وزر استدعاء المغول والتعاون معهم ، وأظن ان المغول لم يكونوا بحاجة الى ان يستدعيهم العلقمي ، فقد تعرضوا لدار الخلافة قبل ذلك بزمن بعيد .

اشار ابن الاثير في حديثه سنة ٦٢٨ هـ الى كتاب التاجر المسلم من اهل الري الذي قال فيه : « ولا تظنوا ان هـذه الطائفة التي وصلت نصيبين والخابور والطائفة الاخرى التي وصلت اربل ودقوقا كان قصدهم النهب ، انما ارادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا ؟ فلما عادوا اخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وان البلاد خالية من ملك وعساكر فقوي طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام إلا ان كان في بلد الغرب ، فان عزمهم على قصد البلاد جميعاً فانظروا لانفسكم» «٢» .

والمغول عندما دخلوا بغداد لم تكن سيوفهم تميز بين الشيعة والسنة . إما بقاء ابن العلقمي حياً فليس دليلا على تواطئه معهم ، فقد أبقوا معظم الموظفين الاداريين ايضاً وكانوا من السنة «٣» . ومن المحتمل ان حاجة المغول لمعرفة النظم المالية والادارية

«١» اليونيني ص ٩٠ ، ابن كثير ج ١٣ ص ٢٠١ ، الخميس ج ٢ ص ٤٢٠-٤٢١ ، العيني - مجلد احداث سنة ٦٣٥ - ٦٥٦ الورقة ٣٩٢ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٨٦ .

«٣» منهم صاحب الديوان ابن الدامغاني ، وحاجب الباب ابن الدوامي ، وابن الدرنوس ، والبندنيجي قاضي القضاة ، وفخر الدين بن المخرمي وغيرهم كثيرون .

للبلاد جعلتهم يحتفظون بهؤلاء جميعاً في وظائفهم للاستفادة منهم ، بينما قتل المغول ابن الصلايا العلوي صاحب إربل بالرغم من كونه شيعياً «١» .

اما اهل الكرخ الذين وجدوا مع الجيش المغولي عند حصار بغداد فلعلهم من السكان الهاربين من الفتن والاعتداءات والمجاعات التي استشرت في بغـــداد والذين وجدوا بغيتهم عند المغول شأنهم شأن بعض أفراد الجيش الذين لاذوا بالمغول بسبب المجاعة «٢» .

ولا ننسى ان الخلافة لم تدافع عن الجانب الغربي من بغداد بعد انسحاب الدويدار الصغير أمام المغول في معركة دجيل «٣» ، والجانب الغربي به محلات للسنة والشيعة الذين استسلم معظمهم للمغول ودخلوا في طاعتهم ، وكان من عادة المغول ان يحشدوا سكان المدن المفتوحة «٤» في وسط جيشهم ليرهبوا أعداءهم .



«١» ابن الفوطي ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

«٢» رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨٣ ، اليونيني ص ٨٧ - ٨٨ .

«٣» اليونيني ص ٨٨ ، ابن الفوطي ص ٣٢٥ .

«٤» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٣٣ .

ثالثاً — موقف الخلافة من أهل الذمة

كان اهل الذمة يسكنون السواد والحيرة وغيرها من البلاد «١» ، ثم وفدوا الى الامصار الاسلامية عند بنائها كالبصرة والكوفة ثم بغداد واستقروا في محلات خاصة بهم .

وأشار ابو يوسف الى اغلب المهن التي امتهنها هؤلاء في حديثه عن تقسيم طبقات اهل الذمـــة ، فذكر أن منهم الصيرفي والبزاز والتاجر والملاك والطبيب والخياط والاسكافي والخراز والصباغ «٢» ، وقد بقي اهل الذمة يمارسون هذه الاعمال ذلك ان الفقيه ابن فضلان صاحب ديوان الجوالي كتب الى الخليفة الناصر كتاباً عن اهل الذمة اشار فيه الى معظم هذه الحرف فذكر «الاطباء وارباب المعايش من العطارين والمخلطين والكسارين واصحاب الحرف والصناعة من الصاغة وغيرهم والجهابذة والصيارفة فضلا عن خدمتهم في الديوان » «٣» .

وكان اهل الذمة يحرصون على الاعمال التي تدر عليهم موارد طائلة «٤» ، فيذكر

«١» ويقصد بأهل الذمة ، اهل الكتاب من اليهود والنصارى ، واعتبر الصابئة منهم ايضاً ، لاحظ ابو يوسف ص ٦٩ ، ابن الفوطي ص ٦٥ ، ٦٩ . وقد اعتبر المجوس اهل ذمة في القرن الرابع الهجري ، لاحظ في ذلك متز ص ٥٨ ، حتى ج ٢ ص ٤٣٩ ، حسن ابراهيم ج ٣ ص ٤٢٥ .

«٢» ابو يوسف ص ٧٠ .

«٣» ابن الفوطي ص ٦٦ – ٦٨، ٢٤٨ ، ٢٥٥ . ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٧٥.

«٤» ويرى حتى ج ٢ ص ٤٣٣ ، ان سلوك اهل الذمة وحرصهم ، جعلهم موضع حسد المسلمين ، وان القوانين التي شرعتها الخلافة لايقافهم ومنعهم من مزاولة بعض الاعمال كانت نتيجة لهذا الحسد .

المقدسي مثلا « ان اكثر الصيارفة وارباب البنوك من اليهود واكثر الكتبة والاطباء من النصارى » «١» .

وقد كان ابو طاهر بن شبر رئيس اليهود جهبذاً للخليفة الناصر ، وكان ابنه ابوغالب عاملاً في دار الضرب ، والصيرفي الذي قتله علي ابن ابي الفتح سنة ٦٤٩ هـ طمعاً بماله كان يهودياً «٢» .

وكان اكثر الاطباء من النصارى الذين برزوا في خدمة الخلافة ، منهم ابو الحسن هبة الله بن صاعد المعروف بأمين الدولة ابن التلميذ الذي كان طبيب الخليفة المقتفي وكان شيخ النصارى وقسيسهم «٣» ، وابو غالب بن صفية طبيب المستنجد الذي كانت له يد في التآمر عليه وقتله ، ومنهم اسعد بن المطران الملقب بالموفق الذي اسلم فيما بعد «٤» ، وصاعد بن يحيي هبةالله بن توما النصراني الذي كان رسول الخليفة الناصر في ايامه الاخيرة الى وزيره القمي «٥» ، والحكيم شمس الدولة ابو الخير سهل بن توما النصراني الذي كان يعتمد عليه المستنصر في مراسلاته «٦» ، واشتهر من بين كتبة الخلافة عدد من النصارى منهم امين الدولة ابو سعد العلاء بن الحسن بن الموصلايا الذي كتب لثلاثة خلفاء هم القائم والمقتدي والمستظهر ، وتولى ابن اخته تاج الرؤساء ابو نصر الديوان بعده .

ومن مشاهير أهل الذمة تاج الرؤساء ابن الاصباغي الذي صنف في علم الكتابة «٧»

«١» المقدسي — احسن التقاسيم ص ١٨٣ .

«٢» الجامع المختصر ج ٩ ص ١٦٢ ، ١٦٤ . ابن الفوطي ص ٢٥٥ .

«٣» ابو الفداء ج ٣ ص ٤٥ .

«٤» ابن دحية ص ١٥٨ ، ابن ابي اصيبعة ج١ ص ٢٥٨ ، السبط ج ٨ ص ٤١١ .

«٥» ابن القفطي — اخبار الحكماء ص ٢١٢ — ٢١٣ .

«٦» ابن الفوطي ص ١٩٨ .

«٧» العماد الاصبهاني — خريدة القصر ص١٢٣ — ١٢٤ ، ١٣٢ — ١٣٣ ، ١٣٥ . ياقوت — معجم الادباء ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٠٥ .

وكان ابن زطينا ابو غالب كاتب سلة الديوان العزيز زمن الناصر ، وابو الفضل جبريل ابن زطينا تولى كتابة الديوان للناصر والظاهر حتى توفي في عهد المستنصر ، وقد تولى ابن عيدان النصراني كتابة اربل عندما آلت الى الخلافة «١» ، وأشهر معظم هؤلاء اسلامهم عندما قررت الخلافة منع اهل الذمة من العمل في الديوان .

اما ضمان الخراج في البلاد فقد تولاه اليهود كما تولاه النصارى ، وقد اشتهر من اليهود ابو اسحاق ابراهيم بن علان اليهودي ضامن البصرة ثم ضمن املاك الخلافة من واسط الى صرصر . اما ابن ساوى النصراني فقد تولى ضمان الدجيل ودقوقا للوزير ابن مهدي «٢» .

وكان اهل الذمة منتشرين في مختلف انحاء العراق ، وكانت كل طائفة منهم تسكن في حي خاص بها في المدينة منعزلة عن بقية السكان ، وقد يكون السبب في انعزالهم على هذا النحو شعورهم بأنهم دون المسلمين في المكانة فضلاً عن رغبتهم في التكتل التماساً للحماية اذا وقعت الفتن والاضطرابات «٣» .

وليست لدينا معلومات مفصلة عن تعداد اهل الذمة واحوالهم في هذه الفترة . فالمؤرخون المسلمون قليلا ما اشاروا اليهم ، ولكن بعض الرحالة اليهود زاروا بغداد في هذه الفترة واشاروا الى شيء من احوالهم . فالرحالة بنيامين التطيلي اليهودي زار

«١» السبط جـ ٨ ص ٣٧٨ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ١٦١-١٦٢ ، ابن الفوطي ص ١١ - ١٢ ، ٤٨ .

«٢» ابن الجوزي جـ ٨ ص ٢٢٢،٢٢٣ ، السبط جـ ٨ ص ٥٣٥ ، الذيل ص ٦١ .

«٣» لقد بقي اهل الذمة حتى اول هـــذا القرن منعزلين عن الناس في المجتمع الاسلامي ، اذ كان لكل من اليهود والنصارى في كل مدينة استوطنوها حي خاص بهم يعرف باسمهم .

بغداد حول سنة ٥٦٠ هـ/١١٦٥م واهتم بمعرفة احوال طائفته خاصة «١»، كما وفد رحالة يهودي آخر هو بتاحيا بعد بنيامين بعشرين سنة اي حول سنة ٥٨٠ هـ/ ١١٨٥م(٢).
وأشار هذان اليهوديان الى انتشار اليهود على جانبي دجلة والفرات ، وذكرا ان في كل من عكبرا وواسط والحلة عشرة آلاف يهودي ، وفي الكوفة سبعة آلاف ، وفي البصرة الفين ، ثم ابديا عجبهما من انه ليس في بغداد سوى الف يهودي فقط .

ولكنهما يختلفان في تقدير عدد اليهود في العراق ، فبينما يرى بتاحيا انهم ستمائة الف لا يرى بنيامين انهم اكثر من نصف هذا العدد «٣» .

وأرى أن تؤخذ هذه الارقام بحذر ، إذ ليس من المعقول ان يتضاعف عدد اليهود خلال عشرين سنة فضلا عن عدم وجود مصادر رسمية لهذا التعداد ، على أن اليهود كانوا موجودين في مدن اخرى لم يرد ذكرها في هذه القوائم ، فقد كانت المدائن مثلا من المدن التي سكنها اليهود في هذه الفترة ، وكانوا فيها من الكثرة حتى استظهروا على المسلمين فيها «٤» ، وكان جماعة من اليهود يسكنون طريق خراسان «٥» .

اما النصارى فان تعدادهم في بغداد في اول القرن الرابع الهجري كان بين اربعين الف الى خمسين الف كما يرى متز الذي يستند في احصائه الى بعض قوائم جباية الجزية «٦»

ومن المحتمل انهم لم يزيدوا كثيراً عن هذا العدد حتى القرن السادس الهجري ، وكان النصارى منتشرين في مختلف أرجاء البلاد ، وكان اكثرهم من النساطرة الذين

---

(1) Lestrange, Baghdad During The Abbasid - P. 332.

«٢» متز ص ٦١ .

«٣» نفس المرجع ص ١٦ - ٦٢ ، نقلا عن رحلتي بنيامين وبتاحيا .

«٤» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٧٥ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ١٤٥ .

«٥» ابن الجوزي جـ ٩ ص ٣٨ .

«٦» متز ص ٦٤ .

يرأسهم الجاثليق الذي اتخذ مقامه في دار الخلافة واستطاع بنفوذه ان يمنع رئيس اليعاقبة من اتخاذ بغداد مركزاً لطائفته بدلاً من انطاكيا «١» ، وكانت البصرة من المدن التي كثر فيها النصارى وكانت لهم فيها ابرشية تابعة للجاثليق «٢» ، بينما كانت ابرشية تكريت تابعة لليعاقبة «٣» .

اما الصابئة فكانوا يسكنون منطقة المستنقعات في جنوب العراق ، ويسميهم ابن النديم بالمغتسلة «٤» .

ويشير حتي الى الخلط الذي وقع فيه المؤرخون العرب من عدم تميزهم بين هؤلاء الصابئة المغتسلة او المنديين الذين هم طائفة يهودية نصرانية ترجع اصولها الى القرن الاول الميلادي وبين صابئة حران الوثنيين الذين يقولون بالثنوية الالهية ، والذين اتخذوا الصابئة اسماً لهم بعد مجيء الاسلام ليضمنوا لانفسهم الامان الذي منحه الاسلام لاهل الكتاب فلصق بهم الاسم وأصبحوا يعرفون به «٥» .

وقد أحست الخلافة بحقيقة مذهبهم فاستفتى الخليفة القاهر فيهم ابا سعيد الاصطخري فأفتاه بقتلهم ، ولكنهم استطاعوا بالاموال التي قدموها للخليفة ان يحصلوا على العفو والامان .

وكان الصابئة من القلة بحيث ان المجتمع لم يكن يحس بهم حتى انقرضوا حول عام ٤٠٠ هـ .

«١» متز ص ٦٠ ، حتي ج ٢ ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

«٢» حتي ج ٢ ص ٤٣٦ .

«٣» حتي ج ٢ ص ٤٣٦ نقلا عن ياقوت ، متز ص ٦٤ نقلا عن ابن حوقل ص ١٥٦ .

«٤» حتي ج٢ ص ٤٣٨ ، نقلا عن الفهرست ص٣٤٠، والمسعودي ج٢ ص١١٢.

«٥» حتي ج ٢ ص ٤٣٨ .

وقال ابن حزم : انهم في جميع البلاد لا يبلغون اربعين نفساً «١» .

امافي هذه الفترة فاننا لانجد بين المؤرخين المعاصرين من يشير اليهم سوى الفقيه ابن فضلان الذي ذكر « انهم قوم من عبدة الكواكب يسكنون البلاد الواسطية لا ذمة لهم » ثم يشير الى فتوى ابي سعيد الاصطخري ويقول ايضاً : « انهم اليوم لا جزية عليهم ولا يؤخذ منهم شيء وهم في حكم المسلمين » «٢» .

وكان موقف الخلافة من اهل الذمة موقفاً كريماً ، فقد سعت للحفاظ على تطبيق احكام الشريعة ومراعاة العهود التي اعطاها المسلمون الاولون لهم وتحقيق ما جاء فيها ، وكانت عهود الخلفاء لرؤساء طوائفهم تؤكد احترامهم لاهل الذمة وتأمينهم لحريتهم الدينية ، حتى ان الخلافة عاقبت الذين تعرضوا لموكب (رأس الجالوت) عند خروجه من الديوان بعدتسلمه عهد رئاسة الطائفة اليهودية ، حيث تعرضله بعض العامة ورجموه فأنكرت الخلافة ذلك وقبضت على الفاعلين وحبستهم » «٣» .

وقد بلغ من تمتع اهل الذمة بحريتهم انهمجاوزوا الحدود المرسومة لهم في العهود وطغوا حتى على حريات المسلمين . فمن المعروف ان يوم الجمعة عطلة للمسلمين وان السبت لليهود والاحد للنصارى ، ولكن اليهود استطاعوا التأثير علىالمسلمين في سوق البزازين حتى اصبحوا يشاركونهم في عطلة السبت والعمل يوم الجمعة الامر الذي دفع الخلافة « للقيام بتأديب كل من فتح دكانه يوم الجمعة ويغلقه يوم السبت واعتبرت ذلك مشاركة لليهود في حفظ سبتهم » «٤» .

«١» متز ص ٦٥ نقلا عن كتاب الفصل لابن حزم جا ص ١١٥ ط مصر١٣١٧.

«٢» ابن الفوطي ص ٦٩ – ٧٠ .

«٣» نفس المرجع ص ٢١٨ .

«٤» ابن الجوزي ج٩ ص ٩١ .

وكان اليهود يرفعون أصواتهم عند قراءة التوراة في منازلهم الامر الذي كان يثير المسلمين ، وكانت الخلافة تأمرهم بغض الصوت عند القراءة «١» ، وتطاول بعضهم على حريات المسلمين في العبادة ، فاعترض يهود المدائن على المسلمين لانهم يؤذنون للصلاة بصوت عال وأعلنوا استنكارهم الامر الذي أدى الى وقوع بعض الاضطرابات «٢» ، كما استغلوا تسامح الخلافة وحسن معاملتها فتحللوا من كثير من المظاهر التي فرضت عليهم لتميزهم عن المسلمين حتى اختلط أمرهم على عامة الناس وصعب التفريق بينهم وبين المسلمين الامر الذي دفع الخلافة عدة مرات الى التشدد في معاملتهم « وإلزامهم بلبس الغيار » «٣» .

وكان الخليفة الرشيد أول من فرض ان يتميزوا في لباسهم وركوبهم سنة ١٩١ هـ «٤» وترسم المتوكل خطاه بعد ذلك فأمر سنة ٢٣٥ هـ اهل الذمة من اليهود والنصارى « بلبس العلي والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وتغيير زي النساء بالازر العلية وغيرها من العلامات الفارقة ليتميزوا بها عن سائر المسلمين » «٥» .

وفي سنة ٣٩٨ هـ امر الخليفة القادر بالله « بالزام النصارى بتعليق صلبان كبار على صدورهم ، وإلزام اليهود بتعليق مثل رأس العجل وان يشدوا الاجراس في رقابهم

«١» ابن الجوزي جـ ٩ ص ١٧ .

«٢» نفس المرجع جـ ١٠ ص ٢٧٥ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ١٤٥ .

«٣» ويقصد بلبس الغيار نوع من اللباس الذي يرتديه اهل الذمة ليميزهم عن المسلمين ، في الاسواق وحتى الحمامات ، وسوف نرى تفصيل هذا اللباس بالنسبة للرجال والنساء عند بحث تفصيل موقف الخلفاء من اهل الذمة .

«٤» ابو يوسف ص ٧٥ ، وقد نقله متزعنه في ص ٨٠ .

«٥» ابن دحية ص ٨٠ ، الدياربكري جـ ٢ ص ٣٧٧ .

عند دخولهم الحمام » (١) .

وأمر الخليفة المقتدي سنتي ٤٨٠ هـ ، ٤٨٤ هـ « بالزامهم بلبس الغيار والزنار والدوهم الرصاص المعلق في اعناقهم مكتوب عليه ذمي ، وان تلبس نساؤهم مثل هذه الدراهم في حلوقهن عند دخول الحمام فيعرفن ، وان يلبسن الخفاف فرداً اسوداً وفرداً احمر وجلجلا في ارجلهن ، فذلوا وانقلعوا بذلك » (٢) .

على ان اهل الذمة استطاعوا بعد ذلك التحلل من هذه القيود بوسائل مختلفة حيث اشار ابن الجوزي الى « انه في رجب ٤٩٨ هـ أزيل الغيار عن اهل الذمة الذي كانوا ألزموه سنة ٤٨٤ هـ ولا يعرف سبب زواله » (٣) .

وعندما تولى المسترشد الخلافة أمر اهل الذمة سنة ٥١٥ هـ بلبس الغيار ولكنهم استطاعوا مساومة السلطان محمود على اعفائهم من ذلك بعد ان دفعوا له عشرين الف دينار ودفعوا للخليفة اربعة آلاف فقط « وأحضروا الجالوت فضمنها وجمعها » (٤) .

على أن هذا التملص من لبس الغيار لم يطل إذ ان المسترشد أمر ثانية في رجب

---

(١) الديار بكري ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٢) ابن الجوزي ج ٩ ص ٣٨ ، ٥٥ . البنداري ص ٧٢ . ابو المحاسن ج ٥ ص ١٣١ .

(٣) ابن الجوزي ج ٩ ص ١٤٣ .

(٤) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٢٨ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٣٠٥ . وفي هذا الخبر شيء من الغرابة ، إذ يشير ابن الجوزي الى ان الجالوت حضر وضمنها وجمعها ، بينما لا يشير ابن الاثير الى شيء من ذلك ، فهل يعني ان الجالوت قام بضمان اليهود والنصارى وجمعها منهم ؟ ولماذا لم يقم الجاثليق بذلك خاصة وان عدد النصارى اضعاف اليهود ، انني اعتقد ان المقصود بأهل الذمة هنا اليهود فقط ، الذين دفعوا ثمن اعفائهم هذا المبلغ اما النصارى فيظهر انهم بقوا محافظين على لبس الغيار .

سنة ٥٢٥ هـ باعادة فرضه عليهم «١» . ويظهر أن الخلافة بعد ذلك لم تتمسك كثيراً بملاحقة اهل الذمة الذين كانوا يستطيعون تحقيق أغراضهم ببذل جزيل المال للتخلص من هذه القيود التي أشار اليها الفقيه ابن فضلان في كتابه الذي رفعه الى الخليفة الناصر واقترح فيه مضاعفة ما يؤخذ منهم «٢» .

على أن هذا الموقف الكريم المتسامح من الخلافة مع اهل الذمة لم يكن يعني ان اهل الذمة في مستوى المسلمين في الحقوق والواجبات إذ أن جميع العهود التي اعطيت لهم كانت تؤكد أن مكانتهم دون مكانة المسلمين ما داموا في ذمتهم ، فدماء اهل الذمة دون دماء المسلمين ، فلا يقتل المسلم بالذمي ، وقد حدث ان غلاماً مسلماً قتل سيده النصراني ثم اعترف « فوقع الاقتصار على تخليده السجن فقط عملا بمذهب الشافعي واحمد » «٣» ، وكان لا ينجي الذمي من القتل عند اعتدائه على أعراض المسلمين إلا اعتناق الاسلام «٤» .

ويؤكد الفقيه ابن فضلان ان مكانة اهل الذمة دون مكانة المسلمين في الكتاب الذي رفعه الى الخليفة الناصر حيث روى حديثاً عن علي (رض) أنه قال : « أمرنا أن لا نساويهم في المجلس ولا نشيع جنائزهم ولا نعود مرضاهم ولا نبدأهم بسلام » «٥»

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٠ .

«٢» ابن الفوطي ص ٦٥ – ٧٠ .

«٣» نفس المرجع ص ٧٣ ، وهذا خلاف ما اورده متز ص ٦٦ في قوله : ان حياة الذمي عند ابن حنبل تكافيء حياة المسلم وديته دية المسلم ، بينما هي عند الشافعي تعادل الثلث ، على انه يشير في حاشية رقم (١) ص ٦١ الى ما ورد في كتاب الخراج ليحيى بن آدم ص ٥٥ طبعة ليدن من ان الرسول (ص) قتل مسلماً برجل من اهل الكتاب .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٥٨ .

«٥» ابن الفوطي ص ٦٦ .

حتى أن الفقهاء اوقعوا التأديب على من يخاطب المسلم فيقول له : « يا يهودي او نصراني او نحو ذلك » (١) .

وكانت الضريبة الوحيدة التي يدفعها اهل الذمة هي الجزية . قال ابو يوسف : « والجزية واجبة على جميع اهل الذمة ممن في السواد وغيرهم من اهل الحيرة وسائر البلدان ما خلا نصارى بني تغلب واهل نجران خاصة ، وانما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان على الموسر ٤٨ درهماً ، وعلى الوسط ٢٤ درهماً ، وعلى المحتاج الحراث العامل بيده اثنا عشر درهماً ، يؤخذ ذلك منهم كل سنة ، وقد اعفي منها المسكين الذي يتصدق عليه والاعمى الذي لا حرفة له ولا عمل ، والمقعد إلا اذا كان له يساراً ، وكذلك الاعمى والمترهبون اذا كان لهم يساراً اخذت منهم ، واعفيت مواشيهم من الزكاة ايضاً » (٢) .

وقد حافظت الخلافة في هذه الفترة على هذه الروح عند فرضها الجزية ، ولكنها استبدلت الدراهم بالدنانير فأصبح الفقير يدفع ديناراً واحداً ومتوسط الحال دينارين والغني اربعة دنانير ، وان كان بعض الفقهاء يرون ان هذه المقادير قليلة بالنسبة لارباحهم الطائلة « اذ أن بعضهم ينفق في يومه القدر الذي يدفعه في السنة » . وقد اقترح هؤلاء على الخلافة ان تضاعف نسبة جبايتهم (٣) .

وقد بقي الاعفاء من الجزية على ما جرى عليه السلف سوى ان الخلافة حددت في هذه الفترة عمر الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم . جاء في العهد الذي كتبه الخليفة المقتفي للجاثليق : « وان يقتصر في استيفاء الجزية على تناولها من العقلاء والواجدين من رجالكم

---

(١) متز ص ٦٦ – ٦٧ نقلا عن خراج يحيى بن آدم ص ٥٥ . ط ليدن ١٨٩٥م .
(٢) ابو يوسف ص ٦٩ – ٧٠ .
(٣) ابن الفوطي ص ٨ ، ٦٥ .

دون النساء ومن لم يبلغ الحلم من اطفالكم » (١) .

ويذكر بنيامين الرحالة ان الاطفال هنا ممن يقل عمرهم عن خمسة عشر سنة (٢) ، وكانت الجزية تجمع في المحرم من كل سنة . يقول ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٢٧ هـ . « وفي غرة المحرم جلس محيي الدين ابو عبدالله بن فضلان في ديوان الجوالي واستوفى الجزية من اهل الذمة ، فكان احدهم يقف صاغراً بين يديه الى ان توزن جزيته ويكتب له (رور) (٣) وهو صاغر فلقوا من ذلك شدة .

وكان ابو علي المسيحي رئيس الطب له اختصاص ودخول الى دار الخلافة فأظهر واعتذر وسأل ان تؤخذ جزيته من يد ولده فلم يقبل منه فحضر وأداها ، ومضى ابن الشويخ رأس مشية اليهود الى داره ليلا وسأله أن يأخذ الجزية منه فلم يلتفت اليه ، وقال له : لابد أن تحضرنهاراً الىالديوان وتؤديها وشدد في ذلك ولم يسامح احداً»(٤). ويضيف ابن مماتي الى مقدار كل جزية « درهمان وربع عن رسم المشد والمستخدمين » (٥) .

وكانت الخلافة تختار لكل طائفة من اهل الذمة رئيساً ينوب عنها لدى الخلافة، يتولى النظر في شؤونها الدينية واحوالها الشخصية ، وقد تعطيهم الخلافة حق انزال العقوبات بأبناء طائفتهم عند الحاجة ، وكانت الخلافة قبلان تصدر العهد باختياره تقوم

(١) متز ص ٥٩ ـ ٦٠ نقلا عن تذكرة ابن حمدون التي نشرها امدروز ـ لاحظ صورة العهد في الملحق .

(٢) نفس المرجع ص ٧٥ . حاشية رقم (١) عن بنيامين ص ٧٧ .

(٣) أعتقد انه يقصد بكلمة (رور) الايصال الذي يأخذه الذمي بعد دفع الجزية ، اشارة الى براءة ذمته .

(٤) ابن الاثير ج ٨ ص ٣٦ ، ابن الفوطي ص ١٣ .

(٥) ابن مماتي ص ٣١٨ .

ببعض الشكليات الادارية ، كأن تستشير أهل طائفته او تحضر جماعة منهم الى دار الخلافة للشهادة بكفاءته واخلاصه وتدينه ، وكان الرئيس الديني للنصارى يسمى بالجاثليق بينما كان رئيس اليهود يسمى رأس مشية اليهود او رأس الجالوت ، وكانت صلاحيات هؤلاء الرؤساء شاملة لجميع رعايا الطائفة في بلاد الخلافة .

وقد جاء في العهد الذي كتبه الخليفة المقتفي لجاثليق النصارى ما نصه (١) : « ولما أنهيت حالك الى اميرالمؤمنين ، وانك امثل اهل ملتك طريقة وأقربهم الى الصلاح مذهباً ... وحضر جماعة من النصارى الذين يرجع اليهم في استعلام سيرة امثالك ... وبرز الاذن الامامي بترتيبك جاثليقاً لنسطوري النصارى بمدينة السلام ومن تضمنته ديار الاسلام ، زعيما لهم ومن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد ... ».

وكذلك جاء في العهد الذي كتبه الخليفة الناصر لدين الله لرأس مشية اليهود ابن هبة الذي قرأه على اليهود في الكنيسة ما نصه (٢) : « ... ولما ضرع دانيال بن العازر بن هبة الله في ترتيبه رأس مشية اليهود عوضاً عن العازر بن هلال بن فهد الداوج على قاعدته وجاري عادته ، وانتهى ما يتحلى به عند اهل نحلته ويتصف به ، واستحقاقه لما ضرع فيه بحسن طريقته فيهم وسلامة مذهبه رسم « اعلى الله تعالى المراسم الشريفة » ... ترتيبه رأس مشية اليهود على عادة الداوج المشار اليه ... وان يكون له النظر فيما كان للداوج النظر فيه والولاية عليه من جميع الاماكن التي جرت عادته بتوليها والتصرف فيها ... وسبيل طوائف اليهود وحكامهم بمدينة السلام واكناف العراق الانتهاء في ذلك الى المأمور به والرجوع الى قوله في توسط امورهم والعمل بموجبه ... وأن يخرجوا اليه من الرسوم التي جرت عادة من تقدمه بها بالاماكن التي

(١) متز ص ٥٩ - ٦٠ نقلا عن التذكرة ، لاحظ الملحق .

(٢) الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٦٦ - ٢٦٩ ، لاحظ الملحق .

كان يتصرف فيها من غير معارضة له في ذلك ... » .

ويشرح ابن الفوطي التقليد الذي كانت تسير عليه الخلافة عند اختيار رؤساء الطوائف فيذكر ان الرئيس المرشح يستدعى الى دار الوزارة فيشافهه الوزير بذلك ثم يرسله الى قاضي القضاة الذي يجلسه بين يديه ويقول له : « رتبتك زعيما على اهل ملتك من اهل دينك المنسوخ الذي نسخته الشريعة المحمدية لتأخذهم بحدود دينهم وتأمرهم بما امروا به في شريعتهم ، وتنهاهم عما نهوا عنه في شريعتهم وتفصل بينهم في وقائعهم وخصوماتهم بموجب شريعتهم والحمد لله على الاسلام » ثم ينهض الرئيس ويلبس طرحته في دهليز القاضي ويتوجه الى بيته راجلا في جمع من اصحابه وجماعة من اتباع الديوان » (١) .

ومن المحتمل ان الرسوم التي جرت عادة اليهود أن يؤدوها لرئيسهم ، دفعت الرحالة بتاحيا الى القول : « ان اليهود في العراق لا يدفعون شيئاً للخليفة وانما يدفع الواحد منهم في كل عام ديناراً لرأس الجالوت » (٢) ، كما اشار الدكتور حسن ابراهيم الى ان اليهود يدفعون لرئيسهم الذي يسمى ببغداد رأس الجالوت الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل النصف الآخر الى بيت المال » (٣) .

ولكن الامر في هذه الفترة التي نؤرخ لها كان خلاف ذلك ، اذ لا تشير العهود الى قيام رأس الجالوت بمشاركة الخلافة في الجزية ، او قيامه بجبايتها نيابة عن صاحب ديوان الجوالي ، وقد سبق ان اشرنا الى ان رأس الجالوت حاول أن يدفع جزيته الشخصية الى صاحب الديوان فذهب الى داره ليلا وسأله اخذها ليتخلص من ذلة الوقوف

---

(١) ابن الفوطي ص ٢١٨ ، ٢٤٨ ، ٣٠٠ .

(٢) متز ص ٧٥ .

(٣) تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٤٢٤ .

أمام الديوان نهارا فلم يلتفت اليه ، وطلب منه ان يحضر نهاراً ويؤديها «١» .

وسبق أن ذكرنا ان الخلافة استخدمت اهل الذمة في وظائفها بالرغم من اختلاف رأي الفقهاء في شرعية استخدامهم ، فكان منهم الاطباء وكتبة الديوان والجهابذة وعمال دار الضرب والمتضمنين كما كان منهم من يتولى شؤون الخليفة الخاصة وشؤون افراد اسرته « فعندما توفى الحكيم شمس الدولة ابو الخير بن توما النصراني خلع على اخويه فخر الدولة ماري وتاج الدولة ابي طاهر ورتب فخر الدولة في جميع الاشغال التي كانت منوطة بأخيه من الوكالات للأبواب والنظر في الاقرحة وغير ذلك ، ورتب تاج الدولة وكيل باب عنبر المختص بابنه الخليفة المستنصر بالله » «٢» .

ووصل بعضهم الى منصب الوزارة . يشير ابن الاثير الحلبي الشافعي الى ان «٣» « الخليفة الطائع استوزر ابا الحسن علي بن محمد بن جعفر الاصفهاني وعيسى بن مروان النصراني فاستخفا بالشريعة ومالا الى النجامـة » كما ان عضد الدولة البويهي استوزر نصر بن هارون ، ولعل ذلك كله هو الذي دفع الماوردي ابا الحسن الى القول « بتجويز استخدام اهل الذمة في منصب وزارة التنفيذ فقط » «٤» .

على ان الخلافة لم تكن تستقر على رأي معين في امر استخدام اهل الذمة ، اذ كثيراً ماتعدل عن استخدامهم وتأمر بطردهم من الدواوين ، كما حدث في ايام الخليفة المتوكل والمقتدر .

«١» ابن الفوطي ص ١٣ .

«٢» نفس المرجع ص ١٩٨ .

«٣» عبرة اولي الابصار ـ الورقة ٨٩ ، النبراس ص ١٢٥ ، وأرى ان هذين كانا من كتاب الخليفة وليس وزراء له ، فقد مر علينا ان الخلافة فقدت هذا الحق في فترة تغلب البويهيين الذين اعطوا لانفسهم حق اتخاذ الوزير .

«٤» الاحكام السلطانية ص ٤٣ .

واشار ابن الجوزي الى قيام الخليفة المقتفي سنة ٥٣٣ ﻫ بطرد الكتاب اليهود والنصارى من الديوان والمخزن (١)، كما ان الخليفة الناصر أمر سنة ٥٧٩ ﻫ بأن لا يستخدم في الديوان يهودي ولا نصراني ولا يستعان بهم في عمل من الاعمال « فأنهي اليه ان ابن زطينا ليس له نظير في الكتابة ، فكتب على المطالعة ، مات ابن زطينا ايش نعمل ؟ فبطل الديوان ؟ فأسلم ابن زطينا يومئذ واستعمل » (٢) .

على ان أوامر الخلفاء لم تكن تنفذ بسرعة ، اذ كثيراً ما يعدل عنها الخليفة بتأثير حاشيته او أية عوامل اخرى فيعود اهل الذمة الى الدواوين قبل ان يخرجوا منها ، وفي عهد الناصر نفسه بقي اهل الذمة يتولون اعمال الخلافة رغم الامر الذي أصدره سنة ٥٧٩ ﻫ ، فكان منهم جهبذة ابو طاهر وبعض عمال دار الضرب ، وكتاب الدواوين وغيرهم ممن مر ذكرهم ، وقد استمرت الخلافة تستخدمهم بعد ذلك دون ان يعترضهم احد .

على ان اهل الذمة بالرغم من المناصب الكبيرة التي تولوها والثروات الطائلة التي جمعوها ، وبالرغم من دالة بعضهم على الخلفاء ، بقوا في نظر المسلمين دون المكانة التي تفرضها مناصبهم وثرواتهم ، ويظهر أن اليهود خاصة كان لهم نصيب اكبر من المهانة (٣) حتى اصبحوا مضرب المثل .

وقد اخذت الانفة بعض ذوي الجاه من اهل الذمة ، الذين احسوا بأنهم لن ينعموا بالنعمة التي ملكوها ما لم يعتنقوا الاسلام ، فأشهروا اسلامهم ، من هؤلاء

---

(١) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٧٨ ، وأرى ان سرعة عودتهم الى الديوان سببها نجاحهم في التأثير على السلطان مسعود الذي كان صاحب السلطة الحقيقية في هذه الفترة .

(٢) السبط ج ٨ ص ٣٧٨ .

(٣) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٨٦ .

الطبيب اوحد الزمان ابو البركات هبة الله بن ملكا البلدي الذي قيل : « انه دخل يوماً الى الخليفة فقام له جميع من حضر إلا قاضي القضاة الذي لم يقم مع الجماعة له لكونه ذمياً فقال ابن ملكا يا اميرالمؤمنين ان كان القاضي لم يوافق الجماعة لكونه يرى انني على غير ملته فأنا اسلم بين يدي مولانا ولا اتركه ينتقصني بهذا وأسلم » (١) .

ولقد قضت هذه الظروف التي عاشها اهل الذمة في المجتمع الاسلامي مع قلة عددهم الى الاسراف في طاعة الخلافة ومسالمة المسلمين في علاقاتهم ومعاملاتهم ، فلم نسمع انهم ناوأوا الخلافة او تصدوا للمسلمين ، كما ان انعزالهم في محلات خاصة بهم جعلتهم بمنأى عن الفتن والاضطرابات التي كانت تقع بين المسلمين فلم يكتووا بنارها ، ولكنه عندما سنحت لبعضهم فرصة ، خلعوا رداء المسكنة وأظهروا ما في قلوبهم من نوايا عدوانية.

فقد استغلوا صلتهم ببعض المتغلبين على الخلافة وتسببوا في اخراج الخليفة القادربالله وإهانته عندما شيعت جنازة زوجة ابي نصر بن اسرائيل كاتب المناصح ابي الهيجاء وكيل فخر الدولة البويهي « وخروج النصارى عن المألوف في التشيع مما دعا بعض الهاشميين الى الانكار عليهم ذلك فضربوه وثارت العامة وقامت الفتنة واحتمى النصارى بدار المناصح الذي رفض ان يطيع امر الخليفة في تسليمه ، الامر الذي دفع الخليفة الى التهديد بالخروج من بغداد » (٢) ، وكذلك كان شأن ابن علان اليهودي الذي كان على صلة بنظام الملك السلجوقي ، وتفاقم أمره وخافه الناس « حتى ان المسلمين مشوا في جنازة زوجته بالبصرة » (٣) .

اما ابن ساوى النصراني فقد استغل علاقته بالوزير ابن مهدي العلوي وزير

---

(١) ابن القفطي ص ٣٤٣ - ٣٤٦ ، ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) ابن الجوزي ج ٧ ص ٢٦٢ .

(٣) نفس المرجع ج ٨ ص ٣٢٣ .

الخليفة الناصر « فتسلط على المسلمين وفتك بهم وظلمهم وأذلهم ، وكان يركب مثل صاحب الديوان وجميع الناس مشاة بين يديه ، حتى انه تدابر مع الوزير على التخلص من تنامش الذي أقطعه الخليفة ما كان لابن ساوى من اعمال دقوقا ودجيل حتى لا ينكشف أمرهما » (١) .

على أن اليهود كطائفة كانوا اكثر اقلاقاً للخلافة وجرأة عليها من النصارى . يشير ابن الجوزي الى قيام يهود المدائن بالاعتراض على شعائر المسلمين في الاذان واعتدوا عليهم سنة ٥٧٣ هـ « فكانت فتنة استظهر فيها اليهود على المسلمين الذين لجأوا الى دار الخلافة لانجادهم ، فلم تفعل لامر ، بل وعاقبتهم ، فثار العامة ببغداد نصرة للاسلام وهاجموا دكاكين اليهود و كنيستهم التي بدار البساسيري ، كما أمر الخليفة بعد ذلك بهدم كنيستهم في المدائن وجعلها مسجداً تفادياً لتوسع الفتنة » (٢) .

وقاموا للمرة الثانية في اواخر ايام الخلافة مستغلين حالة الاضطراب والخطر الذي كان يهدد ابوابها ، فتجرأوا عليها وشهروا السلاح في وجه المسلمين سنة ٦٥٤ هـ (٣) .

---

(١) السبط جـ ٨ ص ٥٣٥ ، الذيل ص ٦١ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ٢١٩ .

(٢) ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٧٥ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ١٤٥ .

(٣) ابن الفوطي ص ٣١٨ . وكان ذلك عندما تعرضت بغداد لفيضان خطر فتعاون اليهود والمسلمون على بناء سكر في رأس بين الدربين ودرب القيار ، فنازعهم فيه من يتعدى ضرره الى ملكه وجرت بينهم خصومات وشهروا السلاح ونادوا يا آل خيبر ، فقبض الشحنة على جماعة منهم وضربهم وشوه خلقهم وشهرهم .

رابعاً — موقف الخلافة من القبائل العربية

حافظت كثير من القبائل العربية التي استوطنت العراق في فترات زمنية مختلفة على عاداتها وتقاليدها فلم تستقر في المدن او تمتهن الزراعة في السواد انما انتشرت وراء الكلأ في الجزيرة بين النهرين وفي السواد حتى البصرة ، وكانت عندما يضيق بها الحال تعبر الفرات غرباً الى البادية حيث تجد الامان فيها .

وكانت هـذه القبائل قد توزعت اراضي السواد والجزيرة واستقرت فيها حتى اصبحت مع مرور الزمن موطناً ثابتاً لها ، على ان الظروف السياسية وعلاقات الجوار المضطربة مع القبائل الاخرى قد تفرض على القبيلة الهجرة من موطنها الى موطن آخر كما حدث لبني خفاجة عندما هربوا أمام عبادة سنة ٥٠٠ هـ (١) الى نواحي البصرة وتركت القبيلة موطنها بين الكوفة والحلة لتستقر به عبادة ، او كما حدث لبني اسد وبني معروف عندما اجلتهم الخلافة عن ديارهم (٢) .

وكانت اشهر القبائل التي عاصرت الخلافة في هذه الفترة وشغلت جانباً من سياستها هي : قبائل بني ربيعة وكانت مساكنها غربي الفرات تحت سوراء وانتشرت فروعها بني معروف والمنتفك في البطائح حتى البصرة (٣) .

وكانت خفاجة مستقرة بين الكوفة والحلة وانتشرت بعض بيوتها حول بغداد حتى عكبرا ، ومن بطونهم بنو حزن وبنو كعب المنتشرين في السواد (٤) .

---

(١) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٣٨ .

(٢) نفس المرجع ج ٩ ص ٨٣ ، ٣٢٨ .

(٣) نفس المرجع ج ٨ ص ٢٣٤ ، ج ٩ ص ٣٢٨ .

(٤) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٠٦ ، ٢٢٢ ، ٢٧٣ . ابن جبير ص ١٦٦ ، ١٨٤ . ابن الاثير ج ٩ ص ١٢١ .

اما بنو أســـد فقد استقروا في الحلة واتخذوها مقاماً لهم بالاضافة الى البطائح المجاورة لها (١) .

وانتشر بنو عقيل في الجزيرة بين النهرين حتى الموصل وكانت مضاربهم على ضفاف الفرات بينما استقرت عبادة وهي احدى بطونهم بالقرب من سامراء (٢) .

وكانت منازل بني عامر منتشرة جنوب البصرة حتى الاحساء (٣) ، وبالاضافة الى هؤلاء انتشرت بعض القبائل على طريق الحج وكانت تتعرض للحجاج دائماً فتقطع الطريق عليهم ، ومنها قبائل الاجاودة وبني غزية وبني بنهان والبطنين (٤) .

وكانت هذه القبائل تعتمد في معيشتها على منتجات حيواناتها فتستهلك منها شيئاً وتستبدل بالباقي ما تحتاجه من المدن المجاورة او القوافل المارة ، وكانوا يحصلون من الخلافة على رسوم سنوية من الطعام والتمر وغير ذلك ، ولكنهم يكتفون بلبن الابل وخبز الشعير عندما تمنع الخلافة عنهم المعونة كما حدث سنة ٥٥٦ هـ عندما منعت الخلافة المعونة عن خفاجة (٥) .

واحترفوا السلب والنهب ومهاجمـــة القوافل والقرى المجاورة وقطع طرق

---

(١) ابن الجوزي ج ٩ ص ١٩٨ ، ٢١٧ - ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ . ابن الاثير ج ٨ ص ٢٤٥ ، ج ٩ ص ٨٣ .

(٢) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢١٠ ، ابن الاثير ج ٨ ص ١٦٧ ، ٢٣٧ ، ٣٠٩ - ٣١٠ ، ج ٩ ص ٩٢ .

(٣) ابن الاثير ج ٨ ص ١٥٣ ، ج ٩ ص ٢١٩ .

(٤) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٢٧ ، ٢٤٥ ، ابن الفوطي ص ٦ - ٧ ، ٦٠ ، ٩٠ .

(٥) ابن الاثير ج ٩ ص ٧٦ ، ابن جبير ص ١٦٢ - ١٦٣ ، العيني ج ١٢ ق ٢ الورقة ٣٤٠ .

المواصلات «١» ، وحافظت هذه القبائل على عاداتها وتقاليدها وبقي اعتزازهم بالذمام العربي وحماية المستجير لايتغير ولا يتخلون عنه ولو كلفهم ذلك حياتهم ، فعندما استجار الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٥٠ هـ بقريش بن مسلم العقيلي عند محاصرة البساسيري بغداد « ونادى وثيق الرؤساء قريش واخبره ان امير المؤمنين يستندمك على نفسه وأهله واصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله وذمام العربية ، كان جواب قريش قد أذم الله تعالى له ، وخلع قلنسوته واعطاها للخليفة وتحمل مسؤولية ذلك أمام البساسيري» «٢».

وقد استجار سرخاب الديلمي بصدقة المزيدي امير الحلة سنة ٥٠٠ هـ خوفاً من السلطان محمد ، فلم يتردد صدقة في منحه الامان ، ثم دفع حياته ثمناً لهذه الحماية « حتى لا يكسر ناموس العرب » «٣» ، ويحدثنا ابن الفوطي عن استجارة قطب الدين سنجر المستنصري المعروف بالباغر بزوجة ابن غنام امير عرب الشام عند هربه من بغداد سنة ٦٣٨ هـ وصدور أمر الخليفة بالقبض عليه ، فأجارته الزوجة وطلبت من زوجها اما ان يطلق سراحه او ان يمضي به الى الخليفة ليشفع له ففعل ، فلما وصل بغداد واراد الوزير أن يخلع عليه قال ابن غنام : « لا البسها حتى يعفي عنه ، فان للذمام العربية جرم لا تخفر فأجيب الى سؤاله وعفا عن سنجر » «٤» .

وقد حافظت هذه القبائل على أنسابها وخاصة في علاقاتها مع القبائل الاخرى ، فعندما هرب دبيس المزيدي سنة ٥٢٠ هـ من الخليفة المسترشد لجأ الى بني غزية فأضافوه

«١» ابن الجوزي جـ ٨ ص ١٧٠ ، جـ ١٠ ص ٢٠٦ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٢٨ ، ٣٥٦ .

«٢» ابن الاثير جـ ٨ ص ٨٤ .

«٣» ابن الاثير جـ ٨ ص ٢٤٥ – ٢٤٩ ، ابن الجوزي جـ ٩ ص ١٥٦ ، ١٥٩ .

«٤» ابن الفوطي ص ١٢٨ – ١٣٠ .

وسألهم أن يحالفوه فامتنعوا وقالوا : انت بعيد النسب منا وبنو المنتفق اقرب اليك نسباً ، فمضى اليهم وحالفوه (١) .

ولقد لعبت هذه القبائل دوراً سياسياً هاماً في حياة الخلافة وكانت في كثير من الاحيان سبباً من اسباب ضعفها وتأخر نهضتها الاخيرة لما كانت تقوم به من اعمال تساعد الامراء المتغلبين على زيادة تمكنهم من الخلافة والسيطرة عليها . وقد سبق ان أشرنا الى تعاون بني عقيل مع ابي الحرث البساسيري وما نشأ عنه من اعتقال الخليفة القائم بأمر الله واحتلال بغداد واقامة الخطبة للمستنصر الفاطمي ، وفي مطلع النهضة الاخيرة لعب دبيس بن صدقة المزيدي دوراً في خدمة السلاجقة وتمكينهم من الخليفة المسترشد الذي اصبح يحقد عليه اكثر من حقده على السلاجقة اذ كان آلة في ايديهم يدفعونه لمهاجمة الخلافة وتحديها ثم يحمونه منها .

وكان دبيس السبب في تشجيع طغرل السلجوقي على مهاجمة العراق سنة ٥١٩ هـ (٢) كما كان السبب المباشر في إغراء السلطان سنجر ومحمود بالخليفة وتخويفهم منه وتشجيعهم على مهاجمته سنة ٥٢٠ هـ قبل أن يستفحل أمره ويستقل ببغداد مما كان سبباً في حصار السلطان محمود بغداد وإكراهه الخليفة على قبول شروط الصلح التي جردته من كل اسباب القوة التي كان قد حصل (٣) عليها ، وعندما استطاع الخليفة تمزيق صفوف السلاجقة ثانية سنة ٥٢٦ هـ ودفع مسعوداً وأخيه سلجوقشاه لمحاربة عمهم سنجر وخرج وراءهم يساندهم . كان دبيس رأس الرمح الذي طعن به سنجر الخليفة من وراء ظهره عندما

---

(١) ابن الجوزي جـ ٩ ص ٢٤٥ .

(٢) ابن الجوزي جـ ٩ ص ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣١٧ – ٣١٨ .

(٣) ابن الجوزي ص ٢٥٥ ، جـ ١٠ ص ٣ .

اوعز اليه بمهاجمة الخليفة متعاونا مع زنكي «١» .

وقد اعترف السلطان مسعود بدور دبيس في حدوث الشقاق بينه وبين الخليفة عندما قدمه للخليفة الذي كان قد سقط اسيراً في يده سنة ٥٢٩ هـ قائلاً: « يا اميرالمؤمنين هذا هو السبب الموجب لما جرى بيننا ، فاذا زال السبب زال الخلاف » «٢» .

ويرى ابن الاثير « ان السلاجقة ابقوا على دبيس ليجعلوه عدة لمقاومة المسترشد ، فلما قتل المسترشد تخلصوا من دبيس » «٣» .

وعندما كان المقتفي يصارع اعوان السلاجقة سنة ٥٤٩ هـ في معركة بكمزا غدر به بنوعوف ولحقوا بالعدو وكادوا يؤثرون على معنويات جيش الخلافة لولا ان تدارك الخليفة الامر واشترك في القتال بنفسه حتى انتصر «٤» .

وكان من جملة الاسباب التي دفعت الخليفة المستنجد الى عقاب بني اسد وأجلائهم عن الحلة موقفهم من الخلافة سنة ٥٥٢ هـ ومساعدتهم محمد شاه السلجوقي عند حصار بغداد «٥» ، كما ان سبب قبضه على توبة البدوي العقيلي انه « واطأ عسكر همدان على الخروج والعصيان » «٦» .

على ان هذه القبائل لعبت دوراً سياسياً مشرفاً في مساندة الخلافة وتقويتها والدفاع عنها في مناسبات اخرى . فقد لبى رؤساء بني عقيل نداء المسترشد عندخروجه لدفع دبيس عن بغداد وتأديبه سنة ٥١٧ هـ فقدم سليمان بن مهارش صاحب الحديثة

«١» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٥ - ٢٦ ، الباهر ص ٤٣ - ٤٥ .

«٢» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٤٨ .

«٣» ابن الاثير جـ ٨ ص ٢٥٠ .

«٤» نفس المرجع جـ ٩ ص ٤٤ - ٤٥ .

«٥» نفس المرجع ص ٨٣ .

«٦» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢١٠ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٩٢ .

في جموع عقيل ومعه قرواش بن مسلم (١) .

كما هبت للدفاع عن الخلافة ، واستجابت لندائها ودعوتها الى الجهاد ضد المغول ، فكان الاعراب ينفرون خفافاً وثقالاً لتلبية ذلك النداء والتطوع في جيوشها لدفع المغول سنة ٦٣٤ هـ ، ٦٤٣ هـ (٢) بالاضافة الى مساهمة هذه القبائل في جيش الخلافة الذي كان قد زحف الى اربل عند وفاة صاحبها مظفر الدين وامتناع مماليكه عن تسليم المدينة الى الخلافة وفقاً للاتفاق الذي تم (٣) .

وفي مجال السياسة الداخلية كانت هذه القبائل مصدراً لاعاقة تقدمها وتخريب كيانها الاقتصادي بسبب اعتداءاتها على الامن وقطعها طرق المواصلات .

وكانت المدن والقرى القريبة من منازلهم تعيش في فزع وخوف من هجماتهم وغزواتهم ، فالكوفة مثلا تعرضت لهجمات خفاجة بصورة مستمرة حتى ان ابن جبير عندما زارها سنة ٥٨٠ هـ وصفها بأنها « مدينة كبيرة عتيقة قد استولى عليها الخراب ومن اسباب ذلك قبيلة خفاجة المجاورة لها (٤) » .

وكانت مدينة البصرة مبتلاة بمجاورة بني عامر وربيعة ، فكانت لا تخلص من هجماتهم ، وكانت آخر هذه الهجمات سنة ٥٨٨ هـ عندما اغار عليها بنو عامر بقيادة اميرهم عميرة « فتغلبوا على مقاومة نائب مقطعها محمد بن اسماعيل الذي دافعهم كثيراً فثلموا السور ونقبوا فيه عدة مداخل ونهبوا الخانات بالشاطىء وبعض محلاتها ثم فارقوها بعد ذلك » (٥) .

---

(١) ابن الاثير جـ ٨ ص ٣١٠ .

(٢) ابن الفوطي ص ٨٥ ، ٢٠٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٥٠ .

(٤) ابن جبير ص ٦٦ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٥) ابن الاثير جـ ٨ ص ١٥٣ ، ٢٣٤ ، جـ ٩ ص ٢١٩ ، ابوشامة جـ ١ ص ٣٠ .

اما بغداد فقد أشرنا الى تأثير بني مزيد الاسديين عليها ونهبهم اطرافها واستغاثة الناس منهم بالديوان (١) .

وكانت اضرار خفاجة بأطرافها لا تقل عن بني مزيد حتى انهم في بعض الاحيان كانوا يهاجمون القوافل قرب ابوابها « حتى امتنعت الزراعة إلا على المخاطرين وحمل العوام السلاح للدفاع عن انفسهم (٢) » .

وكان عجز الخلافة وضعف نظامها الاداري مشجعاً لهذه القبائل على قطع طرق المواصلات ونهب القوافل التجارية حتى تعذر على التجار الانتقال بتجارتهم بين المدن .

يشير ابن الاثير (٣) الى انه في مدة مقام جلال الدين الخوارزمي في خوزستان والعراق « ثارت العرب في البلاد يقطعون الطريق ويخيفون السبيل حتى أخذوا قفلين عظيمين كانا سائرين في طريق الموصل » وكانت خفاجة تهاجم القوافل وتأخذها عند باب الحربية ، حتى ان الخلافة كما يقول ابن جبير ارسلت مع قافلتهم المتوجهة الى الموصل جنداً من عندها بالاضافة الى الحرس الذي كان يرافق القافلة مخافة العرب الخفاجيين (٤) وكانت مواكب الحاج لا تأمن على نفسها الخروج الى الديار المقدسة حتى كاد الحج أن ينقطع سنين عديدة بسبب غارات القبائل المنتشرة على طريقه . وبالرغم من ان الخلافة كانت ترسل مع امير الحج جنداً لحمايتهم ، إلا ان القبائل كثيراً ما كانت تطمع فيهم فتتعرض لهم وتفرض عليهم الاتاوة او تهاجمهم وتنهب ما معهم .. ففي سنة ٦٢٦ هـ تعرض عرب البطنين لموكب الحاج فطلبوا منهم خفارة بعد ان عدلوا بهم عن الطريق

---

(١) ابن الجوزي ج ٩ ص ٢١٧ - ٢١٨ ، ٢٢٢ .
(٢) ابن الجوزي ج ٨ ص ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ج ١٠ ص ٢٠٦ .
(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٥٦ .
(٤) ابن الجوزي ج ٨ ص ١٧٠ ، ج ١٠ ص ٢٠٦ ، ابن جبير ص ١٨٤ .

« فاستقر الاتفاق بينهم على مبلغ اثنا عشر الف دينار دفعتها الخلافة من نفقات السبيل ومال المخزن المعد للصدقة «١» ، من غير إلزام احد من الحاج بشيء » .

وفي سنة ٦٣٢ هـ تعرض العرب الاجاودة للحاج وطموا الآبار في منزل سليمان ، فاستفتى اميرالحاج من كان في الموكب من الفقهاء في الرجوع فأفتوا بجواز الرجوع«٢» .

وكان أمير الحاج يضطر في بعض الاحيان الى تغير طريق رجوعه كي لا يقع في أيدي العرب المتربصين على الطريق كما حدث سنة ٥٦١ هـ «٣» ، ولم تكن هذه القبائل تهاجم مواكب الحاج عند دخولهم البادية فحسب بل قد تهاجمهم في داخل العراق عند عودتهم ايضاً ، وكانت قبيلة خفاجة هي التي تقوم بهذا الدور بحكم انتشار منازلها على الطريق ، وقد فعلت ذلك عدة مرات كان آخرها سنة ٥٦٣ هـ عندما وصل الحاج سالمين الى الكوفة فخرجت عليهم في طريق الحلة وأخذت اموالهم وقتلت جماعة منهم «٤» .

وكانت الخلافة تضطر أمام هذه الاعتداءات الى ارسال الجيوش لمطاردة هـذه القبائل وإنزال العقاب بها ، فأرسلت جيشاً سنة ٥٧١ هـ لتأديب بني خفاجة الذين رحلوا الى البادية فلم يدركهم الجيش«٥» ، كما ارسلت جيشاً آخر سنة ٦٢٦ هـ لمطاردة البطنين الذين كانوا يترصدون عودة الحاج لنهبهم بعدأن أخذوا الخفارة منهم ، فباغتوهم بمنازلهم وقتلوا منهم كثيراً واستولوا على اموالهم دون نسائهم وأولادهم «٦» .

ثم انتظروا عودة الحاج فرافقوهم . وفي سنة ٦٢٤ هـ استطاع امير الحاج القبض

«١» ابن الفوطي ص ٦ .

«٢» نفس المرجع ص ٦٠ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢١٨ .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٢٢ .

«٥» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٦٠ .

«٦» ابن الفوطي ص ٧ .

على رؤساء العرب الأجاودة فأتى بهم دار الخلافة حيث اعلنوا التوبة وعفا عنهم «١» .

ولم تكن مشاكل القبائل العربية تنتهي عند هذا الحد ، فقد كانوا يستأجرون المشاركة في الفتن التي تقع بين المحلات (القرى) كما حدث سنة ٦٠١ هـ ، اذ يتحدث ابن الساعي عن المعركة التي قامت بين محلتي باب الازج والمأمونية بسبب قتل السباع «وكان اهل باب الازج قداستجلبوا قوماً من العرب لاجل المساعدة لهم على القتال«٢»» .

اما غزوات القبائل بعضها لبعض فلم تنقطع ، وان كنا نحس في هذه الفترة بندرة حدوثها بسبب انشغال القبائل بمهاجمة القرى المجاورة وطرق المواصلات ونهبها بدلاً من مهاجمة بعضها البعض ، إلا ان تمسك العرب بعادة الاخذ بالثار كان يشد القبائل بعضها الى بعض كما حدث في القتال بين خفاجة وعبادة وتبادلها النصر والهزيمة عدة مرات ، وكما حدث عندما هاجمت خفاجة بني اسد في الحلة وقام سيف الدولة صدقة بارسال جيش للانتقام منهم «٣» .

وبعد ان استعادت الخلافة حريتها في العمل وضعت نصب عينيها العمل على استعادة هيبتها في قلوب هذه القبائل وكسب طاعتها واحترامها ، ولم تتردد في استعمال الشدة وإنزال العقاب السريع ببعضها اذا اقتضت المصلحة ذلك ، كما لجأت الى الحيلة في محالفة هذه القبائل واستغلالها في تنفيذ سياستها ، فقد خصصت الخلافة لهذه القبائل رسوماً سنوية من الطعام والتمر ذلك ، لسد بعض حاجاتها وكانت توزعها عليهم في رمضان من كل سنة ، وكان منع هذه الرسوم عن القبيلة نوعاً من العقاب تنزله الخلافة بها عندما

«١» ابن الفوطي ص ٩٠ .

«٢» الجامع المختصر جـ ٩ ص ١٤٦ .

«٣» ابن الاثير جـ ٨ ص ١٨١ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ .

تخرج عن الطاعة كما فعلت مع خفاجة سنة ٥٥٦ هـ «١» .

وكانت تستخدم بعض رؤساء القبائل في جهازها الاداري فتجعل منهم حماة لبعض مناطق العراق ، يعملون على استتباب الامن والقضاء على الثورات ، واعتقد انها كانت تمنح هؤلاء الحماة بعض الامتيازات المادية والمعنوية التي ترفع من قيمة المنصب وتجعل لصاحبه مكانة في ديوان الخلافة .

يحدثنا ابن الساعي عن زياد بن عبيد امير خفاجة الذي خلع عليه في الديوان العزيز سنة ٥٩٦ هـ وسلمت اليه البلاد الفراتية « فمضى مخلوعاً عليه وحضر عند جمال الدين قشتمر الناصري بالحلة مظهر للتعزز بخلعه الديوان وتوليته اياه شامخاً عليه » «٢» .

وكانت الخلافة تنزع منصب الحماية من القبيلة عندما ترى اهمالها او تهاونها او تريد عقابها ، وتعطيه لقبيلة اخرى قد تكون اقدر منها على القيام بواجب الحماية ومساندة الخلافة في نشر الامن كما حدث ذلك سنة ٥٦٨ هـ عندما نزعت الخلافة حماية السواد من بني حزن الخفاجيين وأعطتها لبني كعب ، ثم استعانت ببني كعب على تأديب بني حزن الذين اخذوا في شن الغارات على السواد بسبب ذلك «٣» .

وكانت الخلافة عندما تقرر استعمال الشدة ، تستعين بهذه القبائل لانزال العقاب بالقبيلة المتمردة ، فعندما أمر الخليفة المستنجد بالقضاء على بني اسد واجلائهم عن الحلة سنة ٥٥٨ هـ لما ظهر من فسادهم ولمساعدتهم السلاجقة عند حصار بغداد ، أرسل اليهم جيشاً واستعان بابن معروف مقدم المنتفك «٤» .

«١» ابن الاثير جـ ٩ ص ٧٦ ، العيني جـ ٢١ ق ٢ الورقة ٣٤٠ .

«٢» الجامع المختصر جـ ٩ ص ٤٣ .

«٣» ابن الاثير جـ ٩ ص ١٢١ .

«٤» نفس المرجع ص ٨٣ .

وفي سنة ٦١٦ هـ قرر الخليفة الناصر تأديب بني معروف « بعد أن كثر أذاهم لما يقاربهم من القرى وقطعوا الطريق وأفسدوا في النواحي المقاربة لبطيحة الغراف وشكا منهم اهل تلك البلاد الى الديوان فأمر الشريف معد بتنفيذ ذلك وقد جمع الشريف معد الرجالة من جهات عديدة » (١) .

وكانت الضريبة الوحيدة التي تفرض على القبائل هي ضريبة العشر ، وكان الجنود يخرجون لجبايتها منهم في اوقاتها ، وقد تمتنع بعض القبائل عن دفعها مما يؤدي الى الفتنة وقيام الجيش بنهب ديار القبيلة كما حدث سنة ٥٥٦ هـ عندما امتنع بعض العرب عن دفعها (٢) .

ومما يلاحظ خلال نصف القرن الاخير من عمر الخلافة العباسية ببغداد أن متاعب هذه القبائل ومشاكلها قلت كثيراً عما كانت عليه من قبل .

ولعل انشغال المسلمين عامة باحداث الغزو المغولي الذي كان يهدد البلاد ، وما كان ينشأ عنه من احداث أنساهم الحديث عن تحركات القبائل وعدوانها ، والتحق كثيرون من أفراد القبائل العربية بجيش الخلافة وانصرفوا للجهاد واتجهت طاقات هذه القبائل نحو العدو الخارجي وانصرفوا عن الاعتداء على الناس .

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٢٨ .

(٢) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٠٠ .

خامساً — موقف الخلافة من الاكراد

كان الاكراد ينتشرون في المنطقة الجبلية الممتدة في شرق وشمال شرق دار الخلافة اعني في ديار الجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط وشهرزور واذربيجان «١» .

وكانوا يعيشون في حالة من البداوة وعدم الاستقرار ، فلا يستقرون في موسم الشتاء في منطقة معينة من الوديان بل يتركونها في موسم الربيع والصيف الى مناطق اخرى من الجبال «٢» .

وكانوا يعتمدون في معيشتهم على منتجات دوابهم فضلاً عن غنى المنطقة الجبلية بالنباتات الطبيعية والغابات ، فكانوا يأخذون من هذه المنتجات حاجتهم ثم يبيعون ما يفيض عنهم الى المدن المجاورة لهم .

ويشير ابن الاثير الى ذلك عند استغرابه من قلة الغنم في الموصل وارتفاع اسعار اللحوم في ربيع ٦٢٤ هـ بقوله : « وهذا ما لم نسمع بمثله ولا رأيناه في جميع اعمارنا ، ولا حكى لنا مثله لان الربيع مظنة الرخص للحم ، لان التركمان والاكراد والكليكان ينتقلون من الامكنة التي شتوا بها الى الزوزان فيبيعون رخيصاً ، وكان اللحم كل

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٧٠ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٧٥ ، والعادة التي لا زال عليها الاكراد حتى الآن انهم يستقرون شتاءً في الوديان طلباً للدفء وتخلصاً من الرياح الشديدة الباردة ، اما في الربيع والصيف فان هذه القبائل تنتقل الى الجبال المجاورة لاعتدال المناخ وسعياً وراء الكلأ الذي يكون قد نمى بعد ذوبان الثلوج ، كما يفد قسم منهم الى السهول المجاورة لبيع منتجات حيواناتهم من ألبان ولحوم وجلود وشراء حاجاتهم .

سنة في هذا الفصل يكون سعره كل ستة ارطال او سبعة بقيراط ، صار هذه السنة الرطل بحبتين » (١) .

وأشهر القبائل التي كانت تنتشر في هذه المنطقة ، قبائل الاكراد الحميدية والهكارية والعدوية والمهرانية والزوزان ، وكان لكل من هذه القبائل قلاع خاصة بها منتشرة على سفوح الجبال (٢) .

وكانت بلاد الاكراد هذه من الناحية العملية خارجة عن سلطان الخلافة ، لذلك لم يكن للخلافة تأثير مباشر عليها في هذه الفترة ، على ان امراء هذه البلاد وهم اتابكة الموصل واربل وشهرزور والجبال الذين احسوا بضعف قوتهم بالنسبة للدولتين الكبيرتين المجاورتين وهما الايوبية في الغرب والخوارزمية في الشرق وجدوا انهم بحاجة الى من يحميهم من اطماع هاتين الدولتين ، فرموا انفسهم في احضان الخلافة طلباً للحماية الاسمية وتعلقوا بطاعتها « وأصبحوا من اولياء الديوان » لذلك نجد أن من جملة الشروط التي اشترطتها الخلافة على جلال الدين الخوارزمي عدم التعرض لهؤلاء الامراء عندما عادت العلاقات بينهما الى حالتها الطبيعية سنة ٦٢٥ ﻫ (٣) ، على ان هذه القبائل كانت ذات تأثير على سياسة الخلافة وأوضاعها الاقتصادية . ذلك أن منتجات بلادهم كانت تصل الى دار الخلافة بواسطة الانهار التي تصب فى دجلة وخاصة عن طريق الموصل حيث كانت تحمل على « الاكلاك » وتنحدر في دجلة حتى تباع في اسواق بغداد (٤) .

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) ابن الاثير ج ٨ ص٣٤٣-٣٤٤ ج ٩ ص ١٦٨، ١٧٠ ، ابن الفوطي ص٢٧١ .

(٣) النسوي ص ٣٠٤-٣٠٥ ، ابن خلدون ج ٥ ص ١٣٩ ، ابن الفوطي ص٤-٥ .

(٤) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٤٧ ، والاكلاك - مفردها « كلك » من وسائل النقل النهري قديماً وهي عبارة عن مجموعة من القرب الجلدية تملأ بالهواء لتطفوا على وجه الماء ، وتربط هذه القرب مع بعضها فتكون مساحة معينة توضع فوقها اعمدة الخشب -

كما ان قسوة الحياة في بلادهم كانت تدفع البعض من ابناء هذه القبائل الى النزوح نحو المدن المجاورة في السهول والاستيطان فيها ، وكانت بغداد من المدن التي استوطنها بعض هؤلاء الاكراد كما استوطنوا الحلة ايضاً «١» .

وكانت مهنة الجندية احب المهن اليهم فالتحقوا بخدمة بعض الامراء ، فكان مع الامير سيف الدولة صدقة بن مزيد عند قتاله السلطان محمد عدد من الاكراد « الذين اظهروا شجاعة في القتال حتى وعدهم سيف الدولة بكل جميل » «٢» وكان مع الامير ابي الحسن شقيق الخليفة المسترشد الذي هرب الى الحلة عند تولي اخيه الخلافة ثم خرج الى واسط عدد من الاكراد الذين هربوا وتركوه عندما وصل جيش دبيس المزيدي «٣» .

وكان دبيس المزيدي قد جند جموعاً من العرب والاكراد عندما خرج لقتال آقسنقر البرسقي «٤» ، وحاول الخليفة المسترشد ان يستغل هذه القوة الجديدة التي لم

ـ من جذوع الاشجار لتكون ارضية صلبة مرتفعة عن سطح الماء ثم توضع عليها الحبوب او المواد المراد نقلها وتنحدر في النهر مع تياره ، وكانت تستعمل ايضاً لنقل المسافرين وبقي استعمال الاكلاك سائداً حتى مطلع القرن العشرين كوسيلة من وسائل نقل الحبوب خاصة وسائر التجارة الاخرى بين الموصل وبغداد ، ولا زالت بقايا استعمالاته حتى الآن في الموصل مع المدن الواقعة في المنطقة الجبلية المرتبطة معها بنهر دجلة كمدينة زاخو مثلا .

«١» يشير الدكتور مصطفى جواد الى ان بعض الاكراد الجاوانين قد ساهموا بتأسيس محلة الحلة مع بني مزيد وان لهم محلة خاصة بهم فيها ، كما ينقل عن رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٣٨ ط ـ التقدم بالقاهرة وجود محلة تعرف بمحلة الاكراد فيها ، لاحظ مجلة المجمع العلمي العراقي م ٤ ج ١ سنة ١٩٥٦ .

«٢» ابن الاثير ج ٨ ص ٢٤٨ .

«٣» نفس المرجع ص ٢٨٢ .

«٤» نفس المرجع السابق .

ترتبط بولاء لاحد في صراعه مع السلاجقة فاعتمد عليهم في تكوين جيشه الجديد الذي اعطى للخلافة قوة سياسية وعسكرية ارعبت السلطان سنجر وجعلته يفرض على ابن اخيه السلطان محمود أن يمضي الى بغداد للقبض على وزير الخليفة ابن صدقة وقتل الاكراد الذين دونهم «١» .

اما المقتفي فقد اعتمد على المماليك الاتراك خاصة ، ولم يكن الاكراد في جيشه قوة ذات شأن .

وبقي الاكراد كسائر رعايا الخليفة المسلمين يمارسون نشاطهم في مختلف المهن التي امتهنوها ، وفي مختلف المدن التي استوطنوها او نشأوا فيها ، ووصل بعضهم الى مناصب رفيعة في الحكومة مثل منصب امير الحاج وولاية البلدان كالامير حسام الدين ابي فراس الحلي الكردي «٢» ، من اهل الحلة السيفية الذي تولى امارة الحاج ثلاثة عشر سنة ، وتولى شحنكية البلاد الواسطية والبصرية «٣» .

وأعتقد ان قلة عدد الاكراد في المدن التي استوطنوها وخاصة في بغداد لم تساعدهم على القيام بنشاط ظاهر في الاحداث المختلفة التي وقعت فيها كالفتن الطائفية والصراع بين الاحياء .

***

من كل ما سبق يتبين ان الخلافة العباسية في الفترة التي نحن بصدد التأريخ لها كانت قد اختطت لنفسها سياسة داخلية رأيناها واضحة في موقفها من طوائف السكان

«١» ابن الجوزي جـ ٩ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

«٢» في البحث الذي كتبه الدكتور مصطفى جواد بعنوان قبيلة جاوان الكردية المنسية يذكر فيه جملة من ابنائها منهم الامير المذكور حسام الدين ابو فراس الكردي الجاواني ، لاحظ مجلة المجمع العلمي العراقي م ٤ جـ ١ سنة ١٩٥٦ ص ١١٨ .

«٣» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٦٤ ، ابن الفوطي ص ١٨٩ - ١٩٠ .

ومن القبائل العربية والاكراد .

وانها كانت تهدف الى تأكيد نفوذ الخلافة في البلاد ومعالجة هذه الفتن ، ومحاولة القضاء عليها او تضييق دائرتها ، فكانت مثلا تحاول أن تحد من مظاهر احتفاء الشيعة بيوم عاشوراء (١) .

وكانت تستعين بنقباء الاشراف للاتصال بزعماء الفتنة ، فتطلب الى نقيب العباسيين ان يقنع اهل السنة بالكف عن العدوان ، وتطلب الى نقيب العلويين ان يمنع الشيعة (٢) .

وكانت ترسل بعض موظفي الديوان للتوسط في الصلح ، ولم تأنف من استخدام القوة اذا لزم الامر (٣) .

وكانت الخلافة حفيظة على هـذه السياسة حتى اضطربت الاوضاع الداخلية في العراق في الفترة الاخيرة من عمر الخلافة ، واشتد هذا الاضطراب في بغداد خاصة ، وفقدت الخلافة السيطرة على الامن ، ولعل ذلك مما قلل من فرص مقاومتها للغزو المغولي .

وقد انهارت السياسة الداخلية تماماً واشتدت الفتن والاضطرابات في السنوات الثلاثة الاخيرة ، بسبب الخطر المغولي المتزايد وعجز الدولة عن وقف تقدمه ، وانتشار الخوف والقلق بين الناس ، ويعطينا كل من السبط وابن الفوطي واليونيني وغيرهم صورة قاتمة جداً للأوضاع الداخلية في تلك الايام .

فيشير ابن الفوطي الى فتن عام ٦٥٢ هـ بين اهل الكرخ وباب البصرة واستمرارها حتى عام ٦٥٤ هـ .

---

(١) ابن الفوطي ص ١٨٣ - ١٨٤ ، ٢٤٨ .

(٢) ابن الجوزي جـ ٩ ص ١٣٧ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ١٧٢ .

(٣) اليونيني ص ٨٦ ، ابن الفوطي ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، ٣١٤ .

ويشير الديار بكري الى وقوع فتن مشابهة سنة ٦٥٥ هـ (١).

كل ذلك يشير الى ان العراق عامة واهل بغداد خاصة شربوا كأس هـذه الفتن الطائفية حتى الثمالة ، ولم تكن اسباب هذه الفتن قاصرة على الصراع الطائفي ، بل كان التعصب المحلي سبباً من اسباب حـــدوثها ، فيتعصب اهل المحلة لمحلتهم وتثور الفتن والمنازعات بين سكان المحلات ، ويضطرب الامن وتراق الدماء (٢).

وفي ابن الفوطي اشارات كثيرة الى ذلك النوع من الفتن . ففي سنة ٦٢٣ هـ وقعت الفتنة بين احياء بغـداد . « فيذكر الصراع بين محلة الرصافة ومحلة ابي حنيفة والخضيرين ، استظهر فيها اهل محلة ابي حنيفة والخضيرين على الرصافة وطردوهم الى باب المحلة وركبهم السيف فدهمهم الليل وازدحموا للدخول فمات منهم جماعة نحو ثلاثين نفراً وحصروهم ومنعوا ان يدخل اليهم شيء حتى الماء من دجلة فأضر بهم ذلك ، فنفذ الشحنة من زجر محلة ابي حنيفة وكفهم عن الشر ، ثم اقتتلوا بعـد ايام وجرح وقتل منهم جماعة ، واستظهر اهله ابي حنيفة والخضيرين على اهل الرصافة ، فباتوا تلك الليلة وعزموا على احراق محلة ابي حنيفة (٣) ، وعبر جماعة من اهل باب البصرة لمساعدة اهل الرصافة. ومن اهل الكرخ لمساعدة الخضيرين ، فحضر أصحاب الشحنة وكفوهم فتفرقوا ومنعوا اهل الرصافة ان يدخل اليهم شيء فبقوا على ذلك اياماً حتى اصلح بينهم » (٤).

---

(١) الخميس في احوال انفس نفيس ج ٢ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٢) وهو تعصب قبلي اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان سكان المحلة كان معظمهم ينتمون الى قبيلة واحدة استقرت فيها وقد تحمل المحلة اسم القبيلة نفسها كما هو باق حتى الآن في بغداد وغيرها من المدن العراقية .

(٣) أعتقد أن المقصود هنا محلة الرصافة إذ لا يستقيم المعنى بغير ذلك ، وان الخطأ قد يكون من الطبع .

(٤) ابن الفوطي ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

وكثيراً ما كانت تنقلب الاحتفالات الشعبية التي يخرج فيها اهل المحلات لصيد السباع الى معارك طاحنة وفتن مدمرة يكتوي بنارها اهل بغداد جميعهم «١» .

واشتد عدوان اللصوص (العيارين) وكان لهم عيون في الاسواق من الرجال والنساء يطوفون فيها ، فاذا رأوا احداً باع شيئاً تبعوه واخذوا ما معه ، واستفحل الامر حتى امتنع الناس من الخروج بعد مغيب الشمس «٢» .

ويذكر ابن الفوطي « انه كثر فسادهم في بغداد فكانوا يسلبون عمائم الناس ويأخذون ثيابهم من الحمامات ظاهراً ويقتلون من ظفروا به ، من أتباع صاحب الشرطة. وصار الناس معهم في ويل عظيم » «٣» .

الآن وقد انتهينا من الكشف عن السياسة الداخلية للخلافة ، سننصرف الى دراسة جانب آخر هام من الحياة السياسية ، وأعني به علاقات الخلافة الخارجية .

«١» ابن الفوطي ص ١٧٥ ، ابن الجوزي جـ ١٠ ص٢٣٥، _ الجامع المختصر جـ ٩ ص ١٤٦ - ١٤٨ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٦٨ ، ٣١٨ - ٣١٩ .

«٢» وقد بلغ خوف الناس من كبس اللصوص لهم ان محمد ابن ابي الفرج احضر بناءً وأمره ببناء دار يكون حائطها في غاية الاحكام والعرض بحيث اذا شرع العيارون في نقبه من آخر الثلث الاول من الليل يفرغون منه وقت السحر ، فجعل البناء عرضه ستة آجرات بالقالب الكبير ، فلما فرغ ، أمر جماعة ان ينقبوه ففرغوا منه نصف الليل فقال للبناء : زد ثلاث آجرات اخرى ، ابن الفوطي ص ٢٥٦ .

«٣» ابن الفوطي ص ٢٧٨ ، ٢٥٤ .

الباب الرابع

الخلافة والعلاقات الخارجية

أولا : — علاقات الخلافة بدول المشرق

١ – علاقة الخلافة ببقايا السلاجقة
٢ – علاقة الخلافة بالدولة الغورية
٣ – علاقة الخلافة بالدولة الخوارزمية
٤ – موقف الخلافة من الاسماعيلية

ثانياً — العلاقات مع الشام ومصر وجزيرة العرب

١ – الزنكيون
٢ – الأيوبيون في مصر والشام
٣ – علاقة الخلافة ببلاد اليمن
٤ – علاقة الخلافة بالحجاز

ثالثاً — علاقة الخلافة ببلاد المغرب

الباب الرابع

العلاقات الخارجية للخلافة

أولاً : — العلاقات مع المشرق :

١ — **علاقة الخلافة ببقايا السلاجقة في ايران** : — عندما توفي الخليفة المقتفي لامر الله سنة ٥٥٥ هـ كانت الخلافة قد ثبتت نفوذها في معظم أجزاء العراق بعد أن تخلصت من آخر محاولات السلاجقة لاستعادة مكانتهم فيها عند حصارهم الاخير لبغداد سنة ٥٥٢ هـ ، وقد أخفق هذا الحصار ثم توفي الملك محمد شاه بعده بفترة قصيرة وتخلصت الخلافة من اخيه ملكشاه الذي حاول أن ينتزع السلاجقة بعده (١) ، لكن مع هذا بقي خطر السلاجقة قائماً ، فقد كان كل زعيم سلجوقي يسعى لاستعادة مكانة السلاجقة القديمة في بغداد كي يكسب حكمه صفة شرعية ويتخلص من المنافسين له (٢) ، وتزعم الاتابكة رد الفعل السلجوقي ، وكان كل واحد منهم قد احتضن ولداً من ابناء السلاطين وأخذ يجمع الاعوان حوله محاولاً عن طريقه ان ينفرد بالزعامة بين السلاجقة (٣) .

وكانت سياسة الخلافة قائمة على إبقاء الفرقة بين هؤلاء الاتابكة لان اجتماعهم

---

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ٧١ .

(٢) الحسيني — اخبار الدولة السلجوقية ص ١٦٨ .

(٣) كان ابناء السلاطين موزعين على الاتابكة فكان الاتابك احمد يلي يقوم بتربية ولد محمد شاه والاتابك زنكي بن دكلا السلغري يحتضن محمود بن ملكشاه ، اما الدكز فقد تولى تربية ابن زوجته ارسلانشاه بن طغرل .

يجعل منهم قوة ، ولذلك دأب الوزير ابن هبيرة على مراسلتهم والتودد اليهم واغرائهم بالاتابكة الآخرين ووعد المنتصر منهم بأن الخلافة ستعترف به وتؤيده ، فتزداد بذلك ضراوة النضال بينهم (١) . وكان ابرز هؤلاء الاتابكة ، الدكز صاحب اذربيجان وأران الذي استطاع ان يجمع حول ربيبه ارسلانشاه بن طغرل قوة كبيرة سعى بها الى دار الخلافة يلتمس الفوز بالسلطنة ، والاعتراف بشرعية الحكم والخطبة له على المنابر فأثارت الخلافة عليه الامراء الآخرين وشغلته بحروب لا تنتهي (٢) ، وقد استمرت الخلافة تنتهج هذه السياسة مع ابنه البهلوان الذي تولى اتابكية طغرل بن ارسلانشاه فطردت رسله الذين قدموا بغداد سنة ٥٧٢ هـ (٣) .

ولكن سياستها تغيرت بعد وفاة البهلوان سنة ٥٨٢ هـ اذ تمرد طغرل على وصاية عمه الثاني قزل بن الدكز ، فالتزمت الخلافة جانب قزل وشجعته على طغرل الذي كثر جمعه واستهان بالخلافة وبعث رسله يطلب البيعة بالسلطنة فطردت رسله واستقبلت رسل قزل ووعدته بالمساعدة والتأييد ، وأرسلت له جيشاً بقيادة الوزير جلال الدين عبيدالله ابن يونس ليتسلم همدان ويضيفها الى املاك الخلافة ، ولكن الوزير وقع اسيراً في يد طغرل (٤) .

واستمرت الخلافة تشجع قزل وتثير المتاعب لطغرل حتى مل الحروب وأنهكت قواه فهرب من الميدان واعتزل الحياة (٥) ، فخلعت على قزل ولقبته « بالملك الكريم

---

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ٧٣ – ٧٤ ، ابن خلدون جـ ٣ ص ٥٢٢ .

(٢) ابن الاثير جـ ٩ ص ٩٧ – ٩٨ ، ابن خلدون جـ ٥ ص ٨٢ ، الحسيني ص ١٥٣ .

(٣) ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٥٤ ، حاشية رقم (٢) منقولة عن مرآة الزمان .

(٤) ابن الاثير جـ ٩ ص ١٨٩ ، ١٩٧ . الراوندي ص ٤٨٠ – ٤٨١ .

(٥) الراوندي ص ٤٩٢ – ٤٩٣ ، وقد حاول طغرل الاستنجاد بصلاح الدين –

والغازي الرحيم » وشجعته على تولي سلطنة السلاجقة بعد القبض على طغرل واعتقاله «١»
ولكنه لم يستطع ان يملأ الفراغ بعد أن خرجت عليه زوجته وأعوانه فقتلوه واخرجوا
طغرل من الاسر «٢» .

وسعت الخلافة لايجاد امير تضرب به طغرل وتضع لعدوانه حداً «٣» ، فوجدت
بغيتها في شخص خوارزمشاه تكش الذي كان يطمع في السلطنة فأسرع يلبي أمرها بعد
أن ارسلت له مرسوماً بولاية ما يفتحه من البلاد ، وحقق تكش آمال الخلافة فقضى
على طغرل وبعث برأسه الى بغداد سنة ٥٩٠ هـ ، فحققت الخلافة مأربها وقضى على
السلاجقة «٤» .

٢ – **علاقة الخلافة بالدولة الغورية** : – ظهرت هـذه الدولة في منطقة جبال
الغور حول مدينة فيروز كوه مستغلة ضعف الغزنويين وانهيارهم ثم انقسام السلاجقة «٥»

– على عمه قزل ، ولكنه لم يستطع الوصول اليه فنزل عند ابن قفجاق المجاور لاربل
وأرسل الى صلاح الدين الذي اعتذر عن مساعدته .

«١» الراوندي ص ٥٠٠ – ٥٠١ .

«٢» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢١٨ ، ٢٤٤ . الراوندي ص ٥٠١ ، البنداري ص ٢٧٧ .

«٣» لقد سعت الخلافة أولا الى اغراء ولدي البهلوان وهما مظفر الدين ازبك
وقتلغ اينانج ، ولكن عجز هؤلاء أمام طغرل وهروبهم دفع الخلافة الى الاستنجاد
بغير السلاجقة فكان اختيارها تكش ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٣٠ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ٩٤ .

«٤» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٣٠ ، البنداري ص ٢٧٨ ، الراوندي ص ٥١٣ ،
السبط جـ ٨ ص ٤٤٤ ، الذيل ص ٦ .

«٥» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٢ – ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٣ – ٣٤ ، ابو الفـــداء جـ ٣
ص ٢٥ – ٢٧ .

وكانت الفترة الاولى من عمر هذه الدولة فترة صراع مع بقايا الغزنويين والسلاجقة من أجل الاستقلال .

ويرتبط تاريخها الحقيقي بالاخوين غياث الدين وشهاب الدين اولاد بهاء الدين سام ، الذين تولوا السلطنة سنة ٥٥٨ هـ بعـــد وفاة ابن عمهما سيف الدين محمد بن الحسين «١» .

وقد انصرف الاخوان الى تثبيت سلطانهما في البلاد اولا ثم التوسع نحو بلاد الهند ثانياً «٢» ، وقد اكسبهم عملهم هذا احترام المسلمين وتقدير الخلافة وأبعدهم عن المنازعات السياسية والعسكرية التي كانت قائمة بين بقايا السلاجقة والخوارزميين ، ولكن الصراع على السلطة بين امراء الخوارزميين ، خاصة بين تكش واخيه سلطانشاه جرهم الى التدخل فيه ، خاصة عندما استنجد بهم سلطانشاه على اخيه ، فخفوا لنجدته وحاربوا تكش وانتصروا عليه «٣» .

وأعتقد انهم اتصلوا بالخلافة منذ ظهورهم ، فقد كانت الخلافة حريصة على الاتصال بأمراء الاطراف حتى فى فترة ضعفها ، ويبدو أنها كانت تبادلهم الرسل وتبارك نشاطهم في نشر الاسلام في الهند وسد الفراغ الذي تركه الغزنويون «٤» .

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٨٢ .

«٢» ابو الفداء ج ٣ ص ٧٧ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٦ .

«٣» لاحظ مفصل الصراع بين الغوريين والخوارزميين في ابن الاثير ج ٩ ص ١١٤ - ١١٨ .

«٤» لاحظنا فيما سبق ان الخلافة بالرغم من فقدانها السلطة الزمنية بقيت صاحبة السلطة الروحية على الناس وكان الامراء بالرغم من قوتهم يسعون للحصول على تشريف الخلافة ، كما انها كانت تهادي هؤلاء الامراء وترسل لهم الخلع ، لاحظ مثلاً ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٥ .

ولم يلعب الغوريون دوراً يذكر في الخلافة إلا بعد ان اختفى السلاجقة وحرص الخوارزميون على ان يرثوا نفوذهم في دار الخلافة ، وكان الخليفة الناصر لدين الله يبحث عن نصير يكف عادية الخوارزميين خاصة بعد ان اخفق الجيش الذي كان ارسله بقيادة وزيره ابن القصاب في توكيد هيبة الخلافة وتسلم نصيبها من مخلفات السلاجقة «١».

فوجد في الغوريين بغيته ، فأرسل الى غياث الدين ملك الغور وغزنة يطلب اليه ان يقصد بلاد خوارزم ليصرفهم عن العراق ، وقد أثمرت هذه السياسة ، اذ ان غياث الدين كتب الى تكش « يقبح له معاداة الخلافة ويهدده بقصده اذا لم يعد الى طاعتها » «٢» .

وكان من نتيجة ذلك ان انشغل الخوارزميون بالغوريون فتأخر زحفهم الى العراق نحواً من عشرين سنة «٣» .

ويخيل الى ان علاقة الغور بالخلافة كانت تختلف عن علاقاتها بالدول الاخرى ، اذ كان الغوريون يحترمون الخلافة ويرون طاعتها فرضاً مقدساً «٤» ، وكان ملوكها يمتازون بالتمسك بشعائر الدين ، وكان لرسل الخلافة مكانة في بلاط هؤلاء الملوك ، كما كان وجودهم في البلاد عاملاً من عوامل الاستقرار وإضفاء الصفة الشرعية على الحكم القائم ، فعندما حاول ألدز احد امراء الغوريين الاستئثار بالملك بعد وفاة شهاب الدين

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٠ – ٢٣٢ .

«٢» نفس المرجع ص ٢٤١ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٤٥ ، وكان الرسول الذي ارسلته الخلافة الى الغورية هو القاضي مجدالدين يحيي بن الربيع مدرس النظامية.

«٣» لقد تأخر زحف الخوارزميين نحو بغداد حتى سنة ٦١٤ هـ .

«٤» الجامع المختصر ج ٩ ص ١١٩ ، ابو المحاسن ج ٦ ص ١٨٤ ، لاحظ ايضاً اهتمامهم بالتمسك بشعائر الدين وتمييزهم بين المذاهب الاسلامية ، ابن الاثير ج ٩ ص ٢٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ – ٢٧٤ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ١٠٥ ، ١٧١ .

استعان برسول الخلافة لكي يحضر مراسيم تقلده السلطة « والزامه بالحضور لكي يستقر الناس » (١) ، وكان هؤلاء الرسل يقيمون فترة طويلة بتلك البلاد قد تستمر عدة اعوام (٢) .

وكانت هذه المكانة ايضاً تساعدهم على التدخل للمحافظة على حقوق الوافدين من التجار والعلماء (٣) .

وكانت وفاة الاخوين الحاكمين إيذاناً بنهاية الدولة الغورية (٤) ، اذ ان الانقسام بين امرائهم على الحكم شجع الخوارزميين على القضاء عليهم سنة ٦٠٥ هـ وأزالتهم من الطريق الذي اصبح أمامهم مفتوحاً الى ديار الخلافة .

٣ – **العلاقات مع الدولة الخوارزمية** : الامارة الخوارزمية من الامارات التي نشأت في كنف السلاجقة في اواخر القرن الخامس الهجري ، وكان امراؤها يتحينون الفرص للانفصال عن السلاجقة والاستقلال ببلادهم كلما وجدوا ضعفاً فيهم وانقساماً بين صفوفهم (٥) ، وكانوا يستعينون عليهم بقبائل الخطا الوثنيين في بعض

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٧٥ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ١٧٤ .

(٢) لاحظ ان مجد الدين بن الربيع رسول الخلافة أقام في سفرته الى الغورية سنة ٥٩٣ هـ اربع سنوات وثلاثة اشهر ، وفي الثانية اقام من سنة ٥٩٨ هـ حتى سنة ٦٠٠ هـ وفي الثالثة خرج في محرم سنة ٦٠١ هـ وبقي اكثر من سنتين ، وكذلك القول في سفارة ابنه ابي القاسم عبدالرحمن ، وسفارة ابي جعفر عمر بن ابراهيم التركستاني ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ٤٥ ، ٨٣ ، ١١٩ ، ١٤٣ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٩٧ .

(٣) ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٨٠ .

(٤) توفى غياث الدين سنة ٥٩٩ هـ وشهاب الدين سنة ٦٠٢ هـ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٥٩ ، ٢٧٢ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ١٠٥ ، ١٧٠ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ١١٠ ، ١١٢ ، التكملة لوفيات النقلة المنذري جـ ٢ ص ٤٣٣ .

(٥) ابن الاثير جـ ٨ ص ٣٦٤ ، ابوالفداء جـ ٣ ص ١٤ ، ابن خلدون جـ ٥ ص ٩٠.

الأحيان «١» ، فاذا ما عجزوا أمامهم عسكرياً تراجعوا يلتمسون الصفح والغفران ، وكانوا السبب في اضعاف السلطان السلجوقي سنجر وإظهار عجزه أمام قبائل الغز الذين اوقعوا به هزيمة ساحقة ووقع في الاسر ، فاستقل الخوارزميون بعد هذا استقلالا حقيقياً «٢» .

وقد كان من نتائج استعانتهم بالخطا على السلاجقة او على بعضهم البعض «٣» ان طمع الخطا ببلادهم فانشغلوا في دفعهم وفي الصراع على السلطة طيلة الفترة التي انتهت بوفاة سلطانشاه وانفراد اخيه تكش عام ٥٨٩ هـ ، ولم يستطيعوا القيام بدور هام في سياسة البلاد الاسلامية المجاورة قبل هذا التاريخ .

وقد بدأ التعاون بين الخلافة والخوارزميين في الوقت الذي انفرد به تكش بالحكم «٤» ، والتقت مصلحتهما في التخلص من طغرل بن ارسلانشاه الذي كان خطراً

«١» ابن الاثير جـ ٩ ص ٤ ، ٧ . ابو الفداء جـ ٣ ص ١٧ .

«٢» توفى السلطان سنجر في ربيع الاول ٥٥٢ هـ بعد هروبه من الاسر ، وقد تجلى استقلال الخوارزمية من الرسائل التي تبودلت بين خوارزمشاه ايل ارسلان مع محمود خان ابن اخت سنجر الذي تولى الحكم بعده ، لاحظ

Barthold . Turkestan , Downtothe Mongol Invasion . P . *332* .

«٣» تنازع بعد وفاة خوارزمشاه ايل ارسلان سنة ٥٦٨ هـ على السلطة ولداه سلطانشاه محمود الصغير وتكش الكبير الذي استعان على اخيه بالخطا وانتصر بهم ثم نكث وعده لهم فانقلبوا عليه لمصلحة اخيه الذي استعان بهم ايضاً ، انظر ابن الاثير جـ ٩ ص ١١٤ - ١١٥ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ٥٥

Barthold , *P* . *337 - 338* .

«٤» يجب ان نذكر ايضاً ان الخليفة المسترشد كان قد سعى الى تقوية صلاته بالخوارزمية عندما كان يصارع السلاجقة وذلك عندما ارسل بعض الخلع —

على الخلافة والخوارزمية على حد سواء ، إذ يبدو أنه اراد ان يردهم الى الطاعة السابقة «١» ، فلم يجد خوارزمشاه تكش بدأ من التعاون مع بعض ابناء الاتابكة للتخلص منه قبل أن تدعوه الخلافة للتعاون معها عليه «٢» .

لقد استعان الخليفة الناصر بتكش بعد ان عجز انصاره من امراء السلاجقة وأتابكتهم عن الوقوف في وجه طغرل ، فأرسل اليه يشكو طغرل ويطلب منه ان يقصد بلاده وفوضه حكم البلاد التي يفتحها «٣» ، واسرع تكش لتنفيذ امر الخلافة فاجتمع حوله الامراء السلاجقة الناقمون على طغرل . ثم كانت الحرب التي انتهت بصرعه وحمل رأسه الى بغداد عام ٥٩٠ هـ «٤» .

وكان من نتيجة هذه المعركة ان استولى تكش على البلاد ووزعها على مماليكه باعتباره وريثاً شرعياً للسلاجقة ، كما اصبح اقوى امراء المنطقة ، ولعل هذا قد دفعه الى الاستخفاف بالخلافة والتفكير في ان تكون له مكانة السلاجقة في بلاطها ، فلما قدم وزير الخلافة مؤيد الدين بن القصاب على رأس جيش لنجدته وتسلم نصيب الخلافة من

ـ لخوارزمشاه اتسز سنة ٥٢٨ هـ والتي استولى عليها طغرل السلجوقي ، لاحظ ابن الجوزي ج ١٠ ص ٣٥ .

Brown : A . Literary History of Persia . Vol . 2 . P . 426 - 427 .

«١» الراوندي ص ٥١٢ .

«٢» لاحظ استنجاد كل من قتلغ اينانج بن البهلوان واخيه مظفر الدين ازبك بتكش على طغرل ، ابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٠ ، ابو الفداء ج ٣ ص ٩٤ .

«٣» السبط ج ٨ ص ٤٤٤ ، الراوندي ص ٥١٣ ، البنداري ص ٢٧٨ ، الذيل ص ٦ .

«٤» الكازروني ـ مختصر التاريخ ص ٢٤٥ .

غنائم المعركة «١» ، ومعه الخلع والهدايا اساء خوارزمشاه استقباله ولم يلبس خلع الخلافة بل تعالى عليها واصبح في نظرها خارجاً عن طاعتها ، فأخذت تفكر جدياً في الخلاص منه ، واستغلت عودته الى خوارزم ومشاكله في شرق البلاد فأرسلت حملة يقودها وزير الخلافة احتلت خوزستان ، وانضم اليه بعض امراء السلاجقة الذين لم ينالوا ما كانوا يأملون فيه من تكش ، وشجعوه على التوغل في البلاد وكان عمال تكش ينسحبون أمامه دون قتال «٢» .

وطمع هؤلاء السلاجقة في الاستيلاء على البلاد بعد أن رأوا خلوها من الخوارزميين فاختلفوا مع وزير الخليفة «٣» الذي اشتبك معهم وهزمهم ثم استقر في همدان مريضاً حيث جاءه رسول خوارزمشاه تكش ينكر عليه تعرضه للبلاد ويطلب إعادتها .

«١» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٣٠ ، وأرى ان موقف الوزير لم يكن سليما عندما هرب ولم يستجب لتكش فيلبسه الخلع في معسكره . وقد كان عليه ان يضبط فلتات لسانه ان كان فعلا قد عزم على القبض على تكش عند حضوره الى معسكر الوزير ليلبس الخلع كما قيل ؛ على انه كان مخطئاً ايضاً في اتخاذ هذا القرار على فرض صحته ، لان تكش كان في قوة كبيرة ، ثم كان هروب الوزير بعد ذلك غير صحيح لانه اثبت التهمة على نفسه ، بل كان عليه ان يكون مرناً فيتقدم لالباسه الخلع في معسكره فيضرب بذلك الاشاعة التي راجت عن مؤامرته عليه ، ويحافظ على مظاهر الطاعة التي كان يعلنها تكش ، اللهم إلا اذا كان قد تصرف تصرفاً معيناً « قولا او فعلا » حيث لا يفيد نفيه او انكاره ولا ينجيه منه غير الهرب ، وقد كان من نتيجة هروبه ان تمزق ذلك الستار الرقيق من الاحترام الظاهري للخلافة التي اصبحت الآن وجهاً لوجه مع مطامع ورغبات تكش .

«٢» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٣١ ، الراوندي ص ٥٢٢ ، السبط جـ ٨ ص ٤٤٥ .

F. Teaschner. Inc. of Isl. Al. Nasir. P. 860 862.

«٣» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٣١ ، الراوندي ص ٥٢٣ .

واضطر خوارزمشاه بعـــد امتناع الوزير الى الزحف بجيشه الكبير فدخل همدان «١» بعد وفاة الوزير ابن القصاب «٢» ، ولم يكن جيش الخلافة قادراً على الوقوف في وجهه ، فهزم وعاد مخذولا الى بغداد «٣» .

ولكن كانت لتكش مشاكله الداخلية العديدة ومشاكله الخارجية مع الخطا ، فلم يجد بداً من السعي للتقرب من الخلافة واصلاح أمره معها ليشتد أزره بتأييدها ورضاها فأطلق الاسرى من جيش الخلافة وانعم عليهم واعلن « انه ايضاً عبد لاميرالمؤمنين فان اردتم ان تقيموا هنا فلتقيموا وإلا فاذهبوا » «٤» .

وكان يرجو ان يحمل ذلك الى الخليفة فيميل الى مصالحته ، لكن الخلافة كانت على علم بحقيقة المشاكل التي كان يواجهها وكانت تريد أن تبقيه غارقاً فيها .

يشير الراوندي الى رسـالة حملها مجير الدين البغدادي الى تكش عندما كان في همذان في ذلك الوقت تتضمن « تأكيد حق الخلافة في ملكية البلاد جميعها وتنصحه ان يقبل ما تنعم به عليه ، وتهدده بالكتابة الى امراء الامصار باعتباره خارجاً عن طاعتها فتراق الدماء » «٥» .

وقدحاول خوارزمشاه ان يستمر فيالتظاهر بالخضوع والطاعة « واكد للرسول انه ليس إلا شحنة من قبل الخليفة ولكن مسؤوليته كبيرة واعداؤه كثيرون وهو

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٢ ، الراوندي ص ٥٣٠ – ٥٣١ .

«٢» وقد توفى الوزير مؤيد الدين ابو عبدالله محمد بن علي بن احمد المعروف بابن القصاب في شعبان ٥٩٢ هـ ، انظر – المنذري ج ٢ ص ٤٥ – ٤٦ .

«٣» الذيل ص ٨ .

«٤» الراوندي ص ٥٣٢ .

«٥» نفس المرجع ص ٥٣٤ .

يلتمس من الخليفة ان يمنحه خوزستان لكي تكون كفاية لاتباعه »(١) فلم تلن قناة الخليفة بل ارسل احد قواده ويدعى سيف الدين طغرل فاحتل اصفهان (٢) .

كما شجع ابتعاد تكش عن مسرح الحوادث وانشغاله بالاطراف الشرقية لبلاده بعض الامراء المحليين على الخروج وطرد الحاميات الخوارزمية من البلاد ، وصادف هذا هوى في نفس الخليفة فكتب الى بعض هؤلاء الامراء الثائرين ويدعى كوكجا يطلب مقاسمته البلاد وخلع عليه واعترف بنفوذه ليكون حاجزاً بينها وبين تكش (٣) .

واستمرأت الخلافة هذه السياسة فاستقدمت ابا الهيجاء السمين احد قواد الايوبيين وجهزته للمسير الى همدان (٤) ، ولكن سوء تصرف ابي الهيجاء واعتقاله اعوان الخلافة من الامراء المحليين الذين كانوا قد كاتبوها بالطاعة ، افسد على الخلافة خطتها ونفر عنها اعوانها رغم ما بذلته من محاولات لاسترضائهم وارسال الخلع اليهم ، فضلاً عن ان ابا الهيجاء لم يستطع بعد ذلك البقاء في همدان فخرج عنها يريد بلاده اربل فأدركته المنية في الطريق .

فلما خابت هذه الاسلحة في يد الخلافة حاولت الاتصال بالامراء الخوارزميين انفسهم واغرائهم على تكش ونجحت في كسب مياجق احد قواد خوارزمشاه بعد ان اغرته بالسلطان واغدقت عليه الالقاب وكتبت الى علماء همدان تنعته « بالعادل ملك امراء الشرق والغرب ظهير امير المؤمنين وعبده قد استقر أن يكون نائباً في جميع

---

(١) الراوندي ص ٥٣٤ .

(٢) ابن الاثير ج ٩ ٢٣٤ .

(٣) نفس المرجع والصفحة ، وكان التقسيم ان يكون لكوكجا الري وساوة وقم وقاجان وان يكون للخلافة اصفهان وهمدان وزنجان وقزوين .

(٤) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٧ ، الراوندي ص ٥٤٠ ، السبط ج ٨ ص ٤٥٢ .

بلاد العراق » (١) .

كما استعانت الخلافة ايضاً بالخزر الذين كانوا في صراع مع الخطا حلفاء خوارزمشاه تكش وطلب الخليفة منهم ان يمنعوا تكش من دخول العراق (٢) ، فلم يجد ذلك كله في دفع خوارزمشاه عنها لذلك لجأت اخيراً الى الغوريين مستغلة الخصومات القديمة بينهم وبين الخوارزميين .

وكتب الخليفة الى غياث الدين الغوري « يأمره بقصد بلاد خوارزم ليعود عن قصد العراق » (٣) .

وقد أثمرت هذه السياسة ذلك ان تكش بعد ان هم بالاستنجاد بالخطا على الغوريين ضعف أمام الغوريين ومال الى مسالمة الخلافة ومهادنتها (٤) ، وقبلت الخلافة هذه التوبة فأرسلت له ولولده قطب الدين محمد الخلع وولاية ما بيده من البلاد (٥) ، ثم وصلها ابن اخيه سيف الدين يحمل اخلاص عمه وطاعته (٦) .

ولم تطل حياة تكش بعد هذه الهدنة الموقتة التي فرضت عليه بفضل تدخل

---

(١) الراوندي ص ٥٥٠ ، وقد استطاع تكش بعد ان صالح الخلافة ان يؤدب مياجق لخيانته فلاحقه من مكان لآخر حتى قبض عليه واكتفى بحبسه بعد ان شفع فيه بعض اصحابه ، ابن الاثير ج ٩ ص ٢٤٨ ، ويقصد بالعراق العجمي هنا ويشمل بلاد همدان واصفهان وزنجان وقزوين .

(٢) ابن كثير ج ١٣ ص ١٦ .

(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٤١ .

(٤) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٥) نفس المرجع ص ٢٤٨ .

(٦) الجامع المختصر ج ٩ ص ١٩ ، ٢٤ . وقد توفي سيف الدين عند رجوعه في منطقة خانقين .

الغوريين وحرمته من دخول بغداد والتي أخرت زحف الخوارزميين الى العراق قرابة عشرين سنة .

فخلفه ولده علاء الدين محمد «١» الذي كان يحمل اسم قطب الدين قبل ذلك ، والذي لم يكن اقل طموحاً من ابيه ، لكن المشاكل التي خلفها له ابوه كانت تمنعه من تحقيق اطماعه ، اذ كان عليه ان يصارع الغوريين ويقضي على خطر تدخلهم لصالح الخلافة وكان عليه ايضاً ان يتخلص من خطر الخطا حلفاء دولته التقليديين الذين كانت اطماعهم في البلاد غير خافية عليه ، هذا بالاضافة الى الثورات الداخلية التي كانت تقوم في وجه ولاته خاصة في المناطق المجاورة لحدود دار الخلافة «٢» ، ثم كان هروب ابن اخيه هندوخان والتجائه الى الغوريين ضغثاً على إباله «٣» ، فلم يجد بداً من التظاهر بطاعة الخلافة والحفاظ على الهدنة التي فرضت على ابيه من قبل ، وكانت الخلافة تراسله وتعلن استعدادها للتدخل وفض النزاع بينه وبين الغوريين «٤» ، لولا ان كشف عن خبيئة نفسه بعد وفاة ملكي الغورية الذين كان يخشى بأسهما «٥» ، يدل على ذلك ما يشير اليه الصفدي من اعتراض علاء الدين محمد على ما امرت به الخلافة من عزل ولي العهد ابي نصر محمد مدعياً « انه لم يثبت عنده موجب لعزله بعد ان صحت توليته » واتخذ من هذا العمل حجة لطرق العراق بالعساكر ليرد خطبته » «٦» .

«١» توفي خوارزمشاه تكش في رمضان ٥٩٦ هـ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٢٥٠ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٣٤ .

«٢» كما حصل من ثورة اهل اصفهان على اخيه علي شاه .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٥٠ ، ابو الفداء ج ٣ ص ١٠٤

«٤» الجامع المختصر ج ٩ ص ١٤٣ .

«٥» وهما غياث الدين المتوفى سنة ٥٩٩ هـ وشهاب الدين سنة ٦٠٢ هـ .

«٦» الصفدي ـ الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٩٥ ـ ٩٧ ، وقد تم العزل في ١٤ جمادى الاولى سنة ٦٠١ هـ .

ويشير اليه أبن الساعي ايضاً عند وصول نظام الدين محمد بن عبد الكريم السمعاني رسول خوارزمشاه « ورفضه تقبيل العتبة فاهين وألزم بتقبيلها » «١» ، ولم يستطع علاء الدين محمد ان يقوم بأية محاولة عسكرية سافرة اذ كان عليه ان يسرع بتصفية علاقاته مع الغورية الذين انقسموا على انفسهم وتنازعوا السلطة ، كما كانت حروبه المتصلة مع الخطا تستنفد كل جهوده «٢» ، فظل في هذه الفترة محافظاً على صلته بالخلافة يبادلها الرسـل والهدايا «٣» ، علها تحقق بغيته في الخطبة له ، ولكن الخلافة أبت عليه ذلك «٤» .

وعلى كل حال فقد استطاع ان يفرغ للغوريين فيخلص من خطرهم ومن خطر أخيه علي شاه الذي كان قد التجأ اليهم «٥» ، ثم لاحق الخطا فقضى عليهم وان كان ذلك قد جره الى التعاون مع قبيلة من قبائل المغول «٦» .

«١» الجامع المختصر ج ٩ ص ١٦٧ – ١٦٨ . وكان وصوله في رمضان ٦٠٢ هـ .

«٢» من الاخطار التي تعرض لها انه سقط اسيراً بيد الخطا فأخفى شخصيته ولجأ الى الحيلة حتى خلص منهم .

«٣» الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٦٢ .

«٤» يشير النسوي ص ٥٠ الى ذلك عندما ينقل ما حكاه القاضي مجير الدين عمر ابن سعيد رسول خوارزمشاه الى بغداد قال : كان آخر رسالاتي اليها مطالبة الديوان بالخطبة فأبوا ذلك وانكروا كل الانكار .

«٥» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٩٤ ، ٣١٠ . الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٤٠ ، ابوالفداء ج ٣ ص ١١٥ ، ١٢٣ . كان علي شاه قد التجأ الى غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد لانه كان قد اعلن عن سلطنته عندما فقد أخوه في واقعة الخطا ، فلما ظهر سالماً خاف علي شاه منه فالتجأ الى الغوريين الذين استسلموا لخوارزمشاه الذي قتلهم .

«٦» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٩٥ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٤٢ ، ابو الفـداء ج ٣ ص ١١٦ . وهم اصحاب كشلي خان الذين تورط معهم علاء الدين واصبح خطرهم ـ

وما أن تم له هـذا حتى أنصرف الى النواحي الغربية من البلاد التي تجاور ديار الخلافة لكي يعيد تأكيد نفوذه فيها بعد ان قتل الاسماعيلية عامله اغلمش(١) ، ثم ليتوجه الى بغداد ليفرض سلطانه عليها ، وقد ادركه في الطريق رسول الخلافة الشهروزي وحاول ان يقنعه بالعودة الى طاعة الخلافة ، فلم يفلح وأصر على المضي الى بغداد (٢) .

— يهدد البلاد بعد اختفاء الخطا من أمامهم ، وقد فرض عليه هذا الوضع الجديد أن يقيم فترة طويلة من السنة وخاصة في الصيف على حدود البلاد الشرقية لمراقبة تحركاتهم ودفع خطرهم ، وقد دفعه حرصه على حماية البلاد على التنكر ودخول بلادهم فقبض عليه مع اصحابه وقتل بعضهم ونجا هو هرباً منهم ، ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٠٨ ، الذهبي ـ دول الاسلام جـ ٢ ص ٨٦ ، ابن كثير جـ ١٢ ص ٦٥ .

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ٣١٢ ، النسوي ص ٥٢ – ٥٣ . وهو يشير الى ان مقتله كان بعد رفض سفارة الشيخ الشهرزوري ، ويتهم بارثولد الخليفة بشكل غير مباشر بتدبير مقتل اوغلمش كمحاولة منه لخلق الفوضى أمام خوارزمشاه ، وليس بعيداً أن يفعل الخليفة ذلك لكي يمكن الامراء المحليين وهم الاتابك ازبك بن البهلوان وسعد بن زنكي من الاستيلاء على هذه البلاد ليكونا حاجزاً بين الخلافة وخوارزمشاه ، بالاضافة الى ان الاسماعيلية في هذه الفترة كانوا قد دخلوا في طاعة الخلافة ورجعوا الى الاسلام ، فليس غريباً ان يهبوا لنجدة الخلافة عندما يطلب منهم ذلك ، علماً بأن خوارزمشاه كان خطراً عليهم ايضاً ، ويجب أن نذكر ان اغلمش كان مملوكا لازبك الذي كان قد سلمه البلاد بعد ان استبد بها مملوكه منكلي وعصى ، فانتزعها منه بالتعاون مع جيش الخلافة والاسماعيلية سنة ٦١٢ هـ . ويظهر ان اغلمش استبد بها ايضاً ثم انتمى الى خوارزمشاه الذي ابقاه نائباً فيها فدبر الازبك عملية التخلص منه بالطرق المتبعة آنذاك . ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، تاريخي كزيدة ص ٣٦٩ – ٣٧٠ .

Barthold .P. 374 . Teaschner . Inc . of . Isl . Al . Nasir. P . 861 .

(٢) النسوي ص ٥٠ ـ ٥٢ ، دول الاسلام جـ ٢ ص ٨٧ ، ابو المحاسن جـ ٦ ص ٢١٩
Barthold . P . 333 - 334 .

وعمد الى محاولة كسب الرأي العام وأثارته على الخلافة فقام بدعاية واسعة للتشهير بها عندما اعلن انه عثر على وثيقة في غزنة تثبت تحريض الغوريين على مهاجمته ، واتخذ من ذلك ذريعة للتشكيك في شرعية حكم الخليفة العباسي ، وطالب بعزله لانه يقوم بتحريض المسلمين بعضهم على بعض .

وأفتى رجال الدين في بلده بأنه طاعة الخليفة غير ملزمة لاحد ، ثم عاد الى ترديد الآراء التي تنادي بأن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من بني عمومتهم العلويين ، وان عليه وهو سلطان المسلمين كما تقول الفتوى « ان يعيد الفتوى الى اصحابه الشرعيين » لذلك وقع اختياره على احد العلويين ويدعى علاء الملك الترمذي وبايعه خليفة للمسلمين بدلا من الخليفة العباسي الذي قطعت الخطبة له «١» . وفي الوقت الذي اصبح فيه قاب قوسين او أدنى من النصر ، وقفت الاقدار له بالمرصاد ، فواجهته ظروف مناخية غير متوقعة بعد مفارقته همدان بأيام قليلة عندما هطلت الامطار وسقطت الثلوج فأهلكت رجاله ودوابه وتخطف الباقين منهم سكان المنطقة من اتراك واكراد ، فتطير خوارزمشاه مما اصابه وانهارت عزيمته ، واضطر أن يعود من حيث أتى «٢» ، وأشاع الناس ان ذلك من غضب الله عليه لجرأته على بني العباس .

---

(1) Barthold ., P . 374 - 375 .
Teaschner . Inc . of . Isl . Al . Nasir . P . 861 .
ويجب ان نلاحظ ان المصادر العربية المعاصرة كابن الاثير والنسوي لم تشر الى هذه الاجراءات التي قام بها خوارزمشاه ، ولعل زوال مفعولها السريع واستنكار الناس لها هو الذي دفعهم الى عدم الاشارة اليها بالاضافة الى مساسها بشخص الخليفة .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٣١٢ - ٣١٣ ، السبط ج ٨ ص ٥٨٢ - ٥٨٣ ، الذيل ص ١٠٠ - ١٠١ ، النسوي ص ٦٤ ، ابو الفداء ج ٣ ص ١٢٤ ، دول الاسلام ج ٢ ص ٨٧ ، تاريخي كزيدة ص ٤٩٦ .

قال ابن الاثير : « وهذا من جملة سعادات هذا البيت العباسي الشريف ، لم يقصده احد بأذى إلا لقيه فعله وخبث نيته ، لا جرم لم يمهل هـذا خوارزمشاه حتى جرى له ما نذكره » (١) .

لكن بعض المؤرخين حاولوا ان يفسروا هذا الارتداد السريع لخوارزمشاه بأن بلاده تعرضت لخطر العدوان من القبائل المجاورة لها ، ويرمون الى اتهام الخليفة الناصر بالذات بأنه كان قد اتصل بزعماء هذه القبائل يحرضها على مهاجمة خوارزمشاه ، وان الخليفة الناصر بدلا من مواجهة الخطر الذي تهدده لجأ الى مفاوضة جنكيزخان ليقوم بالهجوم على خوارزمشاه وان هذا الهجوم قد حدث فعلاً سنة ٦١٦ هـ (٢) .

ويفسر بارتولد هذا الارتداد بخوفه من هجوم هذه القبائل على بلاد ما وراء النهر ولكنه يذكر في حاشية كتابه ان الخليفة الناصر استعان ببطريق النسطوريين وبعث معه رسالة الى الملك داود يطلب اليه فيها مهاجمة مؤخرة خوارزمشاه ، وقد صدع الأمر وارغم خوارزمشاه على الارتداد (٣) .

---

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ٣١٣ ، النسوي ص ٦٤ ، لاحظ تعليله للأحداث التي اصابت الجيش .

(2) *Teaschner . 1st . P . 861 .*

(٣) وجاء في الحاشية رقم (٣) ما يلي :

Barthold . *P . 375 .*

في تقارير بطريق عكا يعقوب دفتري المعاصر ، قيل : ان الخليفة بموجب اتفاق مع بطريق النسطورين ارسل رسولاً بسرعـة الى الملك داود الذي كان قد قهر خان الخانات ، وبتأثير هذا الرسول بدأ الملك داود الحرب ضد خوارزمشاه لكي يرغم الاخير على العودة الى مقاطعاته انظر كذلك *Broune* ـ الترجمة العربية لتاريخ الادب الفارسي جـ ٢ ص ٥٥٦ فانه يشير الى ما نقله عن المقريزي حول اشـارة ابن الاثير العارضة في اتهام الخلافة .

اما المؤرخون العرب «١» فلم يقطعوا برأي حاسم في الموضوع ، انما نقلوا الخبر على احتمال ان يكذب او يصدق وأعتقد أن جميعهم نقلوا ما ورد في ابن الاثير من الشك في حقيقة موقف الناصر من العدوان المغولي على البلاد ، وأعتقد أن رأي المستشرقين سالف الذكر جاء من دراستهم لسياسة الناصر وما دأب عليه من الاستعانة على خصومه بالامراء المجاورين ، فافترضوا انه لابد ان يكون الخليفة قد استعان بالمغول بعد ان يئس من مساعدة الامراء المسلمين الذين عجزوا واستسلموا لخوارزمشاه الذي اصبح قاب قوسين او أدنى من بغـــداد ، ثم كان تعرض المغول لخوارزمشاه ومهاجمتهم البلاد الاسلامية وموقف الخلافة الشامت من الاحـداث الجارية معززاً لهذا الظن «٢» .

واذا رجعنا الى ما ذكره ابن الاثير في تعليل خروج المغول واسباب ذلك نجده يقول ما نصه«٣» : « وقيل في سبب خروجهم الى بلاد الاسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر ، ثم ينشد :

فكان ما كان مما لست اذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر »

«١» مثل ابي الفداء ج ٣ ص ١٤٣ ، ابن خلدون ج ٣ ص ٥٣٥ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٢١٨ ، انسان العيون في مشاهير القرون الورقة ٢ - ٤ . اما الصفدي ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٧ فانه جعل الاتهام موجه الى الوزير مؤيد الدين بن القمي الذي انفذ على ما قيل في السر من حسن لجنكيزخان التعرض للسلطان علاء الدين فتم ما كان وآل الامر الى ما آل .

«٢» يشير ابن الساعي في مختصره ص ١٠٩ الى ان من غريب ما يحكى عنه انه لما ملكت التتار البلاد دخل عليه الوزير فأخبره بذلك فقال : دعني أنا في شيء أهم من هذا ، طيرتي البلقاء لي ثلاثة ايام ما رأيتها ، انظر ايضاً ابو المحاسن ج ٦ ص ٢٦١ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٣١ .

ثم يستطرد في الحديث عن وفاة الخليفة فيقول«١» : « وكان سبب ماينسبه العجم اليه صحيحاً من انه هو الذي اطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب » ومنه يتبين ان ثمة شك في موقف الخليفة ، فهل كان ابن الاثير يريد ان يتهم الخليفة باستدعاء المغول ؟ أم انه كان يرمي الى اتهامه بالتقصير في واجباته كخليفة للمسلمين وتقاعسه في الدفاع عن البلاد ؟. ويبدو ان اتهام الخليفة بالاتصال بالمغول مصدره (العجم) اي الخوارزميين خصوم الخليفة واعداؤه ، ورغم ان ابن الفرات حاول ان يفسر كلام ابن الاثير على انه اتهام للناصر باستدعاء المغول ، وان ابن الاثير لم يستطع ان يجاوزالتلميح الى التصريح خوفاً من غضب الخليفة ، فانه لم يقطع بصحة الخبر ولا بصدق الرواية حين قال : « والله اعلم بالحقيقة » «٢» .

وأعتقد ان هذا الاتهام ينصرف الى تقصيره الواضح وعدم تقدير مسؤولياته كخليفة للمسلمين «٣» وتقاعسه المتعمد عن الخطر الذي هدد البلاد بعد ان اعماه الحقد على خوارزمشاه فسهل بذلك على المغول القضاء على هذه الامارة الاسلامية ، واستبعد ان يكون الخليفة قد اتصل بالمغول ، اذ لو فعل لاوفد الرسل اليهم ولما خفي ذلك على المعاصرين ، فضلا عن ان الرسول كان يجب ان يمر ببلاد خوارزمشاه قبل ان يصل

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦١ .

«٢» ابن الفرات ـ تاريخ الدول ج ٩ الورقة ٩٨ .

«٣» لاحظ التورية التي حاول أن يعبر بها ابن الاثير عن قصده ص ٣٣٠ بعد أن يعدد مصائب المسلمين فيقول : « نسأل الله ان ييسر للاسلام والمسلمين نصراً من عنده ، فان الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معدوم » . وفي ص ٣٣٦ يقول : « يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دفعوا من العدو الى عظيم ومن الملوك المسلمين الى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه » .

الى ديار المغول «١» :

ولم يشر المؤرخون المعاصرون من المسلمين وغيرهم الى اي اتصال من هـــذا النوع «٢» ، وكان الاولى بالنسوي وهو الذي عاصر هذه الاحداث وارخ لها ان يشير الى هذا الاتهام لو كان قد حدث فعلا «٣» ، يضاف الى هذا كله ان علاقة خوارزمشاه علاء الدين محمد بالمغول كانت قائمة قبل ان يتوجه الى بغداد ، اذ بعد ان تعاون معهم في القضاء على الخطا ، اشتبك معهم في معارك عـدة «٤» ، وحاول ان يعقد اتفاقية

«١» لاحظ سعة البلاد التي امتلكها خوارزمشاه في هذه الفترة والتي كانت تحد بلاد الاسلام من جهات الشمال الشرقي والشرق والجنوب الشرقي ، ابن الاثير ج ٩ ص ٣٣٤ ، النسوي ص ٧١ – ٧٢ يشير الى قيام خوارزمشاه بتوزيع بلاده بين ابنائه ، دول الاسلام ج ٢ ص ٩١ في الحديث عن وفاته .

«٢» من المؤرخين المسلمين الذين عاصروا هذه الفترة اضافة لابن الاثير والنسوي الدبيثي وسبط ابن الجوزي وابن شداد وابي شامة . وفي الدرجة الثانية يأتي ابن الساعي وابن واصل واليونيني وابن الطقطقي . ومن المسيحيين ابن العبري ، ولا يجب ان نغفل ان المؤرخين الصينيين الذين رافقوا حملة جنكيزخان وأولاده وأرخوا لهم تاريخهم لم تكن مدوناتهم مجهولة للمؤرخين المسلمين الذين خدموا المغول فيما بعد .

«٣» يشير النسوي في آخر السيرة ص ٣٨٦ ، الى انه انتهى من تأليف الكتاب سنة ٦٦٧ هـ وكان اولى به ان يشير الى تقرير الاتهام وتفصيل طريقه لو كان معتقداً وجوده ، انظر ما نقله ابو المحاسن ج ٦ ص ٢٦٠ عن سبط بن الجوزي وحديثه مع الملك المعظم عيسى الايوبي الذي قال : « كتب إلي جلال الدين يقول : تحضر انت ومن عاهدني فنتفق حتى نقصد الخليفة فانه كان السبب في هلاك المسلمين وابي وفي مجيء الكفار الى البلاد ووجدنا كتبه الى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل » .

«٤» النسوي ص ٤٦ . وهو يشير الى هذه الحرب بأنها كانت سنة ٦١٢ هـ بينما يشير ابن الاثير اليها في احداث سنة ٦١٧ هـ وأعتقد ان النسوي في هذه الموضوعات اكثر دقة واطلاعاً بحكم قربه منها والتصاقه برجالها .

للتجارة المتبادلة بين البلدين وكان يسأل الرسل الذين أوفدهم أو استقبلهم عن احوال المغول ومبلغ قوتهم «١» .

ولم يكن المغول بحاجة الى تحريض الخلافة لهم ليغيروا او يغزوا ، ذلك ان البيئة القاسية التي عاشوا فيها كانت دائماً تدفعهم الى الغزو التماساً للرزق ومهرباً من قسوة الحياة «٢» .

وفي الوقت الذي كان فيه جنكيزخان ينقل الدمار الى الصين كانت موجة من المغول قد وصلت الى الديار الاسلامية وتعاون معهم خوارزمشاه للتخلص من الخطأ على النحو الذي بيناه «٣» ، ثم اختلف معهم على الغنيمة ، ولم ينقذه منهم غير تعرضهم لغزو بني عمومتهم جماعة جنكيزخان الذين قضوا عليهم واصبحوا وجهاً لوجه مع خوارزمشاه فكانت مشاكل الحدود ، وكانت محاولة تأمين طرق التجارة وتنظيمهم باتفاقية خاصة

«١» النسوي ص ٨٣ - ٨٤ ، ابن العماد الحنبلي ج ٥ ص ٦١ ، بارتولد - تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٥٩ .

Barthold . P . 393 - 397 .

وكان رئيس وفد خوارزمشاه الى جنكيزخان بهاء الدين الرازي بينما كان وفد جنكيزخان الى خوارزمشاه يتألف من محمود الخوارزمي ، وعلي خواجا البخاري ، ويوسف كنكا الاتراري .

«٢» فقد سبق ان خرجت بعض موجاتهم للغزو فنقلوا الخراب الى اوربا كما حدث ذلك في اواخر القرن الخامس الميلادي عندما خرجت قبائل التيوتوتك او الهون البيض التي قضت على الامبراطورية الرومانية .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ، وهي الموجة التي كان ملكها كشلي خان وقد مرت الاشارة اليها .

حتى تصل « الميرة والكسوة اليهم » (١) ، ولكن العدوان المستمر على متاجرهم خاصة هو الذي عجل بهجومهم على البلاد الاسلامية (٢) ، وكان الرعب والخوف الذي سيطر على خوارزمشاه من المغول هو الذي جعله عاجزاً عن التفكير في وضع خطة عسكرية لمجابهة زحفهم ، فكان ان وزع جنوده على المدن لتحميها ، وانسحب الى الداخل ليعلن النفير بين المسلمين ، فتمكن المغول من القضاء على هـذه الحاميات المتفرقة واندفعوا كالاعصار الى ديار المسلمين ، وكان خوارزمشاه في مقدمة الهاربين منهم حتى ادركه الموت في احدى جزر بحر ابجة فمات غريباً فقيراً (٣) ، واستطاع ابنه الكبير جلال الدين ان يجمع حوله بعض الجنود وينتصر على المغول في بعض المعارك قرب غرنة ، لكن اصحابه انفضوا عنه فانسحب هارباً الى الهند بينما اعتصم ابنه الثاني غياث الدين باصفهان حتى رحل المغول فملك البلاد المجاورة له حتى كرمان .

ولما خرج جلال الدين من الهند سنة ٦٢١ هـ استقر في كرمان اولاً ثم نازع اخاه غياث الدين وانفرد بحكم البلاد بعد ذلك ، ويظهر ان النكبة التي حلت بالبلاد لم تؤثر فيه فبدلا من ان يجمع الصفوف لمواجهة المغول ، جعل همه ان يهاجم الخلافة وينتقم منها ، فهاجم

---

(١) انظر فيما يتعلق بالاتفاقية التجارية النسوي ص ٨٣ ـ ٨٤ ، ابن العماد الحنبلي جـ ٥ ص ٦١ .

Barthold · P. 393 - 397 ·

اما بالنسبة لقطع الميرة والتموين ، فانظر ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٣١ .

(٢) ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ ، النسوي ص ٨٥ ـ ٨٦ . مع العلم ان سياسة المغول كانت تهدف الى فتح العالم واخضاعه لاسرة جنكيزخان ـ انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ م ٢ جـ ١ ص ٢٣٣ . وكان الكرج يتعرضون لنفس الهجوم الكاسح في نفس الوقت الذي يتعرض فيه المسلمون ـ انظر ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٣٦ ، ٣٣٩ـ٣٤١ .

(٣) ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٣٤ ، النسوي ص ٨٩ ـ ٩١ ، ١٠٤ ـ ١٠٨ .

خورزشان وحاصر مدينة تستر وعاث جنوده فساداً في البلاد وأرسل رسولاً الى دار الخلافة يحمل رسالة وصفها النسوي « بأنها رسالة تعنت وتعتب » ثم سار شمالا بعد ذلك حتى قرب من بغداد فلم يهاجمها بل واصل السير حتى حاصر داقوقاً ونهبها ثم انسحب الى اذربيجان «١» ، فلم تجد الخلافة بدأ من تشجيع الاتابك ايفان طائسي خال اخيه غياث الدين على مهاجمته وأقطعته بلاده «٢» ، ثم بقيت تستنجد بامراء المسلمين «٣» .

ويظهر ان الحقد على الخلافة كان قد غلب على جلال الدين فملك عليه عقله ، واعتقد ان الخليفة كان السبب في ما حل بالمسلمين من الهلاك وانه كاتب الخطا وشجعهم على مهاجمة ابيه وأقطعهم البلاد ، فاتجه الى المعظم عيسى الايوبي الذي كان يبيت على خوف وكره لاخويه الكامل والاشرف وطلب اليه ان يعاونه في مهاجمة بلاد الخليفة ، لكن المعظم رفض التعاون معه وكان جوابه « انني معك على كل احد إلا على الخليفة فانه إمام المسلمين » «٤» .

ثم كانت وفاة الخليفة الناصر نهاية لهذه العداوة ، فعادت المراسلات مع الخلافة

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، النسوي ص ١٩٢ - ١٩٣ . وكان الرسول هو ضياء الملك علاء الدين محمد العارض .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٥٨ ، النسوي ص ١٩٣ ، ابن خلدون ج ٥ ص ١٢٦ ، ويشير ابن الاثير الى ان الخلافة شجعت هذا الاتابك على القيام على ابن اخته غياث الدين عندما انفرد بالملك ص ٣٥١ .

«٣» رسائل ابن الاثير - ضياء الدين ص١٧ - لاحظ الملحق - رسالة بدرالدين لؤلؤ - ويشير فيها الى عدم استطاعته نجدة الخلافة بجنوده ولكنه انجدها بدعائه ، وانه لا يخاف على الديوان العزيز عدواً .

«٤» النسوي ص ٢٠٩ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٢١٦ ، ابو المحاسن ج ٦ ص ٢٥٧ ، ٢٦٠ .

في عهد الظاهر الذي بعث برسولين لجلال الدين ليأخذ البيعة له ، ثم طلب ان يبقى احدهما في ديوانه ممثلا له ، وان يعود الثاني مع رسوله لتسلم خلع الخلافة وهداياها ، ثم حالت وفاة الخليفة دون وصول هذه الخلع «١» وجمدت العلاقة بينهما .

ولم تكن الخلافة قد قطعت صلتها في هذه الفترة بخصوم جلال الدين الذين كانوا لا يفتأون يستجيرون بها ، فعندما هرب غياث الدين من المعركة وغدر بأخيه وهو يستعد لمواجهة المغول لجأ الى خوزستان طارقاً أبواب الخلافة التي اكتفت بالانعام عليه ببعض المال «٢» .

وكان جلال الدين في هذه الفترة لايملك خطة عمل واضحة يسير عليها ، ويخيل الي انه كان يعيش في وضع نفسي لا يحسد عليه ، فقد كان فكره موزعاً بين الانتقام من المغول والتخلص من خطرهم وتأديب الكرج ، والحذر من امرائه واهله الذين ينافسونه في مملكته ، وكان في نفس الوقت يريد ان يتميز على ملوك المسلمين ويفرض نفسه على الخلافة ، وقد قاده هذا القلق الى ان يضرب يميناً وشمالا متنقلا من ساحات المغول الى قلاع الكرج الى بلاد الايوبيين مما اضعف من قوته وجعل من امراء المسلمين خصماء له .

«١» النسوي ص٢٨٠ ، وهو يشير الى ان عملية الاتصال تمت قبل وصول هذين الرسولين ، حيث يذكر وصول رسول من الخلافة قبل ذلك بالرغم من الشك في رسالته والى ان جلال الدين ارسل قاضيه مجير الدين الى بغداد في رسالة ظاهرة ، بينما كان يريد ان يحقق من ايفاده عملا آخراً ، انظر ص ٢٢٠ ، ٢٥٣ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٢٧٥ ، النسوي ص٢٤٢ ، ابن خلدون ج ٥ ص ١٣٢ . لاحظ الخلاف فى موقف الخلافة بين ابن الاثير والنسوي ، فبينما يشير ابن الاثير الى ان نائب الخلافة في خوزستان منعه من الدخول . يشيرالنسوي الى ان الخلافة استقبلت وزيره ورحبت به وأنعمت عليه .

وسعت الخلافة عندما تحسنت علاقتها به في زمن الخليفة المستنصر بالله الى التوفيق بينه وبين الايوبيين ورفع الحصار الذي فرضه على خلاط ، ولكنه رفض متعللاً بقرب فتحها ، بينما وافق على شروط الخلافة الاخرى ، وكان كل ما طلبه من الخلافة ان يميز بتشريف على سائر الملوك فأجيب الى طلبه «١» ، واصبح جلال الدين بعـد ان لبس خلع الخلافة اكثر طاعة لاوامرها ، فعندما وصله رسول الخلافة يشفع في المأسورين من بني ايوب بعد فتح خلاط ، اطلق احدهم وأبقي الثاني مكرماً لديه «٢» .

ولقد كان من الممكن ان يكون الصلح بين الخلافة وجلال الدين عاملا على تقوية الجبهة الاسلامية أمام المغول ، لو أن جلال الدين تخلى عن أنانيته ورغبته في اخضاع الامراء المسلمين لزعامته وتمسك بطاعة الخلافة ، لكن غروره دفعه الى ان يحارب هؤلاء الامراء ، فهزم أمام الاشرف وحلفائه وارتد الى اذربيجان «٣» ، وعرض الاشرف الصلح رغم هذا النصر فوافق جلال الدين وتبودلت الرسائل بينهما «٤» ولقد أثرت هذه الهزيمة في معنوياته كما أثرت في مكانته بين انصاره واعوانه فضلا عن تحفز اعدائه من الاسماعيلية والمغول «٥» .

«١» النسوي ص ٣٠٤ - ٣١٠ ، لاحظ تفصيل خلع الخلافة له ، لاحظ كذلك شروط الخلافة وهي إعادة الخطبة ورعاية صاحبي الموصل واربل وشهاب الدين سليمانشاه ملك الايوائية ، وعماد الدين بهلوان ملك الجبال باعتبارهم اولياء الديوان ، لاحظ ايضاً ابن الفوطي ص ٤ ، ١٤ . ابن خلدون جـ ٥ ص ١٣٩ .

«٢» السبط جـ ٨ ص ٦٧٠ ، النسوي ص ٢٢٨ ، المقري الفيومي الورقة ٢٥ .

«٣» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٨١ ، النسوي ص ٣٢٩ - ٣٣٢ .

«٤» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٨٢ ، النسوي ص ٣٢٣ - ٣٣٥ ، لاحظ رأي الاشرف واعترافه بمكانة جلال الدين وانه مثل السد بين المسلمين والمغول .

«٥» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٨٣-٣٨٦ ، لاحظ التعاون بين الاسماعلية والمغول —

وأحس جلال الدين آخر الامر بأن عليه أن يستعين بالخليفة وبالاشرف وبغيره من امراء المسلمين الذين لم يترك في قلوبهم بقية من رحمة تنفعه في تلك الايام التي تعقبه فيها المغول«١» أينما رحل للقضاء عليه كما فعلوا مع ابيه من قبل ، ولم يستطع جلال الدين ان يثبت أمام المغول بعد أن تفرق عنه اصحابه وجنوده وقد كان يفكر في الوصول الى دار الخلافة مستجيراً بها بعد ان يئس من مساعدة الايوبيين «٢» ، ولكنه لقي مصرعه وحيداً قرب ديار بكر إذ قتله بعض الاكراد انتقاماً لثأر قديم فانطوت بذلك صفحة الخوارزميين .

٤ - **موقف الخلافة من الاسماعيلية** : - كانت الدعوة الاسماعيلية «٣» قد وجدت في ايران تربة خصبة حيث الشيعة الامامية الذين كانوا يعيشون في ظل اوضاع سياسية لا تتفق وآمالهم ، فكانوا يجدون في نشاط الدعاة الاسماعيلية ما ينفس عن

- انظر ايضاً السبط جـ ٨ ص ٦٦٦ ، ٦٦٩ . النسوي ص ٣٥٠ - ٣٥٤ ، ابو المحاسن جـ ٦ ص ٢٧٥ ، المقري الفيومي الورقة ٢٠ - ٢١ .

«١» السبط جـ ٨ ص ٦٧٠ ، النسوي ص ٣٥٥ ، ٣٧٠ - ٣٧١ . ابن العبري ص ٤٣٠ - ٤٣١ ، ابو المحاسن جـ ٦ ص ٢٧٧ ، لاحظ تعليق النسوي الذي كان يرافقه في هزائمه على طلبه النجدات في قوله : ومن العجائب انتصاره بقلب جرحه بصوارمه واستظهاره بجناح بت بيده مصفوف قوادمه .

«٢» النسوي ص ٣٧٢ - ٣٧٤ ، ٣٧٧ - ٣٧٨ ، لاحظ قيام المؤلف نفسه بأمر جلال الدين بالاتصال بشهاب الدين غازي بن العادل الذي كان يتولى حكم ميافارقين وخلاط .

«٣» وكانت تسمى ايضاً بالباطنية ، والملاحدة ، والنزارية ، والحشاشين ، والسبعية والتعليمية . لاحظ في ذلك ابن خلدون جـ ١ ص ١٥٩ ، الديار بكري جـ ٢ ص ٣٨٧ ، ترجمة دائرة المعارف الاسلامية م ٧ مادة الحشاشين ص ٤٣٤ ، محمد كامل حسين - طائفة الاسماعيلية ص ٦٣ .

الكثير من آمالهم ورغباتهم فينظمون اليهم ويساهمون في نشاطهم (١) .

هذا النشاط الذي كان يتضاعف بسبب الفوضى الاقتصادية والادارية التي سادت ايران في هذه الفترة وكانت حصيلة الاسماعيلية من هـــذه الدعوات انتشار آرائها ومعتقداتها بين عـدد كبير من الاتباع في مختلف أنحاء البلاد وكان هؤلاء الاتباع يتظاهرون بخلاف مايعتقدون خوفاً من السلطة ، على انهم لم يترددوا من الجهر بآرائهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلا (٢) .

وا كتسبت الدعوة الاسماعيلية في ايران قوة جديدة عندما تولى قيادتها الحسن ابن الصباح (٣) الذي استطاع بحسن تنظيمه وبعد نظره ان ينفرد بزعامتها وان يصبح

---

(١) طه احمـد شرف ـ دولة النزارية ـ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ . لاحظ تعليق مؤيد الدين داعي الدعاة ومفاضلته بين الاسماعيلية والشيعة .

(٢) العيني ـ عقد الجمان ـ ج ٢٠ الورقة ٤٠ .

(٣) نشأ الحسن بن الصباح في مدينةالري عام ٤٣٠ هـ من امرة شيعية ، وتعرف على بعض دعاة الاسماعيلية فاعتقد مذهبهم ، ثم التقى بداعي الدعاة عبدالملك بن عطاش الذي شجعه على الوفود الى مصر للاتصال بالامام المستنصر الفاطمي ، فوصل القاهرة عام ٤٧١ هـ وقابل الامام مرة واحدة عرف منه ان ولي عهده ابنه نزار ، وخرج من مصر هارباً لمضايقة الوزير بدر الجمالي له فاستقر بايران ينشر الدعوة وينظم امورها ويحـلم بتأسيس دولة فاطمية في المشرق . ابن الجوزي ج ٩ ص ١٢١ ، البنداري ص ١٦٢ ، الطقطقي ص ٣٤٦ ، ابن ميسر ج ٢ ص ٢٧ ترجمة دائرة المعارف م ٧ ، مادة الحسن بن الصباح ص ٣٩٨ ، مادة الحشاشين ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦ ؛ سرور ـ مصر في عصر الفاطميين ص ٩١ ـ ٩٢ . وقد ترجم محمد كامل حسين ص ٦٤ ـ ٧٤ حيـاة الحسن بن الصباح معتمداً على سيرته التي نقلها عن المؤرخ الفارسي علاء الدين الجويني في كتابه جهان گشاي .

الموجه الحقيقي «١» لها وان يطور من اساليب عملها فامتلكت مجموعة من القلاع القوية المنتشرة في ارجاء البلاد منها قلعة ألموت التي عجز عن فتحها سلاطين السلاجقة «٢» .

ولم يكن المجتمع الاسلامي يتقبل مبادىء هذه الدعوة ومعتقداتها ويعتبرها كفراً وخروجاً عن الاسلام «٣» ، فكان الامراء والسلاطين يطاردون دعاتها وأتباعهم كلما احسوا بوجودهم ، كما حاصروا قلاعهم وفتحوا البعض منها وضيقوا الخناق على الاخرى كلما وجدوا الى ذلك سبيلا «٤» .

وكانت الخلافة بدورها تشجع ذلك بحكم زعامتها للمسلمين وشعورها بخطر هذه الدعوة على كيانها السياسي وسلطانها الديني . وبالرغم من ذلك فقد بقي الاسماعيلية

«١» وأصبحت تحمل اسم الاسماعيلية النزارية او الشرقية تمييزاً لها عن الاسماعيلية المستعلية او الغربية ، ذلك ان الحسن عندما سمع بوفاة الامام المستنصر عام ٤٨٧ هـ وأمامه ابنه المستعلي وابعاد الوريث الشرعي للامامة حسب اعتقاده وهو نزار ، ثار ورفض ان يبايعه وبقي يخطب في دعوته باسم الامام نزار وقطع صلته بالدولة الفاطمية ، واصبح الموجه الرئيسي للدعاة باعتباره نائباً عن الامام ، ابن ميسر جـ ٢ ص ٦٨ ، محمد كامل حسين ص ٧١ ، النزارية ص ٦٦ ، مصر في عصر الفاطميين ص ١٢٩ .

«٢» كان من اساليب الحسن بن الصباح بالاضافة الى اعتماده على الاغتيال انه عمد الى تكوين مجتمعات اسماعيلية بحتة في مناطق قوية التحصين ، يجتمع فيها جميع حدود الدعوة من المستجيب حتى الرئيس ، ويعمل الجميع على ضم اكبر عدد من مجاوريهم الى صفوفهم فأصبح لهم عشرات القلاع في اقاليم رودبار وقوهستان والطالقان ، ترجمة دائرة المعارف م ٧ مادة الحشاشين ص ٤٢٥ ، النزارية ص ٧٠ .

«٣» ابن الاثير جـ ٨ ص ٢٤٢ ، لاحظ الفتوى .

«٤» لاحظ محاولات بركيارق ومحمد للقضاء عليهم ، ابن الجوزي جـ ٩ ص ١٢٠ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٢٠٣ ، ٢٧٨ ، ابن القلانسي ص ١٥١ ، ابن العديم جـ ٢ ص ١٦٨ - ١٦٩ ، الحسيني ص ٧٩ .

النزارية محتفظين بكثير من نشاطهم وقلاعهم ، بل لعبوا دوراً كبيراً في تاريخ الخلافة وتاريخ الامارات الاسلامية المختلفة مستغلين الفوضى والانقسام الذي ساد هـذه الامارات والضعف الذي اصاب الخلافة .

وفي الفترة التي بدأت فيها الخـلافة تسترد سلطانها شيئاً فشيئاً كانت الحركة الاسماعيلية قد بلغت الذروة من النشاط والقوة ، بعد أن فشلت محاولات السلطانين بركيارق ومحمد في القضاء عليها ، وبعـد ان اصبح لها اعوان كثيرون في دواوين السلاطين انفسهم (١) ، بل استطاعت ان تفرض هيبتها على مناطق واسعة من البلاد ووصل دعاتها الى حلب ودمشق ، واصبح يخشاها الناس والامراء والسلاطين على السواء الذين اصبح حالهم كما يقول الاصبهاني (٢) : « فنابت النوائب وظهرت العجائب وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا ... وكان منهم رجل من اهل الري ساح في العالم وكانت صناعته الكتابة فخفي أمره حتى ظهر وقام ، فأقام من الفتنة كل قيامة واستولى في مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة وخفيت عن الناس احوالهم بسبب ان لم يكن للدولة اصحاب اخبار ... فلم يشعروا إلا بظهور القوم وقد استحكمت قواعـدهم ، فأخافوا السبل وأجالوا على الاكابر الاجل وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم انه يقتل فيقتله غيلة ، ولم يجد أحد من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة ، وكانوا مصدر خوف وفزع اذ فتكوا بعدد كبير من الامراء والزعماء منهم الوزير نظام الملك وغيره (٣) » .

---

(١) من هؤلاء الاعوان الوزير سعد الملك الذي قتله السلطان محمـد والوزير الدركزيني الذي استوزره السلطان محمود .

(٢) البنداري ص ٦٢ – ٦٣ .

(٣) ومنهم فخر الملك بن نظام الملك والاعز وزير بركيارق واقسنقر –

وذفع الخوف منهم والرغبة في استرضائهم بعض الأمراء والسلاطين الى مهادنتهم والتعاون معهم للتخلص من خصومهم «١» .

ولم تكن الخلافة مرتاحة لهذه المهادنة ولكنها لم تستطع ان تفعل شيئاً ، بينما لم يخف الاسماعيلية عداوتهم لها وعملهم على إلحاق الضرر بها وإضعافها .

وكان اول تهديدهم للخلافة في هذه الفترة تعرضهم للخليفة المسترشد عند خروجه لقتال دبيس بن صدقة المزيدي .

وأشار ابن الجوزي الى الاخبار التي انتشرت في صفوف الجند عن وصول عدد من الباطنية للاعتداء على الخليفة الذي اضطر الى احاطة نفسه بجماعة من الخدم « وابعاد كل مستعرب من الاتراك عن السرادق لئلا يندس بينهم هؤلاء » «٢» .

على ان الخليفة لم يخلص من ايديهم فيما بعد ، عندما وجد السلاجقة فيه خطراً على سلطانهم في العراق ، فاستغل مسعود سقوطه اسيراً في يده في معركة داي مرج سنة ٥٢٩ ﻫ وتعاون مع عمه سنجر في استخدام الباطنية للخلاص منه «٣» .

– البرسقي ، وعبدالرحمن السميرمي ، وجناح الدولة ، وابو العلاء سعيد قاضي نيسابور والقاضي الهروي ، ومودود ، والخجندي وغيرهم كثيرون .

ابن الجوزي ج ٩ ص ١٣٢ ، ١٤٨ ، البنداري ص ١٣٢ ، الراوندي ص ٢٠٩ .

Browne, Literary · History of persia · Vol , 2 · P · 311 ·

«١» لقد اضطر السلطان سنجر الى مهادنتهم والتخلي عن سياسة اخيه محمد بعد ان وقع ضحية دسائس الحسن بن الصباح الذي استطاع ان يجد له اعوان في ديوانه فعقد معهم اتفاقية بين سنتي ٥١٢ – ٥١٣ ﻫ اعفاهم فيها من الضرائب واعطاهم حرية العمل بصورة غير مباشرة ، وكذلك فعل الملك رضوان بن تتش صاحب حلب ، النزارية ص ١٦٠ – ١٧٣ .

«٢» ابن الجوزي ج ٩ ص ٢٤٢ .

«٣» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٤٩ ، الراوندي ص ٣٣٠ ، تاريخي كزيدة ص ٣٦٣ ، الكازروني مختصر التاريخ ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

وكذلك كانت نهاية الخليفة الراشد بالله الذي اضطر الى ترك بغداد فالموصل والالتجاء الى اصفهان حيث استغل الباطنية قلة اصحابه وبعده عنهم فوثبوا عليه وقتلوه في عام ٥٣٢ هـ على ان قوة الاسماعيلية لم تدم طويلاً بعد وفاة زعيمهم الحسن بن الصباح «١» فاقتصر نشاطهم في عهد خليفته بزرك اميد على الحفاظ على ما في ايديهم من القلاع ، والدفاع عن انفسهم بارسال الفدائيين لاغتيال المناوئين لهم والمحرضين عليهم ، بينما برز اخوانهم في الشام ولعبوا دوراً مهما في اضعاف مقاومة المسلمين للخطر الصليبي الداهم باستغلال الفوضى السياسية الناشئة من اطماع بقايا امراء السلاجقة وأتابكتهم وتنازعهم على السلطة فعملوا على توسيع الشقة بينهم واستولوا على بعض الحصون والقلاع «٢» .

وقد تشجع السلاجقة وخاصة السلطان سنجر بعد وفاة ابن الصباح فأنهى اتفاقية الامان التي كان قد أعطاها لهم وأمر وزيره ابا نصر أحمد بن الفضل بغزو قلاعهم والقضاء عليهم «٣» ، وكان نشاط الاسماعيلية يضعف او يشتد وفقاً لطبيعة الاوضاع في الامارات المجاورة لهم .

فمثلا استغلوا انشغال السلطان سنجر في حروبه مع الغز فهاجموا البلاد المجاورة لقلاعهم وفتكوا بمن فيها فاضطر المسلمون الى تكوين كتائب خاصة تحميهم وترد عدوان الاسماعيلية بعد أن عجز الامراء عن حماية الناس «٤» ، وامتد نشاط الاسماعيلية في

«١» توفى الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ .

«٢» ابن القلانسي ص ٢٢٤ ، ابن الاثير جـ ٨ ص ٣١٩ ، ٣٢٨ . مثل حصون بانياس والقدموس .

«٣» ابن الاثير جـ ٨ ص ٣١٩ وقد انتقم الباطنية بعد ذلك من الوزير وقتلوه .

«٤» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٩٥ ، ١٢٣ . ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٠ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٩٢ .

هذه الفترة الى ديار الخلافة حيث قام ثلاثة من فدائيهم بقتل الوزير عضد الدين ابي الفرج ابن رئب الرؤساء «١» سنة ٥٧٣ هـ وظهر نشاطهم في واسط سنة ٦٠٠ هـ فاجتمعوا في دار ابن عصية فهاجم المسلمون الدار وقتلوا من فيها من اتباعهم «٢» .

وقد تبدل موقف الاسماعيلية من الخـــلافة والمسلمين سنة ٦٠٨ هـ عندما تولى زعامتهم جلال الدين حسن الثالث ابن محمد الثاني « الذي هداه الله الى الحق فامتنع عن فعل المحرمات وأمر أصحابه في ايران والشام بالرجوع الى احكام الشريعة الاسلامية وكتب الى الخليفة والى امراء المسلمين يبشرهم بذلك كما ارسـل والدته الى الحج ، فاستراح المسلمون لفترة من اعتداءاتهم «٣» » .

وكانت فرحة الخليفة الناصر بهؤلاء المسلمين الجدد عظيمة ، اذ وجد في دخولهم في طاعته ما يزيده قوة على قوة ، كما وجد في زعيمهم حليفاً يستغله فى تنفيذ سياسته ويدفعه في وجه خصومه .

ويشير ابن الاثير «٤» الى استيلاء منكلي على بلاد همدان وأصفهان وقضائه على نفوذ الخلافة فيها وعجز الامراء المجاورين عن دفعه ، فتحالف الخليفة مع زعيم الاسماعيلية للقضاء على منكلي سنة ٦١٢ هـ وتعاونت قوات الخلافة التي جمعت من اربل والموصل والجزيرة وحلب مع قوات الاسماعيلية ونجحت في القضاء عليه ، ولكن فرحة المسلمين

«١» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٧٣ ـ ٧٤ ، ابن الاثير جـ ٩ ص ١٤٣ ، السبط جـ ٨ ص ٣٤٨ ، ابن الطقطقي ص ٣٦٩ ، وقد قيل : ان ابن العطار هو الذي حرضهم على ذلك .

«٢» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٦٦ ، الجامع المختصر جـ ٩ ص ١١٨ ـ ١١٩ .

«٣» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٠٦ ، السبط جـ ٨ ص ٥٥٥ ، ابن واصل جـ ٣ ص ٢١١ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ١٢٠ ، ابو المحاسن جـ ٦ ص ٢٠٣ .

«٤» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٠٩ .

لم تطل اذ سرعان ما تآمر على جلال الدين حسن بعض أتباعه الذين ساءهم خروجه على تعاليم آبائه ، فوثب عليه جماعـــة من الفدائيين سنة ٦١٨ هـ وقتلوه (١) فتولى ابنه علاء الدين محمد الثالث زعامة الاسماعيلية فعاد بهم الى ما كانوا عليه من سياسة الاعتداء والاغتيال مستغلين حالة الفوضى التي سادت البلاد بسبب عدوان المغول وقدتعاونوا مع المغول على اضعاف جلال الدين الخوارزمي وترصد اخباره واغتيال بعض امرائه(٢).

وكانت نهايتهم السياسية على يد حلفائهم المغول الذين قرروا القضاء عليهم قبل زحفهم نحو ديار الخلافة العباسية فحاصروا قلاعهم التي سقطت الواحدة تلو الاخرى بعد أن استسلم آخر حكامهم المدعو خورشاه بن علاء الدين محمد الثالث سنة ٦٥٤ هـ ، ولقي نهايته على ايديهم .

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٤٧ ، محمد كامل حسين ص ٨٤ - ٨٥ ، وهو يعلل لنا اسباب رجوع جلال الدين حسن الثالث الى الاسلام في ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٣ . النسوي ص ٢٤٢ ، ٢٦٥ . ابن خلدون ج ٥ ص ١٣٠ ، ١٤٠ - ١٤٣ .

ثانياً — العلاقات مع الشام ومصر وشبه جزيرة العرب :

من هنا درسنا

١ – علاقات الخلافة ببني زنكي : – عماد الدين زنكي هو الذي ارتفع بمكانة هذه الاسرة من تاريخ بلاد الشام في النصف الاول من القرن السادس الهجري ، كان آقسنقر والده من اعظم مماليك السلطان ملكشاه قدراً ولاه حكم حلب ولكنه لقي مصرعه سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٦ م «١» في المعركة التي دارت بين بركيارق بن ملكشاه وعمه تتش ، وكان عماد الدين زنكي وقتذاك في العاشرة من عمره فالتف حوله مماليك ابيه واحاطه كربوقا والي الموصل بعطفه وشمله برعايته وظهرت نجدته في هذه السن المبكرة في القتال على الحدود بين المسلمين والصليبيين .

وما كاد يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى ذاع صيته لما أظهره من البسالة في قتاله للصليبيين حين اشترك في الهجوم على طبرية سنة ٥٠٦ هـ وأبدى زنكي الشدة في القتال والفروسية في هذه الحرب رغم اشتداد ضغط الصليبيين على طبرية وارتداد المسلمين عنها «٢» .

وقد أقطعه السلطان محمود السلجوقي شحنكية البصرة وواسط «٣» لما أظهره من بطولة اثناء القتال الذي وقع بين الخليفة المسترشد وبين دبيس بن صدقة صاحب الحلة سنة ٥١٧ هـ .

وقد تطلع زنكي بعد هذا الى ان يصبح واحداً من الامراء الاتراك لا مجرد تابع

«١» الباهر ص ١٥ .

«٢» نفس المرجع ص ١٨ .

«٣» نفس المرجع ص ٢٤ .

يقاتل لحساب الآخرين ، ولما وقع النزاع بين السلجوقيين والخليفة سنة ٥٢٠ هـ انحاز زنكي الى السلطان فرجحت كفته وقبل الخليفة ما تقرر من ضرورة الانزواء في داره«١».

وأصبح زنكي يصرف الامور لا في بغداد وحدها بعد هذه الحرب بل في سائر العراق . وفي سنة ٥٢١ هـ تم تعيينه اميراً على الموصل والجزيرة كما اصبح اتابكا لاثنين من ابناء السلطان ، وقد استطاع بفضل جهوده في محاربة الصليبيين أن يمد سلطانه حتى حلب وأن يلعب دوراً مهما في حياة الخلافة والسلطنة ، ويهمنا بوجه خاص أن نعرض لعلاقته بالخلافة منذ سنة ٥٢١ هـ فصاعداً .

فعند وفاة الخليفة الراشد لم يبايع الخليفة المقتفي إلا بعد أن ميزه بزيادات في ألقابه واقطاعه «٢» ، ثم توطدت صلته بالمقتفي بعد ذلك ، اذ كان زنكي بحاجة الى تأييد الخلافة له في صراعه مع الصليبيين ، او مع الامراء المناوئين له « فكان الخليفة يواصله بالخلع والتشاريف ويلبسه رسوله اياها أمام رسل مصر والروم ودمشق » «٣» .

كما لعب زنكي دوراً مهما في اضعاف السلطنة السلجوقية فخفف من وطأتها على الخلافة وساعدها على سهولة التخلص منها فيما بعد ، اذ كان يشجع أمراء الاطراف على التمرد والعصيان «٤»، فيخلف للسلطنة من المشاكل مايشغلها عن التفرغ لمضايقة الخلافة.

واستطاع المقتفي بدوره استغلال الخلاف الذي نشب بين زنكي والسلطنة فتدخل

«١» الباهر ص ٣٠ ، ابن الجوزي جـ ٩ ص ٢٥٥ .

«٢» نفس المراجع ص ٥٤ ، جـ ١٠ ص ٥٥ ، ابن واصل جـ ١ ص ٦٩ - ٧٠ .

«٣» ابن العديم جـ ٢ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

«٤» الباهر ص ٦٥ ، العيني ق١ جـ٢١ الورقة ١٣٥ ، وينقل البنداري ص١٧٧ ، ما يفيد ان زنكي هو الذي حرض على قتل الملك داود بن محمود بالايعاز الى حشيشية الشام ، لان السلطان مسعود كان قد عول على ارساله الى الشام نائباً عنه فخاف زنكي على ولايته .

لاعادة الصفاء بينهما ، وعندما بعث برسوله ليقر زنكي على ولايته المرة الثانية استرد منه بعض البلاد التي كان قد استولى عليها «١» .

وكان مقتل الاتابك زنكي وهو يحاصر قلعة جعبر في سنة ٥٤١ هـ بداية لانقسام الامارة بين ولديه سيف الدين غازي الذي تولى الموصل وما جاورها ، ونور الدين محمود الذي تولى حلب وتحمل عبء الدفاع عن البلاد أمام الخطر الصليبي فورث المكانة التي كانت لابيه من قبل وارتبطت حياته بالجهاد لدفع الخطر الصليبي « حتى انه كان يستكثر على نفسه الخلود الى الراحة لئلا يكون بعيداً عن مرابطة العدو وملازمة الجهاد » «٢» .

وقد توثقت صلة الخلافة به وكانت تستجيب لصرخات الاستغاثة التي يرسلها فتبعث رسلها الى امراء الاطراف تحثهم على ارسال النجدات اليه ، وكانت تنعم عليه وعلى بقية امراء الشام بالخلع في كل مناسبة اظهاراً لتأييدها له وتقديراً لجهاده «٣» .

وكانت ترمي من وراء ذلك ايضاً الى ان يزداد ارتباطاً بها فيصمد للاغراء بالمساعدات التي كانت تقدمها الدولة الفاطمية بمصر لامراء الشام «٤» .

وكانت الدولة الفاطمية لا تبغي من وراء ذلك استرجاع نفوذها القديم «٥» ،

«١» ابن الجوزي جـ١٠ ص ١٠٨ ، وهو اقطاع صريفين الذي كان منح له عندما بايع المقتفي .

«٢» الباهر ص ١٥٤ ، ابو شامة جـ١ ص ١٨٨ يشير الى رغبة نور الدين ومحبته للاستقرار بالموصل وسرعة تركه لها .

«٣» ابن القلانسي ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ٣٠١ . ابو شامة جـ١ ص ٨٤ .

«٤» نفس المراجع ص ٢٩٥، ٣٣٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ . جـ١ ص ١٢١ . ابن ميسر جـ٢ ص ٩٧ - ٩٨ .

«٥» ويرى الدكتور سرور : ان الخلافة الفاطمية كانت في هذه الفترة في حالة —

انما كانت تريد ان تستغل قوتهم الفتية لشغل الصليبيين والتخفيف من ضغطهم عليها «١».

لقد كان نوري الدين وهو الرجل الذي قاد حركة الجهاد ضد الصليبيين يشعر أن الامراء المجاورين لا يستقرون على ولاء لأحد اذا تعرضت مناصبهم للخطر بل كثيراً ما أصبحوا ردءاً للعدو على المسلمين ، لذلك وجد ان الظروف تقضي بأن يتعاون مع الفاطميين بمصر ، ليستفيد مما لديهم من مال وسلاح ويشغل بهم الصليبيين ويوسع من جبهة الحرب «٢» ، ما دامت الخلافة العباسية لا تملك غير الرسل تبعث بهم نجدة له على أن ذلك لم ينقص من ولائه للخلافة العباسية التي لم تكن تجهل هذا الاتصال ، وكانت عاجزة عن منعه .

يشير ابن منقذ الى أن الفاطميين كانوا ايضاً بحاجة الى مثل هـذا التعاون مع نورالدين ، لذلك قام هونفسه في سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥٠ م بالسفارة بينهما عندما ارسله

ـ لا تساعدها على استعادة مكانتها في بلاد الشام ، فقد اضمحل سلطانها منذ اواخر القرن الخامس الهجري بحيث تعذر عليها الاحتفاظ بسيادتها فيما وراء حدود البلاد المصرية ، انظر : مصر في عصر الدولة الفاطميـة ص ١٣٠ ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ص ٦٨ - ٦٩ .

«١» وينقل الدكتور عاشور عن بعض المؤرخين الصليبيين امثال وليم الصوري وميخائيل السرياني ان بلدوين الثالث ملك بيت المقدس كان قد هدد بغزو مصر سنة ٥٥٦ هـ - ١١٦٠ م منتهزاً الفوضى التي عمت فيها في اعقاب مقتل الخليفة الفائز ، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت ان تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستين الف دينار ، انظر الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٨١ .

«٢» كثيراً ما استعان امراء الشام بالافرنج على المسلمين ، انظر ابن العديم ج ٢ ص ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨١ . ولم يكن نورالدين اول من تعاون مع الفاطميين ، فقد كان التعاون قائماً قبله وخاصة للاستفادة من الاسطول المصري ، انظر ابن ميسر ج ٢ ص ٦٣ .

الوزير الفاطمي الى الملك العادل نورالدين وحمل معه من الاموال ما يستعين به على شغل الصليبيين عن التعرض لمصر او ليجند رجالاً للدفاع عن مصر «١» .

وقد كان اول ما قام به الخليفة المقتفي بعد استعادته السلطة ان اصدر امره الى نور الدين بالمسير الى مصر والقضاء على الحكم الفاطمي فيها بعد ان علم بأنباء الاضطرابات التي اجتاحتها ، على ان نورالدين لم يكن قادراً على تنفيذ هذا الامر لانشغاله بالاستيلاء على دمشق واتخاذها قاعـدة له لمواجهة ضغط الصليبيين «٢» ، فلما استنجد به الوزير المصري شاور في سنة ٥٥٩ هـ وجد في ذلك فرصة سانحة لتنفيذ أمر الخلافة فجهز حملة قادها اسد الدين شيركوه في نفس السنة واستطاع اعادة شاور الى الوزارة ولكن خيانة شاور ونكثه للعهود التي قطعها لنور الدين واستعانته بالافرنج عليهم ، ارغمت شيركوه على العودة الى الشام ثم الخروج بحملة ثانية في سنة ٥٦٢ هـ وثالثة سنة ٥٦٤ هـ حتى قضى على شاور وحلفائه من الافرنج وتولى الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي واصبح الحاكم الحقيقي للبلاد «٣» .

ولم يستطع صلاح الدين الذي خلف عمه اسـد الدين في الوزارة بعد وفاته في جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ ، أن يقيم الدعوة العباسية فيها ، في اول الامر لخوفه من

«١» ابن منقذ ـ الاعتبار ص ١٠ ، ١٤ . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٥٤ . الشرق الاوسط ص ٦٥٨ ـ ٦٥٩ . وقد اعتذر نور الدين عن تقديم المساعـدة لان اهل دمشق كانوا عوناً للافرنج عليه ، ولكنه سمح له بأن يدون جنداً بالمال الذي معه ثم اصحبه ببعض فرسانه .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٥٨ ، ابن الاثير ج ٩ ص ٤٥ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ٨٤ ، ٩٤ ، ٩٩ . ابن شداد ص ٢٨ ـ ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ابن العديم ج ٢ ص ٣١٥ . سرور ـ مصر في عصر الدولة الفاطمية ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، العريني ـ مصر في عهد الايوبيين ص ٢٦ ـ ٢٧ ، ٢٨ ـ ٢٩ ، ٣١ ـ ٣٢ .

وثوب اهل مصر عليه بالرغم من ان الخليفة المستنجد بالله كان قد ارســـل يعتب على نور الدين اهماله اقامة الدعوة فيها ، الامر الذي جعل نورالدين يكتب لصلاح الدين « ويلزمه إلزاماً لا فسحة فيه باقامة الدعوة العباسية لاسيما : وامام الوقت متطلع الى ذلك بكليته وهو عنده من اهم امنيته » (١) .

ولقد كافأت الخلافة نور الدين على ما كان من اقامته الخطبة العباسية في مصر في محرم سنة ٥٦٧ هـ ، فأرسلت له من يحمل التشريف له ولصلاح الدين ، كما وصله رسولها الشهرزوري يحمل منشور الخلافة بتقليده بلاد الموصل والجزيرة واربل وخلاط والشام وبلاد قلج ارسلان وديار مصر ، كما انعم عليه الخليفة بدود هارون وصريفين من اعمال العراق وهي بلاد كانت لابيه من قبل (٢) .

وكانت اهمية زوال الخلافة الفاطمية بالغة الاثر فى حياة المسلمين ، فقد عادت لهم وحدتهم المذهبية ، كما اصبحت الخلافة العباسية هي الوحيدة التي يدين لها جميع المسلمين في هذه المنطقة بالولاء ، وتحققت وحدة المسلمين في مصر والشام وشمال العراق فنشأت طاقة مادية وبشرية ستظهر آثارها فيما بعد (٣) .

لكن نور الدين بالرغم من هذه القوة العسكرية والسياسية التي حصل عليها بقي حريصاً على كسب رضى الخلافة واظهار طاعته لها ايماناً منه بقدسية الخلافة ورغبة فى الفوز بتأييدها من صراعــــه مع الصليبيين ومع بعض الامراء المسلمين الذين كانوا

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١١١ ، ابن شداد ص ٣٥ ، ابو شامة ج ١ ص ١٨٣ ، ١٩٣ - ١٩٤ ، ابن واصل ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٠ ، ابو شامة ج ١ ص ١٩٩ ، ٢١٥ ، ابن واصل ج ١ ص ٢١٨ .

(٣) عاشور - الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٢٤ . وبقي المغرب العربي يتعثر في ولائه الديني للخلافة ، اذ كانت دولة الموحدين لا تعترف بالخلافة العباسية .

لا يساهمون في الجهاد فحسب بل يخلقون له المشاكل ويعتدون على بعض حلفائه من الامراء ، ان لم يتحالفوا مع العدو عليه «١» .

وعندما ساهم جيش الموصل في حصار بغداد سنة ٥٥٢ هـ متعاوناً مع السلاجقة ، ارسل نور الدين الى اخيه مودود يعتب عليه الوقوف في وجه الخلافة ويلزمه بالتفكير عن ذلك والاعتذار اليها ، فكان ان انسحب جيش الموصل وتخلى عن الملك السلجوقي وفشل الحصار «٢» .

وكان نور الدين حريصاً ايضاً على اطلاع الخلافة على كل عمل يقوم به .

يحدثنا العماد الاصبهاني عن سفارته من قبل نور الدين الى دار الخلافة لتسوية مشاكل ابناء اخيه مودود المتوفى سنة ٥٦٥ هـ وطلب منه ان يمضي الى الديوان العزيز وقال له : « وخذلي أذناً فاني أعد كل جارحة لما اخاطب به أذناً ، وأمثل ما يصلني من المنال لدفع كل مكروه ركناً » «٣» ، وكانت الخلافة تقدر له هـذه الطاعة فتستجيب لطلباته وتصله بالهدايا والخلع .

وكانت وفاته في شوال سنة ٥٦٩ هـ نهاية لقيادة الزنكيين لمعركة الجهاد ضد الصليبيين ، ذلك ان ولده الملك ، الصالح اسماعيل كان طفلاً فانقسم عليه الامراء ولم يتردد بعضهم في الاستعانة بالافرنج على اخوانه المسلمين « كما ان العمر لم يطل به ليكشف لنا عن لبانة ابيه وتربيته » «٤» .

«١» الباهر ص ١٦٠ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٦٨ ، ٧٢٠ .

«٢» ابن الجوزي ج ١٠ ص ١٧١ ، ١٧٥ . الباهر ص ١١٤ .

«٣» الباهر ص ١٥٤ ، ابو شامة ج ١ ص ١٨٨ ، ابن واصل ج ١ ص ١٩٦ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١٦ .

«٤» الباهر ص ١٦١ ، ابن شداد ص ٣٧ ، ابو شامة ج ١ ص ٢٢٨ ، وقد توفي الملك الصالح في رجب ٥٧٧ هـ ولم يبلغ العشرين .

وقد انقسم امراء الموصل من الاتابكة على انفسهم واصبح بعضهم عدوا لبعض مما اضعفهم جميعاً وجعلهم عاجزين عن القيام بدور رئيسي في الحروب الصليبية او في المحافظة على امارتهم (١) .

وقد شجع الفراغ السياسي والعسكري الذي نشأ بوفاة نور الدين نائبه في مصر على ملء هذا الفراغ خوفاً على البلاد من الصليبيين الذين كانوا قد تشجعوا بوفاته .

٢ - العلاقة مع الدولة الأيوبية : - كان صلاح الدين قد رافق عمه اسدالدين شيركوه في الحملات العسكرية التي ارسلها نور الدين محمود لانقاذ مصر والتي مر ذكرها وقد عهد له بوزارة الخليفة الفاطمي في جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ بعـــد وفاة عمه اسد الدين فكان العهد الذي صدر بتوليته هو آخر عهد كتبه الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (٢) .

على أن صلاح الدين لم يكشف عن رغبته في الخروج عن طاعة نور الدين . بل بقي متظاهراً بهذه الطاعة بالرغم من استقلاله بالوزارة وتحكمه في البلاد . فقد كانت رسله تترى عليه يستأذنه فيما يفعل ويتلقى امره ، وكانت نظرة نور الدين اليه لاتخرج عن ذلك ايضاً فقد قال لاخيه الكبير تورانشاه عندما ارسله اليه سنة ٥٦٤ هـ « ... وان كنت تسير وتنظر اليه انه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر اليه واشدد من ازره على ما هو بصدده » (٣).

---

(١) انقسمت إمارة الموصل وتفرع منها إمارة سنجار سنة ٥٦٥ هـ ، ثم اقتطع منها في سنة ٥٧٦ هـ إمارة جزيرة ابن عمر ، وفي سنة ٦٠٧ هـ اقطعت قلاع العقروشوش وغيرها التي اصبحت أساساً لامارة شهرزور .

(٢) ابن واصل جـ ١ ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٣) ابن الاثير جـ ٩ ص ١٠٢ - ١٠٣ ، ابن واصل جـ ١ ص ١٧٤ .

وقد كرمت الخلافة صلاح الدين على جهاده باقامة الخطبة العباسية فارسلت اليه الخلع والتشريفات ، فكانت اول خلعة عباسية تدخل مصر بعد انقراض الحكم الفاطمي فيها «١» .

ثم كشف صلاح الدين عن رغبته في الاستقلال عندما تخطى نور الدين وارسل رسولاً الى بغداد مباشرة يحمل البشرى بهذا الحدث الكبير وساءت العلاقات بين الرجلين «٢» .

وعمل صلاح الدين بعد ذلك على التمكين لنفسه من الحكم فزار بعض اطراف البلاد ، وفكر في توسيع سلطانه غرباً حتى برقة ، ولكنه تجنب كل مامن شأنه الاصطدام بنور الدين اواثارة غضبه،فكان يتظاهر بتنفيذ اوامره بالزحف على الصليبيين ويهاجم فعلا بعض البلاد المجاورة له ، ولكن خوفه من الاجتماع بنور الدين في ساحة المعركة وما ردده الاصدقاء والخصوم من احتمال عزله كان يرده على عقبيه فلا يتم الجهاد بل يرسل معتذراً عن تخلفه بجملة من الاعذار «٣» .

وقد قاده هذا الحرص والخوف الى ان يقف مواقف معينة خيبت امل نور الدين ، فيه وجعلته يظن به الظنون ويفكر فعلاً في الزحف الى مصر لاستردادها منه.

وكانت وفاة نور الدين بداية لتبوء صلاح الدين مركز الصدارة في العالم الاسلامي ووراثة المكانة التي سما اليها نور الدين،فكان زحفه الى الشام لاتخاذها مركزاً عسكرياً ينظم منها الدفاع عن البلاد خاصة وأن امراء الشام كانوا قد انقسموا على رعاية ولد نور الدين وتنازعوا السلطة باسمه بل لم يترددوا في ان يهادنوا الفرنج . كما لم يحسنوا

«١» ابن واصل جـ ١ ص ٢٢٠ .

«٢» العريني - مصر في عهد الايوبيين ص ٣٧ ، الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٢٥.

«٣» الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٢٥ - ٧٢٦ .

التصرف بعد استقرار صلاح الدين بدمشق ، بل لجأوا الى المكابرة والعناد وزجوا بولد نور الدين في قتاله مستعينين بكل من يجد مصلحة في اقامة حكم ضعيف ، بل اضاعوا على انفسهم وعلى ولد نور الدين بقية الهيبة والاحترام التي كان يتظاهر بها صلاح الدين « الذي استولى على البلاد جميعها سوى حلب واعزاز التي ابقاها بيده مدفوعاً بذلك ببقية عرفان للجميل » (١) .

وبعد ان استقر صلاح الدين ، قدم تقريراً الى الخلافة في رسالة حملها الى الديوان الخطيب شمس الدين بن الوزير فصل فيها جهاده وجهاد اسرته في خدمتها واسباب خروجه الى الشام وافضليته على القاعدين فيها « فانا كنا نقتبس النار بايدينا وغيرنا يستنير . . . ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يغير التصوير ... ونصافح الرماح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير ولابد ان تسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي ترد الغصوب . . .

كان اول امرنا بالشام نفتح الفتوحات مباشرين بأنفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لعساكره نحن ووالدنا وعمنا ... فما يجهل احد ولايجحد عدوان نصطلي الجمرة ، ونملك الكسرة ... الى ان ظهر في الشام الآثار التي لنا اجرها ، ولايضيرنا ان يكون لغيرنا ذكرها .

وكانت اخبار مصر تتصل بنا بما الاحوال عليه فيها من سوء التدبير...والاسلام بها قد ضعف عن اقامته كل قائم بها وقاعد والافرنج قد احتاج من يديرها الى ان يقاطعهم باموال كثيرة لها خطيرة ... فسمت هممنا دون همم ملوك الارض الى ان نستفتح مقفلها ونسترجع للاسلام شاروها...فسرنا اليها بعساكر ضخمة وجموع جمة... ووصلنا البلاد وبها اجناد عددهم كثير واموالهم واسعة ، وهم على حرب الاسلام اقدر

---

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١٣٠ ـ ١٣٢ ، ابن شداد ص ٣٨ ـ ٣٩ ، ابو شامة ج ١ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ، ٢٣٤ ـ ٢٤٠ . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٥ ـ ٧٤٦ .

منهم على حرب الكفر وبها راجل من السودان... كلهم اغنام اعجام ... وبها عسكر من الارض باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية... فمازلنا نسحتهم سحت المبادرة للشفار ونتحيفهم تحيف الليل والنهار للاعمار... وفي اثناء ذلك استنجدوا علينا الافرنج دفعة الى بلبس ودفعة الى دمياط ... ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر ونصابر الضدين المنافق والكافر حتى اتى بأمره وايدنا بنصره... فهنالك تمت لنا اقامة الكلمة والجهر بالخطبة والرفع للواء السواد الاعظم ... ولما خلا ذرعنا نظرنا في الغزوات الى بلاد الكفار فلم نخرج سنة الاعن سُنة اقيمت فيها براً وبحراً... وفتحنا معاقل ماخطر اهل الاسلام فيها منذ اخذت من ايديهم ... منها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند وهو المملوك منه الى الحرمين واليمن... وكان باليمن ماعلم من ابن مهدي الضال ... فانهضنا اليه اخانا بعسكرنا فاخذناه بحمد الله ولنا بالمغرب اثر اغرب... ذلك ان بني عبد المؤمن قد اشتهر أن امرهم امر وجيوشهم لاتطاق ، ونحن والحمد لله قد ملكنا من يجاورنا منهم بلاد كثيرة منها برقة وقفصة وقسطيلية وتوزر ... كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستنصر بأمر الله ، ولا عهد للاسلام بأقامتها وتنفيذها الاحكام بعلمها المنصور وعلاتها ، اما الاعداء الذين يحدقون بهذه البلاد فمنهم صاحب قسطنطينة وهو الطاغية الاكبر ... فاخذنا ولله الحمد بكظمه واقمناه على قدمه ، ولم تخرج من مصر الى ان وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح والقاء السلاح ، ومن هؤلاء الكفار صاحب صقليا والجنوبين الذين يسربون الجيوش البنادقة والبياشنة وكلهم قد قررت معهم وانتظمت المسألة على مانريد ويكرهون ولما كتب الله بالوفاة النورية وكنا في تلك السنة على نية الغزو... نزل الافرنج بانياس واشرف على اجتيازها ، استصرخ بنا صاحبها للمحافظة ... فسرنا مراحل اتصل بالعدو امرها وعوجل بالمدنة االدمشقية التي لولا مسيرنا ماانتظم حكمها..

ثم عدنا الى البلاد ، فتوافت الينا الاخبار بما الدولة النورية عليه من تشعب الآراء ...
وان كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، والافرنج يتحيفون البلاد الاسلامية ، وامراء
الدولة قد سجن كبارهم، والمماليك الذين للمتوفى اغرار خلقوا للاطراف لا للصدور ..
قد ساءت سيرتهم في الامر بالمنكر ... وكل واحد يتخذ عند الافرنج يداً ، فكثرت
الينا مكاتبات اهل الآراء الصائبة ونظرنا للاسلام ولنا ولبلاد الاسلام في العاقبة وعرفنا
ان البيت المقدس ان لم تتيسر الاسباب لفتحه وامر الكفر ان لم يجرد العزم في قلعه
والا ثبتت عرقه واتسعت على اهل الدين خروقه .

وانا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة . . . واذا جاورناه كانت المصلحة بادية
واليد قادرة والبلاد قريبة والغزوة ممكنة . . . واصلحنا ما من الشام من عقائد معتلة
وامور مختلة وحفظنا الولد القائم بعد ابيه . فانا به اولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه .
والمراد الآن هو كل مايقوي الدولة ويؤكد الدعوة ويجمع الامة . . وهو تقليد
جامع لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ماتشمل عليه الولاية النورية وكل مايفتحه
الله بسيوفنا وسيوف عساكر . ولمن نقيمه من اخ وولد من بعدنا تقليداً يضمن للنعمة
تخليداً وللدعوة تجديداً » (١) .

ولقد استجابت الخلافة لطلب صلاح الدين فأقرت الوضع الجديد وانعمت عليه
بالسلطنة على مصر والشام . ووصله رسولها في شوال ٥٧٠ هـ (٢) .

وبالرغم من ان صلاح الدين اصبح يملك قوة عسكرية كبيرة في البر والبحر ،
لا تقاس بها قوه نور الدين ، الا انه كان اكثر حاجة من نور الدين الى مساندة الخلافة
وتأييدها وتدخلها في كثير من الامور التي يراها ضرورية ، ذلك لأن اعداء نور الدين

---

(١) ابو شامة ج١ ص ٢٤١ - ٢٤٣ ، لاحظ مفصل الرسالة في ملحق رسائل
صلاح الدين رقم (١) الحركة الصليبية ج٢ ص ٧٤١ - ٧٤٢ .

(٢) ابوشامه ج١ ص ٢٥٠ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٦ .

كانوا اعداء المسلمين جميعاً سوى بعض الامراء الذين كانوا يراوغون في التعاون معه ، والذين كان كل همهم ان يكف نور الدين عن التعرض لهم ، على انه كان قد تخلص من هؤلاء جميعاً ، واصبح الامراء جميعاً بزعامته يداً واحدة تضرب بامره ، اما صلاح الدين ، فقد كان اعداؤه من الامراء المسلمين وخاصة الاتابكة لايقلون ضراوة عن الصليبيين الذين اصبحوا حلفاء تقليديين لهم متعاونين مع الحشيشية ، يستعينون بهم كلما ضاق عليهم الخناق لذلك كثرت رسائله الى ديوان الخلافة يشرح لها موقف هؤلاء الذين ينقضون عهد الله بعد ميثاقه .

كما يطلب مخاطبة ملوك وامراء الاطراف ليساعـــدوه على العدو « ويلبوا نداءه اذا دعا ليسهل الامر في فتح البيت المقدس » (١) .

وكان صلاح الدين حريصاً على ابلاغها بكل صغيرة وكبيرة يلقاها في جهاده مع الصليبيين ليشعرها بعظم الجهد الذي يقوم به ولعله كان يريد من وراء ذلك ان يستأثر بأحترامها ومحبتها لكي تقف بجانبه في نزاعه مع الامراء المسلمين ، كما كان يسعى لمراسلة وزير الخلافة ومصادقته ليكون له في ديوان الخلافة معيناً (٢) .

وكان موقف الخلافة في هذه الفترة غير واضح من صلاح الدين فلا هي أخذت بيده تنصره ولا هي منعت الاتابكة من التحالف عليه والتعرض له ، ويخيل الي ان ضعف مركز الخليفة المستضيء وعجزه عن وقف الصراع الدائر بين وزيره وصاحب مخزنه جعله يظهر بمظهر من لايسمع ولا يرى ، هذا بالاضافة الى ان مركز الخلافة ونفوذها على أمراء الاطراف كان ضعيفاً لضعف الخليفة نفسه ، كما انه لم يكن من مصلحة الخلافة أن تحابي اميراً على آخر ولوكان الحق في جانبه ، فأن الظروف السياسية المحيطة

---

(١) ابوشامه ج ١ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٢٧٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٢ ، ج ٢ ص ١٣ .

بما كانت لاتساعد على اغضاب أي واحد منهم (١).

على أن موقفها تبدل نسبياً في السنوات الاخيرة من حكمه إذ وصلت رسله تحمل كل اسباب الود والعطف الامر الذي سر له صلاح الدين واستصحب الرسل معه للغزو (٢).

وعندما تولى الناصر لدين الله الخلافة قام صلاح الدين بواجب البيعة وارسل رسوله للتعزية والتهنئة كما جرت العادة، وقد ردت الخلافة بأن ارسلت شيخ الشيوخ صدر الدين ومعه شهاب الدين بشير الخاص «بالتفويض والتقليد والتشريف لاقراره على مابيده والباسه خلع الخلافة». (٣)

وقد اتجه صلاح الدين اتجاها عملياً في سياسته، فقد تبين من تجربته السابقة مع الخلافة ومحاولته الاستعانة بها لحل مشاكله مع الاتابكة انها تبارك الامر الواقع

---

(١) كانت الخلافة في هذه الفترة تمر بازمة، فقد كان المستضيء متهما بالمشاركة في قتل والده لذلك كان محكوماً عليه بالسكوت والطاعة، وبعد ان تخلص من قائد جيشه قايماز الذي كان يتحكم به، قام صراع جديد بين وزيره عضد الدين ابي الفرج وصاحب المخزن ابن العطار، وكان موقف الخليفة بينهما موقف المتفرج وكان بقايا السلاجقة فى ايران لازالوا يملكون شيئا من القوة وقد حاولوا الوصول الى بغداد وتهديدها، فضلا عن ان أتابكة الموصل لازالوا على اتصال بهم ولم يقطعوا الخطبة لهم وفي مثل هذه الظروف كانت تصل رسائل صلاح الدين.

(٢) ابوشامه ج١ ص ٢٧٦. ج٢ ص٦. ويظهر ان لصاحب المخزن ابن العطار الذي تولى نيابة الوزارة فضل فيهذه المراسلات، فقد وصلت رسائله ايضا تحمل التقدير والمحبة لصلاح الدين.

(٣) ابن الاثير ج٩ ص ١٤٨ - ١٤٩ ابوشامة ج٢ ص ١٩.

ولكنه في الوقت نفسه حافظ على مظاهر الطاعة لها حتى لا يعطي خصومه فرصة التقرب منها والتودد اليها .

ثم برزت مشكلة حلب فقد توفي صاحبها الملك الصالح اسماعيل في سنة ٥٧٦ هـ واوصى بتسليمها الى ابن عمه صاحب الموصل لكن صلاح الدين كان يرى انه احق بها لانها من جملة اقطاعه . فضلاً عن ان وجودها في حوزته يزيد من قدرته على مقارعة العدو ويجعل البلاد جبهة واحدة تحيط بالصليبيين وتفصل بينهم وبين امراء الموصل المناوئين له .

ورأى صلاح الدين أن يراسل الخلافة في امرها « فكرر الاشارة الى جهاده وخدمته وذكر من باب المقارنة تعاون المواصلة مع الافرنج والحشيشية في الوقت الذي كان يقاتلهم فيه ويدفع عن قبر رسول الله (ص) ثم التمس من الخلافة « بروز الاوامر الشريفة الى صاحب الموصل بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه . . . » (١)

وكان صلاح الدين خلال ذلك قد وزع قواته حول حلب واوعز الى الاسطول بمهاجمة بيروت ثم رأى ان يترك حلب ويتوجه الى الموصل فعبر الفرات واحتل الرها والرقة ونصيبين ومن ألبيرة كتب الى الخليفة رسالة اخرى بعد ان يئس من وصول ردها على رسائله السابقة جاء فيها « انه لم يتحرك الا بعد ان تحقق لديه اتفاق المواصلة مع الافرنج لمدة احدى عشرة سنة يدفعون لهم فيها من المال سنوياً ويسلمونهم بعض حصون المسلمين لكي يعاونوهم على مهاجمته فأضطر ان ينظم امره ويوزع اخوته واولاده امام الافرنج ويتثاقل في السير انتظاراً لامر اولئك الذين رأوا في الملك ارثاً ما ادعوا فيه تقليد الخلفاء بل الاباء . وقــد ضج منهم امراء الاطراف وقصدوني برسائلهم وجيوشهم يطلبون مني الانقاذ ورعاية بجاورتهم لدار الخلافة المعظمة » (٢)

---

(١) ابن الاثير جـ٩ ص١٥٣–١٥٤ . ابوشامة جـ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩–٣٠ .

(٢) نفس المراجع ص ١٥٦ – ١٥٧ ، ص ٣١ – ٣٢ ، العريني الشرق الاوسط =

ولم ينقذ الموصل من السقوط في يده غير وصول رسل الخلافة يشفعونه في الصلح مع صاحبها ويرجونه بأسم الخليفة ان ينصرف عنها .

ولعل الخلافة تدخلت لحماية صاحب الموصل لخوفها من انفراد صلاح الدين بزعامة البلاد الاسلامية المحيطة بدار الخلافة من الشمال والغرب الامر الذي قد يدفعه الى أن يفرض عليها ما كان للسلاجقة من الخطبة والسلطان .

ويعجب الدكتور العريني من سلوك الخلافة هذا وامتناعها عن منح صلاح الدين تقليد ولاية الموصل ويرى ان ذلك كان كفيلًا بتحقيق وحـــدة المسلمين واستعادة بيت المقدس «١» .

واستجاب صلاح الدين لامر الخلافة فأنصرف عنها بعد ان ادرك انه لن يستطيع الاستيلاء بسهولة لمناعتها ، ثم حاصر سنجار في طريقه وفتحها وجعلها قاعدة له بجوار الموصل «٢» كما زحف نحو آمد وحاصرها بعد ان فشل التحالف الذي حاول صاحب الموصل ان يعقده مع صاحب خلاط وغيره من الامراء المجاورين الذين جمعتهم رابطة المصاهرة والمصلحة وكان قد استأذن الخلافة في حصارها فجاءه تقليد الخلافة بولايتها بعد

= ص ٧٨٣ - ٧٨٤ انظر ملحق رسائل صلاح الدين « الرسالة الثانية » .

وينقل الدكتور عاشور عن المؤرخ الصليبي رانسيمان، ان اتابكة الموصل ارسلوا سفارة الى ملك بيت المقدس يعرضون عليه دفع جزية سنوية قدرها عشرون الف دينار وتسليم بانياس وحبيس جلدك واطلاق سراح جميع الاسرى الصليبيين لدى المسلمين اذا نجح الصليبيون في طرد صلاح الدين من دمشق، الحركة الصليبية جـ٢ ص٧٧٧-٧٧٨

«١» الشرق الاوسط ص ٨٧٦ .

«٢» كان صاحب الموصل قد استنجد بصاحب اذربيجان قزل ارسلان وبشاه ارمن صاحب خلاط بالاضافة الى استنجاده بالخلافة ، ابن الاثير جـ ٩ ص ١٥٨-١٥٩ ، ابن شداد - المحاسن اليوسفية ص ٤٦ ، ابو شامة جـ ٢ ص ٣٤ .

استيلائه عليها ، فأسرع الامراء المجاورون يراسلون ويدخلون في طاعته وخاصة صاحب ميافارقين «١» .

وكتب صلاح الدين يشكر الخلافة على تسهيلها أمر آمد وارسالها التقليد فقال : « فهذه لما ارسل اليه مفتاحها وهو التقليد فتحها ، وهذه الموصل لما تأخر عنها المفتاح منعها ومامنحها ، ولو أعين به لعظمت فائدته على الاسلام لأن اليد تكون واحدة على عدو الحق ، ثم يكرر جهاده وجهوده » ثم اعقبها برسالة اخرى الى وزير الخليفة يكرر فيها ماسبق ويلح على الموصل ويذكر ان مايريد « هو ان يمد بجيش هو الكلام ورماح هي الاقلام ونصر هو وافد الامر . وان ذلك لوتم لاستطاع ان يغزو العدو من مصر براً وبحراً ومن الشام سراً ومن الجزيرة مداً وجزراً » «٢»

ولم يضع صلاح الدين الوقت بعد آمد فتوجه لحصار حلب وكان صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود قد شعر بأنه لاقبل له بصلاح الدين فاراد ان يضمن لنفسه خط الرجعة فسعى الى الصلح واجابة صلاح الدين الى ماطلب وبادله بسنجار واضاف اليه بعض المناطق المجاورة «٣» ، ثم كتب الى الخلافة يخبرها بالتسوية التي تمت بينه وبين عماد الدين ويبشرها بانتصاراته على الافرنج في البر والبحر » .

وتدخلت الخلافة مرة ثانية تشفع لصاحب الموصل الذي ساءت علاقته بقائد جيشه مجاهد الدين قايماز ، وخرجت عليه اربل والجزيرة ودقوقا وهي بلاد كان يتولاها نواب قايماز ، وارسلت شيخ الشيوخ وقاضي الموصل محي الدين والقاضي ابن شداد ،

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٦١ ، ابو شامة ج ٢ ص ٣٨ .

«٢» ابو شامة ج ٢ ص ٤٠ ، ٤١ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٢ ، ابن شداد ص ٤٧ - ٤٨ ، ابو شامة ج ٢ ص ٤٢ - ٤٣ ، الشرق الاوسط ص ٧٨٨ .

فاستقبلهم صلاح الدين بالشام وحاول ان يرضخ لوساطتهم ولكنه لم يقبل ان يفرض على صاحب اربل والجزيرة العودة الى الموصل الامر الذي ادى الى فشل السفارة «١» .

وكان صلاح الدين قد شرع في تنظيم الشؤون الادارية بعد اتساع رقعة املاكه فأستدعى اخاه العادل من مصر وولاه حلب واعمالها بينما ارسل ابن اخيه تقي الدين الى مصر لينوب عنه فيها وقام خلال ذلك بمهاجمة الافرنج ومحاصرة الكرك وعند رجوعه الى دمشق وصله رسل الخلافة «٢» يحملون اليه موافقتها على الوضع الجديد وخلعت عليه وعلى افراد اسرته .

ثم استعان صاحب اربل وصاحب الجزيرة بصلاح الدين بسبب عدوان صاحب الموصل فشعر بأنه لابد ان يخلص من امر الموصل قبل ان يتفرغ لجهاد الصليبيين وارسل رسوله ضياء الدين الشهرزوري الى الخلافة يستأذنها مؤكداً « انهم لا يستحقون الشفاعة بعد ان ارسلوا الافرنج وخطبوا لسلطان العجم واستعانوا به ، وان قصده من زحفه هذا هوردهم الى طاعة الامام ونصرة الاسلام وقطعهم عن مواصلة الاعجام »«٣»

وقد اقام صلاح الدين على حصار الموصل اكثر شهر ربيع ٥٨١ هـ وكانت مناعة اسوارها اقوى من جيشه ولم يكن يستطيع التراجع لئلا تصاب هيبته ويطمع فيه اعداؤه ثم توفي صاحب خلاط ، واستنجد اهلها به فانسحب عن الموصل ليتفرغ لخلاط ثم حاصر ميافارقين في طريقه ، ولما وجد ان امر خلاط يطول عاد الى الموصل مرة

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٣ - ١٦٤ ، ابن شداد ص ٥١ ، ٥٢ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٤ ، ابن شداد ص ٥٤ ، ابو شامة ج ٢ ص ٤٧ - ٤٨ ، ٥١ ، ٦٠ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٥ - ١٦٧ ، ابن شداد ص ٥٤ - ٥٥ ، ابو شامة ج ٢ ص ٦٠ - ٦٢ . وقد أثمرت رسالة الشهرزوري الى دار الخلافة التي رفضت فيمابعد استنجاد صاحب الموصل ، الشرق الاوسط ص ٧٩٥ - ٧٩٦ .

اخرى ، لكن الاتابك عز الدين صاحب الموصل بعد أن يئس من تدخل الخلافة لنجدته بعث بأبن شداد رسولا الى صلاح الدين وخوله عقد الصلح وتم له ما اراد سنة ٥٨١ ه « فأمنت الدنيا وسكنت الدهماء وانحسمت مادة الفتن » « ١ » .

وقد كانت أهمية هذا الصلح كبيرة ، فقد امتد سلطان صلاح الدين الى مناطق شهرزور ، وما وراء الزابين وبلاد القرابلية وبنى قفچاق ، وقطعت الخطبة السلجوقية وخطب لصلاح الدين بالموصل وسادها الاستقرار ، كما تفرغ صلاح الدين لمجاهدة الصليبيين ، واصبحت هذه البلاد جميعها مادة لجيوشه واهلها جميعا طوع يمينه . . .

وقـــد تفرغ صلاح الدين فعلا لمجاهدة العدو واستنفر أمراء المسلمين فوردته جيوش الموصل والجزيرة وسنجار ، واربل وحران وغيرها بالاضافة الى الجيوش الشامية والمصرية ، وكان رده على من اشار عليه بمهاجمة الاطراف والقيام بالنهب والتخريب « انه يجب ان يلقي العدو بهذا الجمع فأن الامور لاتجري بحكم الانسان ولا نعلم قدر الباقي من اعمارنا ولا ينبغي ان نفرق هذا الجمع الا بعد الجد بالجهاد » « ٢ » .

وقد كان من ثمرة هذه الوحدة الاسلامية ان لقي الافرنج الهزيمة في حطين في ربيع

« ١ » ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٨ ، ١٧٠ . ابن شداد ص ٥٦ - ٥٧ . ابو شامة ج ٢ ص ٦٤ - ٦٥ . وكان عز الدين قد أرسل قبيل وصول صلاح الدين ، والدته وابنة عمه نور الدين للشفاعة في أمره ، وقد كاد صلاح الدين يستجيب لحرمة هؤلاء النسوة ، ولكن بعض قواده اعابوا عليه هذه الشفقة وهذا الوفاء فاعتذر . ويقول ابن الاثير الذي كان في الموصل في هذه الفترة « ان رد النسوة أثر كثيراً في نفوس العامة الذين حنقوا عليه وتفانوا في الدفاع عن المدينة ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٤ .

« ٢ » المقصود بوحـــدة كلمة المسلمين هنا ، البلاد الاسلامية التي ارتبطت مع صلاح الدين وخطبت له ووردت جيوشها اليه عندما استنفرها للجهاد . انظر : ابن الاثير ج ٩ ص ١٧٢ - ١٧٣ ، ١٧٥ - ١٧٧ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٨٥ .

الآخر سنة ٥٨٣ هـ وفتح الطريق امام المسلمين لاسترداد طبرية وعكاوالناصرة وقيسارية وحيفا وبيروت وصيدا .

وكان العادل في نفس الوقت قد زحف من مصر بما بقي لديه من جيشها فأحتل حصن مجدل يابا ثم يافا ، كما تعاون الاخوان على تأمين الطريق بين الشام ومصر بالاستيلاء على بقايا قلاع العدو في عسقلان ، وفي خلال ذلك كان الاسطول المصري يقطع الطريق على القادمين والهاربين ويهاجم الموانيالباقية ويلقي فيها الرعب والخوف .

وتوجه صلاح الدين بعد ذلك الى القدس التي كان الصليبيون قد حصروا انفسهم فيها بعد ان انقطعت عنها الطرق وفقدوا كل اتصال بالساحل ، فضعفوا عن المقاومة ونزلوا على شروط المسلمين في آخر رجب ٥٨٣ هـ بعد ان كان صلاح الدين يفكر في معاملتهم بمثل ماعاملوا المسلمين به من القسوة قبل تسعين عاماً « ١ » .

ولم يغفل صلاح الدين وهو يتنقل من نصر الى نصر أن يزف البشرى الى الخلافة بما من الله عليه من نصر فيحطين فاستفتح رسالته بالآية الكريمة « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون » « ٢ » .

كما استفتح رسالته ببشارة القدس بالآية الكريمة « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض » « ٣ » .

وفي الوقت الذي انتهت فيه مشاكل صلاح الدين مع امراء المسلمين واصبحوا طوع امره في الجهاد يبلون البلاء الحسن وصله رسول الخلافة تاج الدين حامد الاصبهاني

«١» ابن شداد ص ٦٥ - ٦٦ .

«٢» القرآن الكريم - سورة الانبياء (٢١) الآية (١٠٥) ابوشامة ج٢ ص٨٩ ملحق رسائل صلاح الدين ، رسالة رقم «٣» .

«٣» القران الكريم - سورة النور (٢٤) الاية (٥٥) ابوشامة ج ٢ ص ٦٢ .

يحمل اليه عتب الخلافة بدل تهنئتها « لانه لم يوع حقها في البشارة عندما ارسل شخصاً بغدادياً مغموراً لاقدر له ولاقيمة . كما اكتفى في بشارة القدس ، بارسال نجاب وسمح لنفسه ان يشارك خليفة الله فى نعوته وصفاته » « ١ » .

وكان صلاح الدين واسع الصدر عندما برر هذه الاخطاء واعتذر عنها على ان المكانة الكبيرة التي كانت للخلافة في نفسه ، هبطت كثيراً عند سماعه اسباب شكواتها وغضبها من هذه التوافه التي لا تدفع عن المسلمين شراً بسبب تمسكها بهذه القشور والمظاهر وعاد رسول الخلافة حاملاً من مظاهر الطاعة والاعتذار ما ارضى غرورها و كبرياءها.

ومما زاد في ألم صلاح الدين أنه بينما كان يتنقل بين صور وعكا في ذي الحجة ٥٨٣هـ مدافعاً للعدو وصله نعي شمس الدين بن المقدم امير الحج الشامي الذي راح ضحية غرور امير الحج العراقي ، فتألم صلاح الدين وبكى وأقسم ان ينتصر له على حد قول العماد ، ورفض الاعتذار الذي وصل من دار الخلافة « وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة » « ٢ »

ثم كان ضغط العدو على عكا وضعف اصحابه وعجزهم فارسل الى الخلافة يدعوها للجهاد ويستنفرها للتخفيف من محنته « ٣ » .

« ١ » العماد الاصبهاني الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٨٠ - ٨٤ ابوشامة جـ ٢ ص ١٢٠-١٢٢ ، ابن كثير جـ ١٢ ص ٣٢٧ .

« ٢ » ابن الاثير جـ٩ ص١٨٨ ، ابوشامة جـ٢ ص ١٢٣ ، الذهبي تاريخ الاسلام مجلة ٢٦ الورقة ١٢ ، ١٣ ، ابن الفرات ق ١٠ الورقة ٥٨ ، ابن تغري جـ ٦ ص ١٠٥ . وينقل لنا الذهبي عن العماد الاصبهاني الكاتب قال : ولما بلغ السلطان مقتله بكى وحزن عليه وقال قتلني الله ان لم انتصر له . وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة . وجاء رسول يعتذر فقال انا الجواب عما جرى ثم اشتغل بالجهاد عن ذلك .

« ٣ » ابن الاثير جـ٩ ص ٢٠٤ ، ابن شداد ص ٧٩ ، الفتح القسي ص ١٣٩ - ١٤٠ ابن الدبيثي ، ذيل على ذيل ، الورقة ٣٦ ، ابوشامة جـ٢ ص ١٣٩ .

لكنها بعثت تستنجد به وتطلب منه أن يسير لها من جنده من يفتح لها تكريت لـكي تضمها الى ممتلكاتها ، ولم يستطع صلاح الدين ان يمسك نفسه فرد على هذا الطلب بشيء من التقريع والتأنيب وكتب الى الديوان يقول « انه ارسل رسوله يطلب المعونة على الجهاد فطلبت منه المساعدة على تكريت التي مهما بقيت بيد من هي بيده الآن فانها بيد المولى . . وان الذي نسيره في هذه المساعدة سوف نفتقده في عمل هواهم بما سار اليه ، ويرى المملوك ان مطلبهم نقد ومطلبنا منهم وعد . . . اما عزم الخليفة على الحج فالمملوك يستبعده بالاضافة الى الوقت والى عادة اهله واخرهم حج الرشيد ... ثم يختتم الرسالة بأنه قد ارسل الرسول يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا » . (١)

---

(١) ابوشامة جـ٢ ص ١٧٨ ، جاءت هذه الرسالة مع مجموعة من رسائل القاضي الفاضل ذات الاغراض المتعددة ، ويخيل الي ان ابا شامة لم يستطع ان يحدد مكانها من الاحداث فوضعها في هذا المـكان المتأخر عن زمانها ، وقد يكون لغموض محتوياتها وفقدان كتاب الخلافة الذي ترد عليه اثر في ذلك ، على ان الاسطر التي اقتبستها من الرسالة تحدد مكانها الزمني بين وصول ابن سكينة في صفر ٥٨٥هـ ، وذهاب الشهرزوري لطلب المساعدة ورجوعه بكتاب الخلافة الذي يستنجد فيه على تكريت ورفض صلاح الدين ذلك بكتابه هذا ، ثم قيام الخلافة في شوال ٥٨٥هـ بالاستيلاء على تكريت .

ملاحظة : ـ لم يشر العماد الاصبهاني في الفتح القسي الى هذه الرسالة وهذا الطلب ولكنه يذكر لنا جانبا اخر من مساومة الخلافة لصلاح الدين .

واعتقد ان مايرويه هو تتمة للطلب السابق حيث ان الخلافة بعد ان وصلها رفض صلاح الدين النجدة على تكريت ، طلبت من الشهرزوزي شهرزور التي هي من املاك السلطان والتي لاتحتاج الى ارجاف خيل وتقديم نجدة وقد وعد الشهرزوري على لسان صلاح الدين الخلافة بتنفيذ طلبها ، وقد اوفى صلاح الدين بهذا الوعد بعد ذلك . الفتح القسي ص ١٧٥ ـ ١٧٧ .

وقد كرر صلاح الدين استنفاره الخلافة والمسلمين لمساعدته في الجهاد خاصة بعد ان اخبره ابنه الظاهر الذي كان يتولى حلب بقرب وصول ملك الالمان فردريك باربروسا في حملة صليبية جديدة (١) .

فانتدب صلاح الدين القاضي ابن شداد رسولا الى دار الخلافة يشرح لها الخطر الجديد ويطوف على امراء المسلمين يحثهم على الجهاد (٢) .

ثم تازم الوضع في عكا بوصول فيليب اوغسطس ملك فرنسا سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١ م على رأس حملة صليبية جديدة ثم وصل بعده ريشارد قلب الاسد ملك انكلترا على رأس جيش صليبي آخر (٣) ، فازداد ضغط الافرنج على عكا وعجز المسلمون عن فك الحصار عنها ، وانقاذ المسلمين المحصورين فيها ، فألح صلاح الدين في استغاثته بالخلافة واطلقها صرخة مدوية في كتاب يذكر فيه (٤) « انه اذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا الفاً في البحر عوضه فالزرع اكثر من الحصاد... واصحابنا قد اثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة ... وهو يناشد الخليفة الاجابة على استغاثته... ولو يستطيع لهاجر وقبل العتاب ضارعاً وشافهه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء ... ثم يقول ولولا ان في التصريح مايعود على العدالة بالتجريح لقال مايبكي العيون ، ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله مرتقب » .

---

(١) ومن حسن حظ المسلمين ان فقدت هذه الحملة قوتها بغرق قائدها بربروسا سنة ٥٨٦ هـ فقد كان الخوف والياس قد غلب على المسلمين جميعا حتى آيسوا من البقاء بالشام ، وكانت استعدادات صلاح الدين لصدهم تحالفه مع ملك القسطنطنية لمنعهم من عبور بلاده ومقاومتهم ، ابن شداد ص ٩٨ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٤٥ - ٨٥١ .

(٢) الحركة الصليبية ج٢ ص، ٨٤٩ ، ابن شداد ص ٩٨-٩٩ ابوشامة ج٢ ص ١٥٠

(٣) الحركة الصليبية ج٢ ص ٨٦٤

(٤) ابوشامة ج٢ ص ١٥٧ - ملحق رسائل صلاح الدين - رقم (٤) .

ثم جاءت نجدة الخلافة يقودها نقيب من نقباء العلويين « فكانت حملين من النفط الطيار وحملين من القنا الخطي وتوقيع بعشرين الف دينار تقترض من التجار على الديوان العزيز ، وخمسة من الزراقين النفاطين » فترحم صلاح الدين على العاضد الفاطمي وذكر مابذله لدفع الافرنج عن دمياط وكاد يرفض مساعدة الخلافة ويعيدها من حيث اتت ، ولكن اصحابه قبحوا له هذا العمل « فاكتفى باعادة التوقيع الى الخليفة » « ١ » .

وتلفت صلاح الدين يفتش عن ذوي الحمية من امراء المسلمين يستنجد بهم ففكر في اخيه سيف الاسلام طغتكين المقيم باليمن «٢» ، وكتب الى المنصور ابي يوسف يعقوب الموحدي ، فلم يخاطبه في الرسالة التي حملها ابو الحزم عبد الرحمن بن منقذ في شعبان ٥٨٦ هـ بلقب امير المؤمنين بل خاطبه بأمير المسلمين « ٣ » ، فغضب المنصور لهـذه الاهانة ورفض المساعدة « ٤ » .

ويبدو انـه يئس من الخلافة وانقطع عن الاتصال بها « ٥ » ، ولجأ الى عامة المسلمين يستنفرهم للجهاد .

«١» العماد ـ الفتح القسي ص ١٩٤ ، السبط جـ ٨ ص ٤٠١ . وكانت هذه اول مساعدة على تفاهتها تقدمها الخلافة للدفاع عن البلاد ضد الخطر الصليبي .

«٢» لم يشر مؤرخو صلاح الدين كالعماد وابن شداد الى انه استنجد بأخيه سيف الاسلام طغتكين ولكني وجدت هذه الرسالة ، واعتقد انه ارسلها قبل استنجاده بامير المغرب ـ ملحق رسائل صلاح الدين رسالة رقم «٥» وليس لدينا مايشير الى ان سيف الاسلام اسرع للنجدة .

«٣» والمعروف ان لقب امير المؤمنين لايخاطب به سوى الخليفة ، ولم يكن صاحب المغرب كذلك .

«٤» ابن خلكان جـ ٦ ص ١٢ ، السبط جـ ٨ ص ٤٠٥ ، ابوشامة جـ ٢ ص ١٧٠-١٧٤ الناصري الاستقصاء جـ ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

«٥» عبر القاضي الفاضل عن رأي صلاح الدين في مراسلات الخلافة بماسجله لنفسه =

واحست الخلافة بهذا الاهمال من جانب صلاح الدين لها ، فكتبت اليه في شوال ٥٨٧ هـ رسالة تتضمن « الانكار على مظفر الدين تعرضه لبكتمر صاحب خلاط » وقبضه على حسن بن قفجاق ، ثم الطلب بارسال القاضي الفاضل الى الديوان لتقرر عليه قواعد وبسر اليه باسباب » واجاب صلاح الدين يبرر عمل مظفر الدين واعتذر عن القاضي الفاضل بأنه يعجز عن الحركة الى العراق « ١ » ، على ان هذا الاهمال شاع بين الناس واصبح حديث الخاص والعام واصبح التعلق بصلاح الدين والتحدث عنه تهمه في نظر الخلافة تعاقب عليها ، كما اصبحت وسيلة للوشاية بالبعض منهم كما فعل بطاشتكين أمير الحج الذي اتهمه استاذ الدار ابن يونس بمكاتبة صلاح الدين ودعوته الى مهادنة الافرنج والزحف الى بغداد « ٢ » ، وبعد أن يئست الخلافة من حضور القاضي الفاضل لتستعين به على اعادة الامور الى حالها الأول مع صلاح الدين لجأت الى العادل شقيق صلاح الدين لكي يتدخل في استعطاف قلب السلطان « الى الخدمة الشريفة والانكار عليه بتأخر

= او لبعض اصحابه فقال . « كتاب بغـــداد كتاب بارد غث جامد مافيه مقصود لقاصد ، ولا صلة ولا عائد ، ونحن نطلب الذهب الحار فيضرب في حديد بارد » ، ابوشامة ج ٢ ص ١٧٦ .

«١» ابن شداد ص ١٩١ ـ ١٩٢ ، كان جواب صلاح الدين بان مظفر الدين خرج لجمع العساكر للجهاد فحصل ماحصل وقد امرناه بالعودة ، اما حسن قفجاق فانه رجل مفسد وقد امرنا مظفر الدين باحضاره الى الشام ليلازم الجهاد .

«٢» ابوشامة ج ٢ ص ٢١١ ، وكان قد قبض على طاشتكين في رجب ٥٨٨ هـ حيث اظهر عليه استاذ الدار كتابا بخطه الى صلاح الدين على ان ناقل الخبر وهو ابن القادسي يستبعد ذلك منه . واعتقد انه مما قوى هذه الاشاعة وزاد من خوف الخلافة منها ان صلاح الدين كان قد عقد الهدنة مع الافرنج في هذه الايام ولمدة ثلاث سنين وثمانية اشهر .

رسائله عن العتبة الشريفة والاقتراح عليه بتسيير القاضي الفاضل لكي يحرر قاعدة بين الخلافة والسلطان » « ١ » .

ثم توفي صلاح الدين في صفر ٥٨٩ هـ « ٢ » وحاول الافضل الذي تولى دمشق بدل والده ان تكون له زعامة الايوبيين ، فأمرع بابلاغ الخلافة خبر الوفاة ، ثم ندب الضياء الشهرزوري في حمل رسالة الى بغداد بعد ان استشار أخويه في مصر وحلب حتى لايظن انه انفرد بالعمل ، وقد ضمن رسالته التأكيد على جهاد والده واستقامته « وانه ملخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الامامية وان وصيته كانت الاستمرار على هذه الطاعة » « ٣ » .

على ان الافضل لم يستطع أن يحافظ على زعامة الاسرة بسبب عمه العادل الذي كان يعتقد انه اولى بها لكبر سنه وسابق جهاده « ٤ » ، كما ان الحسد والتنافس بين الاخوه الثلاثة الكبار جعلهم يختلفون ، وكان العادل يشجع الواحد منهم على الآخر حتى فاز بما اراد ، ففقد الافضل نفوذه في الشام سنة ٥٩٢ هـ ، وتوفي العزيز عثمان بمصر سنة ٥٩٥ هـ وبقي الظاهر محتفظاً بحلب « وصفت البلاد لحكم العادل سنة ٥٩٨ هـ عند ما

« ١ » ابن شداد ص ٢٣٩ وارى ان تاريخ وصول هذا الرسول يجب ان يكون في رمضان ٥٨٨ هـ وليس ٥٨٩ لان صلاح الدين توفي في صفر ٥٨٨هـ ، كما ان ابن الناقد كان صاحب المخزن وليس نائب الوزارة .

« ٢ » الفتح القسي ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، ابن شداد ص ٢٤٦ - ٢٥٠ ، السبط جـ ٨ ص ٤٢٥ ابوشامة جـ ٢ ص ٢١٢ - ٢١٣ ، ٢٢٤ .

« ٣ » الفتح القسي ص ٣٦٩ - ٣٧٢ ابوشامة جـ ٢ ص ٢٢٥ ، ابن واصل جـ٣ ص٥ ملحق رسائل صلاح الدين رسالة الافضل .

« ٤ » لاحظ رأي العادل في شرعية استيلائه على السلطة وقوله « ان الملك ليس بالوراثة وانما هو لمن غلب » انظر : مفرج الكروب لابن واصل جـ ٣ ص ١١١ .

اتفقت كلمة الايوبيين على الخطبة له في البلاد جميعها «١» .

وبالرغم من عدم وجود صلة ظاهرة بين الخلافة وهذه الأحداث التي جرت على المسرح الايوبي الاني اعتقد ان الخلافة كانت على علم بهذا الصراع وعلى اتصال بالامراء وخاصة بالعادل «٢» الذي كانت تحفظ له يده في التدخل لدى اخيه صلاح الدين عندما انقطع عنها في ايامه الاخيرة ، وقد باركت الخلافة هذا الاتجاه الجديد بأن شرفت العادل واولاده بلباس الفتوة سنة ٥٩٩ هـ وهو اول امير من امراء الاطراف يرتبط بفتوة الخلافة الجديدة «٣» ، ثم اعترفت به سلطاناً على مصر والشام عندما ارسل رسله اليها يلتمس التقليد ولقبه الخليفه « بشاهنشاه ملك الملوك خليل امير المؤمنين » «٤» .

«١» ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ٢٤٣ .

«٢» كانت الخلافة على اتصال بمعظم الامراء الايوبيين خلال هـــذه الفترة وخاصة بالعادل .

فابن القفطي ص٢٦٩ - ٢٧٠ ، يشير في حديثه عن الحكيم مبشر بن احمد بن علي الرازي الذي تميز في عهد الناصر وقد سيره في رسالة الى العادل عندما قصد الموصل فلقيه على نصيبين في سنة ٥٨٩ هـ .

وكذلك السبط جـ٨ ص ٥٣٧ - ٥٣٨ في حديثه عن النجيب بن ابي القاسم الحربي انه كان يتردد عند الخليفة الى العادل في امور مخفية ، فخرج في السنة الماضية واجتمع بالعادل وعاد في هذه السنة (٦١٤ هـ) فتوفي بحماة .

وكذلك يشير الضياء في رسائله الى وجود مراسلات بين الخليفة والظاهر غازي بصورة مستمرة - رسائل ابن الاثير ص ٢٠١ ، ٢٣٥ وقد اشار ابن واصل جـ٣ ص٦٩ الى ان الملك الافضل عندما خرج من الشام ارسل يشكو الى الخليفة ظلم اخيه العزيز وعمه العادل ، انظر ايضاً ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٤١٣ - ٤١٤ .

«٣» السبط جـ ٨ ص ٥١٣ ، الذيل ص ٣٣ .

«٤» السبط جـ ٨ ص ٥٣٤ ، الذيل ص ٦٠ ، ابن واصل جـ٣ ص ١٨٠ - ١٨٢ ، المقريزي - السلوك جـ١ ق١ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

ومما يلاحظ ان سياسة الخلافة وعلاقاتها بملوك وامراء الأطراف إتخذت شكلا جديداً وخاصة بعد وفاة صلاح الدين ، وقد اصبح التأكيد على السلطان الروحي للخلافة هو الاساس الذي تقوم عليه هذه العلاقة ، كما اصبح ولاء امراء الاطراف الشخصي للخليفة هو الهدف الذي تسعى اليه الخلافة من وراء نظام الفتوة «١» هذا ، ولم يطبق

«١» يميل اغلب المؤرخين القدامى الى اعتبار الفتوة ورمي البندق الذي اصبح ملازماً لها ، ضرباً من اللهو والعبث الذي اتصف به الناصر .

على انني ارى مع القائلين بان هذا النظام كان محاولة من الخليفة لايجاد صلة تجمع بينه وبين امراء الاطراف الذين يقسمون على الطاعة المطلقة له ، وقد حاول ان يضفي على هذه الصلة صفة التقديس فاكد على ان اصلها يعود الى النبي «ص» وعنه الى الامام علي «رض» ، وهكذا وبحسب النسب المتوارث حتى اصبحت في شخصه ، وقد كان الغرض من ذلك استغلال هذا الولاء في اسناد مركز الخلافة وتقوية سلطانها على الامراء الخارجين عليها وخاصة بعد ان فشلت قوات الخلافة العسكرية في تثبيت هيبة الخلافة ومكانتها في القسم الشرقي من البلاد الاسلامية .

ولاشك ان هذه المحاولة وما اعقبها من قيامه بالتأليف الديني ونشره بين الناس ، يمثل نوعا من النشاط السياسي الذي لجأ اليه الخليفة لتثبيت سلطانه الروحي بعد فشل سلطانه العسكري على ان جمود الخليفة ، وعدم استغلاله لهذه العلاقات بشكل عملي ، واعتماده على الطاعة الظاهرية ، واهماله تنظيم جيش الخلافة ، كل ذلك جعل من هذا النظام مايشبه الثوب المهلهل الذي لايستر العيوب ، وبقيت الخلافة ضعيفة امام الخارجين عليها ، وبقيت طاعة هؤلاء الامراء بالكلام والدعاء فقط ، وبالاعتقاد بان قوة الرعب التي تنبعث من قدسية الخلافة كفيلة بحمايتها كما حمتها في السابق .

انظر في ذلك _الفتوة_ لابن المعمار البغدادي وقد حققه وقدم له مصطفى جواد.

انظر ايضاً : المنتقى من دراسات المستشرقين ج ١ مقالة « الفتوة » التي كتبها تشنر ص ١٨٩ – ٢٠٤ ، انظر كذلك ملحق الرسائل ، رسالة بدر الدين لولو الى دار الخلافة . نقلا عن رسائل ابن الاثير ص ١٧ – ٢٠ .

هذا النظام على جميع الأمراء في وقت واحد وانما توقف ذلك على مدى قربهم من الخلافة وطاعتهم لها ، والايوبيون الذين تفرقت كلمتهم وضاعت قوتهم بعد وفاة صلاح الدين أصبحوا اكثر تهالكا على كسب رضاها والتمسك بطاعتها والاستنجاد بها حتى غدوا من اولياء الخليفة واشياعه وانصاره دون غيرهم ، فعندما انعمت الخلافة على العادل واولاده بلباس الفتوة ، اسرع الملك الظاهر صاحب حلب يلتمس في رسالة كتبها للخليفة « ان تجعل بينه وبين اميرالمؤمنين سبباً ليكون من اوليائها » «١» ، على ان الخلافة لم تفتح الباب على مصراعيه أمام كافة الامراء إلا بعد ان قامت باعادة النظر في اسس الفتوة وتقاليدها ، فأهدرت الفتوة القديمة ونظمتها تنظيما جديداً على اساس من الاخلاق ، واصبح الخليفة الناصر قطب هذا التنظيم والمرجع الاول فيه «٢» .

وقد اشار ابن واصل الى ورود رسل الخليفة في سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف « ان يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا له سراويلها ويكون انتماؤهم اليه ورعية كل ملك يشربون لذلك الملك ويلبسون له ففعلوا ما امروا به «٣» » .

وبفضل هـــذا التنظيم اصبح للخلافة كلمة مسموعة لدى امراء الاطراف الذين ارتبطوا بها ، ويُعتقد ان هذه الطاعة كانت في السلم فقط ولا شك ان هؤلاء الامراء استفادوا من هذه الرابطة ، فحموا ملكهم من العدوان ، اذ كانت الخلافة تمتنع عن الاعتراف بالمعتدين ، لكنه عندما تعرضت الخلافة لخطر الخوارزميين والمغول لم يتقدم

«١» رسائل ابن الاثير ص ٢٣٥ ، ملحق ـ رسالة الظاهر غازي .

«٢» الجامع المختصر جـ ٩ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ . وقد اشار الى هذا ايضاً الدكتور مصطفى جواد في مقدمة الفتوة ص ٦٣ ـ ٦٤ .

«٣» ابن واصل جـ ٣ ص ٢٠٦ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ١١٩ ، المقريزي جـ ١ ق ١ ص ١٧٢ ، ابن الفرات م ٩ الورقة (٤٤) .

واحد من هؤلاء للدفاع عنها «١» .

واحتلت الخلافة في نفوس الايوبيين مكانة كبيرة ، وكانت كلمتها نافذة فيهم بحكم انقسامهم وحاجتهم الى تأييدها المتواصل ، وكانت رسل العادل الى (الديوان العزيز) لا تنقطع حاملة الهدايا والالطاف حيث تجد الترحيب والتقدير وكانت شفاعته عندها مقبولة «٢» ، وكان يكفي الخليفة ان يرسل اليه في اي امر ليسرع في الاستجابة له ، كما حدث عند حصاره سنجار واستنجاد صاحبها قطب الدين محمد بالخليفة الذي ارسل رسوله ابن الضحاك ليقول للعادل : « بحياتي عليك يا خليلي ارحل » «٣» فرحل عنها .

وقد استمرت هذه الصلة بالخلافة حتى بعد وفاة العادل سنة ٦١٥ هـ .

على ان الخلافة كعادتها وقفت من الايوبيين موقفاً سلبياً عندما تعرضوا للخطر الصليبي الذي زحف على دمياط ، واكتفت بارسال الكتب الى الامراء تدعوهم الى الجهاد «٤» ، وتحمل الايوبيون وحدهم عبء الدفاع عن مصر وعن البلاد الاسلامية كلها ، وكانت وحدة كلمتهم وتعاونهم هي السبيل لنجاحهم . وقد ترك موقف الخلافة

«١» مثال ذلك ان الخلافة عندما تعرضت لتهديد جلال الدين الخوارزمي لم يلب احد من الامراء نداءها بينما كتب اليها بدر الدين لؤلؤ يبرر عدم نجدتها بأنه متأكد بأن قدسية الخلافة ستقذف في قلوبهم الرعب وسوف يرجعون فاشلين بينما قامت الخلافة بحماية صاحب الموصل واربل من الخوارزميين ، لاحظ ملحق رسائل ابن الاثير ص ٣٥ رسالة بدر الدين لؤلؤ .

«٢» السبط ج ٨ ص ٥٨١ ، الذيل ص ١٠٠ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ١٨٦ .

«٣» الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٨٨ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ١٧٠ - ١٧١ .

«٤» المقريزي ج ١ ق ١ ص ٢٠١ ، ابن الفرات م ٩ الورقة ٩٧ .

هذا الامى في قلوبهم ، تجلى هذا في المحاورة التي جرت بين المعظم عيسى وبين ابن الجوزي رسول الخلافة الذي قدم نائباً عن الخليفة الظاهر بأمر الله سنة ٦٢٣ هـ ليصلح بين ابناء العادل ويقطع صلتهم بجلال الدين الخوارزمي .

قال المعظم عيسى للرسول عندما اخبره باستمداد الخلافة لنجدته : « ما لكم عادة تنجدون احداً ، هذه كتب الخليفة الناصر عندنا ونحن على دمياط نكتب ونستصرخ به ونقول : انجدنا فيجيء الجواب بأن قد كتبنا الى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا » (١) ، على ان الايوبيين بالرغم من ذلك بقوا محافظين على طاعتهم للخلافة ما دامت لا تكلفهم شيئاً ، بل تضمن لهم حل الكثير من مشاكلهم (٢) ، وبقيت رسلهم تفد الى دار الخلافة تحمل الطاعة والولاء .

وكانت الخلافة تصلهم بالخلع والتشاريف وتسعى لازالة خلافاتهم والتوفيق بينهم كما لم تتأخر عن التدخل لدى الخوارزمية لرفع الحصار عن بعض بلادهم او لاطلاق سراح الاسرى (٣) ، كما فعلت عند حصار خلاط مثلاً .

وعندما استقرت زعامتهم للكامل ووصلت رسله الى الديوان العزيز ، لم تتردد الخلافة من تقليده حكم البلاد وأنعمت عليه بصورة لم تتحقق لغيره من قبل (٤) .

---

(١) الذيل ص ١٤٧ ، ابن تغري جـ ٦ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ . ومما يلاحظ في هذا ان مصدر الحديث منقول عن سبط ابن الجوزي الذي سمعه من المعظم نفسه ، ويظهر انه قد سقط من كتاب المرآة في اول حوادث سنة ٦٢٣ هـ .

(٢) لاحظ رأي المعظم في ذلك ، السبط جـ ٨ ص ٦٣٤ ، الذيل ص ١٤٤ ، دول الاسلام جـ ٢ ص ٩٤ .

(٣) النسوي ص ٣١٠ ، ٣٢٨ ، المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، ٢٢٣ .

(٤) المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٢٤٢ ، المقري الفيومي الورقة ٢٣ ، ٥٢ ، وبالنسبة لتعاون الكامل مع الافرنج لاحظ ايضاً المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ابن تغري جـ ٦ ص ٢٧١ ، الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠١٠ - ١٠١١ .

وكان الكامل بدوره حريصاً على كسب رضا الخليفة لشعوره بأن ولاء الايوبيين له عرضه للتغير لذلك استجاب لشفاعة الخليفة في ابن اخيه الناصر داود الذي كان قد فقد ملكه وا كره على طلاق زوجته ابنة الكامل «١» .

كما اعاد المال الذي ارسله الخليفة لتدوين الجند ودفع خطر المغول عن البلاد ، وقام هو باخراج امواله وأنفقها في هـذه السبل وجند جيشاً جعل قيادته لابن اخيه الناصر وسيره الى بغداد «٢» .

وتفرقت كلمة الايوبيين بعد وفاة الكامل عام ٦٣٥ هـ ، ولم يستطع من بقي بعده منهم اعادة الوحدة الى الاسرة مرة اخرى «٣» .

وكتب على رسل الخلافة الذين اضطلعوا بمهمة التوفيق بين هؤلاء الابناء المتنازعين ان يتنقلوا بين دمشق والكرك والقاهرة لكي يتوصلوا الى تقسيم يرضى به الجميع ليعود

«١» ابن الفوطي ص ٧٧ - ٧٨ ، المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٢٥١ . وقد استعاد الناصر داود زوجته وهي ابنة عمه الكامل .

«٢» المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ . على ان الاخبار لا تشير الى وصول هذا الجيش الى بغداد بل تذكر وصول ولدي الملك الامجد صاحب بعلبك وكان معهما الف فارس ثم وصل بعدهما الملك المشمر خضر بن صلاح الدين ومعه ستمائة فارس وهم الوحيدون من الايوبيين الذين قدموا بغداد وساهموا في دفع التتر عنها ، لاحظ ابن الفوطي ص ١١١ - ١١٢ ، المقري الفيومي الورقة ٨٦ .

«٣» السبط جـ ٨ ص ٧٠٥ - ٧٠٧ ، ٧١١ - ٧١٦ ، ابن الفوطي ص ١٠٥ ، ١٠٧ ، وقد استطاع الكامل ان يجمع كلمة الايوبيين لفترات قصيرة فقط ، وكان طمعه فى الاستيلاء على البلاد وحرمان بني عمه منها سبباً في تألبهم عليه وخذلانهم له في كثير من الاحيان ، ويجب ان نلاحظ ايضاً ان وحدة الايوبيين كانت تختلف من حيث القوة والضعف في عهد صلاح الدين عنها في زمن العادل ثم ابنه الكامل ، وقد تجلت هـذه الوحدة في زمن صلاح الدين فقط .

الاستقرار الى البلاد وتتهيأ لمواجهة الاخطار التي بدأت تحدق بالخلافة ، لكن ما جبل عليه هؤلاء الابناء من الطمع وسوء الظن والنكث بالعهود والاستهانة بأرواح الآخرين جعل الوصول الى حل دائم امراً مستحيلًا ، فأصبح على الخلافة ان ترضى بالوضع القائم (١)

واسفرت التطورات عن تخلص الصالح ايوب بن الكامل من اعتقال ابن عمه الناصر داود واستيلائه على مصر وحبسه اخاه العادل ، ثم التماسه من الخلافة ان تقر شرعية حكمه فاعترفت به (٢) .

وشرع الصالح ايوب بعد استقرار أمره بمصر يسترجع دمشق من عمه الصالح اسماعيل الذي استغاث بالخلافة لكي تصلح بينه وبين ابن اخيه ، فلم تلب هذا النداء حتى وصلت رسل الصالح ايوب تحمل نبأ التسوية التي تمت بينه وبين الصالح اسماعيل والتي

---

(١) ابن الفوطي ص ١١٤ - ١١٥ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ٢٩٢ . ومما يلاحظ في اخلاق هؤلاء ان بعض هذه الصفات كانت موجودة في آبائهم ولكنها لم تكن بهذا الشكل من الشدة والانحطاط ، اما الشيء الجديد الذي امتاز به هؤلاء الابناء هو جرأتهم على سفك دماء بعضهم مما لم يكن معروفاً ، فالصالح اسماعيل بن العادل لم يتردد ان يقتل ابن اخيه الجواد يونس بن مودود ، ثم قتل عمر ابن الصالح ايوب الذي كان محبوساً عنده بدمشق ، كما ان الصالح ايوب بنفسه لم يتردد من قتل اخيه العادل الذي كان سجيناً عنده بالقلعة قبيل وفاته .

(٢) ن - م - السابقة ص ١٤٠ ، ص ٢٩٨ . وكان الصالح ايوب في سنجار عندما توفي ابوه الذي كان قد عزله من ولاية العهد لمصلحة اخيه الصغير العادل ، وقد حاول الايوبيون وبعض ارباب الدولة حرمانه من نصيبه ، ولكنه استطاع ان يغري نائب اخيه بدمشق وهو الجواد فيبادله بسنجار ، وعندما خرج من دمشق زاحفاً نحو مصر تألب عليه الايوبيون الذين كانوا يخشون سطوته فدبروا عليه الحيلة وأسروه فسجن في قلعة الكرك عند ابن عمه الناصر داود في الوقت الذي زحف فيه عمه الصالح اسماعيل فاحتل دمشق ، وقد دفع الطمع الناصر الى مفاوضة سجينه واطلاقه لقاء وعد باعطائه دمشق ، فخرج الصالح ايوب وهو يحقد على جميع بني عمه .

تقضي بانسحاب الصالح اسماعيل الى بعلبك فبارك هـذا الوضع وأرسلت التقليد والخلع (١) ، لكن الخلافة لم تسمح للصالح ايوب بأن يمد نفوذه شمال دمشق فتدخلت بينه وبين الحلبيين الذين استنجدوا بها لكي يرفع الحصار عن حمص التي كانت قد دخلت في طاعتهم (٢) .

ثم التمس الصالح ايوب من الخـلافة تقليداً جامعاً بمصر والشام والشرق (٣) فأجابته الى ما طلب ، لكن الضغائن والاحقاد بقيت تفرق بين الايوبيين وتحول دون وحدة كلمتهم ، تجلى هذا عندما تعرضت مصر للخطر الصليبي ثانية ، فلم يتقدم أمير ايوبي واحد لنجدة السلطان الجديد الذي تُرك وحـده يواجه العدو وهو في مرضه الاخير (٤) .

ولم يكن تورانشاه الذي استقدم على عجل من حصن كيفا ليخلف اباه الصالح قادراً على تحمل مسؤولية الحكم والبلاد معرضة لهذه الاخطار .

فلم يكن يملك من حسن السياسة ما يؤلف حوله قلوب مماليك ابيه الذين كانوا يتولون مسؤولية الحرب ويصطلون بنارها ، وظهر أن والده كان على حق عندما ابعده الى حصن كيفا لعدم صلاحيته للحكم فلم يعهد له بها ، بل اوصى ان تسلم البلاد الى

---

(١) ابن الفوطي ص ٢٠١ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٣١٩ ، ٣٣٣ ، ابو الفداء ج ٣ ص ١٨٢ .

(٢) ن - م - ص ٢١٩ ، ج ١ ق ٢ ص ٣٣١ . ولعل السبب في تغير موقف الخلافة هو رغبتها في عدم انفراد الصالح ايوب بزعامـة الايوبيين في مصر والشام وقد جعل مركزه في مصر البعيدة عن الخلافة ، بالاضافة الى رغبتها برعاية احفاد صلاح الدين الذين لم يكن لديهم غير حلب وكانت علاقتهم حسنة معها .

(٣) ابن تغري ج ٦ ص ٣٢٥ ، ٣٢٧ .

(٤) ابن الفوطي ص ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، جوانفيل : القديس لويس ص ٩٥-١٠٨ .

الخليفة بعد وفاته (١) .

ذلك أنه ابعد مماليك ابيه واحاط نفسه بزمرة من أصحابه ورفاقه ، وكان يهددهم خاصة في مجلس شرابه كما كان يهدد ارملة ابيه التي حفظت عرشه وكانت بشجاعتها وحزمها عاملاً مهماً من عوامل النصر على الصليبيين قبيل وصوله ، فخاب ظن المماليك فيه وأحسوا بخطره عليهم فقرروا قتله وشجعتهم ارملة سيدهم على ذلك ، وجرأهم استهتار الايوبيين وانقطاع اواصر الرحمة والمحبة بينهم على التخلص منه ايضاً فقتلوه في ٩ محرم سنة ٦٤٨ هـ ولم يكن قد مضى على وصوله اكثر من اربعين يوماً ، ولم تفد توسلاته بهم او محاولته الاستنجاد برسول الخلافة الذي كان لا يستطيع ان يدفع عن نفسه ضراً ، فكان مقتله نهاية الحكم الايوبيين في مصر (٢) .

وتسبب مقتله في انقسام الجبهة الاسلامية على ضعفها عندما ثار الامراء الايوبيون في الشام وتوزعوا بلادها مستنكفين الخضوع لحكم مماليكهم ، وتولى زعامتهم الملك الناصر يوسف الايوبي صاحب حلب الذي كان اقوى هؤلاء الامراء والذي فتحت له دمشق ابوابها بالاضافة الى قلاع بعلبك وعجلون وصرخد ، وانفرد الملك المغيث عمر ابن العادل الصغير بالكرك والشوبك بينما استولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان غزة وقلعة الصبية (٣) .

---

(١) المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣٤٢ ، ابو المحاسن جـ ٦ ص ٣٢٧ – ٣٢٨ ، ٣٧٢ .

(٢) ابن الفوطي ص ٢٤٥ – ٢٤٧ ، ابو المحاسن جـ ٦ ص ٣٦٤ ، ابن اياس ، بدائع الزهور جـ ١ ص ٨٨ ، سعيد عاشور ، مصر في عهد دولة المماليك البحرية ص ١٧ – ١٨ العصر المماليكي في مصر والشام ص ٩ – ١٠ ، جوانفيل : القديس لويس ص ١٦٣ – ١٦٥ .

(٣) المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣٦٩ ، سعيد عاشور ، مصر في عهد دولة المماليك البحرية ص ٢١ ، العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٣ – ١٤ .

اما المماليك فقد تخبطوا في حكم البلاد أول الأمر بعد ان أصبحوا أصحاب الكلمة فيها ، فقـد أقاموا ارملة سيدهم الصالح ايوب شجر الدر حاكمة على البلاد تحمل اسم « المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل اميرالمؤمنين «١» » .

ودفعهم خوفهم من الامراء الايوبيين الى محاولة التخلص من آثار المعركة مع الصليبيين ، فدخلوا مع أسيرهم الملك لويس التاسع الفرنسي في مفاوضات انتهت بجلاء الفرنسيين عن البلاد واطلاق سراح الاسرى منهم مقابل فدية قدرها ثمانمائة الف دينار وحدد أجل الصلح بعشر سنوات «٢» .

وعندما أحسوا باستنكار الناس لحكم النساء ووصلهم تقريع الخليفة المستعصم بالله الذي يعرض عليهم ارسال « رجل يتولى الحكم ان كانت الرجال قد عدمت عندكم«٣» » اضطروا الى اقامة مدبر العسكر وقائده الاتابك عز الدين ايبك احد المماليك الصالحية ملكا على البلاد وزوجاً لشجر الدر التي كانت قد انفردت بحكم البلاد زهاء ثمانين يوماً ، ورغبة منهم في تفادي ثورة الامراء الايوبيين عليهم لانفرادهم بحكم البلاد وما قد ينشأ عن ذلك من مشاكل ، قرروا اختيار احد الايوبيين « ليجتمع الكل على طاعته » فاختاروا الاشرف موسى بن الملك الناصر يوسف ابن الملك المسعود بن الكامل بن العادل « فأقاموه سلطاناً وله من العمر ست سنوات ، وان يقوم الملك المعز عز الدين ايبك بتدبير الدولة وذلك في ٣ جمادى الاول سنة ٦٤٨ ﻫ فكانت المراسيم تخرج من الملكين الاشرف والمعز إلا ان الاشرف ليس له سوى الاسم وجميع الامور بيد

«١» المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٣٦١ – ٣٦٢ ، العصر المماليكي ص ١٢ – ١٣ .

«٢» العصر المماليكي ص ١١ – ١٢ ، جوانفيل : القديس لويس ص ١٥٩–١٦١ .

«٣» ابن الفوطي ص ٢٤٧ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٣٦٨ ، ابن اياس ج ١ ص ٨٩ ، العصر المماليكي ص ١٤ .

المعز » (١) ، ثم احس المماليك بعدئذ ان هذه اللعبة لم تنطل على الايوبيين في الشام الذين استمروا في استنكارهم وتهديدهم ، فقرروا تحمل المسؤولية وحدهم ومواجهة تبعاتها فخلعوا الاشرف « وأعلنوا في القاهرة ومصر ان البلاد للخليفة المستعصم وان الملك المعز عز الدين ايبك نائبه بها ، وذلك في يوم الاحد ٦ جمادى الآخرة سنة ٦٤٨ هـ (٢) » .

وسعى الامراء الايوبيون لاسترجاع مصر فحزموا امرهم وزحفوا بقيادة الملك الناصر يوسف صاحب الشام ، ولكنهم فشلوا أمام مماليكهم في المعركة وسقط بعضهم اسيراً بينما هرب الناصر ناجياً بنفسه الى الشام ، وأسرعت الخلافة للتدخل واصلاح ذات البين بينهم خاصة وقد ازداد وضعها حرباً ، وقرب الخطر المغولي الذي اصبح على الابواب ، فأرسلت رسولها نجم الدين البادرائي الذي استطاع أن يوقع الصلح ويحدد املاك الطرفين وأطلق من الاسر بقايا الامراء الايوبيين الذين سقطوا في المعركة وكان منهم المعظم تورانشاه بن الناصر وأخوه نصرة الدين وسائر اولاد الملوك (٣) والامراء

(١) المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٣٦٩ ، العيني مجلد احداث سنة ٦٣٥ - ٦٥٦ الورقة ٣٣٠ ، العصر المماليكي ص ١٦ .
(٢) المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٣٦٩ ، ابو المحاسن ج ٧ ص ٣ ، ابن اياس ج ١ ص ٩٠ ، العصر المماليكي ص ١٧ .
(٣) ابو الفداء ج ٣ ص ١٩٥ ، المقريزي ج ١ ق ٣٨٢ ، ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ابو المحاسن ج ٧ ص ٢٥ ، العصر المماليكي ص ١٧ - ١٨ .
وقد كلفت هذه الحرب المسلمين كثيراً إذ ان حاجة كل من الفريقين لكسب النصر دفعته الى فتح باب التعاون مع العدو والصليبيين المقيم في البلاد والاستعانة به على اخيه فقد اضطر المماليك الى التحالف مع الملك لويس التاسع اسيرهم السابق فتنازلوا له عن بقية الفدية واطلقوا مابقي عندهم من الاسرى بينما عرض الناصر الايوبي عليه التنازل عن البيت المقدس اذا وقف بجانبه في صراع مع المماليك .
لاحظ الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٩ - ١٠٩٢ .

على ان هـذا الصلح لم يدم طويلاً ، اذ عاد الخلاف ثانيه بسبب هروب بعض المماليك البحرية الى الشام بعد ان استبد المعز بالحكم وقتل زعيمهم اقطاي ، فالتجأوا الى الملك الناصر صلاح الدين يشجعونه على معاودة التفكير في استرجاع مصر ويعدونه بالمساعدة غير شاعرين او مقدرين طبيعة الظروف التي كانت تمر بالبلاد والاخطار العديدة التي كانت تتهددها ، وتدخل الخليفة ثانية وأمر رسوله الشيخ نجم الدين البادرائي ان يثني الملك الناصر عن قصد مصر بعد ان كانت جيوشه قد وصلت غزة ، فأجاب الى الصلح الذي تم سنة ٦٥٤ هـ والذي تقرر فيه اعادة تحديد البلاد بينهم على ان يكون للمعز ما كان للملك الصالح ايوب من الساحل ببلاد الشام مع ملك مصر ، وان الملك الناصر لا يأوي عنده احد من المماليك البحرية «١» .

وعندما وصلت رسل الطرفين الى الخليفة تلتمس الخلع كالعادة ، لم يستطع ان يمنح الاثنين في وقت واحد ، فاكتفى بالانعام على رسول المعز بينما اعطى سكينة خاصة لابن العديم رسول الملك الناصر علامة على ان له خلعة عند الخليفة وقد ارسلها فعلاً بعد سنة من هذا التاريخ «٢» .

على ان هذه الاحتياطات التي اتخذها الخليفة لاقرار السلام في البلاد وتوحيد كلمة المسلمين لمواجهة الخطر المغولي لم تفد في دفعه عنها ، اذ كان التتر اسرع اليه من النجدات التي ارسل يطلبها من الشام ومصر ولم يتحرك احد من هؤلاء الامراء لتلبية ندائه «٣» .

«١» اليونيني : ذيل المرآة ص ١٢ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٧ – ٩٨م ، العصر المماليكي ص ٢٠ – ٢١ .

«٢» اليونيني ص ١٢-٥٢ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٨ ، ٤٠٧ ، وقد يكون السبب في تصرف الخليفة رغبته في كسب المعز وضمان ولائه للخلافة وشعوره بأن الناصر كان يهادي المغول .

«٣» اليونيني ص ١٧٣ .

على ان نهاية الخلافة العباسية ببغداد كانت نهاية للأيوبيين بالشام ، اذ ان الذعر الذي سيطر عليهم جعل البعض منهم أمام المغول دون قتال كما فعل الملك الناصر نفسه والملك المنصور صاحب حماة ، بينما استسلم البعض الآخر للمغول كالاشرف موسى والملك السعيد وساروا تحت لوائهم لمقاتلة اخوانهم «١» .

اما في مصر فقد ذهب المعز ضحية غيرة زوجته شجر الدر وطمعها في السلطة سنة ٦٥٥ هـ بينما لم يقدر ابنه الطفل على مقاومة دسائس الطامعين في الملك من زعماء المماليك فتنحى عن الحكم للمظفر قطز الذي قاد المماليك للدفاع عن البلاد واستطاع وقف زحف المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ واسترجاع الشام وانقاذها من حكمهم «٢» .

٣ ـ **علاقة الخلافة باليمن** : ـ كان الايوبيون اول من سعى لاعادة اليمن الى طاعة الخلافة «٣» ، ففي سنة ٥٦٩ هـ قام شمس الدولة تورانشاه بفتحها بعد ان استأذن له اخوه من نور الدين ، وأقيمت فيها الخطبة للعباسيين ، وبشر نور الدين الخلافة بهذا

«١» العصر المماليكي ص ٢٨ - ٢٩ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١١٨ - ١١١٩ ، ١١٢٥ - ١١٢٨ .

«٢» ابن الفوطي ص ٣٤٤ ، العصر المماليكي ص ٢١ - ٢٥ ، ٣١ - ٣٥ ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٣ - ١١٣٧ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٢ ، ابن العديم ج ٢ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، ابن واصل ج ١ ص ٢٣٧ ، ابو الفداء ج ٣ ص ٥٧ .

اما ابو شامة ج ١ ص ٢١٦ - ٢١٧ فانه ينقل عن ابن ابي طي انه سبب توجه شمس الدولة لفتحها كان بالاضافة الى كثرة انفاقه وقلة اقطاعه واغراء الشاعر عمارة له ، فان احد الاشراف كتب له وأطمعه بالمعاونة ففعل .

النصر «١» ، ولم يبق شمس الدولة في اليمن طويلا إذ بعد ان وزع البلاد على نوابه واطمأن الى استقرار الامن عاد الى بلاد الشام ، ولما توفي سنة ٥٧٦ ﻫ اضطربت احوال هذه البلاد فارسل صلاح الدين بعض قواده لاعادة الاستقرار اليها ، ثم رأى أن يرسل اخاه الثاني طغتكين سنة ٥٧٨ ﻫ فأعاد السيطرة على البلاد وقضى على الفتن والثورات «٢».

وفي سنة ٥٩٣ ﻫ توفي طغتكين فتولى ابنه اسماعيل الذي اتخذ اسم الملك المعز ، ثم ادعى النسب القرشي الاموي وأعلن نفسه خليفة وقطع الخطبة العباسية واتخذ الخضرة شعاراً له «٣» .

وقد أنكر الخليفة الناصر عليه هذا العمل كما انكره عمه العادل ، وأدى تخبطه في الحكم وسوء تصرفه الى الثورة عليه فقتل سنة ٥٩٨ ﻫ ، ونصب اخاه الصغير الناصر واختير احد الامراء اتابكاً له ، واعيدت الخطبة العباسية مرة اخرى «٤» .

«١» ابو شامة ج ١ ص ٢١٧ . ويشير بامخرمة في تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ١٢٧ - ١٢٨ الى ان اهل اليمن استنجدوا بالخليفة الذي كتب الى صلاح الدين ليحقق نجدتهم نقلا عن ابن واصل ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ حاشية رقم (٢) .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ١٥٥ ، ابو شامة ج ٢ ص ٢٦ ، اليماني - بهجة الزمن في تاريخ اليمن ص ٧٧ - ٧٨ .

«٣» اليماني - بهجة الزمن في تاريخ اليمن ص ٨٠ .

«٤» تولى الملك المعز اسماعيل حكم اليمن حتى سنة ٥٩٨ ﻫ . اليونيني ص ٣٩ ، ابن واصل ج ٣ ص ٧٢ - ٧٣ ، ١٣٥ - ١٣٩ ، الجامع المختصر ج ٩ ص ٩٦ - ٩٧ ، ابوالفداء ج ٣ ص ١٠٧ - ١٠٨ ، ويشير ابن الساعي ج ٩ ص ٤٧ الى ان الخلافة كانت قد عزمت على ارسال جيش لتأديبه ولكن الله قصم عمره .

وقد تولى الاتابك سنقر الوصاية على اخيه الصغير الناصر ، وعند وفاته تولاها غازي بن جبريل الذي تزوج من ام الناصر ، ثم اتهم بقتل الناصر فقتل ، واستقدمت ام الناصر احد الايوبيين من مكة وهو سليمانشاه بن سعد الدين بن تقي الدين عمر فتزوجته وحكمته .

وفي سنة ٦١٢ هـ ارسل الملك الكامل ابنه المسعود اتسز الى اليمن فاستولى عليها وطرد عاملها سليمانشاه الايوبي واعاده مخفوراً الى القاهرة ، ثم سعى الى مد نفوذه الى مكة فهاجمتها قواته سنة ٦٢٠ هـ وتم له الاستيلاء عليها «١» ، ولم يبق الملك المسعود باليمن فعاد سنة ٦٢١ هـ الى مصر وتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، فكان آخر الايوبيين الذين حكموا بلاد اليمن «٢» ، اذ ان نائبه فيها علي بن رسول بقي على ولائه للأيوبيين في مصر حتى توفي سنة ٦٢٨ هـ ولما تولى ابنه عمر البلاد اعلن استقلاله بها ، مستغلاً بعد الايوبيين عنه وانقسامهم على انفسهم ، ولم يكتف بذلك بل سعى الى طردهم من مكة واحتلها ، فلم يسع الكامل إلا ان ارسل جيشاً استعاد مكة ولكنه لم يواصل التقدم نحو بلاد اليمن «٣» .

على ان الصراع بين الايوبيين واميراليمن علىالسيطرة على مكة استمر مدة طويلة كانت مكة تتنقل من يد الايوبيين الى اليمانيين ، إلا ان السيادة النهائية على مكة استقرت لامير اليمن سنة ٦٣٩ هـ ، عندما ارسل الملك المنصور نور الدين عمر جيشاً

«١» وكان قد تعرض في السنة السابقة لامير الحج العراقي ورفع اعلام ابيه فوق اعلام الخليفة في موسم الحج . ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٥٠ ، ابن واصل جـ ٣ ص ٢٢٧ ، الذيل ص ٨٩ ، ابو الفداء جـ ٣ ص ١٣٨ .

«٢» ابن الفوطي ص ١٢ - ١٣ ، المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٢٢٧ ، ابو المحاسن جـ ٦ ص ٢٥٨ . بينما يشير ابن عبدالمجيد اليماني في بهجة الزمن ص ٨٤ - ٨٥ ، الى ان الملك المسعود عاد ثانية سنة ٦٢٤ هـ الى اليمن بعد ان بلغته انباء الاضطرابات فيها وعجز نائبه عن اخمادها ، فقضى على اسبابها واعاد تنظيم البلاد ثم غادرها بعد ان استناب فيها نائبه السابق نور الدين عمر بن علي بن رسول .

«٣» ابو الفداء جـ ٣ ص ١٦٠ ، المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، المقري الفيومي الورقة ٤٠ .

احتلها وأخضعها لسلطانه (١) .

وبالرغم من ان امراء اليمن خرجوا عن طاعة الايوبيين منذ سنة ٦٢٨ هـ ، إلا انه ليس هناك ما يشير الى اتصالهم بالخلافة للحصول منها على تقليد بشرعية الحكم قبل وفاة الكامل الايوبي ، واعتقد انهم سعوا الى الاتصال بالخلافة فلم تجب طلبهم مجاملة منها للملك الكامل ، ولعلها كانت تترقب نهاية الحروب التي استمرت بين امراء اليمن وبين الملك الكامل قرابة عشر سنوات ، ولكن الخلافة بعد وفاة الكامل استجابت لامراء اليمن فقلدتهم السلطنة وأرسلت اليهم بالهدايا والخلع (٢) .

وكان امير اليمن حريصاً على الاتصال بالخلافة واخبارها بما يستجد من الاحداث راغباً في إظهار تعلقه بها وطاعته لها .

ويشير ابن الفوطي الى وصول رسوله سنة ٦٣٧ هـ يحمل الهدايا والتحف « ويخبر بظهور رجل ادعى انه هاشمي وانه رسول الديوان ومعه خلعة فقال له السلطان : عادة الديوان اذا شرف سلطاناً بخلعة ينفذ له تقليداً بالبلاد لتكون ولايته شرعية ، فقال : هذا يحتاج الى سؤال فاكتب والتمس ذلك حتى أنفذه مع مملوكي ، فكتب وسلم المكتوب الى الرسول فأمرهم انه ينفذه ثم اختفى فلم يعلم له خبر » (٣) ، وقد استمر الملك المنصور عمر في الحكم حتى مات سنة ٦٤٨ هـ قتيلاً ، وتولى السلطنة ابنه يوسف الذي سار على سياسة ابيه من التقرب الى الخلافة حتى دخول المغول بغداد (٤) .

---

(١) ابن الفوطي ص ١٢٣ - ١٢٤ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١٣ .

(٢) السيوطي ص ١٨٦ .

(٣) ابن الفوطي ص ١٢٢ .

(٤) ابن الفوطي ص ٢٥٨ ، ابوالفداء ج ٣ ص ١٩٤ ، ابن كثير ج ٣ ص ١٨١ ، العيني مجلد احداث سنة ٦٣٥ - ٦٥٦ الورقة ٣٣٠ .

٤ – **علاقة الخلافة ببلاد الحجاز** : – استعادت الخلافة العباسية الخطبة لها في مكة والمدينة بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، ولم يكن هذا حدثاً قليل الشأن ، ففيه تأكيد لسلطان الخلافة السياسي وتدعيم لسلطانها الروحي ، وكانت تحرص في مواسم الحج على ان تشرح سياستها وتتلى اوامرها ومراسيمها فينقلها الحجاج الى بلادهم بعد عودتهم اليها «١» ، وأصبحت وظيفة امير الحج من الوظائف المهمة عند الخليفة ، فكان يختار لها من عرف من الامراء بالحزم ليستطيع تمثيل الخليفة في الحج ، وفرض هيبة الخلافة على الناس ، حتى استقرت إمرة الحج في بيوت بعينها يتوارثها الابناء عن الآباء . كما اصبح الامير يتمتع بمكانة خاصة عند الخليفة ، بل كان اسمه يذكر في الحج بعد اسم الخليفة «٢» .

وكانت الخلافة حريصة في كل مناسبة على ان تظل سيادتها قائمة على الحرمين الشريفين ، وكان يسرها وصول المكيين « مع الحاج يحملون اليها خرق دم الاضاحي حسب العادة فيستقبلون بضرب الطبول «٣» » .

ولم تكن إمارتا مكة والمدينة وراثيتين ، انما كانت محصورة في ابناء الاسرة الحاكمة من آل البيت ، وكان النزاع كثيراً ما ينشب بين امراء مكة والمدينة فيلحق الاضرار بالحاج ، فكانت الخلافة تتدخل لاعادة الامن ويقوم امير الحاج باستخدام القوة لعزل الامير المعتدي وتنصيب اخيه او ابنه «٤» .

«١» السبط جـ ٨ ص ٦٢١ ، الذيل ص ١٣٠ .

«٢» من اشهر امراء الحاج في هذه الفترة الامير طاشتكين الذي تولاها قرابة عشرين عاماً ثم الامير وجه السبع ومجاهد الدين ياقوت ثم ابنه محمد بالرغم من صغر سنه .

«٣» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٠٥ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ، ٢٥٩ . ابن الاثير جـ ٩ ص ١٣٧ .

«٤» ابن الجوزي جـ ١٠ ص ٢٠٥ ، ٢٦٠ . ابن الاثير جـ ٩ ص ١٠ ، ٢٦ ، –

وقد حاول الأمراء الايوبيون في اليمن بسط نفوذهم على مكة ، فزحف اليها الملك المسعود سنة ٦٢٠ هـ واحتلها وقبض على اميرها حسن بن قتادة بن ادريس ، ولكن سلطان الايوبيين لم يدم طويلا بعد وفاة المسعود سنة ٦٢٦ هـ ، لان نائبه في اليمن خرج عن طاعتهم ثم زحف للاستيلاء على مكة وطرد نوابهم منها ، وتم له النصر بعد صراع دام عدة سنوات استقرت له السيادة على مكة سنة ٦٣٩ هـ ، بينما بقيت إمارة المدينة محتفظة باستقلالها و كانت تلتزم جانب الايوبيين في هذا الصراع (١) .

على ان السيادة اليمانية على مكة لم تطل ايضاً اذ سرعان ما خرج بعض امرائها وهو الشريف ابو سعيد بن علي بن قتادة على نائبهم فيها وقبض عليه ونهب امواله ، وادعى انه ينوب عن امير اليمن في حكم مكة ثم اعلن استقلاله فيما بعد (٢) ، ثم نشب الصراع بين الاشراف على إمرة مكة حتى استقرت بيد غانم الذي حجر على ابيه راجح ابن قتادة وانتزع الامارة منه ثم ارسل الى الخليفة المستعصم يلتمس الاعتراف به ففعل (٣) ، وعندما زالت الخلافة من بغداد كانت إمارة مكة بيد ابي نمي ابن ابي سعيد ابن قتادة بينما كانت إمارة المدينة بيد الشريف منيف بن شيحة (٤) .

- ٧٧ ، ١٣٧ ، ٢٢٩ ، ٣٠٥ ، ٣٤٥ - ٣٤٦ . وقد يقوم النزاع بين الامارتين كما حصل سنة ٦٠١ هـ . انظر ابن الاثير جـ ٩ ص ٢٦٩ . الجامع المختصر جـ ٩ ص ١٥٢ .

(١) المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٥٥ ، ٢٧٤ ، ٣٠٠ . وقد احتمى صاحب المدينة بالخلافة حيث قدم بغداد سنة ٦٣٧ هـ ، وشرف بلباس الفتوة فأصبح من اولياء الخليفة. ابن الفوطي ص ١٢٦ .

(٢) ابن الفوطي ص ٢٥٣ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٣) ابن الفوطي ص ٢٧٣ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٦ .

(٤) ابن الفوطي ص ٣١١ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤١٢ .

ثالثاً — علاقة الخلافة ببلاد المغرب

كانت الخطبة للعباسيين قد قطعت في افريقية بسبب قيام الحكم الفاطمي فيها ولكن الشعب لم يكن راضياً عن الحكم الجديد ، يشير ابن عذاري الى ذلك بقوله : « وقد اضطر اهل القيروان الى قطع صلاة الجمعة فراراً من دعوتهم وتبدعياً لاقامتها بأسمائهم . ثم يقول : « حتى تعطلت صلاة الجمعة في القيروان دهراً » «١» .

وقد اعيدت الخطبة للعباسيين ثانية في سنة ٤٤٣ هـ عندما ارسل المعز بن باديس رسولا الى بغداد يعرض على الخليفة القائم بأمر الله الطاعة ويلتمس التقليد ، وقد بعث له الخليفة بالتقليد والخلع والاعلام ، كما اقيمت الخطبة في برقة «٢» .

وقد امتد نفوذ العباسيين الروحي الى المغرب الاقصى والاندلس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ذلك ان الفقهاء اشاروا على يوسف بن تاشفين ان يتصل بالخلافة العباسية لكي تكون ولايته شرعية ، فأرسل عبدالله بن محمد العربي الاشبيلي رسولا الى الخليفة المستظهر بالله الذي قلده « ماتحت يده من البلاد في المغرب والاندلس

«١» ابن عذاري ـ البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٨ .

«٢» ابن عذاري ج ١ ص ٨٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ . ابن ميسر ج٢ ص ٥ وهو يشير الى ان الرسول الذي حمل خلع الخلافة هو ابو غالب الشيرازي الذي قبض عليه صاحب الروم عند مروره في بلاده وأرسله الى المستنصر الفاطمي الذي اهانه واحرق ما معه من الاعلام ثم اطلقه .

ويشير ابن الاثير ج ٨ ص ٣٩ الى ان الخطبة العباسية اقيمت سنة ٤٣٥ هـ . انظر ايضاً ابو الفداء ج ٢ ص ١٧٥ .

وما يفتحه في المستقبل بسيف امير المؤمنين ولقبه بامير المسلمين وناصر الدين » «١» ،
وقد استمر اعقابه بعد وفاته على سياسته موالاة الخلافة العباسية حتى تولى حفيده تاشفين
ابن علي زمام الدولة سنة ٥٣٧ هـ فاصطدم بدعوة الموحدين التي كانت قد انتشرت في
البلاد فخرج تاشفين للقضاء على جموعهم ولكنه فشل وهرب أمامهم ثم قتل سنة ٥٤٠ هـ
فاستولى عبد المؤمن على البلاد فانقطعت الدعوة العباسية «٢» .

على ان بقايا المرابطين بالاندلس استمروا على اقامة الخطبة حتى سنة ٥٥٢ هـ حيث
استسلموا للموحدين وسلموا لهم غرناطة فانتهت بذلك دولة المرابطين بالاندلس «٣» .

وقد جرت محاولات اخرى لمد النفوذ العباسي الى المغرب عندما قام بعض مماليك
الايوبيين في مصر بالاتجاه غرباً لاستكشاف البلاد ومعرفة امكانية اتخاذها مقاماً
للأيوبيين وكان قراقوش مملوك تقي الدين عمر الايوبي اول من اتجه الى المغرب سنة ٥٦٨ هـ
فاحتل طرابلس ، ثم دخل قابس وجعلها مركزاً له .

«١» ابن علي المراكشي ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص ٦٤ ، ابن الاثير
جـ ٨ ص ٢٣٦ ، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية ص ١٧-١٨ ، الناصري جـ١ ،
الاستقصاء ص ١٢٢ حسن محمود ـ قيام دولة المرابطين ـ ص ٣٢٣ ، ٣٣٣ . وهو يرى
ان المرابطين دعوا للخلافة العباسية من اول قيامهم مستنداً في ذلك على كتب النقود التي
تشير الى انهم نقشوا اسم الخليفة العباسي على السكة منذ سنة ٤٥٠ هـ . وذلك في عهد
الامير ابي بكر بن عمر حتى وفاته سنة ٤٨٠ هـ وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه على
السكة مع اسم الخليفة العباسي ، انظر قيام دولة المرابطين ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

«٢» ابن علي المراكشي ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ابن تغري جـ ٥ ص ٢٧٢ ، ٢٧٥ .
ابن خالد الناصري جـ١ ص١٢٧ ، ابو الحسن الخزرجي ـ الدولة المنقطعة ـ الورقة ١٥٦ ،
قيام دولة المرابطين ص ٣٣٧ .

«٣» ابن الاثير جـ ٩ ص ٥٥ ، ابو الفداء جـ٣ ص ٣٥ ، العيني ق ٢ جـ ٢١ الورقة
٢٨٩ في الحديث عن سنة ٥٥٢ .

وفي سنة ٥٧١ - ٥٧٢ ه احتل بعض القلاع الداخلية بعد ان كان سلطانه مقصورا على الساحل ، ولم يلق معارضة بل رحب به امراء البلاد طالبين منه الحماية من العرب مقابل نصيب من الخراج فامتد نفوذه الى فزان والجريد واوجلة والازراقية وغيرها .

وقد كان من نتيجة ذلك ان اقيمت الخطبة العباسية في هذه النواحي كما اتصل به بعض الامراء الخارجين عن طاعة الموحدين ومنهم بقايا المرابطين الذين اعلنوا الثورة على الموحدين «١» .

وقد شجع نجاح قراقوش غيره من المماليك على سلوك طريقه فسار الامير ناصر الدين ابراهيم سلا حدار تقي الدين في سنة ٥٧٣ ه الى المغرب فاتصل بقراقوش ثم توزعا البلاد فاستولى على جبال نفوسة وفتح مدينة غدامس وغيرها من البلاد . وقد ارسل في سنة ٥٧٧ ه كتاباً يذكر فيه ما فتحه من البلاد الواسعة واقامته للخطبة وضربه للسكة « وانه اعين بتقوية بلغ اغراضاً بعيدة وسير اموالا عتيدة «٢» » ، ويظهر أن الطمع قد دفعه الى محاولة الاستئثار بالبلاد دون قراقوش فعاد اليه لتأديبه فهرب والتحق بالموحدين بينما استمر قراقوش في توسيع سلطانه مستغلًا انشغال الموحدين بالحروب الداخلية «٣» .

وقد كاد تقي الدين عمر نفسه ان يدخل بلاد المغرب سنة ٥٨٢ ه عندما صرفه عمه صلاح الدين عن حكم مصر واستدعاه الى الشام وكان قد أرسل مملوكه زين الدين بوري ليمهد له السبيل فملك عدة بلاد .

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١١٩ ، ابو شـــامة ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٦٠ ، ٦٣ .

«٢» المقريزي ج ١ ق ١ ص ٦٥ - ٦٦ ، ٧٤ ، ابو شامة ج ٢ ص ١٦ ،

«٣» ابو شامة ج ٢ ص ٢١ ، ٢٧ ، ٣٨ .

ويظهر أن المنصور ابا يوسف الموحدي كان قد تخلص من مشاكله الداخلية فتفرغ لمواجهة مماليك الايوبيين الذين لم يكن لهم هـدف سياسي سوى جمع الاموال ونهب الخيرات فلم يجد صعوبة في التخلص منهم ، فاشتبك مع زين الدين اولا فأسره ثم منّ عليه واستخدمه ، وتوجـه نحو قراقوش الذي كان قد استولى على القيروان وحاصر تونس ، فهرب أمامه ثم عاد بعد أن جمع جموعه فهزمه ثانية ، ثم عاود قراقوش الاشتباك مرة اخرى ، ويبدو أنه وقع اسيراً في قبضة الموحدين «١» .

وبالرغم من ان صلاح الدين لم يبد اهتماماً وتشجيعاً لهذه المحاولات بل سعى لمنعها وايقافها إلا انها لم تخل من أثر في تاريخ المغرب «٢» ، ذلك ان هؤلاء المماليك كانوا قد اتصلوا ببعض الامراء الناقمين على الحكم الموحدي فتعاونوا معهم على تهديم الحكم القائم ، ومن هؤلاء علي بن اسحاق المعروف بابن غانية الذي كان من اعيان الملثمين وكان يمتلك جزيرة ميورقة وقد استغل الاحداث الداخلية وتغلغل الايوبيين فخرج الى بجاية واحتلها ثم اتصل بالايوبيين الذين كان يرأسهم مملوك آخر من مماليك تقي الدين اسمه بوزابة «٣» فانظم اليه فكثر جمعه وسمى نفسه بأمير المسلمين « وملك البلاد وخطب

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٧٣ ، ابن علي المراكشي ص ٢١٠ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٩١ ، ٩٩ . ويشير المراكشي الى وصول قراقوش واصحابه بعد اسرهم الى المغرب حيث احسن الموحدون معاملتهم وجعلوا لهم الجامكية في كل شهر ، بينما كانت جامكية الموحدين كل ثلاثة اشهر ثم يعلل سبب ذلك ، بينما يشير المقريزي الى ان قراقوش سقط اسيراً بيد الموحدين سنة ٦٠٠ هـ ، انظر ص ١٦٤ .

«٢» قد تكون هذه الغزوات من جملة الاسباب التي دفعت صاحب المغرب الى رفض انجاد صلاح الدين ذلك حينما طلبها منه على الصليبيين .

«٣» أعتقد ان المقصود بذلك هو زين الدين بوري الذي خرج في هذه الفترة سنة ٥٨١ - ٥٨٢ هـ .

للناصر لدين الله «١» .

ومن المحتمل انه سعى للاتصال بالخلافة إلا ان الموحدين فرغوا له واشتبكوا معه في حروب متصلة انتهت بمقتله واسترجاع ما بيده من البلاد على ان بعض اهله استمروا يدعون للخلافة في جهات اخرى من المغرب ، اذ ان ابن الساعي يشير الى وصول رسول من قبل يحيى بن غانية الميورقي سنة ٥٩٦ هـ « يخبر فيه باستمرار الدعوة ببلاد المغرب فقضيت أشغاله وأرسل الديوان معه رسولا هو عبد المنعم بن عبدالعزيز المالكي «٢» » .

كما ان الانقسامات التي وقعت بين امراء الموحدين من جراء تنازعهم على السلطة اضعفت من قوتهم جميعاً وأفسحت المجال لبعض امراء الاطراف ليخرجوا عن طاعتهم كما فعل محمد بن يوسف بن هود الذي خرج على ادريس الموحدي في الاندلس « ودعا الى آل العباس فمال اليه الناس «٣» » .

وقد اشار ابن الفوطي «٤» الى وصول رسوله في سنة ٦٢٧ هـ الى الخليفة المستنصر يخبر فيه باستيلائه على معظم بلاد المغرب واقامة الدعوة العباسية فأكرمت الخلافة الرسول .

* * *

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ١٦٦ ، ١٧١ ، ابن العماد الحنبلي ج ٤ ص ٢٦٨ .

«٢» الجامع المختصر ج ٩ ص ٢١١ ، الذهبي - تاريخ الاسلام مجلد ٢٧ الورقة ٨٥ في الحديث عن وفاة الملك المنصور ابو يوسف .

«٣» ابو الفداء ج ٣ ص ١٤٥ ، دول الاسلام ج ٢ ص ٩٤ ، ابن العماد الحنبلي ج ٥ ص ٩٥ .

«٤» ابن الفوطي ص ١٥ - ١٦ ، ابن خلدون ج ٣ ص ٥٣٦ .

من هذه الشذورات القليلة عن علاقة الخلافة العباسية بالامارات الاسلامية المستقلة في الشرق والغرب يتبين ان سياسة الخلافة مع جناحيها الشرقي والغربي كانت مختلفة ، فبقدر ما مارست علاقات سياسية فعالة مع امارات الشرق لم تكلف نفسها إلا قليلا في تنظيم علاقاتها مع الاتابكة والايوبيين ، ولعل السبب في ذلك يرجع الى موقف المشرق من الخلافة الذي كان يقوم على المناهضة والتهديد ، على حين كان موقفها مع الغرب يقوم على الطاعة والاحترام .

لقد كان اسلوب عملها واحداً مع دويلات المشرق كان يقوم على إغراء الامراء بعضهم ببعض والدس عليهم ، كما جربت استخدام قوتها العسكرية الضعيفة لفرض مكانتها فلما فشلت لم تعاود استخدامها ثانية .

وبالرغم من نجاحها في التخلص من خصومها السياسيين الذين كانت تحرض عليهم إلا انها لم تستطع ان تبني لها نفوذاً حقيقياً في هذه البلاد ، وظل حالها على ذلك حتى دخل المغول بغداد .

اما الاتابكة والايوبيون فقد اظهر هؤلاء طاعة واحتراماً للخلافة منذ قيامهم ، ولعل طريقة توليهم السلطة وانتقالهم من تبعية السلطنة السلجوقية الى تبعية الخلافة هي التي جعلتهم يسلكون هذا السلوك ، وأثبتت الاحداث ان طاعتهم للخلافة كانت عن ايمان صادق بمنزلتها وتفان في التبعية لها على الرغم من انهم ملكوا من القوة والسلطان الشيء الكثير ولا ننسى ان مركزهم السياسي والعسكري أمام الصليبيين وشعورهم الديني العميق الذي كانوا يمتازون به جعلهم بحاجة مستمرة الى التأييد المعنوي من الخلافة.

وقد استمرأت الخلافة هذه الطاعة وركنت اليها واعتبرتها فرضاً على المسلمين فلم تحاول ان ترتفع الى مستواها بل قصرت كثيراً في الواجبات التي كان ينبغي ان تقوم بها ، الامر الذي دفع صلاح الدين الايوبي في ايامه الاخيرة الى ان يغير سلوكه معها

عندما اهمل شأنها فارتجت واسرعت تطلب توكيد الطاعة ، وقد استعادت مكانتها عندما انقسم الايوبيين وتهالكوا على التقرب اليها ، إلا انها لم تقم بجهد واضح لدفع الخطر الذي كان يتهدد البلاد ، وبقي التواكل شعارها حتى جاء المغول .

اما بالنسبة للبلاد الاسلامية الاخرى فلم تبد الخلافة اهتماماً باعادة علاقاتها بها او استرجاع سلطانها عليها ، فكان الديوان يستقبل رسل هذه البلاد الذين يقدمون فروض الطاعة فيعطيهم ما يريدون من الخلع والتقليد ، لذلك فلم يكن لها اي أثر في الاحداث السياسية التي كانت تجري في تلك البلاد .

لقد كان بمقدور الخلفاء ان يفعلوا الشيء الكثير في خلال هذه الصحوة التي لم يشرق فجرها إلا قليلاً .

ولدينا من المسترشد وأخيه المقتفي أمثلة حية على ما يمكن ان يفعلوه ، واذا كان لابد ان نحدد مسؤولية فشل هذه الصحوة التي مرت في حياة الخلافة ، فانني أعتقد ان الخليفة الناصر مسؤول عن ذلك ، فقد حكم قرابة نصف قرن من الزمن ، تغيرت الدنيا خلالها من حوله ولم يتغير ، حتى احرق الحرث والنسل .

لقد تيسرت للناصر فرص كبيرة لانعاش الخلافة واعادة الشباب اليها لو تحرك قليلاً واستفاد من الظروف السياسية التي مرت بالبلاد الاسلامية فى الشرق والغرب ، إلا انه اكتفى من الطاعة بالمظاهر فقط وتاجر بقدسية الخلافة ولم يقدم المساعدات الفعلية للأمراء وقت محنتهم فأصموا آذانهم عن سماع استغاثة الخلافة عندما تهددها الخطر المغولي .

الباب الخامس

زوال الخلافة العباسية من بغداد

أولا — ظهور المغول وتهديدهم العراق

ثانياً — موقف الخلافة من المغول

أ — مسؤولية الخلفاء المتأخرين

ب — ضعف هيبة الحكم وانقسام الشعب

ج — ضعف الجيش

د — مسؤولية الحاشية

ه — الاضطرابات الاقتصادية

و — مسؤولية الأمراء المسلمين

ثالثاً — المغول وحصار بغداد .

الباب الخامس

زوال الخلافة العباسية من بغداد

أولا : ظهور المغول وتهديدهم العراق

كان المغول كما قلنا يعيشون في منطقة صحراوية قاسية تقع في الشمال الشرقي من آسيا تعرف بهضبة منغوليا ، وكانوا يتنقلون في ارجائها الواسعة طلباً للرزق ، وكانوا كلما ضاقت بهم الارض ، خرجت بعض قبائلهم الى المناطق المجاورة ينتهبون خيراتها ويعملون فيها معول الخراب .

وفي مطلع القرن السابع الهجري وقبل خروجهم الى البلاد الاسلامية ، دخلت هذه القبائل في صراع داخلي عنيف انتهى بانفراد جنكيز خان بزعامتهم واصبح سلطانه يشمل مناطق واسعة من بلاد الصين بالاضافة الى بلاد التركستان (١)، وبدأوا يحتكون بالعالم الاسلامي بعد ان تعاون الخوارزميون معهم رغبة في القضاء على الخطا وبعض القبائل المناوئة الاخرى .

بدأوا يحتكون بدار الاسلام بسبب حاجتهم الى الكثير من المواد الغذائية التي يفتقرون اليها بحكم قوة بلادهم وندرة انتاجها الزراعي ، وكان قيام خوارزمشاه

(١) النسوي ص ٣٨ - ٤٢ . وقد لخص هذا الصراع حافظ حمدي في مؤلفه الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٠٨ - ١١٤ .

علاء الدين محمد « بمنع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها » سبباً من الاسباب «١» التي عجلت بخروجهم الى البلاد الاسلامية ، لان المغول في هذه الفترة كانوا في حالة من اليقظة والنشاط والتوثب وكانوا قد وضعوا لأنفسهم خطة للسيطرة على المناطق المجاورة لهم كمقدمة للسيطرة على العالم «٢» ، لذلك لم يكن تعرضهم للبلاد الخوارزمية عفوياً بسبب مقتل تجارهم في أترار كما يروي بعض المؤرخين «٣» .

ولم تكن الدولة الخوارزمية ومن ورائها الخلافة العباسية في حالة من اليقظة والقوة بحيث تستطيع مواجهة هذا الخطر الفادح ، وانهار خوارزمشاه أمامهم من اول لقاء «٤» كما كان قد اخطأ خوارزمشاه في توزيع قواته على المدن وعجز عن مواجهتهم بنفسه فكان ذلك سبباً من الاسباب التي مكنت المغول من الانتصار والزحف الى داخل البلاد وإعمال القتل وحرق المدن وإبادة سكانها الامر الذي كان يلقي الرعب في نفوس اهل المدن الاخرى فيركنون الى الفرار وينقلون معهم الخوف ويستسلم الباقون لمصيرهم بعد ان اذلهم الخوف وأماتهم الفزع ، وابن الاثير «٥» خير من عبر عن شدة وقع هذا

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٣١ ، النسوي ص ٤٣ ـ ٤٦ ، براون ـ تاريخ الادب في ايران ـ ج ٢ ، الترجمة العربية ص ٥٥٧ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ ، سياسة جنكيز خان وتوزيع جيوشه ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ ، سياسة منكوقان ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨ . وصيته لهولاكو ـ لاحظ ملحق رسائل هولاكو .

«٣» عطا ملك الجويني ـ جهانكشاي ج ١ ص ٦٠ ـ ٦١ ، المعارف الاسلامية الترجمة العربية ، م ٧ ص ١٣٦ مادة جنكيز خان .

«٤» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٣٢ ، النسوي ص ٤٨ .

«٥» قال ابن الاثير في مطلع حديثه عن سنة ٦١٧ هـ : لقد بقيت عـدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا اقدم اليها رجلاً وأؤخر ـ

المصاب على المسلمين وتنبأ بانهيارهم واشار الى حالة الذل التي اصبحوا فيها .

وكان من نتيجة ذلك ان اطلق المغول العنان في التنقل في البلاد لمطاردة خوارزمشاه علاء الدين محمد الذي كان يفر أمامهم من منطقة الى اخرى دون ان يفكر في مواجهة هذه الجموع «١» التي اصبحت بعيدة جداً عن مراكزها الاصلية وكان قليل من الشجاعة والتجمع كفيلًا بالقضاء عليها ، لولا حالة التفكك والانهيار التي اصابت البلاد والتي كان خوارزمشاه نفسه سبباً من اسبابها عندما قضى على أمراء البلاد وانفرد بحكمها حتى لقي مصيره في احدى جزر بحر الخزر «٢» .

ولم يكن حال ابنه جلال الدين بأحسن من حاله بالرغم من الشجاعة والصبر التي ظهر بها اول الامر عندما تمكن من احراز النصر على بعض الجيوش المغولية ، ولكن انقسام اصحابه وزحف جنكيز خان نفسه جعله يعجز عن مواصلة القتال فعبر نهر السند

ـ اخرى ، فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً .. ص ٣٢٩ وما بعدها .

«١» كان جنكيز خان قد افرد من جيشه فرقة من عشرين الفاً سميت بالتتر المغربة لملاحقة خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش .

«٢» يشير ابن الاثير ج ٩ ص ٣٢٠ ، الى ضعف مقاومة المسلمين واستقامة الامر للمغول حتى اصبحوا يتنقلون من دون مانع في البلاد ، ويعزو ذلك الى سياسة خوارزمشاه التي كانت تقوم على الاستيلاء على البلاد وقتل ملوكها ، فبقي وحده سلطاناً على البلاد جميعاً ، فلما انهزم لم يكن هناك من يحميها ، بالاضافة الى ان عدداً من الامراء والجنود المسلمين التحقوا بالمغول طمعاً بالنهب وعداوة لخوارزمشاه الذي كان قد اوقع بهم . انظر ص ٣٣٥ ، النسوي ص ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، الجويني ـ جهانكشاي ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

وفقد معظم جيشه في المعركة إما قتلا او غرقاً في النهر «١» .

ولم تنتبه الخلافة لهذا الخطر الجديد الذي بدأ يكتسح البلاد وينتهك الحرمات ، فلم تتخذ الاجراءات السريعة لدفعه ولم تستمع الى الرسل الذين قدموا من البلاد المنكوبة يلتمسون الغوث والنجدة ، وكل مافعله الخليفة حين سماعه بوصول المغول الى كرمنشاه واقترابهم من بغداد ان امر الناس بالقنوت في الصلاة «٢» ، وكفى الله المؤمنين شر القتال .

وكان مما أخر الخلافة واطال من عمرها قليلا ان جنكيز خان رجع الى بلاده بعد ان اباد من اباد من الخوارزميين وهرب منهم من هرب ، وقد اطمأن الى انه ليس في البلاد من الحماة من يستطيع الوقوف في وجه اصحابه .

وكانت وفاة جنكيز خان وانشغال المغول باختيار خلف له «٣» فرصة ساعدت جلال الدين على أن يخرج من الهند ويعمل على اعادة نشر سلطانه على البلاد وتنظيم امورها ، ولو أنه اخذ العبرة من الاحداث التي جرت على والده وسعى الى جمع كلمة امراء المسلمين وتعاون مع الخلافة لكان من المحتمل ان تتغير الاوضاع ، خاصة وان المغول كانوا قد فقدوا الحماس والاندفاع الذي ظهروا به في زمن جنكيز خان بعد ان ملئت اعينهم بالخيرات والاموال كما انقسموا بعد وفاته الامر الذي اضعف من عزيمتهم وقلل من خطر هجماتهم «٤» .

«١» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ، النسوي ص ١٥٤ - ١٥٩ .

«٢» ذيل الروضتين ص ١٢٨ .

«٣» توفي جنكيزخان سنة ٦٢٤ هـ وتأخر اختيار ابنه اجتاي حتى سنة ٦٢٦ هـ ، ترجمة المعارف الاسلامية م ٧ - جنكيز ص ١٣٨ .

«٤» فقد المغول بمرور الزمن تلك الشدة والعنف الذي اندفعوا به عند خروجهم مع جنكيزخان ، وقد يكون لتغير ظروفهم الاقتصادية واضطراب امورهم الداخلية -

ولكن جلال الدين لم يفعل من ذلك شيئاً ولم يلق من بين الامراء صديقاً يستعين به عندما فاجأه المغول فهرب أمامهم وحان اجله على يد بعض الاكراد سنة ٦٢٨ هـ ، وبوفاته زالت الدولة الخوارزمية وانهار ذلك الحاجز الذي كان كأنه السد بين المغول والخلافة «١» ، واصبح الطريق أمامهم مفتوحاً للوصول الى بغداد .

غير انهم لم يواصلوا الزحف نحو بغداد انما اكتفوا بتوجيه بعض الحملات التي كانت تقوم بالسلب والنهب ثم لا تلبث ان تعود محملة بالغنائم «٢» ، ولعلهم كانوا يقصدون من وراء ذلك تحسس قوة الخلافة ومدى قدرتها على المقاومة «٣» ، كما ان ذلك يدل على اضطراب امور المغول الداخلية وضعف وحدتهم السياسية الامر الذي دفعهم الى الاكتفاء بارسال هذه الحملات الصغيرة للابقاء على حالة الرعب والفزع التي كانت قد عمت البلاد الاسلامية ، وقد استمروا على هذه الحال حتى تولى منكو خان زعامتهم في سنة ٦٤٩ هـ «٤» ، فدب النشاط ثانية في صفوفهم وبدأت حملاتهم تسير وفق هدف واضح وخطة مرسومة .

— أثر في هذا البرود الذي اتصفوا به عند ما كان جلال الدين يحاول اعادة سلطانه على البلاد ، وفي خلال الثمان سنوات التي حكمها جلال الدين بعد عودته من الهند تعرضوا له مرتين ، الاولى سنة ٦٢٤ هـ قرب اصفهان ، والثانية سنة ٦٢٨ هـ التي قضت عليه بعد تفرق اصحابه ، انظر النسوي ص ٢٣٢ ، ٣٥٣ .

«١» لاحظ في ذلك قول الاشرف نفسه عن اهمية الخوارزميين للمسلمين ، السبط جـ ٨ ص ٦٧٠ ، ترجمة المعارف الاسلامية م ٧ ، جلال الدين ص ٦٣ — ٦٥ .

«٢» وقد بلغ عدد الحملات التي شنوها من سنة ٦٢٨ هـ حتى سقوط الخلافة ثلاثة عشر حملة في سنوات ٦٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٥٦ هـ .

«٣» ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٨٦ ، لاحظ رسالة التاجر من اهل الري الى الموصل .

«٤» تولى منكوقان تولوي بن جنكيز خان زعامة المغول سنة ٦٤٦ هـ بعد —

ويذكر رشيد الدين أن منكو خان بعد ان استقر له الامر ونظم شؤون البلاد الداخلية تطلع الى العالم الخارجي المحيط فرأى انه لا زالت هناك بلاد واسعة خارجة عن طاعة اسرة جنكيز خان فقرر توجيه الجيوش لاخضاعها ومنها بلاد غرب ايران والشام ومصر وبلاد الروم والارمن ، فكلف اخاه هولاكو بقيادة هذه الجيوش والتوجه اليها وزوده بما يجب من النصائح (١) .

وقد تحرك هولاكو من معسكره في قراقوم في ذي الحجة سنة ٦٥١ هـ لتنفيذ امر اخيه ، فوصل اسوار بغداد في المحرم سنة ٦٥٦ هـ بعد ان اقتلع في طريقه قلاع الاسماعيلية (٢) .

اما الخلافة فقد ذكرنا انها كانت في شغل عن أخذ الحذر والحيطة بعد وقوع العدوان معتمدة على قدسيتها في نفوس المسلمين ، وظل الخليفة يهدد بهذه القدسية وبأن من يقصد بغداد سوف يلقى المصير الذي لقيه الملوك السابقون (٣) .

ونحن اذا حاولنا ان نعلل أسباب هذا الانهيار السريع الذي حل بالخلافة فاننا

– وفاة كيوك بن اجتاي بن جنكيز خان ، ولكن اختياره للخانية تأخر حتى سنة ٦٤٩ هـ عندما اجتمع زعماء المغول في مجلس القوريلتاي فاختاروه خاناً لهم .

(١) جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٣٣ – ٢٣٤ ، لاحظ ملحق رسائل هولاكو.

(٢) نفس المرجع ص ٢٣٨ ، ٢٨٦ . ابن الفوطي ص ٢٦٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ،

(٣) انظر جواب الخليفة على رسالة هولاكو الثالثة ، في ملحق رسائل هولاكو . وانظر ايضاً خطاب الخليفة لوزيره ، عندما يقول له : لا تخش القضاء المقبل ، ولا تقل خرافة ، فان بيني وبين هولاكو واخيه منكوقان صداقة وألفة ... وان رسالة الرسل غير صحيحة . . ولا ضير على الاسرة العباسية ، اذ ان ملوك الارض عبيد لنا ... رشيد الدين ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

لن نلتمسه في قوة جيوش المغول وحسن تدريبها وشدة بأسها وبراعة خططها العسكرية بقدر ما نرده الى ضعف الخلافة وتفكك اوصالها وانهيار مقوماتها الاساسية بحيث اصبحت عاجزة عن المقاومة وفتح الطريق أمام المغول للوصول الى بغداد نفسها .

وهذا الامر يقتضينا ان نتعرض لاحوال الخلافة في تلك الساعات الحاسمة .



من هشام ديب

ثانياً — موقف الخلافة من المغول

كان موقف الخلافة من المغول منطوياً على الضعف والتخاذل ، ويجب ان نلاحظ ان مظاهر الضعف هذه لم تظهر فجأة ، وانما كانت جذورها ترجع الى زمن بعيد ، ولم تستطع فترة الانتعاش التي مرت بها أن تقلل من أثرها .

ويتحمل الخلفاء المتأخرون في هذا الصدد مسؤولية كبرى ذلك ان من تولى الخلافة بعد المقتفي لأمر الله لم يسلكوا سبيله في الحزم واليقظة في معالجة الامور ، فقد أنعزل هؤلاء الخلفاء عن الناس وقلما ظهروا لهم .

وأقاموا بينهم وبين الناس سداً من الخدم والحجاب ولم يكن هذا الانعزال مقصوراً على ابناء الشعب وحدهم بل امتد حتى الى ابناء الخليفة واقربائهم ، اذ كانوا يجهلون ابناءه ، ولا يتصلون به إلا عندما يستدعيهم لامر من الامور ، واحاط الخلفاء انفسهم بحاشية من الخدم والمماليك وقصروا الاتصال على الوزير وغيره من كبار الموظفين واعتمدوا في تنظيم شؤون البلاد على بعض هؤلاء الخدم المقربين ، فأصبحوا يتحكمون في البلاد ، ويحملون أوامر الخليفة صدقاً او كذباً الى الوزير .

كما تعرضت حياة هؤلاء الخلفاء للخطر من جراء هذه العزلة ، اذ لم يجدوا بجانبهم من اهليهم من يدفع عنهم شر التآمر والعدوان ، فالخليفة المستنجد بالله راح ضحية انعزاله وخيانة رسوله الطبيب ابن صفية الذي كان واسطته للاتصال بالوزير ، وعندما حكم عليه بالموت لم يكن بجانبه احد من اهله يدفع عنه شر ما أريد به (١) .

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٨ ، ابن دحية ص ١٥٨ ، ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٥٨ .

اما خليفته المستضيء فلم يكن حاله مع القتلة الذين فوض اليهم الحكم بأحسن من حالة ابيه .

يشير ابن الجوزي الى احتجابه عن الناس « فلم يركب إلا مع الخدم ولا يدخل عليه غير قيماز «١» » ، حتى فقد السيطرة على الحكم بسبب تحكم اصحابه واصبحت الدنيا تقوم وتقعد من حوله ويحاصر قصره وهو لا يعلم من الامر شيئاً ، ولولا استنجاده بالعامة بعد أن هددت حياته بالخطر لكان مصيره كمصير ابيه «٢» .

اما الخليفة الناصر فقد قضى السنوات الثلاثة الاخيرة من حكمه في عزلة عن الناس تحكم فيه خادم وخادمة يكتبان باسمه ما يشاءان وفقد الحركة والابصار وامتلأ جسمه بالامراض ، ووزيره ابن القمي لا يعلم من ذلك شيئاً ولولا انه استعان بالطبيب صاعد ابن توما النصراني الذي كان الخليفة يبيح له الدخول عليه لما عرف من أمره شيئاً «٣».

وعندما توفي المستنصر بالله لم يشعر به إلا الخدم وشرف الدين اقبال الشرابي الذي استدعى المستعصم وعزاه في وفاة ابيه كما اخبر الوزير واستاذ الدار ، ثم اعلنت وفاته على الناس «٤» .

ولم يكن لهؤلاء الخلفاء كما رأينا سياسة واضحة في معالجة المشاكل السياسية ، بل لجأوا في حلها الى التحريض والايقاع بين الامراء الذين كانوا يخرجون على طاعتهم الاسمية فاشتعلت نار الحرب بين الامراء المسلمين ، واستعانت الخلافة بكل من يقف

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٢٤ .

«٢» نفس المرجع ص ٢٥٠ – ٢٥١ ، ٢٥٣ . ابن الاثير ج ٩ ص ١٢٨ ، ١٣٤ – ١٣٥ .

«٣» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٦١ ، السبط ج ٨ ص ٦٨٥ ، ابن الطقطقي ص ٢١٢ – ٢١٣ ، ابن العبري ص ٤٢١ .

«٤» ابن الفوطي ص ١٥٥ ، ١٥٨ ، المقري الفيومي – الورقة ١٣١ .

بجانبها للتخلص من خصومها .

كما اعتمد هؤلاء الخلفاء على استغلال الشعور الديني وتوجيهه والتركيز على قدسية الخلافة وأزليتها واعتبار طاعتها فرضاً على المسلمين (١) .

وقصر هؤلاء الخلفاء ايضاً في عدم الاهتمام بالاخطار التي كانت تهدد البلاد سواء من الشرق او الغرب بالرغم من اصوات الاستغاثة التي كانت تنبعث في طلب العون وكان بمقدورهم ان يفعلوا الكثير ولكنهم اكتفوا بارسال الكتب الى الامراء المسلمين لانجاد المستغيثين ، اوارسال حملي بعير من النفط والقنا للدفاع عن المسلمين ، وكان المستعصم بالله آخر هؤلاء الخلفاء وأضعفهم عزيمة واكثرهم تهاوناً ، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر. وأحداث بيعته تكشف عن مدى سيطرة رجال الحاشية على مقاليد الحكم .

يذكر الاربلي (٢) « ان المستعصم بويع بالخلافة صحوة نهار الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ هـ واستدعي من مسكنه بالتاج سراً من باب يفضي الى ظهر داره ، وكان المستدعي له والقائم بأمر هـذه الانالة شرف الدين اقبال الشرابي المستنصري وأجلسه على سدة الخلافة وخاطبه بأمير المؤمنين ، ثم أشعر استاذ الدار محمد بن العلقمي والوزير احمد بن الناقد بذلك وطلب منهما ستر الحال الى الليل ، ثم احضرا ليلا وبايعا ولقب المستعصم ، واستدعى احد اعمامه وهو ابو الفتوح حبيب وأوهم ان جماعة اخوته حضروا وبايعوا ، فلما حضر لم يرهم فبايع وعاد الى داره بالفردوس ، ثم طلب الباقون للمبايعة فامتنعوا ، وقد كان الاجراء الذي اتخذته الخلافة بحقهم ، ان اغلق عليهم باب

(١) لاحظ في ذلك ابن الاثير جـ ٩ ص ١٤٩ . عندما خرج صدر الدين لاخذ البيعة للناصر على البهلوان وكيف انه خاطب جنده عندما تردد البهلوان في البيعة بقوله: ما لهذا عليكم طاعة مالم يبايع اميرالمؤمنين ، لاحظ ايضاً خطاب تفويض الناصر لوزيره ابن القمي ، ابن الطقطقي ص ١٨٠ .

(٢) خلاصة الذهب المسبوك ص ٢١٤ - ٢١٥ .

الفردوس الذي يحتوي دورهم بحيث لا يدخل عليهم طعام ولا غيره فبقوا على ذلك ثلاثة ايام فسألوا المبايعة واحضروا فبايعوا » .

ويعلل النويني «١» سبب اختياره بقوله : « وكان للمستنصر أخ يعرف بالخفاجي يزيد عليه في الشهامة والشجاعة » وكان يقول : « ان ملكني الله تعالى امر البلاد لاعبرن بالعساكر نهر جيحون وانتزع البلاد من التتر » ، فلما توفي المستنصر لم ير الدويدار والشرابي وكانا غالبين على الامر ولا بقية ارباب الدولة تقليده الخلافة خوفاً منه ولما يعلمون من استقلاله بالامور واستبداده بالتدبير دونهم ، وآثروا ان يليها المستعصم بالله لما يعلمون من لينه وانقياده ليكون الامر اليهم فتقلدها واستبدوا بالتدبير .

ويكاد يجمع المؤرخون على وسم المستعصم بالعجز ، وضعف العزيمة وفساد الرأي وغلبة النساء عليه وشغفه بمجالسة المطربين ، كما اتفقوا على وصفه بالبخل وحب جمع المال حتى لم يتورع عن انكار ودائع الناس كما فعل مع الملك الناصر داود وأصبح يضرب به المثل لبخله وشحه «٢» .

ومما دل على خور عزيمته انه كلما ذكر بخطر المغول كان يجيب بقوله : « ان بغداد

«١» ذيل مرآة الزمان ص ٢٥٥ ، لاحظ السيوطي ايضاً ص ١٨٥ ، ١٨٦ . واذا اخذنا ما اورده هذان المؤرخان بنظر الاعتبار فان عنصر الشك يزداد في وجود جريمة للتخلص من المستنصر الذي كان يملك من قوة الشخصية الشيء الكثير والذي قد يكون رأى في ايامه الاخيرة تولية اخيه بعده ، ولكنه غلب على أمره وهو في مرضه.

«٢» النويني ص ٢٥٥ ، ابن شاكر جـ ١ ص ٢٢٧ . ويشير الى ذلك رشيد الدين م ٢ جـ ١ ص ٣١٩ - ٣٢٠ في حديثه عن الكامل الايوبي صاحب ميافارقين عندما قرر مقاومة التتر انه قال لسكان المدينة : سوف لا ابخل عليكم بالذهب والفضة والغلال الموجودة بالمخازن ... فانني والحمد لله لست كالمستعصم عبداً للدينار والدرهم الذي طوح برأسه ومملكه بغداد بسبب بخله وشحه .

تكفيني ولا يستكثرونها علي، اذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا ايضاً يهجمون علي وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي «١» .

بمثل هذه العقلية القلقة التي لا تستقر على رأي واجه المسلمون زحف المغول الاخير فلا عجب ان وجد المغول الطريق أمامهم مفتوحاً حتى اسوار بغداد في الوقت الذي كان الخليفة ينتظر ان تحل بهم لعنة الخلافة .

يضاف الى هذا انقسام الشعب على نفسه الى طوائف ومذاهب مختلفة ولم يكن هذا الانقسام طارئاً وانما يرجع في اصوله الى زمن بعيد ، ولكن الذي حدث في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الخلافة هو تعمق هذه الخلافات بين المذاهب الاسلامية وتحولها الى صراع دام الامر الذي لم يكن مألوفاً من قبل كما لم يعد الانقسام مقصوراً على طائفتي الشيعة والسنة ، بل انتهى الامر الى قيام الصراع بين طوائف السنة المختلفة كالحنفية والشافعية والحنبلية .

وقد اشرنا الى ان الخلافة لم تكن لديها سياسة واضحة لحل هذه المشاكل وكان تخبطها في ايجاد الحلول العاجلة من اسباب تفاقم الخلاف واستهانة الناس بالحلول التي تفرضها ، وبالاضافة الى هذا الصراع الطائفي والمذهبي كان هناك صراع آخر بين الاحياء ، وسبق ان اشرنا الى استعانة الخلافة بمشايخ المحلات وزعماء الطوائف لمنع الفتنة واعادة السكينة ، وانها كانت تضطر احياناً الى استخدام القوة لحسم هذه الاضطرابات وكثيراً ما مالأ جندها فئة على اخرى الامر الذي كان يؤدي الى سقوط عدد كبير من القتلى والجرحى بالاضافة الى وقوع السلب والنهب والاعتداء على الاعراض «٢» ، وقد أدت امثال هذه الحوادث الى كثير من النقمة والتذمر بين الناس فزادت من

«١» ابن العبري ص ٤٤٥ .

«٢» ابن الفوطي ص ٢٧٦ ، ٣١٤ .

تحديهم للخلافة وأدت الى قيامهم بأعمال الشغب والفوضى لاخذ الثأر متى اصبحت الخلافة عاجزة عن القضاء عليهم وكثيراً ما دخل جندها في معارك مع سكان الاحياء للقضاء على فتنة او فك حصار مضروب على حي آخر «١» .

وشجعت هذه الفوضى على انتشار اللصوص والعيارين وبلغ من استهانتهم بالحكم انهم كانوا يسلبون الناس في وضح النهار كما كانوا يطاردون افراد الشرطة ليتخلصوا «٢» منهم حتى اصبح الناس لا يأمنون على انفسهم وفكر بعضهم في بناء سور حول بيته ليأمن من خطر السرقة «٣» .

ومما يلفت النظر ان هذه الفوضى اصبحت تقريباً مستمرة في السنوات الاخيرة من ايام الخلافة بحيث لا تكاد تنقطع فتنة حتى تقوم اخرى ، وكان مما يزيد في شدة هذه الفوضى كثرة النازحين الى بغداد من سكان المناطق الشرقية من البلاد التي استولى عليها المغول او هاجموها وكان هؤلاء يجلبون معهم مشاكلهم ونقمتهم بالاضافة الى تأثيرهم على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في بغداد التي اصبحت تعيش في قلق دائم من جراء هذه الفوضى في الداخل والخطر الزاحف من الخارج «٤» .

ودفعت هذه الفوضى كثيراً من الناس خاصة اولئك الذين نكبوا بقسوة الخلافة وسوء معاملة موظفيها الى التفكير في هدمها والقضاء عليها وذلك بالتعاون مع العدو الزاحف ، فليس غريباً ان نجد كثيرين من هؤلاء التحقوا بصفوف المغول قبيل وصولهم فساهموا معهم في حصار بغداد والاتصال بكثير من اقربائهم في الداخل

«١» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٤٩ ، ابن الاثير ج ٩ ص ١٧٢ ، ٢٦٨ ، ٣١٨ ، ابن الفوطي ص ٣١ ، ٢٩٨ - ٢٩٩ .

«٢» ابن الفوطي ص ٢٥٤ ، ٢٧٨ .

«٣» نفس المرجع ص ٢٥٦ .

«٤» بدأت طلائع الهجرة الى بغداد سنة ٦٣٥ هـ كما يشير ابن الفوطي ص ١١٣ .

واغرائهم بالتخلي عن الدفاع ونشر روح الانهزام بين صفوف المدافعين ، الامر الذي اضعف كثيراً من مقاومة المدينة وسهل على المغول احتلالها .

ولا تنسى ما كان من ضعف الجيش والافتقاد الى سياسة دفاعية متينة ، وقد لاحظنا ان الخلافة بعد ان استعادت حريتها في فترة الانتعاش التي مر ذكرها ، لم تعط الجيش حقه من العناية والاهتمام ، واقتصرت فى تكوينه على المماليك الذين كان اغلبهم من الاتراك الذين نشأوا في قصور الخلفاء انفسهم ، وكان عددهم لايتجاوز بضعة آلاف وكانوا يمثلون الحرس الخاص للخلافة اكثر من كونهم جيشاً لها .

وكان من الاسباب التي شجعت الخلافة على الاكتفاء بهذا القدر من الجند طبيعة النظام الاداري الذي اتبعته في حكم اجزاء العراق المختلفة والصلاحيات التي اعطتها لولاية والتي كانت تبيح لهم تكوين جيش خاص بهم ، فكانت الخلافة تعتمد على جيوش هؤلاء الامراء في القضاء على الاضطرابات الداخلية التي تقوم بها بعض العشائر كما كانت تعتمد عليهم وتفتح باب التطوع وتستنفر الاعراب من البوادي وتستنجد بأمراء المسلمين الآخرين عندما تتعرض للخطر ، لذلك بقيت الخلافة عاجزة عن القيام بأي عمل عسكري لتحقيق سيادتها على بعض اجزاء العراق «١» ، كما فشلت المحاولات العسكرية التي قام بها بعض وزرائها لنشر نفوذها في البلاد المجاورة ، او لدفع اعتـداء يقع على بعض اقاليمها «٢» .

«١» مثال ذلك انها كانت عاجزة عن استعادة تكريت ، فبعثت تطلب من صلاح الدين ان ينجدها بجيشه .

«٢» فشل وزراؤها ابن يونس وابن القصاب في تحقيق اهـــدافها أمام طغرل السلجوقي اوخوارزمشاه ، وكانت عاجزة ايضاً عن دفع الامراء المسلمين الذين يحاولون الوصول الى بغداد لطلب الخطبة ، كما حصل عنـد زحف البهلوان سنة ٥٧٢ هـ ، وجلال الدين الخوارزمي سنة ٦٢٠ هـ .

وجعلها هذا الوضع عاجزة عن تقديم أية مساعدة لدفع الصليبيين الذين استولوا على بعض الاماكن المقدسة وأخذوا يهددون الاخرى بالرغم من اصوات الاستغاثة التي كان صداها يصل حتى مساجد بغداد .

وعندما تغيرت الاوضاع السياسية في العالم المحيط بها لم تتغير سياستها وكانت الفرصة مؤاتية لها لتقوم بواجبها الحقيقي في زعامة العالم الاسلامي فتتصدى الدفاع عن البلاد أمام الخطر المغولي قبل استفحاله وتضع خطة دفاعية مدروسة لاستعادة مكانتها السابقة فينساق وراءها الامراء المسلمون يأتمرون بأمرها وينفذون تعاليمها لا يستطيعون النكوص اذا ما رأوا جديتها في العمل وحزمها في التنظيم ، ولكنها اغمضت عينيها عن المذابح التي قام بها هؤلاء وأصمت أذنيها عن سماع أنين المستغيثين فعجلت بنهايتها وأصبحت وجهاً لوجه أمام المغول .

لقد كان اول تهديد لحدود الخلافة من قبل المغول سنة ٦١٨ هـ عندما ادركوا حدود اربل ودقوقا وارسلت الخلافة نجدة كما يقول مظفر الدين كوكبري صاحب اربل لم تزد على ثمانمائة جندي يقودهم مملوك الخليفة قشتمر اكبر امراء العراق ، ولم يهز هذا الاعتداء الخليفة الناصر فيوقظه ويجعله يستفيد من امكانيات صاحب اربل وغيره فيمدهم بالجيوش ليسيروا الى المغول ، ولكنه اكتفى بالدعاء عليهم عندما امر الناس بالقنوت في الصلاة (١) .

وجاء التهديد الحقيقي سنة ٦٢٨ هـ عندما اختفى الخوارزميون وانتهى دورهم في حجز المغول فدخلت جيوشهم للمرة الثانية ارض الخلافة وتعرضت شهرزور واربل ودقوقا والكرخيني للاعتداء فاهتمت الخلافة بارسال النجدات التي لم تدخل في معركة مع المعتدين انما وقفت تراقبهم حتى عادوا سالمين فانتهت مهمتهم واستأذنوا بالعودة

---

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٣٧ - ٣٣٨ ، الذيل ص ١٢٨ .

الى بغداد (١) .

وتوالت هجمات المغول على العراق حتى لم تكن تمر سنة إلا وتقوم فاجعة في اكثر من جزء منه ، كما تعرضت اطراف بغداد للاعتداء مرتين خلال هـذه الفترة (٢) ، وكانت حمية الخلافة تشتد عندما يقرب الخطر منها فترسل النجدات الى المناطق المنكوبة خاصة اذا كانت قريبة منها ، كما تقوم باعلان النفير العام وتستفتي العلماء بايقاف الحج وتجمع المتطوعة من الحواضر والبوادي وتستنجد بأمراء الاطراف (٣) ، ثم تعود بعد ان يعود الخطر فتأمر بتسريح الجند والمتطوعة وإعادة من وصل اليها من الامراء كأن الامر قد انتهى وان الخطر زال ولم تفكر طيلة الثلاثين سنة الاخيرة من عمرها في انتهاج سياسة عسكرية تقرر فيها ما يجب ان تفعله ازاء الخطر الداهم .

ونلمس بعض الاهتمام بدفع المغول في زمن المستنصر إذ تشير المصادر الى اهتمامه بأمرهم وقيامه بارسال الاموال لتجنيد الجنود من البلاد المجاورة حتى قيل ان عدد الجند الذين دونهم بلغوا قريباً من مائة الف (٤) ، ثم افتقد هـذا النشاط في عهد المستعصم الذي دفعه بخله الى عدم الانفاق على الجند حتى دفعتهم الحاجة الى سؤال الناس

(١) ابن الاثير جـ ٩ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ابن الفوطي ص ٢٧ - ٣١ .

(٢) تعرضت بغداد لخطر المغول المباشر مرتين قبل سقوطها ، الاولى سنة ٦٣٥ هـ عندما وصلوا سامراء ، والثانية سنة ٦٤٣ هـ عندما وصلوا قريباً منها ، ابن العبري ص ٤٣٨ ، ٤٤٦ ، ابن الفوطي ص ١١١ .

(٣) ابن الفوطي ٨٥ ، ٩٨ ، ١١٠ - ١١٢ ، المقري الفيومي الورقة ٨٦ ، وكانت النجدة الوحيدة التي وصلت الخلافة سنة ٦٣٥ هـ عندما وصلها ولدا الملك الامجد فرخشاه صاحب بعلبك ومعهم الف فارس ، ثم وصل بعده المشمر خضر بن صلاح الدين ومعه ستمائة فارس ، كما وصلها نورالدين ارسلانشاه بن عمادالدين زنكي صاحب شهرزور .

(٤) المقريزي جـ ١ ق ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ٣١٢ . السيوطي ص ١٨٥ .

وبذل وجوههم في الطلب كما دفعت الحاجة قسماً آخر الى الثورة والتمرد على الخلافة ، بينما فارقها آخرون يلتمسون الرزق من بلادالشام بعد ان اسقطوا من ديوان الجند«١» بل ان قسما منهم التحقوا بالمغول ودخلوا في خـدمتهم ولعبوا دوراً مهما في اضعاف مقاومة جيوش الخلافة بسبب الفقر والحاجة كما يقول رشيد الدين «٢» .

وقد أدت هذه الحال الى ان فقدت الخلافة قوتها العسكرية فلم يبق لديها من يستطيع الخروج لمواجهة المغول وتمرد الباقون منهم على رؤسائهم ، وتجلى هذا العجز عندما خرج مجاهد الدين ايبك الدويدار الصغير لايقاف الزحف المغولي الذي وصل غربي بغداد فقد كان عسكره في غاية القلة «٣» وكان فشله في المعركة وهزيمته أمامهم نهاية لمقاومة الخلافة التي استسلمت بعد ايام من الحصار .

ولا يمكن ان نعفي ذوي الرأي ورجال الحاشية من المسؤولية وأقصد الوزراء وامراء الجيش وكبار موظفي الدولة الذين يستعين بهم الخليفة .

وقد ذكرنا ان الخلفاء بعـد ان استعادوا حرية التصرف في الحكم وتخلصوا من رقابة المتغلبين وتدخلهم لم يعملوا على مباشرة الامور بأنفسهم انما عادوا ثانية الى حياة القصور والخمول واعتزلوا الناس وسلموا مقاليد الحكم للخدم والمماليك يتدبرون امرها نيابة عنهم ، وقلة الرقابة على هؤلاء وعدم محاسبتهم شجعتهم على الاستئثار بالسلطان ومكنتهم من السيطرة على الحكم حتى اصبح الخلفاء عاجزين عن وقف نشاطهم ، فضلاً

«١» ابن الفوطي ص ١٦٨ ، ٢٦١ ، ٢٢٠ . ابو المحاسن ج ٧ ص ٢٠ .

«٢» في حديثه عن سلطان جوق احد الهاربين من جيش الخلافة الى المغول الذي كتب الى قبچاق المعروف بقرا سنقر قائد طلائع الخليفة يذكره بأنها من جنس واحد وان الفقر هو الذي دفعه لخدمة هولاكو ثم يدعوه للالتحاق به . جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

«٣» ابن الفوطي ص ٣٢٠ ، ابن الطقطقي ص ٤٥٣ .

عن ذلك تحكم هؤلاء في ادارة شؤون البلاد بما لا يتفق في كثير من الاحيان مع مصلحة الخلافة لذلك نشأت من جراء سوء التصرف هذا كثير من مظاهر الفوضى والاضطرابات في مختلف نواحي الحكم وتحملت الخلافة وزر هذه الاعمال التي اثقلت كاهلها وسببت انتشار النقمة والتذمر والانقسام بين صفوف الناس .

ومن امثلة هذا التحكم ما حدث في اواخر عهد المستنجد من صراع على الحكم بين وزيره ابن البلدي الذي كان الخليفة قد بسط يده في جميع اهل الدولة من الامراء والحجاب «١» وبين استاذ الدار ابو الفرج عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكبير امراء الجيش قايماز المستنجدي وقد احسوا بتغير رأي الخليفة فيهم ، وبعزمه على القضاء عليهم فاستغلوا مرضه الاخير واستعانوا بطبيبه الخاص وقضوا عليه «٢» .

وعندما تولى المستضيء الخلافة كان مشلول السلطان في البلاد حتى اصبح محجوراً عليه لا يستقبل غير قايماز ولا يركب إلا مع الخدم ، على ان الخلاف سرعان ما دب بين عضد الدين الذي تولى الوزارة وحليفه قايماز الذي احاط نفسه بزمرة من اقربائه واصحابه فعلثوا في البلاد فساداً واستبدوا بأمور الناس حتى لم يتورعوا عن محاصرة قصر الخليفة ومطاردة بعض موظفيه الذين التجأوا اليه «٣» ، ولم يجد الخليفة مخرجاً من هذا الحصار غير الاستعانة بالعامة الذين هبوا للدفاع عنه وطاردوا قايماز واصحابه حتى خارج بغداد «٤» .

على ان المستضيء لم يتعظ بما حدث اذ فسح المجال لصاحب مخزن ابن العطار لكي

«١» ابن الفرات م ٧ الورقة ٥٧ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ١٠٨ ، ابن دحية ص ١٥٨ .

«٣» وهو ظهير الدين ابو بكر نصر ابن العطار صاحب المخزن .

«٤» ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٢٥٥ - ٢٥٦ . ابن الاثير ج ٩ ص ١٣٤ .

يستبد بالمسلطان فلم يراع شعور المسلمين عندما التزم جانب اهل الذمة ومكنهم من الاعتداء عليهم ثم لم يسمع شكواهم فثاروا حمية للدين وتحدوا الخلافة وهاجموا موظفيها كما طاردوا اهل الذمة ونهبوا محلاتهم وارغموا الخليفة اخيراً على تحقيق شكواهم (١) .

وقد تحكم في الخليفة الناصر عند توليه الخلافة استاذ داره ابن الصاحب مجد الدين ابو الفضل الذي كان شيعي النزعة فالتزم جانبهم وأحيا النعرات الطائفية وشجع على قيام الاحتفالات الدينية حتى اصبحت تقام أمام حجرة الخليفة وكان أثر هذه الاحتفالات في توسيع الشقة والانقسام بين المسلمين كبيراً بفضل التشجيع الذي يلقاه عامة المحتفلين من ارباب الحكم الامر الذي كان يؤدي الى احداث الفوضى والاضطرابات بين المسلمين فلما احس الخليفة بالخطر تخلص من ابن الصاحب وقضى عليه (٢) ، لكنه لم يباشر الامور بنفسه ايضاً بل اكتفى باختيار عـــدد من الوزراء فوض اليهم السلطان فاستبدوا بالناس (٣) ، ووصل تسلط رجال الحاشية الى الذروة في اواخر عهد المستنصر ولعبوا دوراً كبيراً في اختيار المستعصم لما عرف عنه من ضعف وانشغال بملاذ الحياة ليتسنى لهم توجيهه والتحدث باسمه (٤) .

---

(١) ابن الجوزي ج ١٠ ص ٢٧٥ ، ابن الاثير ج ٩ ص ١٤٥ ، السبط ج ٨ ص ٣٥٩ .

(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ١٤٨ ، ١٨٩ ، السبط ج ٨ ص ٣٨٦ ، اليافعي : مرآة الجنان ج ٣ ص ٤٢٤ ، ٤٢٦ .

(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٦ ، السبط ج ٨ ص ٤٣٨ - ٤٣٩ ، ٤٥١ ، ٥٣٣ - ٥٣٥ . الذيل ص ٥٩ - ٦١ . ابن واصل ج ٣ ص ١٧٨ - ١٧٩ . وكان من جراء استبداد الوزراء وتعسفهم هروب بعض الامراء الى مصر والشام خوفاً من بطشهم ، كما فعل امير الحج مظفر الدين وجه السبع ، وامير الحاج حسام الدين ابو فراس .

(٤) ابن الفوطي ص ٢٦٤ .

ولم تتحد كلمة رجال الحاشية هؤلاء بل كان الانقسام بينهم مستمراً بحكم اختلاف آرائهم ومصالحهم ، وكان كل منهم يسعى لتقوية حزبه وجمع انصاره ، ولم تكن هجمات المغول المستمرة على البلاد كافية لاشعارهم بخطر هذا الانقسام والتنابذ وضرورة جمع الشمل وتناسي الاحقاد .

وكان الانفجار الاخير بين هذه الاحزاب المتصارعة في سنة ٦٥٣ هـ عندما تراشق الوزير ابن العلقمي والدويدار الصغير الذي تولى قيادة الجيش التهم بالخيانة والغـــدر وكان ذلك سبباً من الاسباب المباشرة التي اضعفت كثيراً من مقاومـة الخلافة واستعداداتها لمواجهة الخطر اذ نشبت المعارك بين انصار الحزبين في الاسواق وانتشرت الشائعات بين الناس وزادت من حدة الصراع الطائفي القديم وتحولت البلاد الى اتون من الفوضى (١) .

وقد رمي الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي بسبب هذه الاشاعات وبما كان يغلب على جو البلاد السياسي من الصراع الطائفي بتهمة الاتصال بالمغول واستدعائهم للقضاء على الخلافة وتمهيد الطريق لهم بتسريح الجيوش وكتم انبائهم عن الخليفة والتقليل من شأنهم .

وقد ذكر المؤرخون الذين نقلوا هذه الاشاعات على محمل الصدق والواقع ان ابن العلقمي ارتكب هذه الخيانة لانه كان شيعي المذهب ، وكان راغباً في نقل الخلافة الى العلويين فضلاً عن حقده الشخصي على الخليفة الذي لم يحفظ حرمته او يلزم جانبه في

---

(١) ابن الفوطي ص ٢٩٤ - ٢٩٨ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٦٢ - ٢٦٤ . ويظهر أن حوادث هذا الصراع استغرقت زمناً طويلاً قبل ان تهدأ حيث يشير ابن الفوطي الى انها بدأت سنة ٦٥٣ هـ بينما كان تاريخ الامان الذي كتبه الخليفة للدويدار في جمادي الآخرة ٦٥٤ هـ .

في صراعه مع الدويدار الصغير ، وقيام جند الخلافة بالاعتداء على الشيعة في الكرخ(١).

وتصدى ابن الطقطقي لنفي هذه التهمة واشاد باخلاصه ونصحه للخليفة ، كما التزم رشيد الدين جانبه في حديثه عن الايام الاخيرة للخلافة واشار الى استمرار نصحه وجودة رأيه .

وأعتقد ان تحقيق هذا الاتهام او نفيه لا يرتبط بعدد المؤيدين له او المعارضين انما يتم بدراسة طبيعة الاوضاع السياسية التي كانت سائدة آنذاك ، ودور الانقسامات المذهبية والخصومات الشخصية التي كانت تؤثر كثيراً في صنع الحقائق او الأكاذيب كما لا يجب ان نغفل ان شدة النكبة التي مني بها المسلمون بسقوط الخلافة وما رافقها من مذابح وفظائع جعلت الناس يصبون لعنتهم على المغول ومن كان يتعاون معهم من المسلمين الذين بقوا على قيد الحياة بعد مجزرة بغداد .

ومن هؤلاء ابن العلقمي مؤيد الدين نفسه الذي استخدمه المغول في نفس منصبه للاستفادة منه في ادارة البلاد لذلك تركزت هذه التهم في عنقه حتى اصبحت كأنها حقائق ينقلها مؤرخ عن آخر ، على انني لا أبرىء العلقمي من تهمة التقصير والاهمال ، وأعتقد أن المغول لم يكونوا بحاجة الى ان يستدعيهم العلقمي للقضاء على الخلافة ، اذا علمنا انهم كانوا في زحف عام وفق خطة موضوعة للسيطرة على العالم ،

---

(١) النويني ص ٨٦ ، الصفدي ج ١ ص ١٨٤ ، ابن كثير ج ١٣ ص ٢٠١ ، ابو المحاسن ج ٦ ص ٣٥٦ ، ج ٧ ص ٢٠ ، السيوطي ص ١٨٦ - ١٨٧ ، الدياربكري ج ٢ ص ٤٢٠ - ٤٢١ ، العيني مجلد احداث سنة ٦٣٥ - ٦٥٦ هـ الورقة ٣٦٦ ، ٣٩٢ - ٣٩٤ . وينقل امير علي في مختصره ص ٣٤٥ اسماء مؤرخين آخرين اكدوا الخيانة ، فيذكر منهم : ابن خلدون ، وابو الفداء ، والمقريزي . كما يذكر من كتاب المغول ميرخوند ووصاف .

وكانوا في هذا الزحف ينفذون الشطر الثاني منها «١» .

كما أن المغول الوثنيين آنذاك لم يميزوا بين طوائف المسلمين المختلفة لينصروا طائفة على اخرى ، وكانوا يتطلبون من الناس الطاعة والخضوع لهم دون اعتبار لمذهب أو دين «٢» .

بل ان كثيرين من الذين استسلموا لهم لم يخلصوا من بطشهم ، ولما دخلوا بغداد لم يميزوا بين المسلمين في الذبح فقد كان السيف يختطف رقابهم جميعاً دون تمييز ، اما جريرة العلقمي فهي انه كان وزيراً مسؤولا منذ اكثر من اربعة عشر سنة «٣» وكان عليه أن يتدبر الامر ويستعمل الحزم أمام الخطر المغولي الذي لم يكن جديداً على البلاد فأهمل اتخاذ الاستعدادات اللازمة وانساق وراء الخصومات الشخصية .

ولم يكن تقصير الخلافة وإهمال اجهزتها كافياً لتمكين المغول من القضاء على

«١» وهو الزحف الذي بدأ به منكوقان عندما ارسـل اخويه قوبيلاي وهولاكو سنة ٦٥١ هـ لتحقيق اغراضه ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٣٤ .

«٢» لقي جاثليق النصارى رعاية خاصة من المغول ، وقد يكون ذلك بتأثير زوجة هولاكو المسيحية ، فخلص بذلك اغلب النصارى الذين احتموا به فعين لهم حراس من المغول ، كما خلص معهم عدد من المسلمين الذين التجأوا اليهم ، اوكانوا على اتصال بالمغول قبل وصولهم ، فحصلوا منهم على فرمان (عهد أمان) استخدموه لحماية انفسهم واسرهم واملاكهم بعد دخول هولاكو ، ونجوا من المذبحة ، انظر في ذلك لابن الفوطي الحوادث الجامعة ص ٣٢٩ ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج ٤ ق ١ ص ٩٦ ـ ٩٧ في الحديث عن ابن علجة ، العيني ـ الورقة ٤٠٢ في الحديث عن الشيخ الصرصري .

«٣» تولى مؤيد الدين ابو طالب محمد بن العلقمي الوزارة في ثامن ربيع الاول سنة ٦٤٣ هـ .

الخلافة وإزالة اسبابها من الارض ، بل شهدت هذه السنوات الحاسمة مظاهر كثيرة من غضب الطبيعة وقسوتها ساعدت على زيادة التفكك واستمرار الفوضى .

وعبر ابن الفوطي عن دهشته من الاحـداث الطبيعية التي وقعت سنة ٦٥٣ هـ فقط بقوله (١) : « وفي هذه السنة اتفقت امور عجيبة وحوادث غريبة قد ذكرناها ، منها الغرق العام الذي اخرب اكثر بغداد لاسيما دار الخلافة والدور الشطانية من الجانبين وانتقال الناس من دورهم وتضاعف أجرة السكن الشعثة في اطراف البلد وغلت الاسعار وتعذرت الاقوات ... ثم يستمر في تعداد انواع الخراب الذي حل في هذه السنة » فضلاً عن اهمال الخلافة الاحوال الاقتصادية وما صحب هـــذا من ازمات وضائقات .

ولا يخفى ما للاضطرابات الاقتصادية من اثر على الكيان السياسي ، ومما يلفت النظر في هذه الفترة ان النكبات اصبحت متلاحقة ، والمسؤولون لم يفعلوا شيئاً لتخفيف وقعها او ملاقاة اسبابها .

ومما زاد في ارتباك الحياة الاقتصادية حدوث الفيضانات في الرافدين وفروعهما وما نشأ عن ذلك من أضرار بالغة من غرق بعض المدن وقطع طرق المواصلات وغرق مساحات واسعة من الاراضي الزراعية في وسط وجنوب العراق خاصة ، وانحباس المطر عن القسم الشمالي ، وأثر ذلك في قلة الانتاج الزراعي وزحف الجراد المستمر وإهلاكه كثيراً من الغلات والخضر وحدوث المجاعات نتيجة لما سبق ، وما اعقبه من انتشار الامراض والاوبئة ، وإهمال الخلفاء المتأخرين العناية ببقايا مشاريع الري القديمة التي اخذت تفقد أثرها في زيادة الانتاج الزراعي وتخفيف حدة الفيضان .

كما ان العراق فقد الامن والاستقرار في الخمسة والعشرين سنة الاخيرة من عمر

---

(١) ابن الفوطي ص ٣٠٣ - ٣٠٥ .

الخلافة بسبب التهديد المغولي المستمر له ، وما نشأ عنه من نزوح سكان المناطق الشرقية خاصة الى بغداد فأهملت مساحات واسعة من الاراضي الزراعية التي كان استغلالها يخفف من أثر المجاعات الى حد كبير .

ويعطينا ابن الاثير «١» صوراً طريفة للأوضاع الاقتصادية المنهارة ، فبقراءة احداث الثلاثين سنة الاخيرة من حوليته ، نجد أنه قلما تمر سنة إلا ويشير الى مصاب اقتصادي يدهم البلاد ، فمن انقطاع الامطار او قلتها في القسم الشمالي الى قيام الجراد بحصاد الخضر والغلات ، الى فيضان يكتسح المدن والقرى في وسط العراق وجنوبه ، او نقص في مياه دجلة والفرات حتى يكاد يجف الى سقوط البرد الذي يهلك الاشجار والزروع ، فيستحكم الغلاء وتفتقد الحاجات وتظهر المجاعات وتعقبها الاوبئة ويهلك عدد كبير من الناس .

وهو يعطينا في السنوات الثمان الاخيرة صورة اوضح ، فيذكر أن الناس انتابتهم المصائب المتلاحقة في السنوات ٦٢٠-٦٢٤ ﻫ «٢» ، فقد ارتفعت الاسعار فيها بصورة فريدة حتى اصبح سعر الملح مثلا عشرة امثال سعره السابق ، حتى ان الناس اكلوا الميتة والسنانير .

وبعد أن يقدم لنا إحصائية عن الاسعار لم يغفل فيها حتى عن ذكر السلق والجزر والسلجم ، ينهي كلامه بقوله : « ولقد رأينا ما لم نر ولاسمعنا بمثله ، فان الدنيا مازالت قديماً وحديثاً اذا غلت الاسعار متى جاء المطر رخصت إلا هذه السنة «٣» » .

«١» ولا يجب ان ننسى ان ابن الجوزي في المنتظم اهتم ايضاً بذكر بعض مظاهر الحياة الاقتصادية وان كان مؤلفه مقصوراً على العراق وخاصة بغداد ، حتى اصبح كأنه سجلاً شهرياً لاحداث الخلافة ببغداد ، وانتهت اخباره حتى سنة ٥٧٤ ﻫ .

«٢» ابن الاثير ج ٩ ص ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ .

«٣» نفس المرجع ص ٣٦٤ .

وأضيخ ابن الاثير يستكثر على مثل هذا المجتمع الفاسد ان يكون له خليفة عادل مثل الظاهر بأمر الله «١» .

وما ان انتهى ابن الاثير من اخباره حتى تعرضت البلاد للغزو المغولي ، وبدأت كتائبهم تنقل اليها الخراب وتزيد من تعقيد الاوضاع الاقتصادية .

ثم يتم ابن الفوطي الصورة التي بدأها ابن الاثير ، فقد كان كثير الاهتمام بشؤون الخلافة يسجل اخبارها اولاً بأول ، فأشار الى ان النكبات الاقتصادية كأنها كانت على موعد مع المغول فسبقتهم لتمهد لهم الطريق وتسهل لهم الاستيلاء على البلاد «٢» .

ففي سنة ٦٤٦ هـ ابتليت البلاد بأمطار وفيضان وما يرافق ذلك من انتشار الامراض وارتفاع الاسعار ، وكان تأثير هذه الكارثة كبيراً وضررها عاماً حتى شمل بغداد والموصل واربل وتستر وغيرها من البلاد ، وامتنع الناس عن الزرع ، وغرقت قرى كثيرة كما غرق معظم الجانب الغربي من بغداد « اما جانبها الشرقي فقد غرق منه ما كان ظاهر السور من مساكن واسواق كان قد اجتمع بها خلق كثير من الناس » .

وكأنما هـــدأت العاصفة قليلا لتتيح للناس بناء دورهم ودفن موتاهم وتجفيف اراضيهم واعادة تنظيم اسواقهم لكي تبدأ من جـديد سنة ٦٥٠ هـ ولمدة خمس سنوات متوالية «٣» ، لم ترحم فيها اهل بغداد أو الذين اعتصموا بها فراراً من المغول ،

«١» لاحظ تعليق ابن الاثير على بيعة الخليفة الظاهر بأمر الله ثم وفاته في ص ٣٦٣ ، ٣٦٨ - ٣٦٩ .

«٢» ابن الفوطي ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ . على ان هـذا لا يعني ان الفترة السابقة لهذا التاريخ كانت خالية من النكبات بالرغم من اغفال المؤلف لها في كثير من السنين .

«٣» وهي سنوات ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ هـ انظر ص ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٣١٧ - ٣١٨ .

وشهدت تلك السنين الزلازل والامطار والفيضانات التي اكتسحت كل شيء أمامها حتى دور الخلافة نفسها اصابها ما اصاب دور عامة الناس من الهدم والتخريب « حتى خلت الديار وتعفت الآثار وصار في النظر اليها اعتبار » .

ويمكن تقدير عظم الخسارة التي لحقت اهل بغداد حكومة وشعباً من جراء هذه النكبات اذا علمنا انه في واحد من هذه الفيضانات بلغ عدد الدور التي تهدمت اثني عشر الف وثلاثمائة ونيفاً وسبعين داراً ، كما احصاها رجل ثقة «١» ، فكم كان عدد سكانها ؟ واين ذهب هذا العدد الكبير من الناس ؟ وكيف تدبرت الخلافة امر اطعامه واسكانه وهي التي كانت تفتش عن القوت فلا تجده ؟ .

فلاغرابة اذا وجدنا الخلافة عاجزة عن اغاثة هؤلاء المنكوبين الذين اصبحوا عالة عليها والذين كان وجودهم بلا مأوى ولا كساء ولا قوت سبباً يزيد من الفوضى والقلق والاضطراب .

ومما ضاعف من اثر هذه الضائقات الاقتصادية سيل الهجرة الذي لم ينقطع تدفقه الى بغداد ، وقد وصلت طلائع النازحين الى بغداد عام ٦٣٥ هـ عندما تعرض المغول لاربل ودقوقا .

يقول ابن الفوطي «٢» : « فقدم اهل السواد من دقوقا وغيرها الى بغداد معتصمين بها ، وتضاعفت اجرة المساكن وانزعج الناس لذلك ، وفي نفس الوقت كان المغول يهاجمون خانقين للوصول الى بغداد ، وقد فشل جيش الخلافة أمامهم وتفرق فهرب اهل طريق خراسان والبندنيجيين متنزحين الى بغداد فكثر الرهج وماج الناس»

وتكررت هذه المآسي مرات ومرات «٣» حتى كان آخرها عندما زحف هولاكو

«١» ابن الفوطي ص ٣٠٤ .

«٢» ابن الفوطي ص ١٠٩ ، ١١٢ .

«٣» نفس المرجع ص ٢٠٠ ، ٢٤١ .

نفسه الى بغداد « فأجفل اهل السواد من بين يديه الى بغداد حتى امتلأت شوارعها فضاقت على وسعتها عنهم فقعدوا في الطرقات والدكاكين وغلت الاقوات ووقع الناس في الخوف الشديد والويل العظيم «١» » . لذلك لا غرابة اذا وجدنا ان الخلافة كانت عاجزة فعلا عن القيام بأي عمل تدفع به الخطر وهي تنوء بهذه المشاكل الفادحة ، وانها لم تشعر بالزحف المغولي الاخير إلا بعد ان شارف بغداد واصبح لا يبعد عن قنطرة باب البصرة إلا فرسخاً واحداً «٢» .

ولا يمكن ان نخلي الامراء المعاصرين من المسؤولية ، فقد كانوا يملكون من القوة والسلطان ما يزيد على ما تملكه الخلافة نفسها ، ورغم ذلك لم يقدروا الظروف الجديدة التي احاطت بالعالم الاسلامي من الغرب والشرق بل مضوا في انقساماتهم ولم يأخذوا العبرة من الاحداث التي كانت تقع أمامهم والمصائب التي كانت تحل بالبلاد أمام انظارهم حتى غلب العدو على البلاد فغلبوا على امرهم ، فمنهم من لقي مصيره جزاء اهماله وتهاونه ، ومنهم من استسلم له فعاش ذليلا ، وكان له عوناً على اخوانه الآخرين .

وليست مسؤولية هؤلاء جميعاً واحدة ، انما يتوقف ذلك على ما يملك كل منهم من قوة ، وما قام به من تقصير او خيانة ، ويمكن اتخاذ الامراء الخوارزميين في الشرق والايوبيين في الغرب مثالا لهؤلاء الذين كانوا يتحملون مسؤولية الدفاع عن البلاد أمام العدو مباشرة ، والذين كان تقصيرهم واهمالهم سبباً من اسباب وقوع النكبة .

فقد انشغل الخوارزميون بالصراع على السلطة فيما بينهم ، فلم يترددوا في الاستعانة بالعدو الوثني على بعضهم البعض ، ثم لم يتردد بعضهم في ان يبطش بأخيه في سبيل الملك «٣» ، وكان دور خوارزمشاه علاء الدين محمد بن تكش مثلا للبطش بالامراء

«١» ابن الفوطي ص ٣٢٢ . «٢» نفس المرجع ص ٣٢٤ .

«٣» كما فعل بأخيه علي شـاه ، ابن الاثير ج ٩ ص ٢٩٤ ، ابو الفداء ج ٣ ص ١١٥ - ١١٦ .

المسلمين المجاورين له ، فقضى عليهم للاستيلاء على بلادهم «١» ، وقاده طمعه الى ان يزيح الخطا ليصبح وجهاً لوجه أمام المغول ، وكان سوء تصرف عماله مع تجارهم وطمعهم في اموالهم بالرغم من الاتفاقيات المعقودة من الاسباب التي عجلت بخروجهم الى البلاد الاسلامية ، وعندما عجز عن ايقاف زحفهم ، هرب أمامهم الى حيث لقي مصيره .

ويتحمل جلال الدين ابنه مسؤولية اخطر من مسؤوليته ، فقد عاصر طلائع النكبة ، وذاق قسوتها عندما احتمى بنهر السند ، وكان عليه ان يكون اكثر ادراكا للمسؤولية وتقديراً لها ، ولكنه بدلا من السعي لجمع الشمل والاتعاظ بالاحداث نجده يستغل انشغال المغول عنه فيلعب نفس الدور الذي لعبه ابوه من قبل ، في مخاصمة اخيه على السلطان والقضاء على الامراء المسلمين للانفراد بالحكم ثم التأليب على الخلافة مدفوعاً بأحقاد موروثة ، وكان في مكنته ان يجمع حوله الناس للقاء المغول .

ولا تقل مسؤولية الايوبيين في الدفاع عن القسم الغربي من البلاد عن مسؤولية الخوارزميين ، وبقدر ما سجل التاريخ لصلاح الدين عمق ادراكه للمسؤولية التي تولاها وتفانيه في الارتفاع بها عن مستوى الاغراض والمصالح ، فانه يقسو في تقدير دور خلفائه .

على ان الايوبيين فقدوا الوحدة بوفاته ، ولم يستطع العادل ان يرتفع الى مستوى الاحداث ليجتمع الناس على زعامته ، اذ سلك في سبيل الاستيلاء على الحكم سبلا غير شريفة ، مستغلا جهل ابناء اخيه وثقتهم فيه ، فأوقع بينهم وشجع بعضهم على بعض حتى استولى على املاكهم الامر الذي دفعهم جميعاً الى التحالف ضده والاستعداد لقتاله ، وقبل وفاته وزع البلاد جميعها بين ابنائه ، بينما بقي القليل من الامراء الايوبيين لا يملكون سوى المدينة التي يحكمها ، بل ان كثيرين منهم لم يملكوا شيئاً ، واصبح

«١» كان يستعين على خصومه من المسلمين بالخطا ، وهي عادة نشأ عليها الامراء الخوارزميون .

ابناؤه وحدهم يتحملون عبء الدفاع عن البلاد أمام الخطر الصليبي ، كما كان بعضهم ينظر الى مايملكه اخوه من البلاد نظرة فيها شيء من الحسد والطمع ، بينما كان الامراء الايوبيون الآخرون يشجعون الفرقة بينهم ، ويؤيدون فريقاً على فريق .

ويتحمل ابناء العادل الثلاثة الكبار مسؤولية التفريط في جزء من البلاد الاسلامية للعدو الصليبي ، وابقاء البلاد في حالة من الفرقة والانقسام والضعف بسبب طمعهم وصراعهم على السلطان ، فالمعظم عيسى لم يتردد في ان يستعين على اخويه بجلال الدين الخوارزمي (١) ، فيقطعه لقاء ذلك من املاكه ما ضن به على اخويه ، بينما لم يتردد الكامل محمد والاشرف موسى في الاستعانة بالعدو الصليبي على اخيهم ، وقد دفعا ثمن حقدهم وطمعهم اولى القبلتين وثالث الحرمين مضحين بالآلاف المؤلفة من الشهداء الذين استشهدوا في تحريرها واسترجاعها (٢) ، غير مقدرين مسؤولية تسليمها ثانية للافرنج وأثر ذلك على معنويات العالم الاسلامي .

كما قصر الاشرف عندما أصم أذنيه عن نداء الاستغاثة الذي وجهه جلال الدين الخوارزمي ، وتخلى عنه هارباً الى مصر في احرج الظروف التي كانت تمر بها البلاد الاسلامية ، ولو وقف الى جواره لابقاه سداً منيعاً بين المغول وبين البلاد الاسلامية (٣) .

ولا تقل مسؤولية الكامل عن اخيه ، ذلك انه شجع ابنه الصالح ايوب على استخدام بقايا الجيش الخوارزمي الذي كان نجا من المغول واستغلاله في الاعتداء على الامراء المسلمين من الايوبيين وغيرهم ، ونشر حالة من الفوضى والقلق في البلاد بينما كان

---

(١) السبط ج ٨ ص ٦٢٣ ، الذيل ص ١٣١ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٢١٦ .

(٢) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٧٨ - ٣٧٩ ، السبط ج ٨ ص ٦٥٤ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٢٢١ .

(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٣٨٤ ، السبط ج ٨ ص ٦٧٠ ، النسوي ص ٣٣٣ - ٣٣٥ ، ٣٧٠ - ٣٧٢ ، ابن العبري ص ٤٣٠ - ٤٣١ ، ابو المحاسن ج ٦ ص ٢٧٧ .

يستطيع جمعهم وتوجيههم لمقاتلة المغول الذين كانوا قد بدأوا يتوغلون في البلاد الايوبية نفسها «١» .

وعندما تفرد الكامل بزعامة الايوبيين واجتمعت حوله جيوشهم حباً او خوفاً ، داخله العجب ولعب به الغرور من كثرة ما معه من الجند ، وبدلا من استغلال هذه القوة الكبيرة في مقاتلة الافرنج واسترداد القدس ، اوتوجيههم نحو المغول الذين كانوا قد هاجموا سنجار ، اذا به يتجه بهم الى بلاد اسلامية مجاورة لينتزع منها بعض اراضيها ويعيث في مدنها فساداً وتخريباً «٢» .

ولم يكن الذين تولوا الحكم من الايوبيين بعد وفاة الاشرف والكامل سنة ٦٣٥ ﻫ اكثر إدراكا للمسؤولية وشعوراً بقدسيتها منهم ، فالصالح عمادالدين اسماعيل بن العادل والناصر داود بن المعظم لم يترددا في ان يستعينا بالافرنج على ابن عمهم الصالح ايوب وان يقاتلاه «٣» .

وبلغ من تفككهم وتخليهم انهم تركوا الصالح ايوب يتولى وحده مسؤولية الدفاع عن مصر أمام الخطر الصليبي عام ٦٤٧ ﻫ .

اما الايوبيون الاواخر فقد بلغ بهم الضعف والانهيار حداً دفعهم الى مهادنة المغول والتماس حمايتهم والدخول في طاعتهم ، بل لم يتردد بعضهم في المشاركة في عين جالوت تحت راياتهم «٤» ، وقد لقوا جميعاً سوء مصيرهم وعاقبة خيانتهم .

«١» المقريزي ج ١ ق ١ ص ٢٥٥ ، ابو المحاسن ج ٦ ص ٢٧٧ .

«٢» السبط ج ٨ ص ٦٩٥ ، ٦٩٩ . المقريزي ج ١ ق ١ ص ٢٤٧-٢٤٩ ، ٢٥١ . ابو المحاسن ج ٦ ص ٢٨٢ ، ٢٩٣ .

«٣» السبط ج ٨ ص ٧٤٥ - ٧٤٧ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ ، ٣١٤ - ٣١٥ ، الذيل ص ١٧٤ ، ابو الفداء ج ٣ ص ١٧٧ ، ١٨٠ .

«٤» النويني ص ٤٥ ، المقريزي ج ١ ق ٢ ص ٢٧٩ ، ٤٣٠ - ٤٣١ .

ثالثاً — حصار بغداد

وبينما كان الخليفة المستعصم بالله غارقاً في خيالاته واوهامه يتصور ان امر المغول خرافة وان الرسل الذين يقومون بينه وبينهم لابد كاذبون فيما ينقلون ، وانه اذا اراد فان ملوك الارض في الشرق والغرب رهن اشارته ، يدعوهم من كل قطر فيلبون نداءه «١» ، كان المغول يزحفون نحو بغداد وهو لا يحس بضجيجهم ولا بضوضاء الهاربين أمامهم من اهل البلاد حتى بانت طلائعهم أمام اسوارها فتفتحت عيناه على الحقيقة التي لم يكن يتصور حدوثها ، وكان قد توسل بالكلام والرسل لمنع حدوثها ، فأسقط في يده واستجار بحاشية منقسمة على نفسها متخاذلة ، يستمدها الرأي والنصح فكانت اعجز منه عن التفكير « ترى الاستسلام وبذل الاموال ضماناً للحياة ولو مع الذل «٢» » .

وسبق وصول المغول الى بغداد جملة مراسلات بينهم وبين الخلافة ، كانت متقطعة حيناً ثم انتظمت اخيراً .

وبالرغم من اننا لا زلنا نجهل ما دار في المرحلة الاولى منها ، إلا انني اعتقد انها لم تكن تخرج عن محاولة الخلافة التأثير على المغول وارهابهم بقوى الخلافة المختلفة ، الروحية والمادية لكي يمتنعوا عن مهاجمة حدودها ويكتفوا بما ملكوه من بلاد المسلمين وان المغول كانوا يقصدون من وراء ارسال رسلهم في هذه الفترات المتباعدة معرفة استعدادات الخلافة وحقيقة قوتها .

«١» رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، لاحظ حديث الخليفة للوزير .

«٢» ابن العبري ص٤٧١-٤٧٢ ، ابن الفوطي ص ٣١٩ ، السيوطي ص ١٨٩ .

ويشير ابن الفوطي الى ان اول اتصال للمغول بالخلافة كان سنة ٦٣٥ هـ (١) بعد أن هاجموا اطرافها الشرقية ، وكان في عزمهم ان يصلوا بغداد ، ثم عدلوا عن ذلك بعد ان اصطدموا بجيش الخلافة وامتلكوا ما معه من الاموال ، ومن خانقين ارسل مقدمهم جورماغون رسوله الذي وصل بغداد في ربيع الآخر سنة ٦٣٦ هـ ، فأنفذت الخلافة معه العدل جعفر بن محمد بن عباس البطائحي ناظر التركات الذي عاد سنة ٦٣٧ هـ.

ووصل الرسول الثاني من قبل المغول سنة ٦٤٣ هـ ، وقد صحبه في عودته القاضي ابن عبدالرشيد فخر الدين ابو منصور نصر الله قاضي الجانب الغربي ونهر عيسى ومعه فلك الدين بكتمر اميراخور حاجب علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير (٢).

اما الرسول الثالث فقد قدم بمساعي التجار المسلمين الذين كانوا يتنقلون بين بغداد وخراسان ، ومن هؤلاء احمد بن الخردادي التاجر الذي كان على اتصال بملوك المغول وقد تحدث مع السلطان كيوك خان في الصلح مع الخليفة وقدم بغداد مع رسوله ثم عاد ومعه الهدايا والتحف (٣).

وكان المغول ايضاً قد أرسلوا رسلاً في سنة ٦٣٨ هـ الى ملوك المسلمين يحملون كتباً معنونة « من نائب رب السماء ماسح وجه الارض ملك الشرق والغرب خاقان » يدعوهم فيه الى الدخول في طاعته ويأمرهم بتخريب اسوار مدنهم (٤).

اما المرحلة الثانية من المراسلات فقد انتظمت بعد ان اتضحت اهداف المغول

---

(١) ابن الفوطي ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٩٠ .

(٣) ابن الفوطي ص ٢٥٩ ، وليست لدينا اشارة الى تاريخ وصول هذا الرسول ، ولكنه وصل بين سنتي ٦٤٤ - ٦٤٦ هـ . وهي الفترة التي تولى فيها كيوك حكم المغول .

(٤) السبط جـ ٨ ص ٧٣٣ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

التي خرج من اجلها هولاكو « وهي السيطرة على القسم الغربي من ايران وبلاد الشام ومصر وبلاد الروم والارمن «١» » ، وكانت الرسائل تصدر عن هولاكو نفسه باعتباره قائداً للحملة العسكرية الزاحفة ، وبدأ هولاكو مراسلاته مع الخليفة بعد ان استقر بمعسكره في كش الواقعة جنوب غربي سمرقند في اواخر سنة ٦٥٣ هـ ، حيث كتب للخليفة وللملوك المسلمين يدعوهم للتعاون معه في القضاء على قلاع الملاحدة (الاسماعيلية) بناء على امر الخان المغولي الكبير «٢» .

ولا يشير المؤرخون الى رد الخلافة على هذه الرسالة ، وان كانوا قد اشاروا الى اسراع امراء بلاد المسلمين الى اظهار الطاعة لهولاكو ووصلوا بلاطه لتأكيد ذلك .

ويشير ابن العبري الى ان الخليفة اراد ان يسير النجدة المطلوبة ، ولكن الوزراء والامراء لم يمكنوه من ذلك ، وقالوا : « ان هولاكو رجل صاحب احتيال وخديعة وليس محتاجاً الى نجدتنا ، وانما غرضه اخلاء بغداد من الرجال فيملكها بسهولة ، فتقاعدوا بسبب هذا الخيال «٣» » .

ولكن الخليفة اجاب هولاكو برسالة فيها شيء من الاعتذار مع اظهار جانب الطاعة له والاشارة الى مكانة اسرته العباسية وعراقتها وقوة الخلافة ونفوذها «٤» .

على ان هولاكو لم ينتظر وصول هـذه النجدات لكي يباشر الهجوم على قلاع الاسماعيلية ، فقد اتم هذا العمل قبل ان يكتب هذه الرسائل وانما كان غرضه منها معرفة الامراء الذين سيسالمونه ويدخلون في طاعته ، والذين سيعادونه فيستعد لهم .

«١» ابن الفوطي ص ٢٦٧ ، رشيد الدين م ٢ جـ ١ ص ٢٣٤ – ٢٣٨ .

«٢» رشيد الدين م ٢ جـ ١ ص ٢٢٩ – ٢٤٠ ، لاحظ ملحق رسائل هولاكو .

«٣» تاريخ مختصر الدول ص ٤٧١ .

«٤» يفهم هذا الجواب من ملاحظة رسالة هولاكو الثانية الى الخليفة التي يشير فيها الى ذلك .

وتوجه هولاكو بعد ان انتهى من امر الاسماعيلية نحو همدان حيث عسكر فيها في منتصف رجب سنة ٦٥٥ هـ وكتب الى الخليفة ثانية يعاتبه على تباطئه من نجدته وإطاعة امره .

ويذكره بمصير ملوك الخوارزميين والسلاجقة والاتابكة ثم ينصحه اخيراً «بوجوب الطاعة وهدم الحصون والحضور أمامه او إرسال ثلاثة من كبار الموظفين عينهم نيابة عنه (١)» . وتلقى الخليفة هذه الرسالة وهو لا يزال يعيش في وهم خلفاء المسلمين الذين يخضع لهم ملوك الارض من المسلمين ، وبهذه العقلية كتب جوابه الى هولاكو يصفه فيه بالشاب الحدث الذي اصابه الغرور لما احرزه من الانتصار صدفة ، ثم هدده بملوك الارض الذين سيدعوهم لحسم الامور في ايران ثم التوجه الى بلاد توران ، على انه يستدرك بعد ذلك ، فيعلن انه لا يحب سفك الدماء ويدعو الى نشر المحبة ، وينصحه اخيراً بالرجوع الى خراسان « إلا اذا كان يصر على الحرب فليستعد فانه متأهب للقتال » (٢) .

واختار الخليفة لحمل رسالته هذه رسلاً يملكون من فصاحة اللسان وقوة البيان ما يجعلهم في مستوى ما في رسالته من تظاهر بالقوة وتهديد بها ، وكان شرف الدين ابن الجوزي هو المختار لحمل الرسالة وقد صحبه بدر الدين محمود وزنكي النخجواني في سفرته تلك التي اغضبت هولاكو لاستهانة الخليفة به واعتداده بطاعة ملوك الارض في الشرق والغرب ، وتجلى غضبه في فلتات لسانه وفي محاججته للخليفة في صحة رعاية الله له عندما كتب اليه يقول : « ان الله الازلي رفع جنكيز خان ومنحنا وجه الارض كله

---

(١) ابن العبري ص ٤٧١ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ . لاحظ ملحق رسائل هولاكو .

(٢) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ . ملحق رسائل هولاكو .

من الشرق الى الغرب » ، ثم يخاطب الخليفة متهما إياه بالغرور وحب الجاه والانحراف عن جادة آبائه وأجداده ، ثم يختتم رسالته بالتهديد بالحرب وبأنه زاحف الى بغداد»(١).

وخانت الخليفة شجاعته عندما استمع الى تهديد هولاكو بالزحف نحو بغداد ، فالتجأ الى وزيره يسأله النصح لدفع هذا الخطر ، فأشار عليه ببذل الاموال وحملها الى هولاكو والاعتذار اليه والدخول في طاعته ، ولم يكن الخليفة وقد انهارت اعصابه ليستطيع منافسة هذا الرأي وفهم معانيه ، فسلم به وشرع يتجهز لتنفيذه ، لكن قائد جيشه الدويدار الصغير اعترض وهدد بأنه واصحابه سيترصدون لهذه الاموال ويستولون عليها ، لانهم اعتقدوا انها حيلة من الوزير يتقرب بها من هولاكو (٢) .

وأعتقد ان امراء الجيش كانوا على حق في الاعتراض على هذا التسليم ، فليس في ذلك ضمان للخلافة بالبقاء ، بالرغم مما فيها من ذل وإهانة ، اذ ليس مضموناً ان هولاكو سوف يرضى بهذه الاموال الكثيرة ويتوقف عن الزحف ، وقد يغريه ذلك بزيادة الطلب وفرض شروط اخرى .

هذا الى ان رحلة هولاكو كان مقرراً لها ان تنتهي بمصر وليس ببغداد ، فلابد له من بلوغ بغداد ، ولن تلقى الخلافة الاحترام الذي كانت تلقاه من البويهيين او السلاجقة .

وانتهى الخليفة الى حل وسط ، بارسال قدر قليل من الهدايا لهولاكو مع رسالة يعظه فيها ويشرح له « تاريخ الخلافة العباسية المحكمة البنيان » ويستعرض له مصير الذين تعرضوا لها بسوء ، ثم ينصحه اخيراً بأن يحذر عين السوء من الزمان الغادر» (٣).

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٧١ . ملحق رسائل هولاكو .

(٢) ابن العبري ص ٤٧١ - ٤٧٢ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٧١ - ٢٧٢ ، ابن الفوطي ص ٣١٩ .

(٣) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ . ملحق رسائل هولاكو .

ولم يفعل شيئاً غير هذا والخطر يقترب من داره ، وكان اولى به ان يخرج الاموال التي كان قد اعدها لارضاء هولاكو لينفقها بالتجنيد والتحصين .

اما مستشاروه فلم يكونوا اقل منه تهاوناً فلم يعملوا على افهامه حقيقة الخطر الذي يتهدد البلاد .

ومن المحتمل انه في هذه الفترة كتب الى من بقي من امراء المسلمين على الطاعة يستنجدهم على المغول .

اذ يشير النويني « الى انه كتب الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام يستمده بالرجال ويوصيه بأن يجعل الملك الناصر داود على رأس النجدة » (١) .

وفي الوقت الذي بقي فيه الخليفة لاهياً متردداً ، وقد غلبه القلق والخوف من المغول فلا يعرف ماذا يصنع .

كان هولاكو يستعد للزحف نحو بغداد بعد أن اتخذ للأمر أهبته ، ولكنه كان يفكر ايضاً في الصورة غير الحقيقة التي اعطيت له عن قوة الخلافة وكثرة عدد جندها وعن الاحداث التي وقعت للجيوش التي حاولت ان تمسها بسوء ، وهي امور يرددها الناس من حوله على انها حقائق ثابتة ، فرأى أن يستعين بمنجمه الخاص الذي يرافقه ، لعله يستكشف ما يخفف من هـــذا الشك الذي بدأ يتسرب الى نفسه ، ولم يكن حسام الدين المنجم ليستطيع ان يشفي نفس هولاكو مما بها ، فقد كان مسلماً ، نشأ وعاش على الطاعة للخلافة والايمان بقدسيتها ، فلم يجب هولاكو الى ما ارتاحت نفسه اليه ، ولم يرتح هولاكو لهذا الجواب ، اذ كان بحاجة الى من يشجعه على الزحف ، لا الى من يثبط همته ، فرأى ان يستنير برأي الخواجة نصير الدين الطوسي الذي افتى بأنه لا ضير من الزحف نحو بغـداد ، وعزز رأيه بكثير من الوقائع التاريخية التي

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٣٢٢ ، النويني ص ١٧٣ .

تعرضت فيها بغداد للغزو دون ان تظهر كرامة العباسيين ، فتهلل وجه هولاكو وأعلن مباشرة الزحف الى بغداد «١» .

وهكذا كان مصير الخلافة معلقاً على كلمة الخواجة نصير الدين الذي توهم ان حياته اثمن بكثير من حياة الآلاف من الابرياء الذين حصدهم الغزو المغولي فيما بعد .

وفي اول المحرم سنة ٦٥٥ ﻫ تحرك ركب هولاكو من معسكره بهمدان متوجهاً نحو بغداد ، ويبدو انه كان لا زال متأثراً بقدسية الخلافة ، يتوقع غضب الطبيعة عليه في كل لحظة ، لذلك كان يمشي الهوينى ، يترقب الاحداث ويفكر في مظاهرها ، وعندما وصل اسد آباد ، رأى ان يوفد رسولا آخراً يستدعي فيه الخليفة للحضور أمامه لعله بذلك يصل الى حل سلمي يتقي به لعنة الطبيعة ، على انه لم يكن متعنتاً في طلبه فقد خول رسوله ان يستبدله اذا تعذر حضوره بثلاثة من كبار موظفي الخلافة وهم الوزير والدويدار وسليمانشاه ، لينوبوا عنه .

وكان الخليفة من الضعف بحيث لم يستطع ان يفرض على هؤلاء الثلاثة الخروج الى هولاكو ، فاكتفى بارسال شرف الدين ابن الجوزي وخوله ان يبذل من الاموال مايرد هولاكو عن غزو بغداد «٢» ، ولم يكن جيش الخلافة قادراً على مقاومة الزحف المغولي ، فقد كان بالاضافة الى قلة عدده ينقصه العدد والعدة .

وبالرغم من ان افراده كانوا يؤمنون بقدسية الخلافة ومنزلة الذين يستشهدون من اجلها ، وما اعده الله لهم من ثواب وأجر ، إلا ان تقتير الخلافة عليهم في الرزق وشحها عليهم في الانفاق جعلهم يعيشون في حالة دائمة من الفاقة ، فلا غرابة اذا وجدنا بعضهم

«١» رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ، براون - تاريخ الادب في ايران الترجمة العربية ص ٥٧٩ - ٥٨٠ .

«٢» رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨١ ، ابن الفوطي ص ٣٢٠ ، ابن العبري ص ٤٧٢ .

يلتحق بصفوف المغول هربا مما هو فيه ، وأملاً فيما سيحصل عليه .

ويشير بعض المؤرخين الى امثال هؤلاء الهاربين الذين كانوا من طلائع جيش الخلافة الذي عسكر في اول الامر في منطقة بعقوبة ، والذين اصبحوا بعد انضمامهم الى المغول أدلاء لطلائع جيشه الزاحف ، وحاول بعضهم ان يغري اصحابه الباقين في جيش الخلافة للانضمام الى المغول ومناهم بالامان ، ولكن احـداً لم يستجب لهذا الاغراء «١» .

وكان هولاكو قد وضع خطة للاطباق على بغداد من جميع جهاتها ، واستكثر من الجنود لتنفيذها ، وكان من خطته ان يزحف بعض جنده عبرنهر دجلة لكي يحيطوا بالجانب الغربي منها بينما يواصل هو زحفه ليحيط بالقسم الشرقي «٢» .

اما جيش الخلافة بقيادة الدويدار فقد عسكر اولا في منطقة بعقوبة ، فلما علم بالزحف المغولي على الضفة الغربية لدجلة اسرع وعبر دجلة ليتصدى لهم في شمال بغداد وليس بعيداً عنها ، فخلت الجبهة الشرقية بانسحابه فأمر الخليفة من بقي من قواد الجيش بالخروج تحت قيادة مرشد الخصى لمواجهة زحف هولاكو ، لكن الامراء تمردوا على قيادته وعصوا امر الخليفة «٣» ، فبقيت الجبهة خالية ، وبقي الطريق مفتوحاً أمام هولاكو الى اسوار بغداد .

«١» رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨٢ – ٢٨٤ ، ابن الفوطي ص ٣٢٠ ، ابن العبري ص ٤٧٢ .

«٢» يفصل رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨١ في خطة الزحف المغولي ، ويشير الى حركة اربعة جيوش من مناطق مختلفة تكتسح الطريق أمامها ، لكي تطبق على بغداد من جانبيها ، اما ابن الفوطي فيشير الى القسمين الرئيسين لهـــذا الجيش الذي احاط ببغداد ص ٣٢٠ .

«٣» ابن الفوطي ص ٣٢٠ .

اما الدويدار فقد التقى بالجيش المغولي في منطقة لا تبعد كثيراً عن قنطرة باب البصرة ، فلم يتريث عندما هربوا أمامه ، ويستمع الى نصيحة فتح الدين كر الذي اشار عليه بالوقوف في مكانه والاستعداد لمواجهتهم مرة اخرى ، ولم يكن هؤلاء غير مقدمة الجيش الزاحف ، وكانت الخطة التي بيتوها ان يجروا جيش الخلافة وراءهم في الوقت الذي يقوم بعضهم بكسر السدود المقامـة على تفرع نهر بشير من الدجيل لاغراق الاراضي وراء جيش الخلافة وحصره فيها ، وقد نجحوا في هذا عندما عادوا للهجوم ثانية ، فلم يثبت أمامهم جيش الخلافة وانحصر في هذه المنطقة المغمورة بالمياه والوحول ولم ينج من افراده إلا قلة كان الدويدار واحداً منها «١» .

وقد أطبق المغول بعدها على الجانب الغربي من بغداد في الوقت الذي وصلت فيه طلائع هولاكو في الحادي عشر من محرم ٦٥٦ هـ وأطبقت على الجانب الشرقي ، واقامت الاستحكامات اللازمة للحصار حتى انهم اقاموا جسراً على دجلة جنوبي بغـداد بالقرب من قرية العقاب لكي يمنعوا الهاربين منها بطريق النهر ، كما استخدموا اشجار النخيل للرمي بالمنجنيق بدلا من الاحجار التي كانت قليلة حول بغداد ، والتي كان على المغول أن يأتوا بها من جبل حمرين وجلولاء «٢» .

وقد ساعد المغول في حصار بغداد جيش من الموصل ارسله بدر الدين لؤلؤ «٣»

«١» ابن الفوطي ص ٣٢٤ ، رشيد الدين م ٢ جـ ١ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

«٢» ابن الفوطي ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ، رشيدالدين م ٢ جـ ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٨ ، ابن العبري ص ٤٧٣ .

«٣» كان بدر الدين قد هادن المغول وهاداهم منذ تعرضهم للعراق ، وبقي في نفس الوقت يظهر الطاعة للخلافة ، وكان يشعر أنه لا قبل له بهم وان الخلافة لا تقوم بعمل جدي ضدهم ، فضلاً عن ان علاقاته مع الامراء المجاورين لا تشجعه على التعاون معهم ضد المغول ، لذلك فضل أن يتخذ هذا الموقف لكي يحافظ على السلامة والامان ، السبط جـ ٨ ص ٧٤٥ ، ابن الفوطي ص ٩٩ ، المقريزي جـ ١ ق ٢ ص ٣١٥ .

الذي كان قد دخل في طاعتهم كما ساعدهم ايضاً جماعة من أهل الكرخ الذين كانوا قد انضموا للمغول ، ولعب هؤلاء دوراً مهما في اضعاف معنويات السكان وإغرائهم بترك المقاومة والاستسلام للمغول ، خاصة وان لهم صلة بهم بحكم القرابة او الجوار (١) .

وحاول هولاكو أن يفرق بين الخليفة والناس عندما كتب عدة منشورات ورماها على المدينة وكان فيها نداء الى القضاة والعلماء والشيوخ والسادات والتجار والعلويين « وكل من لا يحارب فهو آمن على نفسه وحريمه واموله » وكان لهذه السياسة أثر كبير في اضعاف حركة المقاومة (٢) .

وكان بدء القتال يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من محرم (٣) ، وكان المغول قد ركزوا هجومهم بصورة خاصة على برج العجمي المجاور لباب الحلبة حيث كان يعسكر هولاكو نفسه .

وعندما رأى الخليفة بعد ثلاثة ايام ان البرج لم يعد يتحمل الضربات ، انهارت معنوياته وأرسل الوزير والجاثليق الى هولاكو ليلتمسا ايقاف الحرب وتنظيم عقد الصلح فلم يعرهما هولاكو أهمية وطلب من الوزير أن يخرج معه الدويدار وسليمانشاه ، ولكنه خرج في اليوم التالي مع صاحب الديوان وجمع من المعارف والمشاهير فردهم هولاكو ايضاً (٤) .

وكان القتال خلال ذلك يشتد على الاسوار ، وقد حاول الدويدار نفسه الهرب

---

(١) اليونيني ص ٨٧ – ٨٨ ، ابن كثير ج ١٣ ص ٢٠٠ .

(٢) ابن العبري ص ٤٧٤ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨٧ .

(٣) ابن العبري ص ٤٧٣ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨٦ ، ابن الفوطي ص ٣٢٦ . ولا يوضح ابن الفوطي تاريخ بدء القتال ويظهر أنه يعتبره بعد استقرار هولاكو حول بغداد .

(٤) ابن العبري ص ٤٧٣ – ٤٧٤ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

عن طريق دجلة ولكنه اصطدم بالحرس المغولي الذي كان يرابط على الجسر الذي اقاموه جنوبي بغداد فرجع خائباً .

اما الخليفة فكان يزداد انهياراً يوماً بعـــد يوم حتى يئس من الخلاص واعلن الاستسلام ، وأرسل صاحب ديوانه فخر الدين الدامغاني ، وابن درنوس مع قليل من الهدايا الى هولاكو الذي لم يلتفت اليهم فعادوا خائبين «١» .

كما رفض هولاكو بعد ذلك ان يقبل شفاعة ابني الخليفة ، ابي الفضل عبدالرحمن وابي العباس احمد اللذين خرجا في الايام التالية مع جمع كبير من الكبار محملين بالهدايا «٢» .

ويظهر ان هولاكو كان يصر على خروج الدويدار وسليمانشاه ليضمن انعـدام المقاومة في المدينة ، لذلك بعث برسالة الى الخليفة حملها الخواجة نصير الدين الطوسي ورفيق له من المغول تتضمن هذا المعنى بينما ترك للخليفة حرية الخروج اوالبقاء ، واكد ان الجيش سيبقى على الاسوار الى ان يخرجا ، كما طلب من موظفي الخلافة وهم ابن الدامغاني وابن الجوزي وابن الدرنوس الذين كانوا يترددون بينه وبين الخليفة الرجوع الى المدينة لاخراجها ، ومنحهم أماناً تطميناً لهم وتقوية لموقفهم .

وعندما خرج الدويدار وسليمانشاه الى هولاكو يوم الخميس اول صفر ، اعادهما الى المدينة ليخرجا اتباعهما لكي ينضموا الى الجيش المغولي الذي سيتوجه الى الشام ومصر وهكذا خرج جمع كثير من الناس أملًا في الخلاص مما هم فيه من الضيق والحصار ، فكانت المقصلة تنتظرهم خارج الاسوار ، ثم لحق بهم الدويدار وسليمانشاه في اليوم التالي «٣» .

«١» رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨٨ .

«٢» نفس المرجع ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ، ابن الفوطي ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

«٣» رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، ابن الفوطي ص ٣٢٧ ، ابن العبري ص ٤٧٤ .

اما الخليفة فقد اصبح لا يعلم ما يصنع والدماء تجري أمامه كالأنهار ، وقد جرد من الاصحاب والاعوان ، حتى جاءه الامر بالخروج هو وأولاده ومن بقي من اصحابه في الرابع من صفر ، فساق نفسه كالشاة الى مذبحها ولم يكن يستطيع غير ذلك «١» .

وبعد ان استخدمه هولاكو ليطلب الى الناس إلقاء اسلحتهم والخروج لاحصائهم أقام له ولأولاده وأتباعه خياماً موقتة في باب كلواذي تحت حراسة كيتو بقانويان احد كبار قواد المغول «٢» .

وقد انكشفت اسرار الخليفة بعد ذلك « فقد بانت امواله الظاهرة وذهبه المدفون تحت الارض في احواض خاصة ، كما بان عدد النساء اللواتي باشرهن هو وبنوه فكن سبعمائة امرأة «٣» .

وأباح هولاكو لجنده مدينة بغداد في يوم الاربعاء السابع من صفر فعاثوا فيها قتلاً وحرقاً ونهباً حتى استجار من بقي من سكانها ببعض المقربين من المغول فتكون وفدها من شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنجاني والملك دل راست (وهو نجم الدين احمد بن عمران) ، وخرجوا الى هولاكو وطلبوا الامان لهؤلاء الباقين على

«١» رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٩٠ ، ابن العبري ص ٤٧٤ .

«٢» نفس المراجع ص ٢٩١ ، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥ .

«٣» ابن العبري ص ٤٧٥ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٩٢ . مع ملاحظة ان رشيد الدين اشار الى ان هذا العدد من النسوة هن نساء الخليفة وحده ، وأرى ان ما اورده ابن العبري هو الاصح ، فلم يكن لدى المغول وقت لعزل نساء الخليفة عن نساء اولاده وهم يسعون للخلاص من كل أثر منهم ، بالاضافة الى ان ابن العبري يعتبر معاصراً للأحداث بالرغم من بعده عن بغداد آنذاك ، وهو المصدر الذي اعتمد عليه رشيد الدين في كثير من حوادثه بالرغم من اشارته في اول مقدمته الى انه اعتمد على وثائق خاصة محفوظة عند المغول لم يطلع عليها احد غيره .

قيد الحياة ، فصدر أمره الى المغول « لان بغداد اصبحت ملكا لنا فليستقر الاهالي ولينصرف كل شخص الى عمله » (١) .

ولم يكن هولاكو قادراً على البقاء بجوار بغداد بسبب ما فاح منها من هواء عفن فرحل عنها يوم الاربعاء الرابع عشر من صفر ونزل على مرحـــلة منها بقريتي وقف وجلامية بطريق خراسان ، حيث قرر ان يصفي حسابه مع الخليفة فأمر بالقضاء عليه وعلى ابنه الكبير ابي العباس احمد وعدد من الاتباع ، وبعد يومين من ذلك أمر بقتل ابنه الثاني الفضل عبدالرحمن ومن بقي معه ، وسلم من ابناء الخليفة ابنه الصغير مبارك الذي احتفظ به المغول والذي انقطع ذكره بعد ذلك (٢) .

وكان المغول قبيل مغادرتهم بغداد قد أخرجوا اقرباء الخليفة من العباسيين الذين كانوا محبوسين في دار الشجرة ودار الصخر وحملوهم الى مقبرة الخلال وقضوا عليهم جميعاً وكان قصدهم من ذلك أن لا يبقى احد من بني العباس حياً فيسعى الى الخلافة ثانية ، ويخلق لحكمهم في البلاد الاسلامية المشاكل من جراء تعلق الناس بخلافتهم (٣) ، وقبل

---

(١) رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٩٣ .

(٢) ابن الفوطي ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ، ابن العبري ص ٤٧٤ ، رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ . وقد احتفظ المغول بالابن الثالث الصغير للخليفة وهو مبارك شاه مع اخواته الصغيرات وبنات اخوته ، وقد تسلمت اولجاي خاتون زوجة هولاكو مبارك شاه وبعثت به الى مراغة ليكون تحت اشراف الخواجة نصير الطوسي ، وقد زوج من امرأة مغولية وأنجب منها ولدين ، ولكن ذكره اختفى في زحمة الاحداث فيما بعد .

(٣) ابن الفوطي ص ٣٢٨ ، على ان المغول لم يستطيعوا القضاء على افراد الاسرة العباسية ، فقد تمكن بعضهم من الاختفاء والخروج بعد ذلك الى الشام ومصر حيث اعلنوا عن نسبهم هناك فأحيا بهم ملوك مصر من المماليك الخلافة العباسية ثانية ، وكان أولهم الذي حمل لقب المستنصر بالله بن الظاهر بأمر الله وهو شقيق الخليفة المستنصر .

ان يغادر هولاكو معسكره متوجهاً نحو همدان ، أمر بتنظيم الادارة الجديدة في العراق ففوض أمر بغداد الى علي بهادر وجعله شحنة بها ، وأبقى الوزير ابن العلقمي في الوزارة وفخر الدين الدامغاني في ديوانه ، وأقر نظام الدين البندنيجي قاضي القضاة ، كما تولى كل من نجم الدين عبدالغني بن الدرنوس وتاج الدين علي بن الدوامي ، وفخر الدين مبارك بن المخرمي بعض المناصب الادارية والمالية في الحكم الجديد .

وأوفد هولاكو مع وفود الاطراف التي قدمت خلال الحصار الى المغول وطلبت منهم الحماية ، اوفد معهم شحناً وحرساً الى الحلة والكوفة والنجف .

على ان لعنة الخلافة لحقت اكثر هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة بعد نكبتها ، ووضعوا انفسهم تحت تصرف المغول ، وفي مقدمة هؤلاء الوزير ابن العلقمي الذي توفي في مستهل جمادى الآخرة من سنة النكبة ثم لحق به آخرون .

تم بعون من الله وتوفيقه والحمد لله رب العالمين ؟

الخاتمة

وبعد : فلعلي اكون قد وفقت الى عرض صورة طيبة لأحوال الخلافة السياسية في فترة صحوتها الاخيرة حتى زوالها .

لقد رأيت انه لابد لابراز معالم هذه الصحوة التي طرأت على الخلافة والتي كان مؤملًا ان تعيد الحياة اليها ، لابد من عرض لواقع الخلافة في الفترة السابقة عليها والتي كانت فترة سبات لها ، لكي تكون المقارنة ممكنة والصورة في الفترتين واضحة . لذلك فقد رجعت بالبحث الى الفترة التي فقدت فيها الخلافة قدرتها على ممارسة سيادتها وسلطانها واصبحت في حالة سبات .

ولتوضيح المقارنة ، فقد قسمت موضوع الدراسة الى خمسة اقسام رئيسية ، حاولت في كل قسم منها ان ابرّز الشيء الجديد من الاحداث .

وقد جعلت الباب الاول منها يدور حول كيفية حدوث الانتعاش وتطوره حتى ملك الخلفاء زمام الحكم . ورجعت في القسم الاول منه الى مناقشة وضع الخلافة قبل ذلك ، فحددت بداية غفوتها مع وفاة الخليفة المعتصم عام ٢٢٧ هـ ، حيث بدأ المتغلبون على الحكم يشاركون الخليفة سلطانه . وبدأ الخليفة يستسلم لهذه المشاركة مكرهاً حتى فقد كل شيء من سلطانه إلا الروحي منه . ولولا ان المصالح السياسية لعبت دورها

لدى بعض المتغلبين في الابقاء على اسم الخلافة العباسية ، لكانت قد زالت ايضا .

ورأيت ان هذه المشاركة بدأت تدريجياً ، واستغرقت فترة ليست قصيرة من الزمن حتى استطاع المتغلبون الاستيلاء على الخلافة وتجريدها من كل سلطاتها ، تمثل ذلك بمشاركة المتغلبين للخليفة في مظاهر الخلافة وامتيازاتها ، حيث ذكرت اسماؤهم في الخطبة ونقشت على السكة ، وضربت لهم الطبول في المناسبات وفتحت لهم الالقاب .

وتمثل ايضاً بحرمان الخليفة من حق الاشراف والتصرف بأموال الدولة العامة ، ثم املاكه الخاصة ، حتى استقر على مبلغ محدد من المال لم يكن يعنى بحاجاته الضرورية فضلاً عن انه لم يكن يسلم من اطماع المتغلبين في كثير من الاحيان .

وتمثل ايضاً في تجريد الخلافة من حق تكوين الجيش بعد ان فقدت القدرة على الانفاق عليه واصبح الخليفة بعدها يعيش تحت رحمة وحماية المتغلبين الذين اصبح ذلك من اختصاصهم .

وتمثل ايضاً في تجريد الخليفة من حق اتخاذ وزير له بعد ان فقد حق الاشراف على الدواوين ، واصبح الوزير مرتبطاً بالامير المتغلب ، بينما اكتفى الخليفة بكاتب على خاصة اموره .

هذه الصورة التي كانت عليها الخلافة في فترة غفوتها ، على انها لم تكن كذلك في كل الاوقات ، فقد كانت تزداد سوءاً او تتحسن قليلاً بالنسبة لاختلاف مواقف المتغلبين منها ونظرتهم اليها ، بالاضافة الى ذلك فاننا نلمس ان الخلفاء في هذه الفترة ، لم يستسلموا كلياً لهذا التجريد والحرمان ، بل قاوم العديد منهم هذا التسلط محتميا وراء سلطانه الديني الذي لم يعد يملك غيره من اسم الخلافة ، فكان يهدد الامراء المتغلبين بتعطيل الاحكام الشرعية او الخروج من بغداد إن هم استمروا في تعسفهم واستبدادهم بحقوق الرعية ، كما كان يستغل انقساماتهم وتنازعهم على السلطان فيساومهم على رفع

منزلة بعضهم على بعض بما يمنحهم من الالقاب التي ثُنيت وثلثت حتى تطورت تطوراً كبيراً في هذه الفترة ، بالاضافة الى اصهار اكثر خلفاء هذه الفترة الى الاقوياء من المتغلبين ليتقوا برابطة النسب هذه شراستهم وبطشهم او ليستردوا منهم بعض الحقوق ، ويضمنوا لانفسهم بعض الحماية .

على ان ذلك كله لم يحم بعض الخلفاء من دفع حياتهم ثمناً لمقاومتهم وتصديهم .

وفي القسم الثاني من هذا الباب تناولت عملية الانتعاش التي بدأت مع تولي الخليفة المسترشد بالله عام ٥١٢ هـ ، وامتدت قرابة نصف قرن من الزمن ، تمكنت الخلافة خلالها من استرجاع الكثير من اسباب هيبتها وسلطانها ، ووجدت ان المسترشـد بالله بدأ من الصغر وكذلك كان شأن اخيه المقتفي لامر الله ، وانهما بفضل ما امتازا به من احساس بمسؤولية الحكم وبعد نظرهما في معاملة المتغلبين ، وصبر على كثير من المكاره استطاعا انجاح عملية الانتعاش وتحقيق الكثير من الاهداف ، تمثل ذلك في مجموعة من الخطوات السياسية الذكية التي اصبح الخليفة بعدها على اتصال بالشعب محطماً طوق العزلة الذي كان قد فرض عليه من قبل ، فالتف حوله الناس وتعلقوا بأمانه وجواره بعد ان كان الامير المتغلب هو مصدر الامن والاطمئنان .

وأهم ما نسجله هنا هو قيام الخلافة باعادة تكوين الجيش وربط قيادته بشخص الخليفة الذي اصبح يخرج على رأسه لاستعادة سلطانه المغتصب بعد ان كان قد حرم من ذلك منذ ان اغتصب سلطانه .

ولم تكن هذه المهمة سهلة للمسترشد بالله الذي تدرج في تكوينه ، فاعتمد اولاً على المتطوعة من اهل بغـــداد الذين كانوا قد التفوا حول الخلافة ، ثم أشرك معهم الاكراد الذين كان اكثرهم من النازحين الى المدن ، ثم استبدل بهم الاتراك بعد ذلك .

وتحول هذا الجيش بعد فترة قصيرة من الزمن الى قوة كبيرة اوقعت الرعب في

قلب السلطان السلجوقي الكبير سنجر ، فألزم ابن اخيه السلطان الصغير محمود بالتوجه الى بغداد للقضاء على هذا الجيش واعادة الخليفة الى عادة آبائه واجداده في الاقتصار على اسم الخلافة ، ومنعه من التدخل في غير الشؤون الدينية ، ثم لم يترددوا في التدبير على الخليفة والتخلص منه بعد ذلك .

ولم يكن دور المقتفي لامر الله في اعادة بناء الجيش وجهده في ذلك اقل اهمية من اخيه ، وان كان امتاز بالهدوء والتؤدة في مواجهة المتغلبين عن اخيه .

وكانت سياسة الاخوين في هذا المجال تقوم على استغلال الفرقة والانقسام بين ابناء الاسرة الحاكمة التي استشرى فيها الطمع وحب التسلط ، وتشجيع بعضهم على ضرب اخيه او بني عمه للانفراد بالسلطنة ، حتى جاءت وفاة السلطان مسعود عام ٥٤٧ هـ ايذاناً بزوال نفوذهم من العراق ، اذ ان الخليفة المقتفي قام على رأس الجيش الجديد بملاحقة امراء السلاجقة واعوانهم واخضاعهم لسلطانه او طردهم من العراق .

ومما نسجله في هـذه الفترة ايضاً قيام الخلافة باستعادة منصب الوزارة ، وسعي الخلفاء الحثيث لرفع مكانة الوزير وتمييزه عن اقرانه من وزراء السلطان السلجوقي وذلك بمنحه العديد من الالقاب التي لم تكن تمنح إلا للأمراء المتغلبين ، ويمكن التأكيد هنا ان عز الوزراة مقرون بعز الخلافة وهيبتها ، فكلما كان الخليفة قوياً كان الوزير محترماً مهاباً ، فقد برز في هذه الفترة بعض الوزراء الذين لعبوا دوراً مهما في مساندة الخلافة وزيادة فاعليتها في مقارعة المتغلبين والاجهاز عليهم ، الامر الذي عرضهم الى نقمة الامراء المتغلبين ومحاولة إلحاق الاذى بهم .

ولعل في طليعة هؤلاء يأتي وزير الخليفة المسترشد بالله جلال الدين بن صدقة ، ووزير المقتفي لامر الله عون الدين بن هبيرة .

واستعادت الخلافة ايضاً خلال هـذه الفترة بعض مكانتها لدى امراء الاطراف

وخاصة القريبة من دار الخلافة ، فقد كانت جرأة الخليفة على مقارعة الامراء المتغلبين ومحاسبتهم مشجعة لامراء الاقاليم المختلفة على اعـادة النظر في مواقفهم من السلطنة او الخلافة .

وكانت مصالحهم الخاصة هي التي تملي عليهم تقدير هذه المواقف ، على ان الخلافة استفادت من هذا التردد في ولاء هؤلاء فاستقدمتهم واستخدمتهم في اضعاف السلطنة او ضربها بهم .

واهتم خلفاء هذه الفترة بالاحوال الاقتصادية التي كانت قد تدهورت كثيراً خلال فترة التسلط ، فسعوا الى التخفيف عن الناس وبذلوا في سبيل ذلك اكثر ما توفر لديهم من المال ، فهذا المسترشد يعيد النظر في مقاسمة الفلاحين الذين يشتغلون في املاكه الخاصة ، ويتنازل لهم عن الكثير من حصته ويجعل ذلك نموذجاً يحتذى ، ثم يتحمل كثيراً من التكاليف العامة التي كان الشعب يحمل عبأها فيما مضى ، مثل نفقات اقامة السلطان ببغداد ، او اصلاح السور او غير ذلك .

وهذا المقتفي يقف بوجه السلطان السلجوقي ويمنعه من مصادرة الناس او فرض ضرائب اضافية عليهم ويهدده بالخروج من بغداد ان هو استمر في غيه ، ثم يبيع املاكه لرفع المصادرة عن الناس وسد حاجة السلاجقة الى المال .

وعلى غرار خلفاء الصدر العباسي الاول ، فقـــد اهتم الخلفاء بمشاريع الري ، وتشجيع الزراعة وملاحظة عمران البلاد وتفقد معايش الناس ، ونذكر للمقتفي هنا جملة من هذه الاعمال .

وخلاصة مظاهر هذه الفترة ان الخلافة استعادت سيطرتها على العراق وملكت حريتها في العمل على استعادة سلطانها الحقيقي على اطراف العالم الاسلامي ، وكان المؤمل بعد وفاة الخليفة المقتفي لامر الله عام ٥٥٥ هـ . ان يحذو ابناؤه حذوه في ممارسة

اعمال الخلافة مباشرة وتنفيذ سياسة ابيهم فيعيدوا للخلافة صولتها القديمة ومكانتها في قلوب الناس ، ولكن ذلك لم يتم .

وفي الباب الثاني عرضت لنظم الحكم التي اصبحت عليها الخلافة بعد تحررها فشرحت اولاً نظام الخلافة ، وبحثت حياة الخلفاء الخاصة وغلبة صفة الانعزال عليهم واثر ذلك في ضعف تعلق العامة بهم ، وعرضت لمراسيم البيعة الخاصة والعامة وما يرافق ذلك من تقاليد ، ورأيت ان ولاية العهد لم تعد مشكلة في هذه الفترة ، لان العادة جرت ان يتولاها الاكبر من ابناء الخلفاء ، إلا في الحالات التي يرغب فيها الخليفة اعطاءها للأصغر من ابنائه ، او خوفه عليها من مزاحمة اخوته ، ففي هذه الحالة نرى الخلفاء يختارون لولاية العهد ويأخذون له البيعة على الناس .

ورأيت ان الخلفاء الذين اعقبوا المقتفي لامر الله لم يفعلوا شيئاً مهما لرفع منزلة الخلافة ، بل اكتفوا بما وصلت اليه في عهد ابيهم ، ومالوا الى حياة القصور والاعتزال عن الناس ، والاعتماد على الحاشية والمماليك في ادارة شؤون الخلافة ، فاستبد بها هؤلاء وحجروا على اكثر الخلفاء . واستثنيت من هؤلاء الخليفة الناصر لدين الله ، الذي لم يختلف كثيراً عن هؤلاء في اسلوب حياته وسياسته ، إلا ان فترة حكمه الطويلة التي لم يبلغها خليفة عباسي من قبل ، وما اكسبه ذلك من تجارب عديدة ، اعطت لحكمه شيئاً من الحيوية والنشاط . ولعل خطأه الكبير انه لم يحاول ممارسة السلطان بنفسه ، وقد كانت الفرصة مهيأة له ، وبذلك اضاع على الخلافة فرصة تحقيق الانتعاش وتحول عهده الى بداية للضعف الذي مهد لسقوط الخلافة فيما بعد .

ورأيت في سياسة الناصر اسلوب التدرج والتجارب التي لم يحاول ان يستفيد من نتائجها فيأخذ العبرة منها ويصحح موقفه او اسلوبه على ضوئها ، من ذلك انه بدأ باستخدام الجيش في عدة حملات عسكرية لفرض سلطان الخلافة المباشر على بعض الاقاليم

الشرقية ، ولكنه لم يحسن اختيار القيادة حين اعتمد في ذلك على وزراء لا خبرة لهم في شؤون الحرب ، فكانت النتائج فشلاً ذريعاً لم يلحق الجيش فحسب ، وانما اصاب هيبة الخلافة وسمعتها في هذه الاقاليم ، وبدلاً من اعادة النظر في قيادة الجيش ودراسة اسباب الفشل ، فانه غضب على الجيش واهمل استخدامـــه كلياً ، ولجأ الى اسلوب التحريض والاغراء للتخلص من الامراء المتمردين على طاعته ، فاستعان على بقايا امراء السلاجقة بأتابكتهم ، ثم امتعان عليهم بالامراء الخوارزميين .

وعندما اختلف الخوارزميون معه وتمردوا عليه ، استعان عليهم بأمرائهم واعوانهم ، ثم استعان بالغوريين ، ثم بالخزر ، ثم بالخطا .

وعندما لم يحقق له هذا الاسلوب النتائج المرجوة ، لجأ الى اسلوب آخر وهو التأكيد على قدسية سلطانه الذي هو من سلطان الله ، ولتحقيق هذه القدسية ، فقد قام بالتأليف الديني ، ثم احيا نظام الفتوة وجعل له اساساً دينياً رجع به الى الامام علي (رض) ونظم علاقاته مع امراء المسلمين على اساس من هذا التنظيم الذي اصبح بموجبه القدوة لامراء المسلمين ، ولعل خطأه هنا ايضاً انه اكتفى من طاعـة امراء المسلمين له بالمظاهر فقط ولم يحاول استغلالها وتحويلها الى قوة فعالة عندما تعالت اصوات الاستغاثة التي علت من المغرب اولاً ثم من المشرق .

وتحدثت بعـــد ذلك عن بعض مظاهر النشاط العسكري الذي لمسناه في عهد المستنصر بالله حفيد الناصر ، ولكن ذلك لم يفد كثيراً في دفع الخطر بسبب فقدان سياسة دفاعية واضحة للخلافة .

وذكرت في هـذا الباب ايضاً بعض التطورات التي رافقت منصب الوزارة ، فأشرت الى عودتهم لتولي مسؤولية الدواوين جميعها وتصرفهم باختيار صدورها والمشرفين عليهم ثم صلاحياتهم في العزل والمحاسبة للمقصرين منهم .

ولاحظت انه بالرغم من قيام الوزراء باستخدام ابناء اسرتهم في مختلف مناصب السلطان إلا ان منصب الوزارة لم يحتكر من قبل اسرة معينة كما كان يحدث في السابق.

وأشرت الى ان وزراء هذه الفترة اخذوا يرعون نيابة عن الخلفاء الذين اعتزلوا الناس ، يرعون الاحتفالات الدينية ، والمواسم الادبيـة وكانوا يوزعون الجوائز والهدايا في مثل هذه المناسبات شأنهم في ذلك شأن بعض وزراء الصدر الاول من الخلافة

والجديد الذي لاحظته في هذه الفترة في منصب الوزارة هو عادة الاكثار من استخدام نائب الوزارة . يحكي ذلك في عهد الخليفة الناصر لدين الله خاصة .

ولعل في طليعة وزراء هذه الفترة يأتي ابن صدقة وزير المسترشد ، وابن هبيرة وزير المقتفي ، وناصر بن مهدي العلوي وزير الناصر ، وابن العلقمي آخر الوزراء .

وعرضت في الباب الثاني ايضاً للنظام الاداري ، فأشرت الى التقسيمات الادارية لبلاد الخلافة التي اصبحت حدودها تشمل فى هذه الفترة حدود مانسميه بالعراق العربي .

وشرحت طريقة اختيار الولاة لهذه الوحدات الادارية ، ممن عرفوا بالحزم والكفاءة ، وأشرت الى الصلاحيات التي اعطيت لهم .

وميزت بين الولاة الذين جمعوا في ولاياتهم بين سلطتي الحرب والخراج وبين اولئك الذين اقتصرت مسؤولياتهم على الحرب فقط بينما تولى الخراج موظفون آخرون ولاحظت ان الخلافة كانت تميل للأخذ بالنظام المركزي في ادارة البلاد ، لذلك كان عدد الولاة الذين تمتعوا بالصلاحيات الواسعة قليلين .

وحاولت اعطاء صورة للحكومات المحلية التي كانت تعتمد عليها الخلافة لادارة البلاد ، فذكرت حكومة اربل كنموذج لذلك عندما تولت الخلافة أمرها سنة ٦٣٠هـ.

كما حاولت اعطاء صورة لحكومة بغداد ، فذكرت فيها ان الخليفة هو الرئيس الاعلى ، وان الوزير كان يقوم مقامه في رئاسة دواوين الخلافة جميعها واخذت نموذجاً

لذلك حكومة بغداد عند وفاة الخليفة المستنصر بالله ، وتولى المستعصم بالله الخلافة ، فأشرت الى اشهر موظفي هـذه الحكومة وهم : الوزير ، وقاضي القضاة ، وأستاذ الدار ، ورؤوساء الدواوين المختلفة .

ولاحظت ان النظام الاداري بوضعه الجديد للخلافة لا زال يحتفظ ببقايا التأثير السلجوقي متمثلاً ذلك بمنصب الشحنة الذي لا زالت تحتفظ به الخلافة في بغداد ولكن عمله تطور عما كان عليه ، فبعد ان كان الشحنة عيناً للسلطان السلجوقي على الخليفة يحصي عليه حركاته واعماله ، وانه كان ممثلاً للسلطان في ديوان الخلافة ، وقائداً للحامية السلجوقية في العراق ، اصبح الآن تابعاً للخليفة ، واقتصر عمله على مكافحـة مصادر الفوضى والتمرد التي تعجز الشرطة عن القضاء عليه .

وعرضت كذلك للنظام المالي وأشرت الى موارد الخلافة الرئيسية من ضرائب الخراج والجزية والزكاة وبعض الموارد الاخرى ، وبينت ان حاجة الخلافة الى الاموال دفعتها في بعض الاحيان الى فرض ضرائب اخرى على الاسواق والتجارة .

وأشرت ايضاً الى ان نسبة الضرائب الرئيسية لم تبق كما شرعت اولاً ، وانما خضعت لكثير من الزيادة .

اما نفقات الخـلافة ، فقد أشرت الى قيامها بالانفاق على الجيش ، ثم المرافق العامة كبناء وتعمير الاسواق ، وتنظيم طرق المواصلات ، والقيام ببعض المشروعات الخيرية كالمستشفيات والربط ، وبعض مشروعات الري وغيرها .

ولاحظت ان الخلافة كانت تراقب السوق بواسطة المحتسب ، وتتدخل في الحياة الاقتصادية عند الازمات .

وبالنسبة للدواوين فقد عرضت لديوان الخراج الذي اصبح يحمل في هذه الفترة اسم المخزن ، فذكرت انه اصبح اهم الدواوين ، وأشرت الى اشهر موظفيه .

وعرضت كذلك للنظام الحربي : فذكرت ان جيش الخلافة كان قليل العدد وان اغلبه من مماليك الخلافة ، وانه كان يخضع الى نفس التقسيمات التنظيمية المألوفة ، بالاضافة الى فرق خاصة للمهندسين والنفاطين .

وقد لاحظت ان قلة عدد هذا الجيش جعل الخلافة عاجزة عن القيام بدور مهم في الاحداث السياسية الجارية في المنطقة .

وفي الباب الثالث عرضت لسياستها الداخلية ، فذكرت موقفها من مختلف طوائف الشعب ، وحاولت ايضاح موقف طائفتي السنة والشيعة منها واختلاف نظرتها اليها ، وبينت ان الانقسامات الطائفية التي لا زلنا نعاني منها الامرين كانت نتيجة للاستغلال السياسي لبعض طوائف المتغلبين وخاصة البويهيين ، وأشرت الى ان اول احتفال ديني في هذا المعنى كان سنة ٣٤٩ هـ ، حيث اعقبتها ردود الفعل لدى جهال الطائفتين في تطوير هذه الاحتفالات ، الامر الذي ادى الى ابتعادها عن روح الاسلام .

وعرضت كذلك الى علاقة الخلافة بأهل الذمة ، والى انهم كانوا دون المسلمين في المنزلة ، وان الخلافة تركت لهم حريتهم الدينية بعد ان ألزمتهم بشروط ومميزات معينة فضلاً عن دفعهم ضريبة الجزية ، وانها كانت تشرف على شؤونهم عن طريق اختيارها لرئيس لهم من بين افضل رجالهم ، وكان هذا الرئيس يسمى الجاثليق بالنسبة للنصارى ورأس الجالوت بالنسبة لليهود .

وفي الباب الرابع عرضت لعلاقات الخلافة الخارجية مع امراء المسلمين .

وحاولت ايضاح التباين في سياستها بالنسبة لامراء المشرق والمغرب ورأيت ان مكانتها بين اكثر امراء المشرق (السلاجقة والخوارزميين خاصة) كانت ضعيفة وان طاعتها لديهم مشكوك فيها ، ولذلك فقد كانت الصفة المميزة لسياستها معهم انها كانت تقوم على التحريض واغراء البعض بالآخر ، وهي نفس السياسة القديمة التي انتهجتها

الخلافة في ايام ضعفها في مطلع القرن الثالث الهجري .

وقد جرتها هـذه السياسة الى الاستعانة بغير الامراء المسلمين على المسلمين واعماها الحقد والرغبة في القضاء على الخصوم الى عدم التبصر في نتائج هذه الاستعانة ، الامر الذي عرض مكانتها في المشرق الى الضياع ، وكيانها الى الزوال ، كما جعلتها بعـد ذلك مضغة في افواه المؤرخين يتهمونها بشتى التهم ويلصقون بها مختلف الاعمال ، تمثل ذلك خاصة في عهد الخليفة الناصر لدين الله وموقفه من الدولة الخوارزمية واستعانته عليهم ، بعد عجز الامراء المسلمين الآخرين ، بأقوام الخزر والخطا الوثنيين . فلما كان الغزو المغولي ، وما كان من موقف الخلافة الشامت بالخوارزميين ، ثم تخاذلها عن نصرة المسلمين واهمالها اتخاذ الاستعدادات للدفاع عنهم ، وقع في روع الناس ان ما اتهم به الناصر لدين الله من اتصال بالمغول وتحريضهم كان صحيحاً .

وعلى العكس من ذلك ، فقد كان موقف امراء المغرب ـ الاتابكة والايوبيين خاصة ـ منها اقرب الى الطاعة واكثر التزاماً بأوامرها وتنفيذاً لتعاليمها ، ولكن سياستها معهم لم ترتفع الى المستوى المطلوب اذ ان الخلافة لم تقدر طبيعة الظروف التي جعلت هذه الامارات تترامى في احضانها فتعمل على استغلال هذه الطاعة بما يرفع من مكانتها ويساعدها على القيام بواجباتها الحقيقية في الدفاع عن العالم الاسلامي ازاء الاخطار التي كانت تهدده من المغرب اولاً فتجعل منهم سداً منيعاً تحمي به حدودها الغربية ثم تستخدمهم في دفع الخطر القادم من المشرق .

على ان موقفها منهم لم يخل من فائدة ، فهي لم تبخل عليهم بالتقاليد والاوامر التي تجعل من حكمهم شرعياً في نظر الرعية ، كما لم تبخل عليهم بالدعم المعنوي ايضاً ما دام ذلك لا يكلفها سوى الكلام او ارسال الرسل ، فعلت ذلك مع نور الدين زنكي ، ثم بعد وفاته لقي صلاح الدين وخلفاؤه منها الكثير .

واستفادت الخلافة من طاعتهم في القضاء على الدولة الفاطمية في مصر ، التي كانت تنافسها في زعامة العالم الاسلامي الروحية .

وفي غير هـــذا المجال ، فقد كان تقصيرها واضحاً ، وخاصة في فترة زعامة صلاح الدين واشتداد الخطر الصليبي على العالم الاسلامي ، فاننا نلمس ان سياستها معه لم تكن مستقيمة ، فبالاضافة الى انها لم تمارس مسؤولية القتال بأي شكل من الاشكال لصد الخطر الداهم ، فانها لم تمكن صلاح الدين الذي كان يتحمل هو وحده عبء هذه المسؤولية ، لم تمكنه من اخضاع أتابكة الموصل وسوقهم الى ميدان القتال بالرغم من مواطأتهم للعـدو وتحالفهم معه على صلاح الدين ، الامر الذي دفع صلاح الدين الى التردد في تقديم الطاعة للخلافة فقطع رسله ورسائله عنها وخاصة في ايامه الاخيرة .

وقد استعرضت بعد ذلك تطور موقف الخلافة من الايوبيين بعد وفاته حيث تفرقت كلمتهم وضعفت قوتهم ، وازداد تعلقهم بأهداب الخلافة ، وأشرت الى ان احداً من خلفائه لم يستطع اشغال مكانه في زعامة العالم الاسلامي ، حتى انقسم الايوبيون على انفسهم وفسح المجال لمماليكهم في مصر الاستيلاء على الحكم فيها ثم توليهم مسؤولية الدفاع عن مغرب العالم الاسلامي وايقاف الخطر المغولي ثم الصليبي عنه .

واستعرضت في هذا الباب ايضاً محاولات الخلافة لاستعادة سلطانها على الحرمين الشريفين وخاصة بعد اختفاء الفاطميين ، وأشرت الى ان من مظاهر طاعـة المكيين للخلافة ارسالهم خرق دم الاضاحي الى بغـــداد وما يرافق ذلك من احتفالات عند وصولها .

وأشرت كذلك الى المحاولات التي تمت لاعادة نفوذ الخلافة الى المغرب الاقصى والاندلس ، وقد تبين لي ان الخلافة لم تقم بأية محاولة لتحقيق ذلك وان ما تم كان نتيجة لجهود الامراء المحليين الذين كانت الحاجة الى اضفاء الصفة الشرعية على حكمهم ،

تدفعهم الى الاتصال بالخلافة واعلان الانتماء اليها للحصول على تقليدها وتشريفها .

وفي الباب الاخير قصرت البحث على زوال الخلافة من بغداد ، فعرضت للمغول أولا وأثر البيئة في خروجهم نحو البلاد الاسلامية .

وعرضت ثانياً لموقف الخـــلافة من الخطر المغولي فشرحت عوامل الضعف التي اتسمت بها الخلافة في هذه الفترة ، وحددت مسؤولية الخلفاء المتأخرين ، ودور رجال الحاشية في اهمال الاستعدادات ، وتأثير الانقسامات الطائفية في استمرار الاهمال والضعف وما نشأ عن ذلك من مهاترات وتهم لقي منها وزير الخلافة ابن العلقمي الشيء الكثير .

وأشرت الى حالة الجيش وما اصابه من اهمال نتيجة لتسريح العدد الكبير من افراده وخلصت من ذلك الى ان الخلافة لم تكن لديها سياسة دفاعية معينة ازاء الخطر الداهم ، وأشرت كذلك الى طبيعة الاوضاع الاقتصادية السيئة التي اصابت البلاد في هذه الفترة نتيجة للاهمال وتأثير الفيضانات في تعجيل الخراب وخاصة الفيضان الذي طغى على بغداد قبيل سقوطها .

وأشرت الى حالة القلق بين الناس نتيجة للغزو المغولي وانهيار معنوياتهم وهجرتهم المستمرة الى بغداد وتأثير ذلك على تعقيد الحياة الاقتصادية والنفسية فيها .

وأشرت اخيراً الى مسؤولية الامراء المسلمين الآخرين الذين تسابق بعضهم الى الدخول في طاعة المغول قبل وصولهم اليه ، يأساً منهم من قدرة الخلافة وعجزها عن حمايته ، او طمعاً منهم في الحصول على حظوة لدى المغول لحماية مركزه .

وعرضت كذلك للرسائل المتبادلة بين الخلافة وهولاكو والتي كشفت عن الغيبوبة التي كانت تعيش فيها الخلافة حتى صحت على ضربات المغول في اسوار بغداد فكان جيشها الذي خرج للدفاع عنها في غاية القلة .

قائمة بأسماء الخلفاء الذين تولوا الخلافة في هذه الفترة

١ ـ المسترشد بالله ابو منصور الفضل بن المستظهر بالله :

تولى الخلافة في ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥١٢ هـ وقتل في سابع عشر ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ .

٢ ـ الراشد بالله ابو جعفر منصور بن المسترشد :

تولى في ٢٧ ذي القعدة سنة ٥٢٩ هـ ، وخلع في ١٦ ذي القعدة سنة ٥٣٠ هـ ، وقتل في ٢٧ رمضان سنة ٥٣٢ هـ .

٣ ـ المقتفي لأمر الله ابو عبدالله محمد بن المستظهر بالله :

تولى في سادس عشر ذي القعدة سنة ٥٣٠ هـ وتوفى في ٢ ربيع الاول سنة ٥٥٥ هـ .

٤ ـ المستنجد بالله ابو المظفر يوسف بن المقتفي لامر الله :

تولى في ٢ ربيع الاول سنة ٥٥٥ هـ ، وتوفى في ٨ ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ .

٥ ـ المستضيء بالله ابو محمد الحسن بن المستنجد :

تولى في ثامن ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ ، وتوفى في ٢ ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ .

٦ ـ الناصر لدين الله ابو العباس احمد بن المستضيء بالله :

تولى في ٢ ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ ، وتوفى في آخر رمضان سنة ٦٢٢ هـ .

٧ ـ الظاهر بأمر الله ابو نصر محمد بن الناصر لدين الله :

تولى في اول شوال سنة ٦٢٢ هـ ، وتوفى في منتصف رجب سنة ٦٢٣ هـ .

٨ ـ المستنصر بالله ابو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله :

تولى في منتصف رجب سنة ٦٢٣ هـ ، وتوفى في عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ هـ .

٩ ـ المستعصم بالله ابو احمد عبدالله بن المستنصر بالله :

تولى في عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ هـ ، وقتل يوم الاربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ .

الوزراء الذين تولوا الوزارة في هذه الفترة

وزراء الخليفة المسترشد بالله :-

١ - ابوالحسن علي بن محمد الدامغاني - نائب الوزارة وهو الذي تولى أخذ البيعة.

٢ - ابو شجاع محمد ابن ابي منصور ابن ابي شجاع - وكان ينوب عنه لصغر سنه ابوالقاسم علي بن طراد الزينبي .

٣ - جلال الدين ابو علي بن صدقة - الوزارة الاولى .

٤ - علي بن طراد الزينبي - نيابة الوزارة .

٥ - ابو نصر احمد بن نظام الملك .

٦ - جلال الدين ابو علي بن صدقة - الوزارة الثانية .

٧ - ابو القاسم علي بن طراد الزينبي - الوزارة الاولى .

٨ - انوشروان بن خالد .

٩ - ابو القاسم علي بن طراد الزينبي - الوزارة الثانية .

وزراء الخليفة الراشد بالله :-

١٠ - ابو الرضا محمد بن احمد بن صدقة .

وزراء الخليفة المقتفي لأمر الله :-

١١ - ابو القاسم علي بن طراد الزينبي - الوزارة الثالثة .

١٢ - نظام الدين ابو المظفر علي بن جهير .

١٣ - ابو القاسم علي بن صدقة بن علي بن صدقة .

١٤ ـ ابو المظفر يحيي بن محمد بن هبيرة .

وزراء الخليفة المستنجد بالله :-

١٥ ـ ابو المظفر يحيي بن محمد بن هبيرة .

١٦ ـ ابو جعفر ابن البلدي .

وزراء الخليفة المستضيء بالله :-

١٧ ـ ابو الفرج عضد الدين محمد بن المظفر ابن رئيس الرؤساء .

١٨ ـ ابو جعفر يحيي ـ صاحب المخزن ـ نيابة الوزارة .

١٩ ـ ابو الفرج عضد الدين محمد بن المظفر ابن رئيس الرؤساء ـ الوزارة الثانية.

٢٠ ـ ظهير الدين ابو بكر بن نصر ابن العطار ـ نيابة الوزارة .

وزراء الخليفة الناصر لدين الله :-

٢١ ـ داود بن سليمان بن ساويرس ـ نيابة الوزارة .

٢٢ ـ ابو المظفر محمد بن هبة الله بن البخاري ـ نيابة الوزارة .

٢٣ ـ ابو الفتح صدقة ابن ابي الرضا محمد بن احمد بن صدقة ـ نيابة الوزارة .

٢٤ ـ محمد بن عبدالباقي ـ نيابة الوزارة .

٢٥ ـ ابو المظفر عبيدالله بن يونس ـ نيابة الوزارة .

٢٦ ـ علي بن البخاري ـ نيابة الوزارة .

٢٧ ـ ابو المعالي محمد بن حديدة الانصاري .

٢٨ ـ ابو المظفر عبيدالله بن يونس ـ نيابة الوزارة للمرة الثانية .

٢٩ ـ مؤيد الدين علي بن محمد ابن القصاب ـ نيابة الوزارة ثم الوزارة .

٣٠ ـ الحسن بن نصر بن الناقد المعروف بابن قنبر ـ نيابة الوزارة .

٣١ ـ ابو الحسن ناصر بن محمد العلوي ـ نيابة الوزارة ثم الوزارة .

٣٢ ـ ابو البدر فخر الدين بن امسينا الواسطي ـ نيابة الوزارة .

٣٣ ـ مؤيد الدين ابو الحسن محمد بن محمد القمي ـ نيابة الوزارة .

وزراء الخليفة الظاهر بأمر الله :-

٣٤ ـ مؤيد الدين ابو الحسن محمد بن محمد القمي .

وزراء الخليفة المستنصر بالله :-

٣٥ ـ مؤيد الدين ابو الحسن محمد بن محمد القمي .

٣٦ ـ شمس الدين ابو الازهر احمد بن الناقد .

وزراء الخليفة المستعصم بالله :-

٣٧ ـ شمس الدين ابو الازهر احمد بن الناقد .

٣٨ ـ مؤيد الدين ابو طالب محمد بن العلقمي .

فهرس الملاحق

ملاحق الباب الأول

صورة الكتاب الذي كتبه الخليفة الطائع لله الى عضد الدولة في تعزيز مكانة أمير الامراء عز الدولة ابن أمراء بني بويه (١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عبدالكريم الامام الطائع لله اميرالمؤمنين الى عضد الدولة ابي شجاع بن ركن الدولة ابي علي مولى اميرالمؤمنين سلام عليك : فان اميرالمؤمنين يحمد اليه الله الذي لا إله إلا هو ويسأله ان يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، اما بعد : احسن الله حفظك وحياطتك ، وأمتع اميرالمؤمنين أن يحييها وآداب الله التي يرى أن يأخذ بها ويقتفيها : إثابة المحسن باحسانه والابقاء به على أقرانه ، والمجازاة له عن راشد مساعيه وصائب مراميه بما يكون قضاء له لما أسلف وقدم ، وكفاه لما أكد وألزم واضعاً ذلك مواضعه ومطبقاً فيه بين أولياء دولته وأنصار دعوته بحسب الذي عرف من مقامات بلائهم وشهر من مواقف عبائهم . فلا يستكثر جزيلاً استحقه اكابرهم ولا يحتقر قليلاً استوجبه اصاغرهم شحذاً لبصائرهم في طلب الغايات وبعثاً على إدراك النهايات وتوفية لهم ما صار في ضمنه من اطالة ايديهم الى ما تصدوا لنيله ، وتقديم اقدامهم الى حيث « هل جزاء الاحسان إلا الاحسان » وعلى مثله استمرت سيرة السلف الصالح من امراء المؤمنين وأئمة المسلمين الذين اميرالمؤمنين متبع لدليلهم وحاذ على تمثيلهم وذاهب على آثارهم في كل غرس غرسوه وبناء أسسوه ومفخرة اثلوها ومكرمة اصلوها واميرالمؤمنين يستمد الله في ذلك هداية تؤدي به الى

(١) الصابي — رسوم دار الخلافة ص ١١٣ — ١٢١ .

المقصد وتوصله الى المعتمد واصالة تؤمنه من غلط الرأي وخطأ الاختيار ومعونة تفضي به الى سداد المنحى واصابة المغزى وما توفيق اميرالمؤمنين إلا بالله عليه يتوكل واليه ينيب وقد علمت رعاك الله وعلم غيرك بعين ما ادركته الاعمار وسماع ما نقلته الاخبار ان الدولة العباسية التي رفع الله عماد الحق بها وخفض منار الباطل لها لم تزل على سالف الايام ومتعاقب الاعوام ، تعتل طوراً وتصح اطواراً وتلتاث مرة وتستقل مراراً من حيث اصلها راسخ لا يتزعزع وبنيانها ثابت لا يتضعضع فاذا لحقها الالتباث وحدثت فيها الاحداث كان ذلك على سبيل التقويم والتأديب والاصلاح والتهذيب لمعشر كانوا كالانعام وتعوا في اكلائها سائمين ولهوا عن شكر آلائها ذاهلين فيوقظهم الله من تلك السنة وينهضهم عن مضاجع الغفلة ويجعل ما يحله بهم في الخلال ما يضطرب من دهمائهم ويشتد من ولائهم عظة لهم ان امدت بهم السنون او لغيرهن ان اخترمتهم المنون حتى اذا انتهت هذه الحال الى حيث اراد الله بهم من الكشف والردع وسببه لهم من النفع والصنع بعث لاقرار الامر في نصابه وحفظه على اصحابه ولياً نجيباً من اوليائهم وعبداً مخلصاً من اصفيائهم فلا تلبث ان تعود الدولة على يده غضة العود معتدلة العمود جديدة اللباس متينة الرأس وهنالك يكذب الله آمال المعاندين ويخيب ظنون المحادين ويردهم بغصة الصدور وشجي النحور ويكون النفر الذي تجري هذه المنقبة على ايديهم وتتم النعمة فيها بما عينهم اعياناً لتلك العصور وولاة فيها على الجمهور وكالشركاء للأئمة الملهمين وذوي اللحمة والمناسبين وتلك كانت منزلة معز الدولة ابي الحسين مولى اميرالمؤمنين نفعه الله بما توفاه عليه من عز الطاعة ونظم الفة الجماعة والاجتهاد فيما رب الدين ولمه وتلاقى نشره وضمه فانه ليس الامر وقد دب الفساد فيه وصدئت بصائر اهليه وصار حظهم منتهباً مضاعاً وفيؤهم مقتسما شعاعاً وآثار دينهم طامسة ومعالمه دارسة ورؤوس اوليائه ناكسة وعيون اعدائه متشاوسة فلم يدع احسن الله مجازاته طرفاً مأخوذاً إلا

ارتجعه ولا حقاً مغلوباً عليه إلا انتزعه ولا عدواً باغياً إلا قمعه ولا جباراً طاغياً إلا صرعه شاهراً سيفه على كل منتم الى الولاية بزعمه ودعواه أجنبي منها بسره ونجواه الى ان ذال الرقاب بعد استصعابها وابائها وأضرع الخدود بعد صعرها والتوائها ورتق الفنون بعد تفاقمها واستفحالها وأدمل الجروح بعد اعيائها واعضالها أعاد الى السلطان ما كان خرق من هيبته وصان ما انتهك من حرمته وصاحب خدمة المطيع لله صلوات الله عليه منذ افضى الله بخلافته اليه مصاحبة سلك فيها سبيل وفاته وبعـــد عن غشته ونفاقه ، وأخلص له اخلاصاً ساوى فيه بين سره وجهره والف بين عالته وباطنه واستمر على ذلك بقية عمره وتميلة مدته الى ان قبضه الله نقي الصحيفة من دون العيوب خفيف الظهر من محمل الذنوب فاتبعه المطيع لله صلوات الله عليه الدعاء الذي هو خير الزاد وانفع العتاد واقرب الوسائل الى رب العالمين واعوذها بأجر المأجورين وجازاه بأن اقر تلك الرتبة العلية والمحلة السنية على ولده وسليله ونظيره في النجابة وعديله : عز الدولة ابي منصور ابن معز الدولة ابي الحسين مولى اميرالمؤمنين امتع الله به اهله بل عن فضائل تكاتفت وآثار تناصرت لم يكن في شيء منها مقارن يزاحمه بمنكبه ولا مقارب يجاريه بسعيه ذلك انه تقل خلائق معز الدولة ابي الحسين ووراثة واشتمل عليلها حيازة وتوقل في هضاب معاليه صاعداً في صعاب مراقيه وفي صعاب مراقيه سامياً واستولى على شرف الترتب والتأدب بين أمام تلك صنائعه ووالد هذه ذرائعه وقرن الى تلك المناقب التي كسبه اياها عظيم سعادته وحبسها عليه كريم ولادته مناقب توابع استأنفها ومحاسن شوافع استقبلها ومطالب لذوايب الفخر والمجد أدركتها وتناولها ومغانم من عوائد الشكر والحمد ملكها وتخولها ولم يزل للمطيع لله رحمة الله عليه خير ظهير حفظ سريره وافضل نصيح دبر اموره يدأب له وهو قار ويحوطه من ورائه وهو غار ويسهر عنه اذا رقد ويهب معه اذا استيقظ ويوليه في كل ما يجتمعان عليه بدأ من الطاعة يلين له لمسها ويخشن على اعدائه مسها الى

ان استوفى في الخلافة امدا لم يستوفه احد من الخلفاء قبله ناجياً فيه من الغوائل التي كانت تغول اعمارهم وتقصر آجالهم وتجري على ايدي السفهاء من خولهم والجهال من جندهم مذوداً عنه في ذلك العمر الطويل والاجل المديد كل عدو ممنوعاً منه كل مكروه وسوء ممتثلاً رأيه في كل مطلوب متبعاً هواه في كل محبوب فلما صار رضوان الله عليه من السن العليا والعلة العظمى ، بحيث يحرج ان يقيم معه على امامة قد كل عن تحمل كلها وضعف عن النهوض بعبئها خلع ذلك السربال على اميرالمؤمنين خلع الناص عليه والمسلم اليه ، خارجاً الى رب العالمين وجماعة المسلمين من الحق في اياالتهم وسياستهم ما استقل واضطلع وفي حسن الارتياد لهم حين حسر وظلع عز الدولة ابو منصور امتع الله ببقائه ودافع عن حوبائه متصرف في جميع ذلك على حكم التزمه وفرض افترضه في رعاية ما سلف من الصنيعة واستحفظ من الوديعة لا يخرجه عن الطاعة هوى يميل اليه ولا غرور يعرج عليه لكنه فيها على المنهج الاوضح والمتجر الاربح والسنن الاقوم والمعتقد الاسلم فكان فعله بعـــد عجز المطيع لله خصه الله بالرحمة والصلاة ونصه على اميرالمؤمنين انهضه الله بما ولاه واسترعاه في قود الاولياء الى الرضى به وجمع كلمتهم على الدخول في بيعته وازالتهم عما كانوا عليه من اختلاف الآراء وتشتت الاهواء جازياً لفعل المطيع لله ورضوان الله عليه بعه بعد وفاة معز الدولة ابي الحسين رحمـه الله ، اذ اقره مقره ونصبه منصبه وجرى ذلك مجرى الديون المتقارضة وان كان كل من الفريقين قد اضاف الى الحق فيما ابتدأ وقضى احراز الحظ للأمة فيما ارتأى وأنى . هذا على نوائب باشرها وصابرها وحوادث كانت مزقت بين دار اميرالمؤمنين وداره وباعدت جواره عن جواره ولم يكتب الله في شيء منها عليه استحالة عن الولاء ولا على اميرالمؤمنين اخلالا بالوفاء ولما كان اميرالمؤمنين قد استفاد في زمان تلك الفرقة تجربة تثبت له ان لعز دولته حظاً في كرم الضريبة لا يدانى وشأو في يمن النقيبة لا يجاري

ووجدوه واهله امتع الله اميرالمؤمنين بهم وحرس عليه الموهبة فيهم مشرفين شرفاً اولا بالتكنية والتلقيب لهم وشرفاً ثانياً باجابتهم الى مثل ذلك في اللائذين المتعلقين بهم رأى ان من اوجب الحق عنده ، وألزم الامر له ان يبين عز الدولة ابا منصور بشعار من الاكرام ومن الاعظام لايساويه فيهما مساو اشارة الى موقعه اللطيف ودلالة على محلته المنيف وتمييزاً له عن الاكفاء وايفاء به على النظراء اذ هو مستبد عليهم باثرة مغاداة مجالس اميرالمؤمنين ومراوحتها والتمكن منه في اوقات حشدها وخلوتها والاقتدار فيها على تقديم الرتب وتأخيراً وإقرار النعم وتحويلها فجدد له اميرالمؤمنين مع هذه المساعي السوابق والمعالي السوامق التي يلزم كل دان وقاص وعام وخاص ان يعرف له حق ما كرم به منها ويتزحزح له عن مقام المماثلة فيها مزاياً ثلاثاً اولاهن ان شـــابكه في اللحمة كما شاركه في النعمة وناط ما بينه وبينه بصهر يتصل سببه يوم انقطاع الاسباب ويستمر غرسه في الولد والاعقاب فيكون الشيء منهم في مستقبل الاعمار ومستأنف الادوار ضارباً بعرقبة الى اميرالمؤمنين واليه ـ والثانية : ان امر بالدعاء له في المكاتبات عنه بما لم يكتبه عن امام الى العهد ولاه آت بحق واقفاً به في ذلك على حد سأل عز الدولة امتع الله اميرالمؤمنين به ، الوقوف عليه واستعفى من التجاوز له لزوما لعادته في اعظام الامامة والاخبات للخلافة وخفض الجناح لها وغض الطرف دونها والاستكثار للقليل من تشريفها والاستعظام لليسير من تكريمها وان كان اميرالمؤمنين موجباً له من ذلك استغراق الغايات واستيعاب النهايات وهو ان يصدر الكتب اليه بأطال الله بقاك وادام عزك وتأييدك وامتع اميرالمؤمنين بك وبالنعمة فيك ويدعى له عند ذكره في الكتب الى اميرالمؤمنين وعنه بأيده الله ـ والثالثة : ان جمعه اميرالمؤمنين الى نفسه في استخدام الوزراء واشركه معه في تقليد الاولياء وان عرف لنصير الدولة ابي طاهر حق تقدمه في الكفاية والغناء وابرازه في الاستقلال والوفاء وقيامه بكل مهم طرق ودفاعه لكل

ملم ارهق وسده من هذه الحضرة التي يملاه غيره فعز الدولة ابو منصور بن معز الدولة ابي الحسين مولى اميرالمؤمنين ايده الله . الآن المستعلى على الاقران الفائت لغايات اهل الزمان المتبوىء للرتبة العليا المستقر فى غايتها القصوى ونصير الدولة الناصح ابو طاهر امتع الله به الجامع لوزاريتها الحامل للأثقال دونها الحائز شرف المناب عنهما الجاري مجرى واحداً منهما وقد امر اميرالمؤمنين بأن يوفي من الحق اكبر ما وفيه وزير وازر وظهيرظاهر في قديم وحديث وبعيد من العهد وقريب وحظر على سائرالاولياء والخدم من ذي سيف وقلم ان يسمو بنفسه الى تسم باسمه وارتسام برسمه لانه حق من حقوق الخلافة لا ينحله اميرالمؤمنين من صنائعه اجمعين وان كثر عـــددهم واختلفت مقارهم وتقدمت مراتبهم وتوجهت وسائلهم إلا من كان ماثلاً بين يديه وعارضاً للأعمال عليه وجارياً هذا المجرى فيتمكن السبب عنده وحسن الاثر لديه فاعرف كلأك الله لعزالدولة ابي منصور ايده الله قدر ما وفر من النعمة عليه ولنصيرالدولة الناصح ابي طاهر ماخص به وازل اليه وتم بذلك الحق الاول بادياً وبهذا الحق الامر الوارد فيه عليك وتلقيك إياه بما يعدك به في الاوضحين سبيلاً والارشـــدين دليلاً إن شاء الله والسلام عليك ورحمة الله » .

حديث ابن الفارقي عند نزوله بغداد سنة ٥٣٤ هـ
واجتماعه بسديد الدولة ابن الأنباري

ذكر مقتل المسترشد وخلافة الراشد :

حكى الامير مؤيد الدين سديد الدولة ابوعبدالله محمد بن عبدالكريم ابن الانباري كاتب الانشاء قال : ـ

كان وقع بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وبين الخليفة المسترشد بالله خلف وخرج الخليفة لقتاله مرتين و كُسر . فلما مات السلطان محمود ، وولي السلطنة اخوه السلطان مسعود بن محمد ، استطال نوابه بالعراق ، وعارض الخليفة في اقطاعه فوقعت بينهما وحشة ، فتجهز المسترشد بالله وعزم على الخروج وجدً في ذلك ، فدخل اليه الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي وكمال الدين صاحب المخزن ، وأنا معهما . وكان المسترشد قد طرد نواب السلطان عن البلاد ، ورتب صاحب المخزن للنظر في المظالم .

فقال له الوزير شرف الدين : يا مولانا في نفس المملوك شيء ، فهل يؤذن له في المقال ؟ فقال : « قل » فقال : ـ الى اين نمضي ، وبمن نعتضد ، والى من نلتجيء ؟ ومقامنا ببغداد امكن لنا ، ولا يقصدنا احد ، والعراق ففيه لنا الكفاية فان الحسين بن علي ـ عليهما السلام ـ لما خرج الى العراق جرى عليه ما جرى ، ولو اقام بمكة ما اختلف عليه احد من الناس .

فقال لي الخليفة : ما تقول يا كاتب ؟ فقلت : « يا مولانا الصواب المقام ،

وما رآه للوزير فهو الرأي . ولا يقدم علينا احد ، وليت العراق يبقى لنا » .

فقال لصاحب المخزن : « يا وكيل ، ما تقول ؟ فقال : « في نفسي مافي نفس مولانا . فأنشد الخليفة قول المتنبي :

واذا لم يكن من الموت بد　　　فمن العجز أن تموت جبانا

ثم انه تجهز ... وخرج وخرجنا معه .

قال مؤيد الدين سديد الدولة ابن الانباري :

لما قتل الخليفة المسترشد بالله احضرنا السلطان مسعود ـ وكان نقيب العلويين قد مات بقلعة سرجهان ودفن هناك ، فلما حضرنا عنده قال : ما الرأي وما التدبير في امر الخلافة ، ومن ترون ؟ فقالوا : « يا مولانا الخلافة لولي العهد ـ يعني الراشد بالله ـ وقد بايعه الناس ببغداد ، وجلس واستقر . وبويع له من قبل قتل ابيه بولاية العهد وبويع له الآن بالخلافة » .

فقال السلطان : « ما الى هـذا سبيل ، ولا أقره عليها ، فانه يحدث نفسه بالخروج مثل ابيه المسترشد ، ومن حين تولي ابيه لم يترك الخروج علينا ، كان قد خرج على اخي محمود مرتين ، وعليّ مرة ، وهذه اخرى . وتم عليه ما تم . وبقيت علينا شناعة عظيمة ، وسبه الى آخر الدهر ، فانه يقال ، قتلوا الخليفة ، وهم كانوا السبب في عودة الخلافة الى هذا البيت . ولا اريد يلي الامر إلا رجل لا يدخل نفسه في غير امور الدين ، ولا يجند ولا يجمع ولا يخرج علي ولا على اهل بيتي ، وفي دار الخلافة جماعة ، فاعتمدوا على شيخ منهم صاحب عقل ورأي وتدبير يلزم نفسه ما يجب من طاعتنا ، ولا يخرج من داره ، ولا تعرجوا عن هارون بن المقتدي بأمر الله فهو شيخ كبير ، ولا يرى الفتنة ، وقد اشار به عمي سنجر » .

قال مؤيد الدين ابن الانباري :ـ

« وارسل السلطان مسعود الى عمه السلطان سنجر يستشيره فيمن يولي الخلافة فأرسل اليه يقول : « لا تولي إلا من يضمنه الوزير وصاحب المخزن وابن الانباري » فلما وصل السلطان الى همدان اجتمع بنا واشار بهارون بن المقتدي ، وعرفنا ما أمر به عمه السلطان سنجر . فقـال الوزير : « اذا كان الامر يلزمنا ، فنحن نولي من نريد ، وهو الزاهد الدّين الذي ليس في الدار مثله » فقال السلطان : « من هو ? » فقال : « الامير ابو عبدالله محمد بن المستظهر بالله » فقال : « وتضمن ما يجري منه ? » فقال الوزير : « نعم » ... فقال السلطان : « ذلك اليكم » وكتموا الحال لئلا يشتهر الامر فيقتل الراشد بالله عمه الامير ابا عبدالله ، ثم رحل السلطان والجماعة نحو بغداد .

قال مؤيد الدين ابن الانباري كاتب الانشاء : « لما كان هذا اليوم - وهو يوم الاحد سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة ، اعني سنة ثلاثين وخمسمائة - مضى الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي الى دار السلطان ونحن معه . واخذ السلطان خط الوزير وخطوطنا بالضمان ، صرنا الى دورنا ، واصبحنا يوم الاثنين ، فحضرنا عند الامير ابي عبدالله محمد بن المستظهر بالله ، وتحدث الوزير معه ، وتحدثنا معه ، وشرطنا عليه القيام بأمر الخلافة وطاعة السلطان ، وأعلمناه اننا قد ضمنا للسلطان جميع ما اقترحه علينا ، فرضي بذلك . وانفصلنا عنه ، ومضينا الى السلطان وأعلمناه ما جرى ، وانه رضي بما اشترطنا عليه .

فقال السلطان : « اذا كان كما قلتم فبايعوه » فلما كان الغد ، صعدنا الى الدار فأخرجنا منها اشياء من الآلات التي تصلح للغناء ، واشياء لا تليق ، وشهد جماعة من اهل الدار ان الراشد كان يشرب الخمر ، فأفتى العلماء بخلعه ، وحكم القضاة بذلك ، فخلعوه عن الخلافة .

ودخلت الى الامير ابي عبدالله محمد انا والوزير وصاحب المخزن ، وتحدثنا معه وناولته رقعة مما يلقب به ، فكان فيها ، المقتفي بأمر الله ، والمستضيء بنور الله والمستجير بالله . فقال الخليفة : « ذلك اليكم » ثم قال لي الخليفة : « ماذا ترى ؟ » فقلت : « المقتفي لامر الله » فقال : « مبارك » ثم مد يده فأخذها الوزير وقبلها وقال : « بايعت سيدنا ومولانا الامام المقتفي لأمر الله اميرالمؤمنين على كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - واجتهاده » .

ثم أخذها صاحب المخزن وقبلها وبايعه على مثل ذلك . ثم أخذت يده وقلت بعد ان قبلتها : « بايعت سيدنا ومولانا الامام المقتفي لامر الله اميرالمؤمنين على ما بايعت عليه اباه واخاه وابن اخيه في ولاية عهده » .

قال : ثم قمت من عنده ، ودخل امراء الدار وبايعوه ، ودخل العلماء والقضاة والفقهاء واكابر الناس اجمع فبايعوه . ثم حضر السلطان مسعود عنده ، وكلمه المقتفي لامر الله بكلام وعظه فيه . وعرفه ما يلزمه من طاعة الخلافة وأمره بالرفق بالرعية والاحسان اليهم ، وخوفه عاقبة الظلم . فبايعه السلطان وقبل يد الخليفة ، ورجع الى دار السلطنة .

حديث زين الدين أبي القاسم علي المعروف بحاجب الباب :

ولما احس الخليفة الراشد بالله بقوة السلطان مسعود ، وعلم انه لابد ان يولي الخلافة غيره ، جمع الامراء من اهل بيته - الذين هم في الدار - وجمعهم في سرداب ، وتقدم بأن يطبق عليهم .

فحكى ابوالقاسم علي المعروف بحاجب الباب : « انه لما جمعهم الراشد في السرداب استدعاني ، واشار الى سيف بين يديه وقال : « يا علي خذ هذا السيف » واخذ بيده سيفاً آخراً . وقال : « احذر ان يسبق سيفي سيفك . فاني اريد ان اخرج كل

من في السرداب واقتل الجميع ، حتى لا يبقى من يصلح للخلافة ، فان هؤلاء ربما دخلوا وولوا غيري » .

ثم أمر بفتح السرداب . واذا الخبر قد جاءه ان عماد الدين اتابك زنكي قد هرب ونهب الحريم الطاهري وتوجه الى الموصل فرمى السيف من يده ودخل الدار وأخرج معه من الجواهر ما لا يعرف قيمته ، واعطاني مثل ذلك ، واخرج معه قاضي القضاة الزينبي ، وجلال الدين ابا الرضا بن صدقة ـ وكان قد استوزره ـ وخرجت معه . ولحقنا بعماد الدين زنكي على طريق الموصل .

ووصل الراشد وصحبته عماد الدين زنكي الى الموصل .

انظر اصل هذا الحديث في تاريخ ابن الفارقي ـ القسم الذي لا زال مخطوطاً بعد .
وقد نقل ابن واصل هذا الحديث عن تاريخ ابن الفارقي انظر مفرج الكروب جـ ١ ص ٥٨ ـ ٦٨ .
وكذلك قام امدروز بنقل هذا الحديث عند تحقيقه لذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ .

ملاحق الباب الثالث

صورة العهد الذي كتبه الخليفة المقتفي لأمر الله للجاثليق الرئيس الديني الأعلى للمسيحيين

ولما أنهيت حالك الى اميرالمؤمنين ، وانك امثل اهل ملتك طريقة واقربهم الى الصلاح مذهباً . وحضر جماعة من النصارى الذين يرجع اليهم في استعلام سيرة امثالك فاتفقوا باجتماع من آرائهم واهوائهم على اختيارك لرياستهم ومراعاة شؤونهم وتدبير وقوفهم ، والتسوية في عدل الوساطة بينهم . قويهم وضعيفهم . وسألوا ايضاً نصك عليهم بالاذن الذي به تثبت قواعده ... وبرز الاذن الامامي الاشرف لا زالت اوامره معضودة بالتوفيق بترتيبك جاثليقاً لنسطوري النصارى بمدينة السلام ومن تضمنته ديار الاسلام ، وزعيماً لهم ومن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد ، وكل حاضر في هذه الطوائف وباد ، وانفرادك عن كافة اهل ملتك بتقمص اهبة الجثلقة المتعارفة في اماكن صلواتكم ومجامع عباداتكم غيرمشارك في هذا لانسان ، ولا مفسح في التحلي به لمطران او اسقف او شماس ، حطاً لهم عن رتبتك ، ووقوفاً بهم دون محلك ، وان ولج احد في باب المجادلة . . وأبى النزول على حكمك . . كانت العقوبة به حائقة حتى تعتدل قناته ، وأمر بحملك على مقتضى الامثلة الامامية في حق من تقدمك من الجثالقة ... والحياطة لك ولاهل ملتك في الانفس والاموال والحراسة للكافة بصلاح الاحوال واتباع العادة المستمرة في مواراة امواتكم وحماية بيعكم ودياراتكم ... وان يقتصر في استيفاء الجزية على تناولها من العقلاء والواجدين

من رجالكم دون النساء ومن لم يبلغ الحلم من اطفالكم ، ويكون استيفاؤها نوبة واحدة في كل سنة من غير عدول فى قبضها عن قبضة الشرع المستحسنة وفسح « هكذا في النص » في ان تتوسط طوائف النصارى في محاكماتها فتأخــــذ النصف من القوى للمستضعف » .

عن ـ ادم متز ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري .
تعريب محمد عبدالهادي ابو ريدة ص ٥٩ ـ ٦٠
نقلاً عن تذكرة ابن حمدون التي نشرها امدروز

صورة العهد الذي كتبه الخليفة الناصر لدين الله لرأس مشية اليهود :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الواجب شكره الغالب امره العلي شانه القوي سلطانه السابغة نعمته البالغة حكمته المتفرد بالجلال والاقتدار ، المصرف على مشيئته مجاري الاقضية والاقدار ، الدال على وحدانيته ببديع فطرته المانع لعجائب صنعته من ان يتقدر في الاوهام كنه معرفته الهادي الى سبيل الرشاد من يشاء من خلقه ، الهامي سحاب فضله على كل مقر بربوبيته عارف بحقه ، الذي اصطفى محمداً ـ ص ـ وآله من اكرم ارومة وأعلى محتد وجرثومة وأشرف العرب منصباً وأعزها قبيلاً واوضحها في المكارم سبيلاً وارسله الى الاحمر والاسود نبياً واختاره من اصناف الامم عربياً وأيده بالحكم امياً وجعله منصوراً بملائكته محمياً وابتعثه بالبرهان الساطع والدليل القاطع ، ونسخ بشريعته المطهرة الملل السالفة والشرائع . فلم يزل ـ ص ـ وآله ـ بأمر الله صادعاً ولأنف الباطل جادعاً . ولما أنزل الله مبلغاً ولجهده في نصح الامة مستفرغاً ، فصلى الله عليه وعلى آله وعلى سلالة عمه ووارثه وصنو ابيه العباس الذي طهره الله من الادناس وفرض مودتهم وطاعتهم على جميع الناس ، الخلفاء الراشدين وأئمة الحق المجتهدين صلاة لا انقشاع لغمامها ولا انقطاع لتواصل دوامها والحمد لله الذي اصار الى خليفته في ارضه ونائبه في خلقه الامام المفترض الطاعة على سائر الانام الناصر لدين الله امير المؤمنين ووارث الانبياء والمرسلين حجة الله على الخلق اجمعين من مواريث انبيائه ومآثر خلفائه في ارضه وامنائه ما هو احق بحيازة مجده وارتداء علائه ، واخذ ميثاق طاعته على الامم في الازل ، وألزم الاواخر منهم ما ألزم الاول وفرض على خلقه الاقتداء به والائتمام « بامامته » (١) . وجاز له وراثة الخليفة عن الخليفة والامام عن الامام زاده الله شرفاً الى شرفه وأدام على العالمين ما منحهم به من شمول عدله وحصانة كنفه

(١) أضيفت هذه الكلمة لاكمال المعنى الذي يقتضيه سياق الكلام .

فالمسلم والذمي والمعاهد في ظل اياديه الشريفة وادعون ، وفي رياض الامانة راتعون وبما يكلأهم من عين رأفته اليقظى هاجعون ، لايكدر لهم شرب ولا يذعر لهم سرب وحكم عدله يوجب النظر العام في مناظم امرهم وجوامع مصالحهم ورعاية جمهورهم لما وكله الله تعالى اليه من سياسة عباده ، وناطه بشريف آرائه واجتهاده .

ولما ضرع دانيال بن العازر بن هبة الله في ترتيبه رأس مشية اليهود عوضاً عن العازر بن هلال بن فهد الدارج على قاعدته وجارى عادته ، وانتهى ما يتحلى به عند اهل نحلته ، ويتصف به ، واستحقاقه لماضرع فيه بحسن طريقته فيهم وسلامة مذهبه رسم ـ اعلى الله تعالى ـ المراسم الشريفة المقدسة الممجدة المكرمة النبوية الامامية الطاهرة الزكية الناصرة لدين الله زادها الله جلالاً ممتد الرواق ، ونفاذاً في الاقطار والآفاق ترتيبه رأس مشية اليهود على عادة الدارج المشار اليه ، حيث كان ابن الدستور رأس مشية اليهود على عادة الدارج المشار اليه ، حيث كان ابن الدستور رأس مشية ايضاً ، وان يكون له النظر في ما كان للدارج النظر فيه والولاية عليه من جميع الاماكن التي جرت عادته بتوليها والتصرف فيها ، وان يتميز عن نظرائه واشكاله باللبسة التي عهدت لامثاله . وسبيل طوائف اليهود وحكامهم بمدينة السلام واكناف العراق ، الانتهاء في ذلك الى المأمور به والرجوع الى قوله في توسط امورهم والعمل بموجبه ، وان يخرجوا اليه من الرسوم التي جرت عادة من تقدمه بها بالاماكن التي كان يتصرف فيها من غير معارضة له في ذلك مع قيامه في ما يأتيه ويذره بشرائط الذمة والتزامه ومحافظته بالامتثال وبواجب الاعتصام والاجلال ان شاء الله تعالى وبه الثقة .

وكتب في تاسع ذي القعدة من سنة خمس وستمائة والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الذي ختم النبيين وهو سيد المرسلين المصطفى على سائر الخلق اجمعين صلاة دائمة الى يوم الدين » .

عن ابن الساعي ـ الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٦٦-٢٦٩

ملاحق الباب الرابع ـ الرسالة الأولى

رسالة صلاح الدين إلى الديوان يشرح أسباب زحفه إلى الشام :

تذكرة مباركة ولم تزل الذكرى للمؤمنين نافعة ، ولقوارض الشك دافعة ، ضمنت اغراضاً يقيدها الكتاب ، الى ان يطلقها الخطاب . على ان السائر سيار البيان والرسول يمضي على رسـل التبيان ، والله سبحانه يسدده قائلا وفاعلا ويحفظه بادئاً وعائداً ومقيما وراجلا .

الامير الفقيه شمس الدين خطيب الخطباء ـ ادام الله نعمته وكتب سلامته واحسن صحابته ـ يتوجه بعد الاستخارة ويقصد دار السلام ، والخطة التي هي عشر بيضة الاسلام ، ومجتمع رجاء الرجال ، ومتسع رحاب الرحال ، فاذا نظر تلك الدار الدار سحابها ، ومشافه بالنظر معالم ذالك الحرم المحرم على الخطوب خطابها ، ووقف أمام تلك المواقف التي تحسد الارجل عليها الرؤوس ، وقام بتلك المنازل التي تنافس الاجسام فيها النفوس ، فلو استطاعت لزارت الارواح محرمة من اجسادها وطافت بكعبتها متجردة من اغمادها ، فليمطر الارض هناك عنا قبلا تخضلها باعداد لا نحصلها ، وليسلم عليها سلاماً نعتده من شعائر الدين اللازمة ، وسنن الاسلام القائمة وليورد عنا تحية يستنزلها من عند الله تحية مباركة طيبة ، وصلاة تخترق انوارها الاستار المحجبة ، وليصافح عنا بوجهه صفحة الثرى ، وليستشرف عنا بنظره فقد ظفر بصباح السرى ، وليستلم الاركان الشريفة ، فان الدين اليها مستند ، وليستدم الملاحظات اللطيفة ، فان النور منها مستمد ، واذا قضى التسليم وحق اللقاء ، واستدعى الاخلاص

جهد الدعاء ، فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى وجواري امور إن قال منها كثيراً فأكثر منه ما جرى ، وليشرح صدراً منها لعله يشرح منا صدراً ، وليوضح الاحوال المستسرة فان الله لا يعبد سراً :

ومن الغرائب ان تسير غرائب　　في الارض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الظما　　والماء فوق ظهورها محمول

فانا كنا نقتبس النار بأيدينا ، وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا ، وغيرنا يستمير ، ونلقى السهام بنحورنا ، وغيرنا يغير التصوير ، ونصافح الصفاح بصدورنا ، وغيرنا يدعي التصدير ، ولابد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي ترد به الغصوب وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الالسنة كما أخذنا بحظ القلوب ، وما كان العائق إلا انا كنا ننظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة ، يضاهي ابتداءنا بالخدمة . وإيجاباً للحق يشاكل ايجابنا للسبق ، الى ان يكون سحابها بغير يد مستنزلا وروضها بغير غرس مطفلا . كان اول امرنا انا كنا في الشام نفتتح الفتوحات مباشرين بأنفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لعساكره نحن ووالدنا وعمنا . فأي مدينة فتحت ، او معقل ملك او عسكر للعدو كسر ، او مصاف للاسلام معه ضرب ، فما يجهل احد ، ولا يجحد عدو ، انا نصطلي الجمرة ، ونملك الكسرة ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقابلة ، وندبر التعبئة الى ان ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ، ولا يضرنا ان يكون لغيرنا ذكرها . وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الاحوال عليه فيها من سوء التدبير ، وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير ، وان النظام قد فسد والاسلام بها قد ضعف عن إقامته كل قائم بها وقعد ، والفرنج قد احتاج من يدبرها الى ان يقاطعهم بأموال كثيرة لها مقادير خطيرة ، وان كلمة السنة بها وان كانت مجموعة ، فانها مقموعة واحكام الشريعة وان كانت مسماة ، فانها متحاماة ، وتلك البدع بها على ما يعلم ، وتلك الضلالات

فيها على ما يفتى منها بفراق الاسلام ويحكم ، وذلك المذهب قد خالط من اهله اللحم والدم ، وتلك الانصاب قد نصبت آلهة تتخذ من دون الله تعظم وتفخم ، فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غره تقلب الذين كفروا في البلاد .

فسمت هممنا دون همم ملوك الارض الى ان نستفتح مقفلها ونسترجع للاسلام شاردها ونعيد على الدين ضالته منها فسرنا اليها بعساكر ضخمة ، وجموع جمة ؟ وبأموال انتهكت الموجود ، وبلغت منها المجهود ، وأنفقناها من خالص ذممنا وكسب ايدينا ومن اسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا ، فعرضت عوارض منعت وتوجهت للمصريين حيل باستنجاد الفرنج تمت : « ولكل أجل كتاب » . ولكل أمل باب .

وكان في تقدير الله سبحانه انا نملكها على الوجه الاحسن ، ونأخـــذها بالحكم الاقوى الامكن ، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها وحبطها وعلم ان استئصال كلمة الاسلام محطها ، وكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون من الشام في هذا الاوان ، بأنا لم ندرك الامر وإلا خرج من اليد ، وان لم ندفع غريم اليوم لم يمهل الى الغد ، فسرنا بالعساكر الموجودة والامراء الاهل المعروفة الى بلاد قد تمهد لنا بها امران ، وتقرر لنا فيها في القلوب ودان : الاول لما علموه من ايثارنا المذهب الاقوم ، واحيـاء الحق الاقدم ، والآخر لما يرجونه من فك اسارهم واقالة عثارهم ، ففعل الله ما هو اهله ، وجاء الخبر الى العدو فانقطع حبله ، وضاقت به سبله ، وأخرج عن الديار بعد ان كانت ضياعها ورساتيقها وبلادها وأقليمها قد نفذت فيها اوامره ، وخفقت عليها صلبانه وأمن من ان يسترجع ما كان بأيديهم حاصلًا وان يستنقذ ما صارخ ملكهم داخلًا ، ووصلنا البلاد وبها اجناد عدوهم كثير، وسوادهم كبير واموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الاسلام اقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة في السر انفذ من العزيمة في الجهر ، وبها راجل من

السودان يزيد على مائة الف رجل كلهم اغنام اعجام ، إن هم إلا كالانعام لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره ، ولا قبلة إلا ما يتوجهون اليه من ركنه ، وبها عسكر من الارمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية كانت لهم شوكة وشكه ، وحمية وحمة ، ولهم حواش لقصرهم من بين داع تلطف في الضلال مداخله ، وتصيب العقول مخاتله ، ومن بين كتاب اقلامهم تفعل افعال الاسل ، وخدام يجمعون الى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر عليها الصغير ، ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع خطرت الضمير ، فكيف لحظات التدبير . هذا الى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول الى غير مراد الله في التنزيل ، وكفر سمي بغير اسمه ، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه .

فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار للأعمار ، بعجائب تدبير ، لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقرير ، لا تحملها الاساطير ، ولطف توصل ما كان في حيلة البشر ولا قدرتهم إلا اعانة المقادير ، وفي اثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة الى بلبيس ، ودفعة الى دمياط ، في كل منهما وصلوا بالعدو المجهر والحشد الاوفر ، وخصوصاً في نوبة دمياط فانهم نازلوها بحراً في الف مركب مقاتل وحامل ، وبراً في مائتي الف فارس وراجل ، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويماسونها ويصابحونها ، القتال الذي يصلبه الصليب ، والقراع الذي ينادى به من مكان قريب ، ونحن نقاتل العدوين : الباطن والظاهر ، ونصابر الضدين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين ومن الفرنج ومن ملك الروم ومن الجنويين وأجناس الروم لان انفارهم تنافرت ، ونصاراهم تناصرت ، وأناجيل طواغيتهم رفعت ، وصلب صلبوتهم أخرجت ، وشرعنا في تلك الطوائف من الاجناد والسودان والارمن فأخرجناهم من القاهرة تارة بالاوامر

المرهقة لهم ، وبالذنوب الفاضحة منهم ، وبالسيوف المجردة بالنار المحرقة ، حتى بقي القصر ومن به من خدمه قد تفرقت شيعه ، وتمزقت بدعه ، وخفتت دعوته وخفيت ضلالته . فهنالك تمت لنا اقامة الكلمة والجهر بالخطبة والرفع للواء السواد الاعظم ، والجمع لكلمة السواد الاعظم ، وعاجل الله الطاغية الاكبر بفنائه ، وبرأنا من عهدة يمين كان حنثها أيسر من اثم ابقائه ، إلا انه عوجل لفرط روعته ووافق هلاك شخصه هلاك دولته .

ولما خلا ذرعنا ، ورحب وسعنا نظرنا في الغزوات الى بلاد الكفار ، فلم تخرج سنة إلا عن سُنة أقيمت فيها براً وبحراً ، ومركباً وظهراً ، الى ان اوسعناهم قتلاً وأسراً ، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً وفتحنا لهم معاقل ما خطر اهل الاسلام فيها منذ اخذت من ايديهم ، وما اوجمت فيها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها اعاديهم ، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند ، وهو المسلوك منه الى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقاً ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً ، فكادت القبلة ان يستولى على اصلها ، ومساجد الله ان يسكنها غير اهلها ، ومقام الخليل صلوات الله عليه ان يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول شرفه الله ان يتطرق من لا يدين بما جاء به من الاسلام ، ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلاً للجهاد وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد ، فلو شرح ما تم بها للمسلمين من الاثر الجليل وما استد من خلاتهم ، وأحرق من زروع المشركين ورعى من غلاتهم الى ان ضعفت ثغورهم ، واختلت امورهم ، لاحتيج فيه الى زمن يشغل عن المهات الشريفة لسماع مورده ، وايضاح مقصده .

وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال وله آثار في الاسلام وثار طالبه النبي

عليه الصلاة والسلام ، لانه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل ما تستر عليه نفس ، وكان ببدعه دعا الى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخـذ اموال الرعايا المعصومة واجتاحها ، وأحـل الفروج المحترمة وأباحها ، فأنهضنا اليه اخانا بعسكرنا بعد ان تكلفنا له نفقات واسعة ، وأسلحة رائعة ، وسار فأخذناه ولله الحمد ، وأنجح الله فيه القصد ، ووردتنا كتب عساكرنا وامرائنا بما نفذ في ابن مهدي وبلاده المفتوحة ومعاقله المستضافة ، والكلمة هنالك بمشيئة الله الى الهند سارية والى ما لم يفتض الاسلام عذرته منذ اقام الله كلمته متمادية ولنا في المغرب اثر اغرب ، وفي اعماله اعمال دون مطلبها كما يكون المهلك دون المطلب ، وذلك ان بني عبدالمؤمن قد اشتهر ان امرهم امر ، وملكهم قد عمر ، وجيوشهم لا تطاق ، وأوامرهم لا تشاق ونحن والحمد لله قد ملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا عسكراً بعد عسكر رجع بنصر بعد نصر ، ومن البلاد المشاهير ، والاقاليم الجماهير ـ تلك برق ـ قفصه ـ قسطيلية ـ توزر . كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بالله سلام الله عليه ، ولا عهد للاسلام باقامتها ، وتنفذ فيها الاحكام بعلمها المنصور وعلامتها وفي هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهد وفود الامصار ، مقداره سبعون راكباً كلهم يطلب السلطان بلده تقليداً ، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً .

وقد صدرت عنا بحمد الله تقليدها ، والقيت الينا مقاليدها ، وسيرنا الخلع والالوية ، والمناشير بما فيها من الاوامر والاقضية .

واما الاعداء الذين يحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلونها بالممالك العظام والعزائم الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية والجبار الاكفر ، وصاحب المملكة التي اكل الدهر وشربت ، وقائم النصرانية التي حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، وجرت لنا معه غزوات بحرية ، ومناقلات ظاهرية وسرية ، وكانت له

في البلاد مطامع منها ان يجبى خراجا ، ومنها ان يملك منها فجاجاً ، وكانت غصة لا يسيغها الماء ، وداهية لا ترجى لها الارض بل السماء ، فأخذنا ولله الحمد بكظمه ، وأقمناه على قدمه ، ولم نخرج من مصر الى ان وصلتنا رسله في جمعة واحدة في نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح ولقاء السلاح ، والانتقال من معاداة الى مهاداة ، ومن مناضحة الى مناصحة ، حتى انه انذر بصاحب صقلية واساطيله التي يرد ذكرها ، وعساكره التي لم يخف امرها .

ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية هذا كان حين علم ان صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وهزما وكسرا ، اراد ان يظهر قوته المستقلة بمفردها وعزمته القائمة بمجردها ، فعمر اسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه ، فانه الى الآن منذ خمس سنين يكثر عدته ، وينتخب عدته ، ويجتلب مقاتلته الى ان وصل منها في السنة الخالية الى الاسكندرية أمر رائع ، وخطب هائل ما اثقل ظهر البحر مثل حمله ، ولأملأ صدره مثل خيله ورجله ، ما هو اقاليم نقله ، وجيش ما احتفل ملك بنظيره لولا ان الله خذله ، ولو ذهبنا نصف ما ذهب فيه من ذهب ، وما أخذ منه من سلاح وخيل وعـدد ومجانيق ، ومن اسر منه من خيالة كبار ، ومقدمين ذوي اقدار وملوك يقاطعون بالجمل التي لها مقدار ، وكيف أخذه وهو في العدد الاكثر بالعدد الاقل من رجالنا ، وكيف نصر الله عليه مع الاصعب من قتاله بالاسهل من قتالنا ، لعلم ان عناية الله بالاسلام تغنيه عن السلاح وكفاية الله لهذا الدين تكفيه مؤونة الكفاح .

ومن هؤلاء الجنويين الذين يسربون الجيوش ـ البنادقة ـ البياشنة ـ الجنوية كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضدهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبة ، ومامنهم

الآن إلا من يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهـداء طرائف اعماله وبلاده وكلهم قد قررت معه المواصفة وانتظمت معه المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ونؤثر ولا يؤثرون .

ولما قضى الله بالوفاة النورية . وكنا في تلك السنة على نية الغزو ، والعساكر قد ظهرت والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج بانيـــاس وأشرفوا على اجتيازها ، ورأوها فرصة مدوا اليها يد انتهازها ، واستصرخ بنا صاحبها للممانعة ، واستنهضنا لتفريج الكرب الواقعة ، فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها ، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها ولا قبل كثيرها ولا قليلها ، ثم عدنا الى البلاد فتوافت الينا الاخبار بما الدولة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الامور وتقطعها ، وان كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، كل جانب قد طمح اليه طالب ، والفرنج قد بنوا بلاداً يتحيفون بها الاطراف الاسلامية ويضايقون بها البلاد الشامية وامراء الدولة قد سجن اكابرهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الذين للمتوفي اغرار خلقوا للأطراف لا للصدور ، وجعلوا للقيام لا للجلوس في المحفل المحصور ، وقد مدوا الاعين والسيوف والايدي ، وساءت سيرتهم في الامر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً ، ويرفع عنهم ذخيرة كانت للاسلام ، ويفرج لهم عن اسير من اكابر الكفار وكان مقامه مما يدفع شراء ، ولا يزيد نار الكفر جمراً ، فكثرت مكاتبات اهل الآراء الصائبة ، ونظرنا للاسلام ولبلاد الاسـلام في العاقبة ، وعرفنا ان البيت المقدس ان لم تتيسر الاسباب لفتحه وأمر الكفر ان لم يجرد العزم في قلعه وإلا ثبتت عروقه ، واتسعت على اهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهمم القادرين بالقعود آثمة ، وانا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب ، واذا جاورناه كانت

المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة والحيل مستريحة ، والعساكر كثيرة ، والجموع متيسرة ، والاوقات مساعدة ، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة ، وامور مختلة ، وآراء فاسدة ، وامراء متحاسدة ، واطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد ابيه وكفلناه كفالة من يقضي الحق ويوفيه ، فانا به اولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويظهرون الوفاء بخدمه وهم عاملون بظلمه .

والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة ، ويؤكد الدعوة ويجمع الامة ، ويحفظ الالفة ، ويضمن الزلفة ، ويفتح بقية البلاد ، ويطبق بالاسم العباسي كل ما تخطئه العهاد ، ونحن نقترح على الاحكام المعهودة ، وننتظر أن يأتي الانعام على الغايات المزيدة وهو تقليد جامع لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا وسيوف عساكرنا ، ولمن نقيمه من أخ وولد من بعدنا ، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً ، مع ماينعم به من السمات التي يقتضيها الملك ، فان الامارة اليوم بحسن نيتنا في الخدمة تصرف بأقلامنا ، وتستفاد من تحت اعلامنا ، ويتبين ان امراء الدولة النورية يحتاج اليهم في فتح البلاد القدسية ضرورة : لانها منازل العساكر . ومجمع الانفار والعشائر ، فمتى لم يكن عليهم يد حاكمة ، وفيهم كلمة نافذة ، منعهم ولاة البلاد ، وبغـاة العناد ، وبالجملة فالشام لا ينتظم أمره بمن فيه ، وفتح بيت المقدس ليس قرن يقوم به ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرناً لايزال يحرم السيف حتى يحلوا ، حتى إنا لما جاورناهم في هذا الامد القريب ، وعلموا ان المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصليب ، استشعروا بفراق بلادهم ، وتهادوا التعازي لارواحهم بأجسادهم ، واذا مدد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع فى غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل

مسلم تحت برده واستنقذنا اسيراً من المسجد الذي اسرى الله اليه بعبده .

هذا ما لاح طلبه على قدر الزمان والانفس تطلب على مقدار الاحسان ، فان في استنهاض نيات الخدام بالانعام ما يعود على الدولة منافعه ، وتنكأ الاعداء مواقعه وتبعث العزائم من موت منامها ، وتنفض عن البصائر غبار ظلامها ، والله تعالى ينجد ارادتنا في الخدمة بمضاعفة الاقتدار ومساعدة الاقدار ان شاء الله تعالى .

القلقشندي - صبح الاعشى ج ١٣ ص ٨١ - ٩٠ .

الرسالة الثانية

رسالة صلاح الدين إلى الديوان يشرح أسباب زحفه إلى الموصل

خدم الخادم متوالية الى الابواب الشريفة خلد الله سلطانها شارحاً لاحواله ، ومعتداً بها من صالح اعماله ، ومتوقعاً من الاجوبة عنها ما يهيء له من امره رشداً ، ويفرق الاعداء اذ كادوا يكونون لبداً . فان الآراء الشريفة لولم تفصح عنها الانشاءات وتتضمنها الاجابات والابتداءات لافصحت عنها موالاة الخادم التي استفتحت الدولة بعقائل الفتوح قبل خطبتها ، وردت الاسماء الشريفة الى اوطانها من المنابر بعد طول غربتها . فتلك الاعمال كالهجرة ، ولكل مهاجر ما هاجر اليه ، ونية المرء ثوبه ، فلا يلبس إلا ما خلعته النية عليه ، وكتاب الخادم الآن من البيرة ، بعدما قطع الفرات ، وكان من لا تقرب عليه العزائم ما هو بعيد ، ولا يلقى السمع وهو شهيد يظن ان ساكن النيل يحول الفرات بينه وبين قصده ، وانه ينسى عزيمة رأيه اذا ذكر طول مدته وهول مده ، وكيف ما كان هذا المخرج المحرج فقد احسنت الى الخادم اساءته اليه ، وقربه من محل دار السلام بل الاسلام ، فما اكثر ما قال السلام عليه ، واستشرف جنانه من جنابه أمناً وذعراً اوجبتها الموالاة والمهابة ، وطالعت عيناه أنواء وانواراً تنسب الى بركاتها كل سحابة ، وكاد ينزل عن السروج والاكوار ويقبل الثرى لاجل شرف الجوار ، ويستنفذ علته ماء الفرات لانه يمر بتلك الديار ، ويقرأ من صفائه صفاء تلك الخواطر العظيمة الاخطار ، ومن عذوبته عذوبة ذلك الانعام الذي هو أعم واغمر للأقطار من القطار ، وتنور دار السلام من منزلته ، فأدناه النظر

العالي ، واستلفته ماله خوز الفوز بما قربه نجياً من قربه ، والآمال أمالي ، والله تعالى يشرف ارضاً هو واطيها ويرعى سروحاً هو كاليها ، ويسعد به امة هو بارها بطاعة من هو باريها .

ولما تحقق الخادم ان المواصلة قد واصلوا الفرنج مواصلة اخلصوا فيها الضمائر ، ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر ، وخصمتهم خطوط الايدي المتمسكة بعصم الكوافر وعقدوا معهم عقداً شهده من هو حاضر ، ونقله الى من سمعه من هو ناظره . وكان عقدهم احدى عشرة سنة ، والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار ، على ان تسلم ثغور المسلمين الى الكفار ، منها بانياس وشقيف تيرون ، وخبيس جلدك ، وأسارى الفرنج في كل بلدة بأيديهم ، وفي كل بلد يسترجعونه من الخادم مساعدة الفرنج .

ولما تم لهم هذا العقد ، وحملوا الى الفرنج ذلك النقد ، ظنوا ان الحق يجادله الباطل فيدحضه ، وان يد الكفر تنبسط الى الاسلام فتقبضه ، وان الخادم لا يمكنه ان يتوجه اليهم ، إلا ان يكون للفرنج سلماً . ولا يستطيع ان يقسم العساكر فيجعل بازاء الفرنج قسما ، وبازائهم قسما : وعملوا على هذا الوهم ، وبنوا على هذا الحكم ، استنهضوا الفرنج على تناقل الخطوة ، واستخرجوهم على ما بهم من كلوم الغزوة بعد الغزوة ، فتحاملت ارجل الكفار على ظلعها ، وخرجت على طمعها الى فزعها ، وانفقت في رجالها مالاً حملوه اليهم جماً ، وجرت الى الاسلام جيشاً جهزه من يدعي الاسلام لفظاً ويفارقه حكما ، وتواعد المواصلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب ويطلبها الفرنج من جانب . ونظروا فيما يوصل المشاة الى الخادم ، ولم ينظروا للاسلام في العواقب ، فوصل المواصلة الى نصيبين مجدين محفلين ، وحركوا الفرنج للخروج الى الشام متطرفين ومتوغلين ، فلا جرم ان امراء جانبهم وخواص صاحبهم لم يسعهم المروق من الدين ، ولا الخروج عن إمرة الموحدين ، فأرضوا الله بأسخاطهم

وأشفقوا على دينهم اشفاقاً دل على تحرزهم له واحتياطهم ، فاتبعوا الحق وسلكوا سبيله ورفع لهم الهدى مناره فاقتفوا دليله ، لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، فاستعان الخادم عليهم بالله الذي استعانوا على دينه بأعدائه . ولما رأى انهم قد أملوا النصر من ارضهم ، أمله من سمائه ، فرتب الخادم في رأس الماء بدمشق بازاء الفرنج المملوك فرخشاه ابن اخيه ، وأبقى عسكر الشام وحامية فيه ، واستنهض اخاه من مصر الى ما يليه من بلاد الكفر فنهض وقام الخادم بما أقامه له والله عز وجل بما فرض .

وسار الخادم بالعسكر المصري الى هذا الجانب الذي هو الآن فيه ، وكان أيسره يكفيه ، وتثاقل في الطريق انتظاراً لان يأتوا البيوت من ابوابها ، ويفرجوا عن عن الولاية ايدي اغتصابها ، ويعتذروا الى السيف بألسنة يشفق على رقابها ، فأبوا الاباء ورأوا الملك إرثاً ما ادعوا فيه تقليد الخلفاء بل الآباء ، ولما قرب الخادم من الفرات وصل اليه صاحب حران بن زين الدين على كوجك ومقدم عسكرهم وابن امير معشرهم وكذلك صاحب سروج وصاحب البيرة . وكل بيده مفاتيح بلده وأمامه امان الخادم له قد استبدله من مقلده ووراءه عسكره على كمال عدده وعدده .

وتوالت كتب امرائهم الذين يأخذون اقطاعاتهم خدماً ومصانعات ورعاياهم الذين يأخذون اموالهم جبايات ومقاطعات ومكوساً وعشوراً واحتكارات يرغبون الى الخادم في الانقاذ ويحثونه في المسير على الاغذاذ ، ويشكون انهم مع جوار دار الخلافة المعظمة لا يسلك فيهم سننها ، ولا يقتفي فيهم شرائعها وسننها .

ونمى الى الخادم من تفاصيل المغارم التي تلزم الفريقين ، ويعدل بها عن اقصد الطريقين ، ما يروع السامع ويسمع الرائع ويسجل عليهم بالخلاف ، ويشهد لهم بالانحراف ، لانهم ان ادعوا تقليداً ، فقد نقضه كونهم ابتدعوا وما اتبعوا ونقضوا

وما افترضوا ، ومثلوا بالحق وما امتثلوا ، وامروا بكف الايدي وقد بسطوها وبأخذ الاموال من حلها وقد خلطوها ، وبرعاية امة النبي صلى الله عليه وسلم وقد اسخطوه فيها واسخطوها .

وابن الدعوة العباسية من رعاها لا من ادعاها . والعهود وصايا ، وما الاولى بها من سمعها بل من وعاها ، واي عهد لمن لا عهد له بالطاعة ، واي ولاية للأمور بأن يجمع اهل الفرقة ففرق اهل الجماعة .

فالجندي توكل الارض باسمه ولا شيء بيده ، والعامي يرفع الى السماء استغاثة ما لا يمهل الله عليه ، ولقـــد تعجب الخادم من اشغاف الانفس الغنية إلا انها فقيرة والارتفاق بتلك الطعم الجليلة وهي على الحقيقة الحقيرة ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ـ الآية ـ هـذا الى طامة اخرى لا تقر عليها الجنوب ولا تدر عليها الحلوب ولا ينام على سهر بارقها وان كان الحلوب . وهو ان الخادم بلغه انهم كاتبوا جهة من الجهات التي الدولة منحرفة عنها ، وبذلوا الطاعة لها وقد امروا بالامتناع منها .

وهذا نص في الخلاف لا يدخله التأويل ، وقول قد احاط به العلم فلا يختلجه التقويل ، وكل صغيرة من هذه الكبائر ، وكل واحد من هذا الجمع المتكاثر ينقض الولاية ويجرح العدالة ويسلب الرشد ويثبت الضلالة ، ويمضي نية الولي فيما هو له ماض ويبعث عزمه فيقضي ما هو قاض ، ويسخطه وكيف لا يسخط ، والمولى غير راض ، ويغيظه بما لا عذر له لمغتاض متغاض .

وما انهى الخادم ما اتصل به إلا الاوائل والاطراف ، وماعول إلا على ما صححته النفس دون ماخيله الارجاف ، واذ قد ساق الله الى هذه الولاية حظها من معدله كان الزمان بها طويلاً مطله ، وانشأها سحاب احسان كان بعيداً عليها هطله ، فقد كفيت

الخواطر الشريفة ما كانت به على اهتمامها ، كما يجب للأمة على امامها ، واليه بتفوض يد الله يرجع امرها ، وبيده يجلب نفعها ويجلى ضرها ، وقد تجددت للدولة الشريفة قوة واستظهار وبسطة واقتدار ، وسيف به يناضل من يسيء الجوار ، ولسان يجادل به من يريد الدار ، وكان الخادم طالع بوصول الاسطول المصري الى الشام الفرنجي وما فعله في موانيه وسواحله ، وما غنمه من مراكبه وقوافله .

وورد كتاب من مصر بأنه كسب بطسة فرنجية خرج من فيها هارباً من القسطنطينية لفتنة وقعت فيها بين رومها وفرنجها فقتل منهم خمسون الف فرنجي ، وأفلت منهم بطس منها هذه البطسة ، وفيها رجال اكابر ومقدمون لهم ذكر سائر ، وغنم المجاهدون منهم ما ملأ ايديهم من سبي وذخائر وانقلبوا بنعمة من الله وفضل وحازت القبضة من الاسارى ما يزيد على اربعمائة بعد من درج بالقتل .

ابو شامة ـ الروضتين ج ٢ ص ٢١ ـ ٣٢ .

الرسالة الثالثة

رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الناصر لدين الله ينبئه بانتصار حطين

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون » .
الحمد لله على ما انجز من هذا الوعد ، على نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد .

وعلى ان اجرى هذه الحسنة التي اشتمل على شبهها كرام الصحائف ، ولم يجادل عن مثلها في المواقف ، في الايام الامامية الناصرية زادها الله غرراً واوضاحا ، ووالى البشائر فيها بالفتوح غدواً ورواحا ، ومكن سيوفها في كل مأزق ، من كل كافر ومارق ، ولا اخلاها من سيرة سرية ، تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، واطال ايدي اوليائها لتحمي بالحقيقة حمى الحقائق ، وانجزها الحق وقذبه على الباطل الزاهق وملكها هوادي المغارب ومرامي المشارق ، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفها للبلاد مفاتح ، واطراف اسنتها لدماء الاعداء نوازح .

والحمد لله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وايده ، واظفر جنده الغالب وانجده وجلا به جلابيب الظلماء وجدد جدده ، وجعل بعد عسر يسراً ، وقد احدث الله بعد ذلك امراً ، وهون الامر الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطب الدين بقوله : « ولقد مننا عليك مرة اخرى » .

فالاولى في عصر النبي ـ ص ـ والصحابة ، والاخرى : هذه التي عتق فيها من

رق الكتابة ، فهو قد اصبح حراً . فالزمان كهيئة استدار ، والحق ببهجته قد استنار والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار ، وغسل ثوب الليل بما فجر الفجر من انهار النهار ، واتى الله بنيان الكفر من القواعد ، وشفى غليل صدور المؤمنين برقراق ماء الموردات البوارد ، انزل ملائكة لم تظهر للعيون الملاحظة ، ولم تخف عن القلوب الحافظة ، عزت سيما الاسلام بسومها ، وترادف نصره بمرد منها ، واخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم توأد فيها ، فكم اقدم بها حيزوم ، وركض فاتبعه سحاب عجاج مركوم ، وضرب فاذا ضربه كتاب جراح مرقوم ، ولا فان الحروب عقدت سجالا ، وانما جمعت رجالا ، وانما دعت خفافاً وثقالا ، فاما سيوف تقاتل سيوفاً ، او زحوف تقاتل زحوفاً ، فيكون حد الحديد بيد مذكراً وبيد مؤنثاً ويكون السيف في اليد الموحدة يغني بالضربة الموحدة ، وفي اليد المثلثة لا يغني بالضرب مثلثا ، وذلك انه في فئتين التقتا وعدوتين لغير مودة اعتنقتا ، وان هذه النصرة ان زويت عن ملائكة الله جحدت كراماتهم ، وان زويت عن البشر ، فقد عرفت قبلها مقاماتهم ، فما كان سيف يتيقظ من جفنه قبل ان ينبهه الصريخ ، ولا كان ضرب يطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه المصيخ ، فكم قرية كأنها هجرة الموت وبها التاريخ ، وكم طعنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ .

الحمد لله الذي اعاد الاسلام جديداً ثوبه ، بعد ان كان جديداً حبله ، مبيضاً نصره ، محضراً نصله ، متسعاً فضله ، مجتمعاً شمله ، والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويكرر البشرى بما انعم الله به – من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر الى يوم الخميس منسلخة ، وتلك سبع ليال وثمانية ايام حسوماً ، سخرها الله على الكفار « فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية » ورايتها الى الاسلام ضاحكة

كما كانت من الكفر باكية . فيوم الخميس الاول فتحت طبرية وفاض ري النصر من بحيرتها ، وقضت على جسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها . وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، واخذ الله اعداءه بأيدي اوليائه اخذ القرى وهي ظالمة . وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالامان ورفعت بها اعلام الايمان وهي ام البلاد ، واخت إرم ذات العماد ، وقد اصبحت كأن لم تغن بالكفر وكأن لم تفتقر من الاسلام .

وقد اصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الاسير جيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الاسلام قد صار حديداً مسلماً يفرق خطوات الكفر عن الاقدام ، وانصار الصليب وكباره وكل من المعمودية عمدته ، والدير داره ، قد احاطت به يد القبضة ، واخـــذ رهناً فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة ، وطبرية قد رفعت اعلام الاسلام عليها ، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها ، وعمرت الى ان شهدت يوم الاسلام وهو خير يومها ، بل ليس من ايام الكفر يوم فيه خير ، وقد غسل عن بلاد الاسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها ، فلا ضرر ولا ضير . وقد صارت البيع مساجدهم بها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المناحر مواقف لخطباء المنابر واهتزت ارضها لوقوف المسلمين فيها ، وطالما ارتجت لمواقف الكافر ، والبأس الامامي الناصري قد امضى مشكاته على يد الخادم حتى بالدني في الكنائس ، وان عز اول الاسلام بحط تاج فارس فكم حطت سيوفه في هذا اليوم من تاج فارس .

فأما القتلى والاسارى فانها تزيد على الثلاثين الفاً .

واما فرسان الديوية والاسبتارية ، فقد امضى الله حكمه فيهم وقطع بهم سيوف نار الجحيم ، ووصل الراحل منهم الى الشقاء المقيم ، وفتك بأفرنس كافر الكفار ومشيد

لنار ، من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم ، وافترت النصرة عن ثغر عكا بحمدالله الذي يسر فتحها ، وتسلمتها الملة الاسلامية بالامان وعرفت في هذه الصفقة ربحها .

واما طبرية فافترتها يد الحرب فأنهرت الحرب جرحها ، فالحمد لله حمداً لا تضرب عليه الحدود ، ولا تزكى بأزكى منه العقود ، وكأنه بالبيت المقدس ، وقد دنا الاقصى من اقصاه ، وبلغ الله فيه الامل الذي علم ان يحصيه ، واحاط بأجله واقصاه ، لكل اجل كتاب ، واجل العدو هذه الكتائب الجامعة ، ولكل عمل ثواب ، وثواب من هدى لطاعته جنات نعيمه الواسعة ، والله المشكور على ما وهب والمسؤول في إدامة ما استيقظ من جد الاسلام وهب .

وقد توجه من جانبه الامير رشيد الدين دام تأييده في اهداء هذه البشرى نيابة عن الخادم ووصف مايسره الله لاوليائه من العزائم ، والبلاد والمعاقل التي فتحت هي : « طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا ، القزلة ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هـذه كثيرة ، والولد المظفر تقي الدين بصور وحصن تبنين ، والاخ العادل سيف الدين نصره الله ، قد اوقف بالوصول من عنده ، من عنده من للعساكر فينزل في طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهز مراكب الاسطول المنصور ويكثر عددها ، ويسير بها الى ثغر عكا المحروس ويشحنها بالرجال ويوفر سلاحها وعددها ، والنهوض الى القدس فهذا أوان فتحه ، ولقد دام عليه ليل الضلال ، وقد آن أن يستقر فيه الهدى مشكور الاحسان ان شاء الله .

القلقشندي ـ صبح الاعشى ج٦ ص ٥١٧ ـ ٥٢٠

الرسالة الرابعة

رسالة صلاح الدين الى الخليفة الناصر يخبره بوصول ملك الألمان ويستنجده للدفاع عن عكا

ادام الله ظل الديوان العزيز النبوي ، الامامي ، الشريف الناصري ، ومده على الامة ظليلا ، وجعل الانوار عليه دليلا ، وحاطه بلطفه وتقبل اعماله بقبول حسن وأنبتها ، وارغم اعداءه وكبتها ، ومسها بعذاب من عنده وسحتها ، ولا زالت رايته السوداء بيضاء الخبر ، محمرة المخبر في العداة مسودة الاثر .

ورد على ما كوتب به من الديوان العزيز رائداً في استخلاصه ، مبرهناً عن اختصاصه مطلقاً في الشكر للسانه وفي الحرب لعنانه ومقتضياً لامنية كان يتهيبها ، ومفيضاً لمكرمة لو سمت نفسه اليها كان يتهمها ، فلله هو ، من كتاب كأنه سورة وكل آية منه سجدة ، قابلة بالخشوع كأنما قلم الكتاب القضيب وطرسه البردة ، وتلاه على من قبله من الاولياء مسترهفاً به لعزائمهم ، مستجزلاً به لمغانمهم ، مستثبتاً به للازمهم ، مستدعياً به الخدمة للوازمهم ، مرهفاً به ظباهم في القتال ، فاسحاً به خطاهم يوم النزال ، فأثر فيهم كالاقتداح في الزند وكالانبجاس من الصلد ، وكالاستلال من الغمد ، فشمر من كان قد أجبل ، وكأنما اعطوا كتاباً من الدهر بالامان ، او سمعوا منادياً ينادي للايمان ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، وعلينا من الخدمة ما استطعنا ، هذا مع كونهم انضاء زحوف ، وأشلاء حتوف ، وضرائب سيوف ، قد وسمت وجوههم علامات الكفاح ، وأحالت عرضهم اقلام الرماح ، صابرين

مصابرين ، مكاثرين مكابرين ، مناضلين مناظرين ، قد قاموا عن المسلمين بما قعد عنه سائرهم ، ونزلوا بقارعة القراع فلا يسير عنها سائرهم وسدست كعوب الرماح انملهم ، وأثبتوا في معترك الموت ارجلهم ، كل ذلك طاعة لله ولرسوله ولخليفتهما وإذا رموا فأصابوا قالوا ولكن الله رمى .

ومن خبر الكفار انهم الى الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب اكثر عـــدة من امواجه ويخرج للمسلمين منهم امر من اجاجه ، قدتعاضدت ملوك الكفر على ان ينهضوا اليهم من كل فرقة منهم طائفة ، ويقلدوا لهم من كل قرن يعجز بالكرة واصفه ، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه الفاً ، واذا ذهب بالقتل صنف منهم اخلف بدله صنفاً ، فالزوع اكثر من الجراد ، والثمرة انمى من الحصاد ، وهـذا العدو المقاتل ـ قاتله الله ـ قد زر عليه من الخندق ادراعاً متينة ، واستجن من الجنويات بحصون حصينة ، مصحراً ومتمنعاً ، وحاسراً ومتدرعاً ومواصلاً ومنقطعاً وكلما اخرج رأســاً قد قطعت منه رؤوس ، وكلما كشف وجهاً كشف من غطاء اجسادها نفوس فكم من يوم ارسلوا اعنة السوابق فذموا عقبى ارسالها ، وكم من ساعة فضوا فيها اقفال الخنادق فأفضى اليهم البلاء عند فضي اقفالها إلا ان عددهم الجم قد كاثر القتل ، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل لشدة ما قطعها النصل ، ومن قبل الخادم من الاولياء قد أثرت المدة الطويلة والكلف الثقيلة ، في استطاعتهم لا في طاعتهم وفي اجوالهم لا في شجاعتهم فالبرك قد انضوه والسلاح قد احفوه ، والدرهم قد أفنوه ، وكل من يعرفهم من اهل المعرفة ويراهم بالعين فما هم مثل من يراهم بالصفة ، يناشد الله المناشدة النبوية ، في الصيحة البدرية ، اللهم ان تهلك هذه العصابة ويخلص الدعاء ويرجو على يد امير المؤمنين الاجابة .

هذا والساحل قد تماسك ، وما تهالك وتجلد ، وما تبلد ، وشجعته مواعد النجدة

الخارجة وأسلته عن مصارع العدة الدارجة ، فكيف به اذا خرج داعية الالمان ، وملوك الصلبان ، وجموع ما وراء البحر ، وحشوه اجناس الكفر ، وقد حرم بإباهم - لعنة الله عليهم وعليه - كل مباح واستخرج منهم كل مذخور ، وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك او يستخلصوا المقبرة ، ويعيدوا القمامة . « وإذ زين لهم الشيطان اعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم » .

اللهم اخفر جواره ، واصرف جوره ، واخلف وعده ، واكسر ضمانه ، وانكصه على عقبه ، وعجل في الدنيا والآخرة منهم تبابة ، وما بدأتنا به من نعمتك فلا تقطعه ، وما وهبتنا من نصرك فلا تسلبه ، وما سترته من عجزنا فلا تهتكه .

[و] في دون ما الدين مستقبله ، وعدوه خذله الله يؤمله ، ما يستفرغ عزائم الرجال ويستنفد خزائن الاموال ، ويوجب لامام هذه الامة ان يحفظ عليها قبلتها ، ويزيح في قتل عدوها علتها ، ولولا ان في التصريح ، ما يعود عدالته بالتجريح ، لقال ما يبكي العين وينكي القلوب ، وتنشق له الجيوب ، ولكنه صابر محتسب ، منتظر لنصر الله مرتقب ، قائم من نفسه بما يجب ، رب اني لا املك إلا نفسي واخي ، وها هو قد هاجر اليك هجرة يرجوها عندك مقبولة ، وولدي وقد ابرزت لعدوك صفحات وجوههم ، وهان على محبوبك مكروهي فيهم ومكروههم .

ونقف عند هذا الحد ، ولله الامر من قبل ومن بعد ، وان لم يشتك الدين الى « ناصره » والحق الى من قام بأوله الى اليوم الآخر يقوم بآخره ، فالي من يشتكى البث ، وعند من يتفرج بالنفث ؟ . ومنفعة الغوث قبل العطب ، والنجاء قبل ان يصل الحزام الطبيين والبلاغ قبل ان يصل السيل الزبى . فيا عصبة محمد (ص) المخلفه في امته بما تطمئن به مضاجعه ، ووفه الحق فينا ، فانا وان المسلمين عندك ودائعه ،

وما مثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة من وقف بالباب ضارعا ، وناجى بالقول صادعاً ، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر ، وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر ، ولو أمن عدو الله أن يقول فر لسافر ، وبعد ففيه وإن عض الزمان بقية ، وقبله وان تدارأت الشهاد ذرية ، فلا يزال قائماً حتى ينصر او يعذر ، فلايصل الى حرم ذرية احمد صلى الله عليه وسلم ومن ذرية ايوب واحد يذكر .

أنجز الله لامير المؤمنين مواعـد نصره وتمم مساعده : وأصفى موارد احسانه وأرسى قواعد سلطانه وحفظه وحفظ به فهو خير حافظاً ، ونصره ونصر على يديه فهو اقوى ناصراً ، ان شاء الله تعالى .

القلقشندي ـ صبح الاعشى ج ٧ ص ١٢٦ - ١٣٠

الرسالة الخامسة

رسالة صلاح الدين إلى أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن يستقدمه للمعاونة على الحرب

« اصدرنا هذه المكاتبة الى المجلس ، ومما تجدد بحضرتنا فتوح كوكب : وهي كرسي الاستبارية ودار كفرهم ، ومستقر صاحب امرهم ، وموضع سلاحهم وذخرهم وكان بمجمع الطرق قاعـــداً ، ولملتقى السبل راصداً ، فتعلقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت ، وسلكت الطرق فيها وامنت وعمرت بلادها وسكنت ، ولم يبق في هذا الجانب إلا صور ولولا ان البحر ينجدها والمراكب تردها ، لكان قيادها قد امكن ، وجماحها قد اذعن ، وماهم بحمد الله في حصن يحميهم ، بل في سجن يحويهم ، بل هم اسارى وان كانوا طلقاء واموات وان كانوا احياء . قال الله عز وجل : « فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عد » ولكل امريء اجل لابد ان يصدقه غائبه ، وامل لابد ان يكذبه خائبه ـ وكان نزولنا على كوكب بعد ان فتحت صفد بلد الديوية ومعقلهم ومشتغلهم وعملهم ، ومحلهم الاحصن ومنزلهم ، وبعد ان فتحنا الكرك وحصونه ، والمجلس السيفي اسماه الله اعلم بما كان على الاسلام من مؤونته المثقلة وقضيته المشكلة وعلته المعضلة ، وان الافرنج لعنهم الله كانوا يقعدون منه مقاعد للسمع ويتبوؤن منه مواضع للنفع ويحولون بين فات ورا كبها فيذللون الارض بما كانوا ثقلاً على مناكبها والآن ما امن بلاد الحرمين ، بأشد من امن بلاد الحرمين ، فكلها كان مشتركا في نصرة المسلمين بهذه القلعة التي كانت ترمى ولا ترام ، وتسامى ولا تسام وطالما استفرغنا

عليها بيوت الأموال ، وانفقنا فيها اعمار الرجال ، وقرعنا الحديد بالحديد الى ان ضجت النصال من النصال والله المشكور على ما انطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الاسلام . وان بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً ، وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبه ، وقد طلع بيمن الانواء في موكبه ، والثلوج تنشر على البلاد ملاءها الفضيض ، وتكسو الجبال عمائمها البيض ، والاودية قد عجت بمائها ، وفاضت عند امتلائها ، وشمخت انوفها سيولا ، فجرفت الارض وبلغت الجبال طولاً ، والاوحال قد اعتقلت الطرقات ، ومشى المطلق فيها مشية الاسير في الحلقات ، فتجشمنا العناء نحن ورجال العساكر ، وكاثرنا العدو والزمان وقد يحرز الحظ المكاثر ، وعلم الله النية فأنجدنا بفضلها ، وضمير الامانة فأعان على حملها ، ونزلنا من رؤوس الجبال بمنازل كان الاستقرار عليها اصعب من ثقلها ، والوقوف بساحتها اهون من نقلها ، « واما بنعمة ربك فحدث » والحمد لله الذي الهمنا بنعمته الحديث ، ونصر بسيف الاسلام الذي هو سيفه وسيف الاسلام الذي هو اخونا الطيب على الخبيث ، فمدح السيف ينقسم على حديه ، ومدح الكريم يتعدى الى يديه ، والآن فالمجلس ـ اسماه الله ـ يعلم ان الفرنج لا يسلون عما فتحنا ، ولا يصبرون على ما جرحنا ، فانهم ـ خذلهم الله ـ امم لا تحصى ، وجيوش لا تستقصى ، ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا ، ويطمع في كل مدينة كسبا ، ويد الله فوق ايديهم ، والله محيط بأقربيهم وابعديهم ، و « سيجعل الله بعد عسر يسراً » ، « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمر » .

ماهم إلا كلاب قد تعاوت ، وشياطين قد تغاوت ، وان لم يقذفوا من كل جانب دحورا ، ويتبعوا بكل شهاب ثاقب مدحورا ، استأسدوا واستكلبوا ، وتألبوا وجلبوا وأجلبوا ، وحاربوا وحزبوا ، وكانوا لباطلهم الداحض ، انصر منا

لحقنا الناهض ، وفي ضلالهم الفاضح ، ابصر منا لهـــدانا الواضح ، ولله در جرير حيث يقول :

ان الكريمة ينصر الكرم ابنها وابن اللئيمة للئام نصور

فالبدار الى النجدة البدار ! والمسارعة الى الجنة فانها لا تنال إلا بايقاد نار الحرب على اهل النار ! والهمة الهمة ! فان البحار لا تلقى الا بالبحار ، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها الا الملوك الكبار :

وما هي الا نهضة تورث العلا ليومك ما حنت روازم نيب .

ونحن في هذه السنة ـ ان شاء الله تعالى ـ ننزل على انطاكية ، وينزل ولدنا الملك المظفر ـ اظفره الله ـ على طرابلس ، ويستقر الركاب العادلي ـ اعلاه الله ـ بمصر فانها مذكورة عند العدو ـ خذله الله ـ بأنها تطرق ، وان الطلب على الشام ومصر تفرق ، ولا غنى عن ان يكون المجلس السيفي ـ اسماه الله ـ بحراً في بلاد الساحل يزخر سلاحاً ، ويجرد سيفاً يكون على ما فتحناه قفلا ولما لم يفتح بعد مفتاحاً فانه ليس لاحد ما للأخ من سمعة لها في كل مسمع سمعه ، وفي كل روع روعه ، وفي كل محضر محضر ، وفي كل مسجد منبر ، وفي كل مشهد مخبر ، فما يدعى العظيم الا للعظيم و (لا يرجى) لموقف الصبر الكريم الا الكريم (هذا) والاقدار ماضية ، وبمشيئة الله جارية ، فان يشاء الله ينصر على العدو المضعف ، بالعدد الاضعف ، ويوصل الى الجوهر الاعلى بالعرض الادنى ، فانا لا نرتاب بأن الله ما فتح علينا هذه الفتوح ليغلقها ولا جمع علينا هذه الامة ليفرقها ، وان العدو قد خرج من داره بطراً ، ودخل الى دارنا كان فيها جزراً ، وما بقي ان شاء الله الا اموال تساق الى ناهبها ، ورقاب تقاد الى ضاربها ، وأسلحة تحمل الى كاسبها ، وانما تؤمر ان لا تنطوي صحائف الحمد خالية من اسمه ، ومواقف الرشد خاوية من عزمه ، ونؤثر ان يساهم آل ايوب في

ميرائهم منه مواقع الصبر ، ومطالع النصر ؛ فوالله انا على ان نعطيه عطايا الآخرة الفاخرة ، اشد منا حرصاً على ان نعطيه عطايا الدنيا القاصرة ، وانا لا يسرنا ان ينقضي عمره في قتال غير الكافر ، ونزال غير الكفء المناظر ، ولاشك ان سيفه لو اتصل بلسان ناطق وفم ، لقال ما دمت هناك قلت ثم ، وما هو محمول على خطة يخافها ، ولا متكلف قضية يجلمنا يعافها ، والذي بيده لا نستكثره ، بل نستقصره عن حقه ونستصغره ، وما ناولناه لفتح ارضه السلاح ، ولا اعرناه الملك مركزه النجاح إلا على سخاء من النفس به وبأمثاله ، على علم منا انه لا يقعد عنا اذا قامت (الحرب) بنفسه وماله ، فلا تكن به ظناً احسن منه فعلاً ، ولا ترضى وقد جعلنا الله اهلاً ان لا نراه لنصر اهلا ، وليستشر اهل الرشاد فانهم (لا يألونه) حقاً واستنهاضاً ، وليعص اهل الغواية فانهم انما يتغالون به لمصالحهم اغراضاً ، ومن بيته يظمن ، والى بيته يقفل وهو يجيبنا جواب مثله لمثلنا ، وينوي في هذه الزيارة جمع شمل الاسلام قبل نية جمع شملنا ، ولا تقعد به في الله نهضة قائم ، ولا تخذله عزمة عازم ، ولا يستفت فيها فوت طالب ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فانما هي سفرة قاصدة ، وزجرة واحدة ، فاذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر والسمعة ، ودان الله احسن دين فلا حرج عليه ان فاء الى ارضه بالرجعة ، وليتدبر ما كتبناه ، وليتفهم ما اردناه ، وليقدم الاستخارة ، فانها سراج الاستنارة (وليغضب الله ورسوله ولدينه ولاخيه فانها مكان الاستغضاب والاستثارة) وليحضر حتى يشاهد اولاداً لاخيه يستشعرون لفرقته غما ، وقد عاشوا لا يعرفون ان لهم مع عمهم عماً ، والله سبحانه يلهمه توفيقاً ، ويسلك به اليه طريقاً ، وينجدنا به سيفاً لرقبة الكفر ممزقاً ودمـه مريقاً ، ويجعله في مضمار الطاعات سابقاً لا مسبوقاً .

القلقشندي ـ صبح الاعشى ج ٧ ص ٢٣ ـ ٢٧

الرسالة السادسة

رسالة الأفضل بن صلاح الدين إلى الديوان يعلمه بوفاة أبيه

أصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء وقلبه معمور بالصفاء ، ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء ، ولسانه ناطق بشكر النعماء ، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة عن الخوف والرجاء ، وطرفه مغض من الحياء ، ووجهه مقبل نحو قبلة الاستجداء ، وهمته في العبودية فارعة ذروة العلاء ، وهو للأرض مقبل ، وللفرض متقبل ، وبالطاعة ماثل ، وللاستطاعة باذل ، وللجهد والاخلاص عارض ضارع ، وبفجر فخره من الصحة والمناصحة صادق صادع ، وهو يمت بما قدمه من المواث ، وأسلفه من الخدمات ، وذخره ذخر الاقوات لهذه الاوقات ، واتخذه عصمة من النائبات ، وعوذة من الطارقات ، وعدة عند الملمات ، وعمدة لدى الخطوب الكارثات ، ومصرفاً لصروف الحادثات ، ومؤلفاً للشمل عند شمول الشتات ، وعروة للاعتصام بها في ازمن الازمات ، وسلوة من الاسى ، وأسواً لجراح المصيبات ولا خفاء بما اخافه ، وفاض له من بحر البرح وضافه ، وأغاض نطافه ، وعاق اوان رجاء جني النجاح قطافه ، لولا ان الله تداركه بفضله وأولاه ألطافه ، فانه دهمه ما هدمه ، وفجأه ما فجعه ، وبغته من الرزء ما صد عنه العيش وصدعه ، ونابه ما رابه ، وجرعه مصاب صابه ، ووافاه من وفاة والده رحمه الله ما كدر صفو الحياة ومحا عن صفحة صبحه آية الآيات ، وألم بألم الامل ، واحال الحلى الى العطل ، وحلاء عن النهل والعلل ، وأذهب بهجة الايام ، وأشمت الكفر بالاسلام ، ومُمر الشرك

منه ما ساء التوحيد ، وقرب من اشفاق القلوب واشفاء الكروب البعيد ، وعطل الجهاد وأراح الحديد . وشب حقود العداة ، على انها ما شبت إلا لتخمد ، وشام حدود العتاة ، على انها ما شيمت إلا لتغمد ، وهذا الحادث ارجف المرجفون بحديثه ، وأثاروا كوامن النار ، وحركوا سواكن الاوتار بتأثيره وتأريثه ، وأخرج اهل النفاق رؤوسهم من كل نفق ، وعاد ثبات ثباتهم الى نفار وقلق ، ومن كان مستمسكا من ولاء الدار العزيزة بالعروة الوثقى ، مستلثما من عدد ايامها ومدد انعامها بالدوع الاقوى الاوفى ، فانه لا يحتفل بحفول اخلاق اهل الخلاف ، ولا يتحلحل طود حجاره الرامي وحصاه الراسخ لعواصف ذوي الاجحاف ، وقد احاطت العلوم الشريفة مجدها الله ، بأن الوالد السعيد ، الشديد السديد ، المبير للشرك المبيد ، لم يزل ايام حياته ، والى ساعة وفاته ، مستقيما على جـدد الجد ، مستنيما في صون فريضة الجهاد الى بذل الجهد ، مستنفذاً في كل ما يحوز به المراضي الشريفة وسعه ، مستفرغاً طاقته في الشغل الديني الذي يهدي بصره وسمعه ، فكم قبض يداً بسطتها بالفتنة الفئة العادية ، وكم فرض سُنة أعلت سناها للمجتلين ، وأحلت جناهـا للمجتهدين الدعوة الهادية ، ولكم اخرس دعاة الادعياء ، وحرس ولايات الاولياء ، وكانت بكتائبه وكتبه سيوفه واقلامه للأقاليم اقاليد ، ولم تزل جنود الشيطان وجموع الطغيان في الممالك بمماليك الدار العزيزة وعبيدها عباديد ، وأمطر بلاد الكفر من دماء اهلها شآبيب ، وأقام بها منار الاسلام ومنابره لما اناب عن اعوادها انابيب ، واسعرها من كماة الوغى وحمـاة الورى بمساعير ، وانجدها بضوامره ضوامن الظفر بضامير ، وهذه فتوحه تفوح بنشر النصر وتضوع ، وعقوده تروق في سلك الملك وتروع ، ومصر بل الامصار باجتهاده في الجهاد شاهدة ، والانجاد والاغوار في نظر عزمه واحدة والبيت المقدس من فتوحاته ، والملك العقيم من نتائج عزماته ، وتوفره على العبودية

لمالك رقة سيدنا اميرالمؤمنين اوفر حسناته ، وكل ذلك في طاعته ومناصحته وبركاته وما زال ظاهراً على العدى ، ناصراً للهدى ، معلياً معالم العلى ، محيياً مواسم التقى مسنياً سنن الشرع وفروضه ، مديماً بأعباء الطاعة بقدر الطاقة نهوضه ، وهو الذي ملك ملوك الشرك وغل اعناقها ، وأسر طواغيت الكفر وشد وثاقها ، وقمع عبدة الصلبان وقصم اصلابها ، وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها ، ونظم اسبابها ، وسد الثغور ، وسدد الامور ، وأذل للدار العزيزة كل عدو ، وأخذلها على يد كل ذي عتو ، واستمرت على الايام مساعيه في الخدمة ناجحة ، ومعانيه على موازين الموازين راجحة ، وسيرته حسنة ، وحسناته سائرة ، ومحاسنه ظاهرة ، وسريرته طاهرة ، وختم الله له بالسعادة ، وتوفاه على الوفاء بالعبودية والعبادة ، وقضى ، وقد قضى من آرائه آرابه ، وقدم بين يدي اعماله الصالحة ووفاه حسابه ، وقبض وعدله مبسوط وأمره محوط ، ووزره محطوط ، وعمله بالصلاح منوط ، وأمله بالنجاح مشروط ، وملكه بحفظ الله وكلاءته مضبوط ، والمذاهب مهذبة ، والمراتب مرتبة والاسباب محكمة ، والاحكام مسببة ، والاحوال حالية ، والاعمال راضية ، والمصالح مصونة ، والمناهج مضمونة ، والرعية مرعية ، والعوائد مرضية ، والقواعد متأثلة ، والمقاصد متحصلة ، والثغور مسدودة ، والخطوب مصدودة ، واصول الدولة ثابتة ، وفروع الدوحة نابتة ، وما ترك امرأ بعده غير مستقيم ، ولا نهجاً غير قويم ، ولا خلف لمن خلفه ما يحتاج الى تقريبه وتقريره ، ولا ابقى لمن بقي له ما يفتقر الى ترتيبه وتدبيره ، وما خرج من الدنيا إلا وهو في حكم الطاعة الامامية داخل ، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل ، ولم تكن له وصية إلا بالاستمرار على جادتها ، والاستكثار من مادتها ، والاستسعاد بسعادتها ، والاستعداد لعبادتها والاستجارة بظلالها ، والاستنارة بجلالها ، والاستعاذة بفضلها ، والاستزادة من

افضالها ، وما بنيت القواعد إلا على اساس وصاياه ، ولا امضيت العوائد إلا على قياس سجاياه ، ولا ابرم إلا ما عقده ، ولا احكم إلا ما اكده ، واقتفيت آثاره ، واجتليت انواره ، واتبع إيثاره ، واثمرت في ائتمار الاوامر الشريفة اوامره ، ومن كان في نصرة الدولة الامامية الناصرية فان الله ناصره ، وما يفتخر العبد الا بما ورثه في ولائها من الفخار ، وبعثه من آلائها الغزار ، ونعشه برفعة من العثار وعرفه بعرفه المبر المبار ، ولا يتسم بالملك الا من يتسامى بأنه لها مملوك ، ولا يوصل الى السعادة الابدية الا مسلك الى رضاها مسلوك ، ولئن مضى الوالد على طاعة امامه ، فالمماليك اولاده واخوه في مقامه ، والامر في كل مكان بالامن والسكون جار على نظامه ، والكفر مفلول الغرب ، مخذول الحزب ، مجبول على الرعب ، مغلول بقيد السلم عن الحرب ، فان الله اجرى المشركين مع كثرتهم على حكم القلة ، وخصهم لابقاء عزة الثغور الاسلامية بالذلة ، وقد استمرت الحال الى الآن على الهدنة ، وهم لا يؤمنون اذا احسوا بالمكنة ، فان الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في غرائزهم مغروز ، والعبد آخذ بالحزم ، عائذ بتأييد الله في العزم ، متيقظ لمخوف غدرهم ، متحفظ من مكر مكرهم ، مستعد بكل امكان ، مستجد كل ما يفتقر اليه من نجدة وقوة بكل مكان ، مستظهر بما تأكد له من مظاهرة المواقف المقدسة في اموره ، مستبشر وجه وجاهته منها بسفوره ، ظاهر بقوته من ايدها واياديها قوي بظهوره ، مدل بما له من الموات الاكيدة والسوابق الحميدة ، والشوافع المقبولة ، والذرائع الموصولة ، موقن ان الرعاية تدركه ، وان العناية تملكه ، وان اختصاصه بفضيلة المائة القديمة يجد له فضل الاختصاص وان فاتحه الحمـــد منه والاخلاص تفتح له باب الاحماد والاستخلاص ، ولما قصر رجاءه على طوله بذلك الطول ، وانه يزداد بما يزدان به من الاصطفاء والاصطناع حسن الحلية وقوة النصرة والحول ، عدل على القاضي

ضياء الدين في المثول بالخـــدمة الشريفة وانهاء حاله ، والانتهاء الى مناجح آماله ، والسفارة فيما يسفر عن صبح المراشد ونجح المقاصد ونصح العقائد وشرح الاحوال في المصادر والموارد ، وان بلاغته وفية بالابلاغ ، ملية باشباع القول في اعتفاء الطول الملي بالاسباغ ، وقد فاوضه فيما فوضه اليه ، واعتمد في استنجازه واستنجاحه عليه ، لا زالت ايادي الدار العزيزة داره غزيرة ، سارة اوليائها ، وباحياء موات مواتها جديرة ان شاء الله .

العماد الاصفهاني ـ الفتح القسي في الفتح القسي ص ٣٤٠ ـ ٣٤٣

الرسالة السابعة

رسالة الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين إلى دار الخلافة يلتمس فيها إرسال سراويل الفتوة

أدام الله سلطان المواقف المقدسة النبوية الناصرية وجدد ليالي دولتها وايامها ، واحف القلم بأن يجري في الآفاق اقلامها ، وتصب حرمها مثابة الآمال وجعل اليه تلبيتها واحرامها ، وانشر بجودها اموات المكارم التي ليس لغيره ان ينشر ارواحها ولا اجسامها ، وماثل بين اسماء عزائمها ومسمياتها حتى يلقى الاعداء حربها وضربها والمساعي حارثها وهمامها ، من عادة العبد انه اذا سأل في مطلوب ترك الذرائع جانباً واكتفى بكرم الشيم النبوية مخاطباً ، وعلم ان لها من نفسها باعثاً يتبرع باحسانه ، ويرى المطلوب على خفاء مكانه ، لا جرم انه لم يرد له سؤال على ابوابها الشريفة إلا تلقى بالنجاح ، وقيل له ابسط املك فليس على بسط الآمال هاهنا من جناح ، وسؤاله الآن ان يلحق (بالخاصة) الذين استجد لهم شعار خصوا باسمه وعرفوا بوسمه ، وقسم لهم من العناية بسببه ما لم تطمع الحظوظ في قسمه . وهذا تعريض من القول لا ينطق بياناً ، واخوه التصريح هو افصح لساناً ولو صرح العبد بسؤاله لسأل ان يحبى منه باللباس الذي يكرم به مواقع الحباء ، ولا ينهى معه عن الاحتباء ، ومن صفاته ان تشد به معاقد الاحصان ، ويكثر فيه وصايا التقوى الذي هو افضل شعب الايمان ، وقد اختص من بين اصناف اللباس بأن رأى عاقده برهان ربه ، واقدم على الذنب فصرف الله عنه فحشاء الذنب ، واشرف من ذلك كله ان امير المؤمنين جعله سبباً بينه

وبين أوليائه الذين هم اشياعه وانصاره ، وما منهم إلا من يقال انه سلمان البيت وعمارة وليس العبد بأدنى منهم مقاماً ولا ابعد ذماماً ، ولا اقل عدداً ولا اقصر لساناً ولا يداً ، فاذا ارسل اليه شد به عقدة اضماره كما يشد به عقدة ازاره ، واصبح في الناس يدعى ذا النطاقين ، واصبح مجده في المعالي وهو يدعى ذا الرواقين ، وما كل من سبق اليه بفائز بفضيلة سبقه ، ولا كل من نالته يده بعارف ما يجب عليه من حقه ، ولئن تقدم العبد في هذا المقام فان الاستحقاق يقضي له بالتقدم ، وسؤره القلم وان تقدم زمانها لا تتقدم في المزية على ذوات الراء والميم ، ومقبض السيف وان كان اولاً عند الاستلال ، فانه يتأخر عن غناء صدره عند مباشرة القتال :

ما اول السامين بالعالي ولا كل الجياد دفعن قبل سوابق

ومن الناس من يسأل في ذلك وسؤاله مشوب بلبسه ، وهو ممن يخادع الله ورسوله ، ولا يحظى إلا بخداع نفسه ، واذا كشف حاله وجد على سنن النفاق الذي تشف عنه بواطن استاره ، ولا يرى إلا جديراً بأن تصيبه قارعة او تحل قريباً من داره ، ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب ، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ والعبد يعوذ بالله من فتنه هذه الدخيلة التي تزحزح عن الجنة وتدخل النار وتجعل صاحبها في الدنيا هدفاً لسلق الالسنة وزلق الابصار . وقد ارسل بكتابه هذا من ينوب عنه في بسط كفه وغض طرفه ، وملاطفة المطلوب في فتح بابه ورفع سجفه وكذلك استنابه ايضاً في تقبيل العتبة الشريفة التي تستقي الآمال فيض نعمائها وليست كالحجر التي تفتقر الى ضرب العصا في استقاء مائها وللآراء الشريفة مزيد الشرف والعلو إن شاء الله تعالى .

انظر - رسائل ضياء الدين ابن الاثير ص ٢٣٥ - ٢٣٦

الرسالة الثامنة

رسالة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى دار الخلافة عند استنجادها به لدفع خطر جلال الدين منكبرتي عنها

بسم الله الرحمن الرحيم : « يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » .

وهذه آية لرسول الله في رد كيد العدوان الكافر ، وبمثلها رد عن خليفته الآن كيد العدو الفاجر ، وقد اختصه الله بالفضيلة في سبوغ نعمائه ورفعه ان يمد بعدد ارضه الى الامداد بمدد سمائه ، ولم يزل العبد من ارتقاب ذلك على اوفاز ، ومن مواعيد حديث النفس على انجاز ، وأملي اصدار كتابه هـــذا على حكم الاسهاب معبراً عن نصر الله الآتي على ايجاز ، وطالما قلب وجهه بالدعاء الصالح يرفعه ، والله يسمعه ، وأيدي الكرام الكاتبين تجمعه ، وكل سهم من سهامه تسدد الغرض من غيرحاجة الى قوس ينزعه ، وهذه وظيفته ووظيفة امثاله من عبيد الديوان العزيز النبوي وهب الله له من الملك اعظم ما وهب ، ووصله من عنايته بأوثق سبب ، وقرب اليه بعيدات المطالب حتى يكون منها كالوقت بين الورد والقرب ، وسـد الناس بأيام دولته التي هي من وجودها في شهر ربيع ومن عدلها في شهر رجب ، وينبغي لكل مسلم صافح الاسلام قلبه ، وكان شعب الانصار شعبه ان يلبي دعوته بتشمير ذيله وادراع ليله واذا قال : يا خيل الله اركبي وافاه في رجله وخيله ، وذلك فرض لا يقعد عنه إلا من رفع القلم عن كتابه ، او خدع عن الفوز بدرجة ثوابه ، ولولا ان نية المرء خير

من عمله لنوقش العبد لتثبط اتجاده عن الخطو السريع والذرع الوسيع ، وخاف ان يكون رابعاً لهلال بن امية ، وكعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، ولكنه اطمأن الى ان الله يقبل العذر ممن اصلد في قدح زناده ، وآنى من ركض جواده ، وانه لم يجعل الصعيد نائباً عن الماء إلا قصداً لقبول الرخصة من عباده ، ورخصة العبد في هذا المقام انه انجد بدعائه دون نجده ، وعلم ان العذر مُجنة لمن وفق بين نيته وان حالت الايام دون قصده .. واذا قطع العذر عن العمل لم يعر صاحبه من حسنة تكتب له في الصحيفة ، ولا يخف به ميزانه حتى يكون محسوباً في عداد الموازين الخفيفة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته : ان وراءكم قوماً بالمدينة ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر ، والعبد لا يخاف على الديوان العزيز عدواً ولو ركب في جيش لايلتقى جناحاه ، وامسى واصبح والليل والنهار سلاحاه ، فانه لايلبث ان تصير سهوله اوعاثا ، وتنتقض به أمانيه انكاثا ، وتقسم الرياح الاربع دياره ارباعاً لا ثلاثا ، وقد دلت التجربة على ذلك ولا شيء أدل من تجربة ، واذا اعتبرت الايام السالفة منها وجرت وهي معربة مغربة فأين الطوائف المتكاثرة من البويهية والسامانية والسلجوقية وما تخللها من اولي المقانب وذوي المناكب ومن ناعق من اهل المحاشد والمخاطب ، عصفت بهم الدعوة النبوية لهذا البيت للعباسي الذي اسس الله قواعد بنيانه ، وأبقاه حجة في هلاك قيصر وقصره ، وكسرى وايوانه ، ولذلك كفاه الآن بكفاية من عنده وأدنى له ميقات النصر الذي ظنه الناس على غاية من بعده ، ولو أدل احد من اوليائه بأثر من ذلك لقيل بحمد الله لا بحمده ، وكما ورث خلافة النبوة فكذلك ورث معجزاتها التي تقف الالباب دونها حائرة ، وترتد الابصار عنها حاسرة وتبين انها ليست من قدرة بشر وانما هي من رب القدرة الباهرة ، فمن جملتها الرعب الذي يقذف في القلوب ويقوم مقام الحروب ، وهذا العدو جاء ممتزماً فعاد منهزماً

وقوتل بجيش من الرعب فكان في قلبه قبل ازدحام الجيش مزدحماً وهو في أمره الذي حاوله طالب باطل ، ورام عن افوق ناصل ، وقد مر على الارض التي وطئها مرور صابح او غابق ، ووقف عليها وقوف غراب ناعق ، وما يقال إلا انه احد ثلاثة ناكث او قاسط او مارق .

قال علي ابن ابي طالب رضي الله عنه : امرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين وكل ذنوب هؤلاء من هذا تعلم ، وعليه تنقم وبه توسم وفيه تسدى وتلحم ، فان قيل انه ناكث فقد نزع عن الطاغية يدا ، او قيل انه قاسط فقد جرى في الحور الى مدى ، او قيل انه مارق فقد استمسك بضلالة وفارق هدى ، ولا ينجيه من وبيل هذه الموارد إلا توبة يرضاها الديوان العزيز فتأتيه بالسعادة في عاجلته وتصنع منه أصراً في آجلته ويضرب به المثل بالذي اضل الزاد والراحلة ثم ظفر بزاده وراحلته ، وان حضر وهو مستمر على ما هو عليه من الشقاق فقد عمي عن القضاء الجاري ولم يدر ان الله يصبح هو امام الساري ، ولا يبعد ان يرسل عليه وعلى اشياعه نغف كما يرسل على الفريق الذي هم من شكلهم وان لم يكونوا من نسلهم ، ويجعلوا عظة لمن يأتي من بعدهم ، وسلفاً لمن مضي من قبلهم .

انظر : رسائل ضياء الدين بن الاثير ص ١٧ - ١٨

ملاحق الباب الخامس

الرسائل المتبادلة بين هولاكو والخليفة العباسي

(١)

وصية منكوخان لأخيه هولاكو عندما وجهه نحو الغرب :-

ثم تقدم منكو قا آن مندفعاً بعاطفة الاخوة لهولاكو ونصحه قائلاً : - انك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها ، فينبغي ان تسير من توران الى ايران وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه فى الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع اوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى اقاصي بلاد مصر ، بلطفك وبأنواع عطفك وانعامك ، اما من يعصيك فاغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به ، وابدأ باقليم قهستان في خراسان فخرب القلاع والحصون .

فاذا فرغت من هذه المهمة فتوجه الى العراق وأزل من طريقك اللور والاكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها .

واذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلاتتعرض له مطلقاً ، اما اذا تكبر وعصى ... فالحقه بالآخرين من الهالكين .

كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الامور العقل الحكيم والرأي السديد ، وان تكون في جميع الاحوال يقظاً عاقلاً ، وان تخفف على الرعية التكاليف والمؤن ، وان ترفه عنهم .

واما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال ، وثق انك بقوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الاعداء ، حتى يصبح لك فيها مصايف ومشاتي عـديدة ، وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون .

رشيد الدين - جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٢)

رسائل هولاكو :- الرسالة الاولى - دعوة ملوك المسلمين للمساهمة معه في حرب الملاحدة

« بناء على أمر القا آن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة فاذا اسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعـــدد ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ، وسنحمد لكم مواقفكم . اما اذا تهاونتم في امتثال الاوامر وأهملتم فاننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فاننا لا نقبل عذركم ونتوجه اليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم » .

رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٤٠

(٣)

رسالة هولاكو الثانية إلى الخليفة بعد انتهائه من حروب الاسماعيلية

« لقد أرسلنا اليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحـدة وطلبنا مدداً من الجند ، ولكنك اظهرت الطاعة ولم تبعث الجند ، وكانت آية الطاعة والاتحاد ان تمدنا بالجيش عند مسيرنا الى الطغاة ، فلم ترسل الينا الجند ، والتمست العذر ، ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد ...

ولابد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيز خان الى اليوم ، والذي حاق بأسر الخوارزميين والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة وذلك بحول الله القديم الدائم ، ولم يكن باب بغـــداد مغلقاً في وجه أية طائفة من تلك الطوائف ... واتخذوا منها قاعدة ملك لهم ، فكيف يغلق في وجهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان ؟ ولقد نصحناك من قبل ، والآن نقول لك احذر الحقد والخصام المخصف بقبضة يدك ، ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب .

ومع هذا فقد مضى ما مضى . فاذا اطاع الخليفة ، فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا ، واذا لم يرد الحضور فليرسل كلا من الوزير وسليمانشاه والدويدار ليبلغوه رسالتنا دون زيادة او نقص ، فاذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكنّ له الحقد ، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته اما اذا لم يصغ الى النصح وآثر الخلاف والجدال ، فليعبىء الجند وليعين ساحة القتال

فاننا متأهبون لمحاربته ، ووافقون له على استعداد ، وحينا أقود الجيش مندفعاً بسورة الغضب الى بغداد ، فانك لو كنت مختفياً في السماء او في الارض ... فسوف أنزلك من الفلك الدوار .... وسألقيك من عليائك الى اسفل كالاسد .... ولن أدع حياً في مملكتك .. وسأجعل مدينتك واقليمك وأراضيك طعمة للنار ... فاذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بسمع العقل والذكاء وإلا فسأرى كيف تكون ارادة الله » .

رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨

(٤)

رسالة الخليفة جواباً على رسالة هولاكو الثانية :-

« أيها الشاب الحدث .. المتمني قصر العمر ، ومن ظن نفسه محيطاً ومتغلباً على جميع العالم مغتراً بيومين من الاقبال ... متوهماً ان امره قضاء مبرم وامر محكم لماذا تطلب مني شيئاً لم تجده عندي ...

ألا يعلم الامير انه من الشرق الى الغرب ، ومن الملوك الى الشحاذين ، ومن الشيوخ الى الشباب ، ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين ، كلهم عبيد هذا البلاط ، وجنود لي ؟ .

انني حين اشير بجمع الشتات ، سأبدأ بحسم الامور في ايران ، ثم اتوجه منها الى بلاد توران وأضع كل شخص في موضعه وعندئذ سيصير وجه الارض جميعه مملوء بالقلق والاضطراب ، غير انني لا اريد الحقد والخصام ولا ان اشتري ضرر الناس وايذائهم ... كما انني لا ابغي من وراء تردد الجيوش ان تلهج ألسنة الرعية بالمدح او القدح . خصوصاً وانني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد ، واذا كنت مثلي تزرع المحبة ، فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم ، فاسلك طريق الود ، وعد الى خراسان ، وان كنت تريد الحرب والقتال .. فلا تتوانى لحظة ، ولا تعتذر اذا استقر رأيك على الحرب . ان لي الوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة ، وهم متأهبون للقتال .. وانهم يثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان » .

رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(٥)

رسالة هولاكو الثالثة إلى الخليفة :ـ

« ان الله الأزلي رفع جنكيزخان ومنحنا وجه الارض كله من الشرق إلى الغرب فكل من ساو معنا واطاعنا واستقام قلبه ولسانه ، تبقى له امواله ونساؤه وابناؤه ، ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء من ذلك » .

ثم عاتب الخليفة بشدة قائلاً : « لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية ، بحيث انه لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير ، وان في اذنيك وقراً فلا تسمع نصح المشفقين ، ولقد انحرفت عن طريق آبائك واجدادك ، واذن فعليك ان تكون مستعداً للحرب والقتال . فانني متوجه الى بغداد بجيش كالنحل والجراد ، ولو جرى سير الفلك على شاكلة اخرى فتلك مشيئة الله العظيم .

رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٧١

(٦)

رسالة الخليفة الثانية جواباً على رسالة هولاكو الاخيرة :-

لو غاب عن الملك فله ان يسأل المطلعين على الاحوال . اذ ان كل ملك حتى قصد اسرة بني العباس ودار السلام ببغداد ، كانت عاقبته وخيمة . ومهما قصدهم ذو السطوة من الملوك واصحاب الشوكة من السلاطين ، فان بناء هـذا البيت محكم للغاية وسيبقى الى يوم القيامة .

وفي الايام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة ، وتوجه بجيش لجب الى بغداد فلم يبلغ مأربه ، اذ مات بعلة الزحار . والامر كذلك مع اخيه عمرو ، اذ قبض عليه اسماعيل الساماني و كبله و ارسله الى بغداد لكي يجري عليه الخليفة ماحكم به القضاء . و كذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر (١) الى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديثة .

وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين (٢) باسم المستنصر الذي كان خليفة الاسماعيلية في مصر .

---

(١) لم يأت البساسيري ـ ابو الحرث ـ من مصر على رأس جيش ، وانما كان قائد جند الاتراك في الجيش البويهي ، وقد استغل ضعف الملوك البويهيين وانقسامهم على انفسهم ، فاتصل بدعاة الدولة الفاطمية وعمل لحسابهم في محاولة القضاء على الخلافة العباسية واحلال الفاطمية محلها .

(٢) دامت الخطبة للفاطميين في بغداد سنة واحدة فقط من منتصف ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ .

وفي النهاية علم طغرلبك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله ، واخرج الخليفة من السجن واعاده الى بغداد ، واجلسه على عرش الخلافة . وكذلك قصد السلطان محمد السلجوقي بغـداد ، فعاد منهزما وهلك في الطريق ، وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصداً استئصال هذه الاسرة فابتلي في روابي (اسد آباد) بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه وهلك اكثر جنده وعاد خائباً خاسراً . ثم لاقى ما لاقى من جدك جنكيزخان في جزيرة (آبسكون) فليس من المصلحة ان يفكر الملك في قصد اسرة العباسيين . فاحذر عين السوء من الزمان الغادر .

رشيد الدين م ٢ ج ١ ص ٢٧٥ - ٢٧٧

مصادر البحث

أ ـ المخطوطات :ـ

١ ـ ابن الاثير : ـ عمادالدين اسماعيل بن تاج احمد بن شرف الدين سعيد بن محمد ت ٦٩٩ هـ

عبرة اولي الابصار في ملوك الامصار دار الكتب المصرية برقم (٤٤٣) تاريخ

٢ ـ الخزرجي : ـ جمال الدين ابو الحسن علي بن ظافر ت ٦١٣ هـ

اخبار الدول المنقطعة دار الكتب المصرية برقم (٨٩٠) تاريخ

٣ ـ الدبيثي : ـ ابوعبدالله جمال الدين محمد بن سعيد بن محمد الواسطي ت ٦٣٧ هـ

ذيل على ذيل تاريخ بغداد دار الكتب المصرية برقم ٣٩٥٠ تاريخ

٤ ـ الذهبي : ـ شمس الدين ابو عبدالله ت ٧٤٨ هـ

تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام دارالكتب المصرية برقم ٤٢ تاريخ

٥ ـ العيني : ـ ابو محمد محمود بدر الدين ت ٨٥٥ هـ

عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان دارالكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ

٦ ـ ابن الفرات : ـ محمد بن عبدالرحيم ت ٨٠٧ هـ

تاريخ الدول والملوك دارالكتب المصرية برقم ٣١٩٧ تاريخ

٧ ـ المقري الفيومي : ـ احمد بن علي ت ٧٧٠ هـ

نثر الجمان في تراجم الاعيان دارالكتب المصرية برقم ١٧٤٦ تاريخ

٨ ـ مجهول المؤلف من علماء القرن التاسع الهجري

انسان العيون في مشاهير سادس القرون دار الكتب ـ الخزانة التيمورية ٩١٩ تاريخ

ب ـ المصادر المطبوعة ـ الاصلية :ـ

ابن الاثير :ـ ابو الحسن علي ابن ابي الكرم محمد بن محمد ت ٦٣٠ هـ

٩ ـ الكامل في التاريخ ٩ مجلدات طبعة الاستقامة ـ القاهرة

١٠ ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية تحقيق عبدالقادر طليمات القاهرة ١٩٦٣م

ابن الاثير ـ ضياء الدين نصرالله ابن ابي الكرم محمد بن محمد ت ٦٣٧ هـ

١١ ـ رسائل ابن الاثير تحقيق انيس المقدسي ط بيروت

الاصبهاني :ـ ابو عبدالله عماد الدين محمد بن محمد ت ٥٩٧ هـ

١٢ ـ الفتح القسي في الفتح القدسي ط القاهرة ١٣٢٤ هـ

١٣ ـ خريدة القصر وجريدة اهل العصر ط بغداد ١٣٧٥ هـ

ابن ابي اصيبعة ـ موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم ت ٦٦٨ هـ

١٤ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء مجلدان ط القاهرة ١٢٩٩ هـ

ابن اياس :ـ محمد بن احمد ت ٩٣٠ هـ

١٥ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ثلاثة اجزاء ط القاهرة ١٣١٢ هـ

البغدادي :ـ موفق الدين عبداللطيف بن يوسف ت ٦٢٩ هـ

١٦ ـ الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر
ط القاهرة ١٢٦٨ هـ

البنداري :ـ ابو الفتح علي بن محمد . اختصر ت بعد سنة ٦٢٣ هـ

١٧ ـ دولة آل سلجوق للعماد الاصبهاني ط القاهرة ١٣١٨ هـ

البيروني :ـ ابوالريحان محمد بن احمد ت ٤٤٠ هـ

١٨ ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية تحقيق ساشو ط لايبزك ١٨٧٨ م

ابن الجوزي :ـ ابو الفرج عبدالرحمن ت ٥٩٧ هـ

١٩ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم . من الجزء الخامس حتى العاشر حيدر آباد ١٣٥٨ هـ

الجهشياري : ـ ابو عبدالله محمد بن عبدوس ت ٣٣١ هـ

٢٠ ـ الوزراء والكتاب ط القاهرة ١٣٥٧ هـ

جوانفيل : ـ جان سيردي مذكرات توفى بعد سنة ٦٦٨ هـ ـ ١٢٧٠ م

٢١ ـ القديس لويس (التاسع) ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشي ط القاهرة ١٩٦٨

ابن جبير : ـ محمد بن احمد ت ٦١٤ هـ

٢٢ ـ رحلة ابن جبير ط بغداد ١٩٣٧ م

الحسن بن عبدالله ت ٧٠٨ هـ

٢٣ ـ آثار الاول في ترتيب الدول ط ١٣٠٥ هـ

الحسيني : ـ صدر الدين ابو الحسن علي بن ناصر . الفه في الربع الاول من القرن السابع الهجري

٢٤ ـ اخبار الدولة السلجوقية تحقيق محمد اقبال ط لاهور ١٩٣٣ م

الحنبلي : ـ ابو الفلاح عبد الحي بن العماد ت ١٠٨٩ هـ

٢٥ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٨ اجزاء ط القاهرة ١٣٥١ هـ

الخطيب البغدادي : ـ ابو بكر احمد بن علي ت ٤٦٣ هـ

٢٦ ـ تاريخ بغداد ١٤ جزء ط القاهرة

ابن خلدون : ـ عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن ت ٨٠٨ هـ

٢٧ ـ المقدمة ط التقدم ـ القاهرة ١٣٢٢ هـ

٢٨ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ اجزاء ط بولاق ـ القاهرة ١٢٨٤ هـ

ابن خلكان : ـ شمس الدين ابو العباس احمد ت ٦٨١ هـ

٢٩ ـ وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ٦ اجزاء ط القاهرة ١٩٤٨ م

ابن دحية : ـ عمر ابن ابي علي حسن بن علي ت ٦٣٣ هـ

٣٠ ـ النبراس في تاريخ بني العباس ط بغداد ١٩٤٦ م

الدياربكري : ـ العلامة الشيخ حسين بن محمد بن الحسن ت ٩٩٦ هـ

٣١ ـ الخميس في احوال انفس نفيس جزءان ط القاهرة ١٢٨٣ هـ

الذهبي : ـ شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان ت ٧٤٦ هـ

٣٢ ـ دول الاسلام في التاريخ جزءان ط حيدر آباد ١٣٣٧ هـ

٣٣ ـ المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي ـ تحقيق مصطفى جواد ط بغداد ١٣٧١ هـ

٣٤ ـ العبر في خبر من غبر ـ تحقيق صلاح المنجد وفؤاد السيد ٣ اجزاء الكويت ١٩٦٠

الاربلي : ـ عبدالرحمن سنبط بن قنيتو

٣٥ ـ خلاصة الذهب المسبكوك ط القدس ١٨٨٥ م

الزركشي : ـ ابو عبدالله بن ابراهيم اللؤلؤي

٣٦ ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تونس ١٢٨٩ هـ

ابن الساعي : ـ علي بن انجب ت ٦٧٤ هـ

٣٧ ـ مختصر اخبار الخلفاء ط القاهرة ١٣٠٩ هـ

٣٨ ـ الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير الموجود منه الجزء التاسع فقط . حققه مصطفى جواد . ط بغداد ١٩٣٤

سبط بن الجوزي : ـ شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاغلي ت ٦٥٤ هـ

٣٩ ـ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان الجزء الثامن فقط حيدر آباد ١٣٧٠ هـ

ابن سعيد المغربي الاندلسي :ـ ت ٦٥٣ هـ
٤٠ ـ المغرب في حلى المغرب . تحقيق شوقي ضيف وآخرين القاهرة ١٩٥٣
ابن سرابيون (سهراب)
٤١ ـ عجائب الاقاليم السبعة . تحقيق هانزفون مزيك ط فينا ١٩٢٩ م
السلاوي :ـ احمد بن خالد الناصري
٤٢ ـ الاستقصاء في اخبار المغرب الاقصى ط القاهرة ١٣١٢ هـ
السيوطي :ـ جلال الدين عبدالرحمن ت ٩١١ هـ
٤٣ ـ تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ط القاهرة ١٣٠٥ هـ
٤٤ ـ حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ط القاهرة ١٣٢٧ هـ
ابن شاكر الكتبي :ـ فخر الدين محمد بن احمد ت ٧٦٤ هـ
٤٥ ـ فوات الوفيات جزءان تحقيق محمد محيي الدين ط القاهرة ١٩٥١ م
ابو شامة :ـ شهاب الدين ابو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل ت ٦٦٥ هـ
٤٦ ـ الروضتين في اخبار الدولتين جزءان ط القاهرة ١٢٨٧ هـ
٤٧ ـ ذيل الروضتين . تحقيق محمد زاهد الكوثري ط القاهرة ١٣٦٦ هـ
ابو شجاع :ـ ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراوري ت ٤٨٨ هـ
٤٨ ـ ذيل تجارب الامم ط القاهرة ١٣٢٤ هـ
ابن شداد :ـ بهاء الدين القاضي ت ٦٣٢ هـ
٤٩ ـ المحاسن اليوسفية ـ سيرة صلاح الدين ط القاهرة ١٣١٧ هـ
الصابي :ـ ابو الحسين هلال بن المحسن ت ٤٤٨ هـ
٥٠ ـ تحفة الامراء في تاريخ الوزراء تحقيق امدروز ط بيروت ١٩٠٨ م
ويشار عند استخدام الطبعة الاخرى . تحقيق عبدالستار احمد فراج
ط القاهرة ١٩٥٨ م

٥١ ـ اقسام ضائعة من تاريخ الوزراء جمعها ميخائيل عواد ط بغداد ١٩٤٨

٥٢ ـ رسوم دار الخلافة تحقيق كوركيس وميخائيل عواد ط بغداد ١٩٦٤

الصفدي : ـ صلاح الدين خليل بن ايبك ت ٧٦٤ هـ

٥٣ ـ الوافي بالوفيات ٣ اجزاء تحقيق جمعية المستشرقين الالمانية استانبول ١٩٣١

الصولي : ـ ابو بكر محمد بن يحيى ت ٣٣٥ هـ

٥٤ ـ اخبار الراضي والمتقي بالله تحقيق هيورث ط القاهرة ١٩٣٥

الطبري : ـ ابو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ

٥٥ ـ تاريخ الرسل والملوك ٨ اجزاء ط القاهرة ١٣٥٨

ابن طلحة : ـ ابو سالم محمد بن طلحة الوزير ت ٦٥٢ هـ

٥٦ ـ العقد الفريد للملك السعيد ط القاهرة ١٣٠٦ هـ

ابن الطقطقي : ـ محمد بن علي بن طباطبا الفه بعد سنة ٧٠٠هـ

٥٧ ـ الفخري في الآداب السلطانية ط غريفزولد ١٨٥٨ م

ابن العبري : ـ ابو الفرج ـ غريغورس بن هارون الملطي ت ٦٨٤ هـ

٥٨ ـ تاريخ مختصر الدول ط بيروت ١٨٩٠ م

ابن العديم : ـ كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد ت ٦٦٠ هـ

٥٩ ـ زبدة الحلب في تاريخ حلب . تحقيق سامي الدهان ط دمشق ١٩٥٤ م

ابن عذاري : ـ ابو محمد عبدالله ابن المراكشي عاش في اواخر القرن السابع الهجري

٦٠ ـ البيان المغرب في اخبار المغرب ٣ اجزاء تحقيق دوزي ط ليدن ١٨٤٨ م

ابن عنبة : ـ احمد بن علي بن الحسين ت ٨٢٨ هـ

٦١ ـ عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب ط بمباي ١٣١٨ هـ

ابوالفداء : ـ اسماعيل بن علي بن محمود الايوبي ـ صاحب حماة ت ٧٣٢ هـ

٦٢ ـ المختصر في اخبار البشر ٤ اجزاء القسطنطينية ١٢٨٦ هـ

ابن الفوطي : ـ عبدالرزاق بن احمد بن محمد ت ٧٢٣ هـ

٦٣ ـ الحوادث الجامعة تحقيق مصطفى جواد ط بغداد ١٣٥١ هـ

٦٤ ـ تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب . الجزء الرابع في ثلاث مجلدات تحقيق مصطفى جواد ط دمشق ٦٢ ـ ١٩٦٥

ابن الفارقي : ـ احمد بن يوسف بن الازرق ت ٥٩٠ هـ

٦٥ ـ تاريخ ابن الفارقي تحقيق بدوي عبد اللطيف ط القاهرة ١٩٥٩ م

ابن القلانسي : ـ ابو يعلي حمزة ابن اسد ت ٥٥٥ هـ

٦٦ ـ ذيل تاريخ دمشق تحقيق امدروز ط بيروت ١٩٠٨ م

ابن القفطي : ـ جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف ت ٦٤٦ هـ

٦٧ ـ اخبار العلماء باخبار الحكماء . تحقيق جوليوس ليبوت . ط لايبزك ١٩٠٣ م

القلقشندي : ـ احمد بن علي بن احمد ت ٨٢١ هـ

٦٨ ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا ١٤ جزء ط القاهرة ١٣٣٨ هـ

الكازروني : ـ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي ت ٦٩٧ هـ

٦٩ ـ مقامه في قواعد بغداد تحقيق كوركيس عواد ط بغداد ١٩٦٢ م

٧٠ ـ مختصر التاريخ تحقيق وفهرسة مصطفى جواد وسالم الآلوسي ط بغداد ١٩٧٠ م

ابن كثير : ـ عماد الدين اسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ

٧١ ـ البداية والنهاية في التاريخ ١٤ مجلد ط القاهرة ١٣٥٦ هـ

الماوردي : ـ ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب ت ٤٥٠ هـ

٧٢ ـ الاحكام السلطانية تحقيق مقس أنعر ط بُن ١٨٥٣ م

ابو المحاسن :ـ جمال الدين يوسف بن تغري بردي ت ٨٧٤ هـ

٧٣ ـ النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ١٢ جزء ط القاهرة ١٣٦١ هـ

المراكشي :ـ محيي الدين ابو محمد عبدالواحد بن علي التميمي توفي بعد سنة ٦٢١ هـ

٧٤ ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب تحقيق دوزي ط ليدن ١٨٨١ م

مسكويه :ـ احمد بن محمد بن يعقوب ت ٤٢١ هـ

٧٥ ـ تجارب الامم الجزءان الخامس والسادس ط القاهرة ١٢٣٤ هـ

المقريزي :ـ تقي الدين احمد بن علي ت ٨٤٥ هـ

٧٦ ـ السلوك في معرفة دول الملوك . تحقيق مصطفى زيادة ط القاهرة ١٩٣٤ م

ابن مماتي :ـ الاسعد بن المهذب ابن ابي المليح ت ٦٠٦ هـ

٧٧ ـ قوانين الدواوين تحقيق عزيز سوريال عطية ط القاهرة ١٩٤٣ م

المنذري :ـ زكي الدين ابو محمد عبدالعظيم بن عبد القوي ت ٦٥٦ هـ

٧٨ ـ التكملة لوفيات النقلة تحقيق بشار عواد ط النجف ٦٨ / ١٩٦٩ م

ابن ميسر :ـ محمد بن علي بن يوسف ت ٦٧٧ هـ

٧٩ ـ اخبار مصر تحقيق هنري ماسيه جزءان ط القاهرة ١٩١٩ م

ابن المماتي :ـ ابو عبدالله محمد ابن ابي المكارم ت ٦٤٢ هـ

٨٠ ـ الفتوة تحقيق مصطفى جواد وآخرين ط بغداد ١٩٦٠

ابن منقذ :ـ مؤيد الدولة ابو مظفر اسامة بن مرشد الشيزري ت ٥٨٤ هـ

٨١ ـ الاعتبار تحقيق فيليب حتى ط برنستون ١٩٣٠ م

النسوي :ـ محمد بن احمد شهاب الدين . انتهى من تأليفه بعد سنة ٦٣٩ هـ

٨٢ ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي تحقيق حافظ حمدي ط القاهرة ١٩٥٣ م

اليونيني : ـ قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد بن احمد ت ٧٢٦ هـ

٨٣ ـ ذيل مرآة الزمان ط حيدرآباد ١٣٧٤ هـ

ابن واصل : ـ جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ

٨٤ ـ مفرج الكروب تحقيق جمال الدين الشيال صدر منه ثلاثة اجزاء فقط طبع القاهرة ١٩٥٣ م

ياقوت : ـ شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي ت ٦٢٦ هـ

٨٥ ـ معجم الادباء تحقيق احمد فريد رفاعي ٢٠ مجلد ط القاهرة ١٣٥٧ هـ

٨٦ ـ معجم البلدان تحقيق ويستفيلد ٧ مجلدات ط لايبزك ١٨٦٦ م

اليافعي : ـ ابو عبدالله محمد بن أسعد بن علي بن سليمان ت ٧٦٨ هـ

٨٧ ـ مرآة الجنان ٤ اجزاء ط حيدرآباد ١٣٣٧ هـ

اليعقوبي : ـ احمد بن ابي يعقوب المعروف بابن واضح ت ٢٩٢ هـ

٨٨ ـ تاريخ اليعقوبي ٣ اجزاء ط النجف ١٣٥٨ هـ

اليماني : ـ تاج الدين عبدالباقي بن عبدالمجيد ت ٧٤٣ هـ

٨٩ ـ بهجة الزمن في تاريخ اليمن تحقيق مصطفى حجازي ط القاهرة ١٩٦٥ م

ابو يوسف : ـ يعقوب بن ابراهيم ـ القاضي ـ ت ١٩٢ هـ

٩٠ ـ الخراج ط القاهرة ١٣٠٢ هـ

مجهول المؤلف : ـ

٩١ ـ الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية تحقيق علوش ط الرباط ١٩٣٦م

ج – المراجع الفارسية :–

الجويني – : علاء الدين عطا ملك ت ٦٨١ هـ

٩٢ – جهانكشاي تحقيق محمد بن عبد الوهاب قزويني ثلاثة اجزاء ط ليدن ١٩١١م

الراوندي : – محمد بن علي بن سليمان انتهى من تأليفه في مطلع القرن السابع الهجري

٩٣ – راحة الصدور وآية السرور تعريب الشواربي وحسنين والصياد ط القاهرة ١٩٦٠ م

رشيد الدين : – فضل الله ابو الخير بن عماد الدولة ت ٧١٨ هـ

٩٤ – جامع التواريخ تعرتب نشأت وهنداوي والصياد وقد صدر منه مجلدان ط القاهرة ١٩٦٠ م

قزويني : – حمد الله ابن ابي بكر بن احمد بن نصر ت ٧٥٠ هـ

٩٥ – تاريخ كزيدة تحقيق براون ط لندن ١٩١٠ م

ناصري خسرو علوي : – انتهى من رحلته سنة ٤٤٤ هـ

٩٦ – سفرنامه تعريب يحيي الخشاب ط القاهرة ١٩٤٥ م

د – المراجع الحديثة :–

٩٧ – بارتولد : – الترك في آسيا الوسطى . ترجمة احمد السعيد سليمان ط القاهرة ١٩٥٨ م

٩٨ – براون : – ادور جرانفيل – تاريخ الادب في ايران وقد ترجم ابراهيم امين الشواربي الجزء الثاني منه الذي يشمل الفترة من الفردومي حتى السعدي ط القاهرة ١٩٥٤ م

٩٩ – حتي – فيليب وآخرين – تاريخ العرب المطول ط بيروت ١٩٥٠ م

١٠٠ ـ حسن ـ حسن ابراهيم ـ تاريخ الاسلام السياسي ٤ اجزاء
ط القاهرة ١٩٥٣ م

١٠١ ـ حسين ـ محمد كامل ـ طائفة الاسماعيلية ط القاهرة ١٩٥٩ م

١٠٢ ـ حسنين ـ عبدالنعيم محمد ـ سلاجقة ايران والعراق ط القاهرة ١٩٥٩ م

١٠٣ ـ حمدي ـ حافظ احمد ـ الدولة الخوارزمية والمغول ط القاهرة ١٩٤٩ م

١٠٤ ـ = = = الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي
ط القاهرة ١٩٥٠ م

١٠٥ ـ الدوري ـ عبدالعزيز دراسات في العصور العباسية المتأخرة
ط بغداد ١٩٤٥ م

١٠٦ ـ سرور ـ محمد جمال الدين ـ النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق
ط القاهرة ١٩٥٩ م

١٠٧ ـ = = = = ـ مصر في عصر الدولة الفاطمية
ط القاهرة ١٩٦٠ م

١٠٨ ـ سيد أمير علي ـ مختصر تاريخ العرب تعريب عفيف البعلبكي
ط بيروت ١٩٦١ م

١٠٩ ـ شرف ـ طه احمد ـ دولة النزارية ط القاهرة ١٩٥٠ م

١١٠ ـ ضيا ـ احمد تقويم المسكوكات الاسلامية بتركيا استانبول ١٣٢٨ م

١١١ ـ عاشور ـ سعيد عبدالفتاح مصر في عهد دولة المماليك البحرية
ط القاهرة ١٩٥٩ م

١١٢ ـ فريمان ـ جرنفيل ـ التقويمان الهجري والميلادي ترجمة الدكتور حسام محي الدين الآلوسي ط بغداد ١٩٧٠ م

١١٣ ـ عاشور ـ سعيد عبدالفتاح ـ الحركة الصليبية جزءان ط القاهرة ١٩٦٣

١١٤ ـ = = = = ـ العصر المماليكي في مصر والشام
ط القاهرة ١٩٦٥

١١٥ ـ عبدالباقي ـ محمد فؤاد . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
ط القاهرة ١٣٧٨ هـ

١١٦ ـ العريني ـ السيد الباز ـ مصر في عهد الايوبيين ط القاهرة ١٩٦٠ م

١١٧ ـ = = = = ـ الشرق الاوسط والحروب الصليبية
ط القاهرة ١٩٦٣ م

١١٨ ـ محمد ـ عبدالرحمن فهمي ـ موسوعة النقود العربية ـ
الجزء الاول فجر السكة العربية ط القاهرة ١٩٦٥ م

١١٩ ـ محمود ـ حسن احمد ـ قيام دولة المرابطين ط القاهرة ١٩٥٧ م

١٢٠ ـ محمود ـ حسن الباشا ـ الالقاب الاسلامية ط القاهرة

١٢١ ـ متز ـ ادم . الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري
تعريب عبدالهادي ابو ريدة ـ جزءان ط القاهرة ١٩٤٠ م

١٢٢ ـ لويس ـ برنارد . العرب في التاريخ . تعريب نبيه امين فارس
ط بيروت ١٩٥٤ م

١٢٣ ـ زامباور ـ معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي
تعريب زكي محمد حسن ، وحسن احمد محمود ط القاهرة ١٩٥١ م

هـ ـ المقالات العربية والمعربة :ـ

١٢٤ ـ بارتولد ـ جنكيزخان ترجمة دائرة المعارف الاسلامية م ٧

١٢٥ ـ تشنر ـ فرانز ـ الفتوة والخليفة الناصر . في كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين ج ١ جمع صلاح الدين المنجد ص ١٨٩ ـ ٢٠٤ ط القاهرة ١٩٥٥ م

١٢٦ ـ جواد ـ مصطفى ـ قبيلة جاوان الكردية المنسية . مجلة المجمع العلمي العراقي م ٤ ج ١ سنة ١٩٥٦ م

١٢٧ ـ زيترستين : امارة الامراء . ترجمة دائرة المعارف الاسلامية م ٢

١٢٨ ـ زيترستين : البويهيون . = = = = م ٤

١٢٩ ـ زيترستين : سنجر . = = = = م١٢

١٣٠ ـ مورغمان : جلال الدين منكبرتي = = = = م ٧

١٣١ ـ النقشبندي : ناصر :ـ الدينار الاسلامي . مجلة المجمع العلمي العراقي م ٤ ج ١ سنة ١٩٥٦ م

١٣٢ ـ هارتمان : البريد . ترجمة دائرة المعارف الاسلامية م ٣

١٣٣ ـ هيوار : الاسماعيلية . = = = = م ٢

١٣٤ ـ هيوار : الديوان = = = = م ٩

١٣٥ ـ هيوار : السلاجقة = = = = م١٢

المراجع الأجنبية :-

1 - Barthold . W :- *Turkestan Down To The Mongol Invason.*

2 - Brown : E . G . - *A . Literary History of Persia. 4 . Vols . Cambridge . 1902 - 1924 .*

وقد ترجم الجزء الثاني منه الى العربية بعنوان تاريخ الأدب في ايران من الفردوسي الى السعدي .

3 Combe : - *Repertoire Chronologique d'epigraphie Arabe .* طبع بالقاهرة باشراف معهد الدراسات الفرنسي .

4 - Dozy : *Supplement Dictionary Arabe monnaies*

5 - Lavoix . Henri : - *Catalogue des monnoies Musulmanes .*

طبع باريس ١٨٨٧ م .

6 - Le . strange : - *Baghdad during The Abbasid Caliphate.*

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية من قبل بشير فرنسيس وطبع ببغداد .

7 - Muir . W . *The Calipate, its Rise, decline, andits Foll .*

طبع ادنبره 1924

8 - Stanley : Lane - Poole : - *The Coins of The eastern Khaleefeh in The British Museum . 10 Vols .*

طبع لندن ١٨٧٥ .

9 - Teaschner . F . *Al - Nasir. Enc . isl .*

10 - Zettersteen . K . V . *Al - Mustarshid . Enc . isl .*

11 - = = *Al - Muktafi . Enc . isl .*

12 - = = *Al - Mustadi . Enc . isl .*

13 - = = *Al - Zohir . Enc . isl .*

14 - = = *Al - Mustansir . Enc . isl .*

15 - = = *Al - Mustasim . Enc . isl .*

فهرس الاعلام والشعوب

القبائل العربية :ـ

القبائل الكردية :ـ

فهرس اسماء الامكنة والبلدان

ملحق تقويمي لمطابقة السنوات الميلادية بما يقابلها من السنوات الهجرية التي وردت في سياق البحث .

لم يتيسر لنا خلال اعداد هـذا البحث ضبط التواريخ الهجرية والميلادية في وقت واحد بسبب ظروف البحث وما اقتضاه ذلك من العجالة الواجبة علينا .

وقد رأيت الآن وجوب إلحاق هذا الجدول المقارن ضمن ملاحق البحث متوخياً بذلك إتمام الفائدة المرجوة للقراء الذين قد يرغبون في الاعتماد على التاريخ الميلادي أولاً ، مستفيداً في اعداد هـذه المقارنة من الجهود الطيبة التي بذلها الدكتور حسام الآلوسي في ترجمته لكتاب : التقويمان الهجري والميلادي الذي ألفه فريمان ـ جرنفيل .

التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
١٤٥	٧٦٢	٢٥٠	٨٦٤
١٦٩	٧٨٥	٢٨٤	٨٩٧
١٧٦	٧٩٢	٣٠٦	٩١٨
١٩١	٨٠٦	٣١٥	٩٢٧
١٩٩	٨١٤	٣٢٤	٩٣٥
٢١٨	٨٣٣	٣٣٤	٩٤٥
٢٢٥	٨٣٩	٣٣٩	٩٥٠
٢٢٧	٨٤١	٣٤٥	٩٥٦
٢٣٢	٨٤٦	٣٤٨	٩٥٩
٢٣٥	٨٤٩	٣٤٩	٩٦٠
٢٤٧	٨٦١	٢٥١	٩٦٢

التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٣٥٢	٩٦٣
٣٥٥	٩٦٦
٣٦٤	٩٧٤
٣٨٩	٩٩٨
٣٩٣	١٠٠٢
٣٩٨	١٠٠٧
٤٢٢	١٠٣٠
٤٣٠	١٠٣٨
٤٥٠	١٠٥٨
٤٥٥	١٠٦٣
٤٦٤	١٠٧١
٤٧٩	١٠٨٦
٤٨٠	١٠٨٧
٤٨٢	١٠٨٩
٤٨٤	١٠٩١
٤٩٧	١١٠٣
٤٩٨	١١٠٤
٥٠٠	١١٠٦
٥٠٦	١١١٢
٥١١	١١١٧
٥١٢	١١١٨
٥١٣	١١١٩
٥١٥	١١٢١
٥١٦	١١٢٢
٥١٧	١١٢٣
٥١٨	١١٢٤
٥١٩	١١٢٥
٥٢٠	١١٢٦
٥٢١	١١٢٧
٥٢٢	١١٢٨
٥٢٥	١١٣٠
٥٢٦	١١٣١
٥٢٧	١١٣٢
٥٢٨	١١٣٣
٥٢٩	١١٣٤
٥٣٠	١١٣٥
٥٣٢	١١٣٧
٥٣٣	١١٣٨
٥٤١	١١٤٦
٥٤٢	١١٤٧
٥٤٣	١١٤٨
٥٤٤	١١٤٩
٥٤٤	١١٥١
٥٤٧	١١٥٢

التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٥٤٨	١١٥٣	٥٧٩	١١٨٣
٥٤٩	١١٥٤	٥٨٠	١١٨٤
٥٥٢	١١٥٧	٥٨١	١١٨٥
٥٥٣	١١٥٨	٥٨٢	١١٨٦
٥٥٥	١١٦٠	٥٨٣	١١٨٧
٥٥٦	١١٦١	٥٨٥	١١٨٩
٥٥٧	١١٦٢	٥٨٨	١١٩٢
٥٥٨	١١٦٣	٥٨٩	١١٩٣
٥٥٩	١١٦٤	٥٩٠	١١٩٣
٥٦٠	١١٦٥	٥٩٢	١١٩٥
٥٦١	١١٦٦	٥٩٤	١١٩٧
٥٦٣	١١٦٨	٥٩٦	١١٩٩
٥٦٦	١١٧٠	٥٩٨	١٢٠١
٥٦٨	١١٧٢	٥٩٩	١٢٠٢
٥٦٩	١١٧٣	٦٠٠	١٢٠٣
٥٧٠	١١٧٤	٦٠١	١٢٠٤
٥٧١	١١٧٥	٦٠٢	١٢٠٥
٥٧٢	١١٧٦	٦٠٣	١٢٠٦
٥٧٣	١١٧٧	٦٠٤	١٢٠٧
٥٧٤	١١٧٨	٦٠٥	١٢٠٨
٥٧٥	١١٨٩	٦٠٦	١٢٠٩
٥٧٨	١١٨٢	٦٠٨	١٢١٠

التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٦١٢	١٢١٥
٦١٦	١٢١٩
٦١٨	١٢٢١
٦٢١	١٢٢٤
٦٢٢	١٢٢٥
٦٢٣	١٢٢٦
٦٢٤	١٢٢٦
٦٢٥	١٢٢٧
٦٢٦	١٢٢٨
٦٢٧	١٢٢٩
٦٢٨	١٢٣٠
٦٣٠	١٢٣٢
٦٣١	١٢٣٣
٦٣٢	١٢٣٤
٦٣٣	١٢٣٥
٦٣٤	١٢٣٦
٦٣٥	١٢٣٧
٦٣٨	١٢٤٠
٦٤٠	١٢٤٢
٦٤١	١٢٤٣
٦٤٣	١٢٤٥
٦٤٤	١٢٤٦
٦٤٧	١٢٤٩
٦٤٨	١٢٥٠
٦٤٩	١٢٥١
٦٥١	١٢٥٣
٦٥٣	١٢٥٥
٦٥٤	١٢٥٦
٦٥٥	١٢٥٧
٦٥٦	١٢٥٨
٦٦٧	١٢٦٨

فهرس الموضوعات

جدول الخطأ والصواب

بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها المشرفون على الطبع لاخراج هذا البحث خالياً من الخطأ او التحريف ، إلا ان بعضها قد وقع فعلاً .

وفي هذا الجدول محاولة لتصحيح ما شذ . على انه ربما فاتنا بعضه مما لا يخفى على القارىء الكريم الذي نرجوه ان يقبل عذرنا في ذلك .

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٤	٢٠	طغم	طغج
٥٦	١٥	وتصرفت دار	وتصرفت في دار
٥٩	١٠	الغزو	الغز
٧٠	٠٩	العلامة	العلاقة
٩٣	٠٣	ابني	أبى
١٤٨	٠٣	في	عن
١٩٥	٠٤	يستندمك	يستذمك
٢١٣	٠٣	همران	همدان
٢٢٧	٠٧	الفتوى	الحق
٢٢٩	١٦	بن القمي	بن العلقمي
٢٣٣	٠٧	أيجه	خزر
٢٥٠	٠٨	بدود	بدرب
٢٥٥	٠٩	المملوك	المسلوك
٢٥٥	١٣	المستنصر	المستضيء
٢٥٩	١٥	ويسلحونهم	ويسلمونهم
٢٦٥	٠٥	شكواتها	شكواها
٢٨١	٠٩	حرباً	حرجاً
٢٨٣	٠٢	منهم	منهم يفر أمام
٢٨٩	٠٣	تبدعياً	تبديعاً
٢٩٧	١١	قوة	قسوة

نقود الخلافة العباسية

نماذج لمشاركة الأمراء المتغلبين لخلفائها في السلطان

١ — نموذج رقم (١) درهم الخليفة العباسي المتقي بالله . ضرب بمدينة السلام سنة ٣٣٠ هـ وقد كان امير الامراء سيف الدولة ابو الحسن الحمداني . محفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة برقم ٢ / ١٧٠٣٥ .

٢ — نموذج رقم (٢) درهم الخليفة العباسي المتقي بالله . ضرب سنة ٣٣٢ هـ « بدون دار ضرب » وعليه اسم الامير البويهي علي بن بويه ويبدو انه ضرب قبل دخول البويهيين بغداد . محفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة برقم ١١ / ١٧٠٢٦ .

٣ — نموذج رقم(٣) درهم الخليفة العباسي المستكفي بالله . ضرب بمدينة السلام سنة ٣٣٣ هـ وقد كان اميرالامراء المظفر ابو الوفاء توزون . محفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة برقم٤/١٧٠٣٥ .

٤ — نموذج رقم (٤) دينار الخليفة العباسي المطيع لله . ضرب بمدينة السلام سنة ٣٣٥ هـ وقد كان امير الامراء الاميرالبويهي معزالدولة ابو الحسين احمد بن بويه . محفوظة في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة برقم ٢ / ١٧٠٢٢ .

نقود الخلافة العباسية

نماذج لمشاركة الأمراء المتغلبين لخلفائهم في السلطان



نموذج رقم «١»

نموذج رقم «٢»

نموذج رقم «٣»

نموذج رقم «٤»

هذا البحث هو رسالة ماجستير نالت تقدير ممتاز من كلية الآداب / جامعة القاهرة . وكانت لجنة المناقشة مكونة من الاستاذ الدكتور حسن أحمد محمود استاذ التاريخ الاســـلامي في آداب القاهرة مشرفاً وعضوية الاستاذ الدكتور جمال الدين سرور رئيس قسم التاريخ في آداب القاهرة ، والمرحوم الاستاذ الدكتور جمال الدين الشيال عميد كلية الآداب/ جامعة الاسكندرية ورئيس قسم التاريخ فيها .

